أخبار المبرد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين .

أما بعد فقد قضيت شهوراً طوالا فى تحقيق الجزء الأول من كتاب الكامل ، وكان لابدّ أن أصدّر هذا الجزء بمقدمة أتحدث فيها عن شخصية المبرّد مؤلف الكتاب ، فكنت أتصيّد الفرص للتعرّف إلى روح ذلك المؤلف العظيم ، ولكن الحظ لم يكن يسعفنى بما أريد .

ثم اتفق أن تفضلت وزارة المعارف العراقية فدعتنى لتدريس الأدب العربىّ فى دار المعلمين العالية فى بغداد ، المدينة التاريخية التى تعلم فيها المبرد ، فأحسست وأنا أتأهب للسفر إلى وطن ذلك المؤلف أن صورته اقتربت منى كل الاقتراب ، وما هى إلا ليال راجعت فيها ما كتبه عنه السيوطى وياقوت ، حتى رأيتنى قادراً على تقديم أخباره إلى القراء فى صورة تشوق الناظرين .

*

ولد أبو العباس المبرد ـ محمد بن يزيد ـ بالبصرة يوم الأثنين غداة عيد الأضحى سنة عشر ومائتين ، وكان فى صباه رائع الجمال[1] ، ثم رحل إلى بغداد فأخذ عن أبى عمر الجرمى وأبى عثمان المازنى وأبى حاتم السجستانى . وما زالت همته تسمو به حتى صار إمام العربية فى بغداد .

وكان مع شهرته باللغة والنحو والتصريف شاعراً أديبا ، على نُدْرَةِ مايتفق ذلك للنحاة واللغويين .

حكى جعفر بن محمد قال : قلت لأبى عبد الله الدينورى : لم يأبَى ثعلب الاجتماع بالمبرد؟ فقال لأن المبرد حَسَنُ العبارة، حُلْوُ الإشارة، فصيح اللسان، ظاهر البيان ، وثعلب مَذْهَبُهُ مذهبُ المعلمين ، فإذا اجتمعا فى مَحفل حُكِم للمبرّد على الظاهر إلى أن يُعرَف بالباطن[2]

وقد حفظتْ للمبرد أشعار منها هذه الأبيات :

حَبَّــذَا مَاءُ الْعَنَاقِيــدِ بِرِيقِ الْغَانِيَاتِ
بِهِمَا يَنْبُتُ لَحْمِي وَدَمِي أَيَّ نَبَاتِ
أَيُّهَا الطَّالِبُ شَيْئًا مِنْ لَذِيذِ الشَّهَوَاتِ
كُلْ بِمَاءِ الْمُزْنِ تُفَّا حَ خُدُودِ الْغَانِيَاتِ

وقد أُثر عن مجالسه كثير من طريف الأحاديث . حدث محمد بن عبد الله الكاتب قال : كنت يوما عند المبرّد فأنشدنا :

---

(١) انظر بغية الوعاة ص ١١٦ وزهر الآداب ج ٣ ص ١٤٦ (٢) ياقوت ج ٧ ص ١٤١

جِسْمِي مَعِي غَيْرَ أَنَّ الرُّوحَ عِنْدَكُمُ ... فَالْجِسْمُ فِى غُرْبَةٍ وَالرُّوحُ فِى وَطَنِ
فَلْيَعْجَبِ النَّاسُ مِنِّى أَنَّ لِى بَدَنًا ... لَا رُوحَ فِيهِ وَلِى رُوحٌ بِلَا بَدَنِ

ثم قال : ما أظن أن الشعراء قالوا أحسن من هذا ، قلت : ولا قول الأخرق ؟ قال : هيه ! قلت الذى يقول :

فَارَقْتُكُمْ وَحَيِيتُ بَعْدَكُمُ ... مَا هٰكَذَا كَانَ الَّذِى يَجِبُ
فَالْآنَ أَلْقَى النَّاسَ مُعْتَذِرًا ... مِنْ أَنْ أَعِيشَ وَأَنْتُمُ غُيُبُ

قال : ولا هذا . قلت ولا قول خالد الكاتب :

رُوحَانِ لِى رُوحٌ تَضَمَّنَهَا ... بَلَدٌ وَأُخْرَى حَازَهَا بَلَدُ
وَأَظُنُّ غَائِبَتِى كَشَاهِدَتِى ... بِمَكَانِهَا تَجِدُ الَّذِى أَجِدُ

قال : ولا هذا . قلت : أنت إذا هويت شيئا ملت إليه ، ولم تعدل إلى غيره ، قال : لا ، ولكنه الحق ، فأتيت ثعلبا فأخبرته ، فقال ثعلب : ألا أنشدته :

غَابُوا فَصَارَ الْجِسْمُ مِنْ بَعْدِهِمْ ... مَا تَنْظُرُ الْعَيْنُ لَهُ فَيَّا
بِأَىِّ وَجْهٍ أَتَلَقَّاهُمُ ... إِذَا رَأَوْنِى بَعْدَهُمْ حَيَّا
يَا خَجْلَتِى مِنْهُمْ وَمِنْ قَوْلِهِمْ ... مَا ضَرَّكَ الْفَقْدُ لَنَا شَيَّا

قال : وأتيت إبراهيم الحربى فأخبرته فقال ألا أنشدته :

يَا حيائى مِمَّنْ أُحِبُّ إِذَا مَا ... قُلْتُ بَعْدَ الْفِرَاقِ إِنِّى حَيِيتُ
لَوْ صَدَقْتُ الْهَوَى حَبِيبًا عَلَى الصِّحَّةِ ... لَمَّا نَأَى لَكُنْتُ أَمُوتُ

قال فرجعت إلى المبرد فقال : أستغفر الله ! إلا هذين البيتين ! يعنى بيتى إبراهيم[1] ، وحدث الرواة أن المبرد كان يستجيد هذين البيتين :

---

(١) ياقوت ج ١ ص ٤٢ — ٤٣

وَلِى كَبِدٌ مَقْرُوحَةٌ مَنْ يَبِيعُنِى   بِهَا كَبِدًا لَيْسَتْ بِذَاتِ قُرُوحِ
أَبَاهَا عَلَىَّ النَّاسُ لاَ يَشْتَرُونَهَا   وَمَنْ يَشْتَرِى ذَا عِلَّةٍ بِصَحِيحِ

قال صاحب البدائع : وسأقضى بقية عمرى فى التغنى بهذين البيتين !

وحدث المبرد قال : لما وصل المأمون إلى بغداد، قال ليحيى بن أكثم : وددت لو أنى وجدت رجلا مثل الأصمعى ممن عرف أخبار العرب وأيامها وأشعارها ، فيصحبنى كما صحب الأصمعى الرشيد ! فقال له يحيى : ههنا شيخ يعرف هذه الأخبار يقال له عتاب بن ورقاء من بنى شيبان، قال: فابعث لنا فيه، فحضر ، فقال له يحيى: إن أمير المؤمنين يرغب فى حضورك مجلسه ومحادثته ، فقال : أنا شيخ كبير ، ولا طاقة لى ، لأنه ذهب منى الأطيبان ، فقال له المأمون : لا بدّ من ذلك ! فقال الشيخ : فاسمع ماحضرنى ، وقال اقتضابا :

أَبَعْدَ سِتِّينَ أَصْبُو   وَالشَّيْبُ لِلْمَرْءِ حَرْبُ
شَيْبٌ وَسِنٌّ وَإِثْمٌ   أَمْرٌ لَعَمْرُكَ صَعْبُ
يَا ابْنَ الْإِمَامِ فَهَلاَّ   أَيَّامَ عُودِىَ رَطْبُ
وَإِذْ مَشِيبِى قَلِيلٌ   وَمَنْهَلُ الْعَيْشِ عَذْبُ
فَالآنَ لَمَّا رَأَى بِى   عَوَاذِلِى مَا أَحَبُّوا
آلَيْتُ أَشْرَبُ رَاحًا   مَا حَجَّ لِلَّهِ رَكْبُ

فقال المأمون: ينبغى أن تكتب هذه الأبيات بالذهب ، وأعفى الشيخ وأمر له بجائزة(1) .

---

(1) ياقوت ص ١٤ ج ٥

و رواية هذا الحديث تشهد بما كان عند المبرد من أدب النفس .

ومن الشواهد على إحساس المبرد بمعانى الأدب والحياة ، ما حدّث به فقال : قال لى المازنى بلغنى أنك تنصرف من مجلسنا فتصير إلى مواضع المجانين والمعالجين ، فما معنى ذلك ؟ فقلت : أعزك الله تعالى إن لهم طرائف من الكلام ، قال : فأخبرنى بأعجب مارأيت من المجانين ، [قال] فقلت: صرت يوما إليهم ، فمررت على شيخ منهم وهو جالس على حصير قصب ، فجاوزته إلى غيره ، فقال : سبحان الله ! أين السلام ؟ مَنِ المجنون ؟ أنا أو أنت ؟ فاستحييت منه ، وقلت : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ! فقال : لو كنت ابتدأت لأوجبت علينا حسن الرد ، على أنا نصرف سوء أدبك إلى أحسن جهاته من العذر ، لأنه كان يقال إن للداخل على القوم دَهْشَةً ، اجلس أعزك الله تعالى عندنا ! وأومأ إلى موضع من الحصير ، فجلست إلى ناحية منه أسترعى مخاطبته ، فقال لى وقد رأى محبرتى : أرى معك آلة رجلين أرجو أن لا تكون أحدهما أصحاب الحديث الأغثاث ، أو الأدباء أصحاب النحو والشعر ! قلت : الأدباء ! قال : أتعرف أبا عثمان المازنى ؟ قلت : نعم ! قال : أتعرف الذى يقول فيه

وَفَتًى مِنْ مَازِنٍ ... أُسْتَاذِ أَهْلِ الْبَصْرَهْ
أُمُّــــهُ مَعْرِفَةٌ ... وَأَبُوهُ نَكِرَهْ

فقلت : لا أعرفه ! فقال : أتعرف غلامًا له قد نبَغَ فى هذا العصر معه ، له ذهنٌ وحفظٌ وقد برّز فى النحو يعرف بالمبرد ؟ فقلت : أنا والله الخبير به ! قال فهل

أنشدك شيئا من شعره ؟ قلت: لاأحسبه يحسن قول الشعر ! فقال: ياسبحان الله ! أليس هو القائل :

حَبَّذَا مَاءُ الْعَنَاقِيـــدِ بِرِيقِ الغَانِيَاتِ
بِهِمَا يَنْبُتُ لَحمِي وَدَمِى أَىَّ نَبَاتِ
أيُّهَا الطَّالِبُ شَيْئًا مِنْ لَذِيذِ الشَّهَوَاتِ
كُلْ بِمَاءِ المُزْنِ تُفَّا حَ خُدُودِ الْغَانِيَاتِ

قلت سمعته ينشد هذا فى مجلس أنس ! فقال ياسبحان الله ! ألا تستحى أن ينْشَدَ مِثْلُ هذا حَوْلَ الكعبة ! إلى آخر الحديث[1] .

فهذه القصة تبين بعض خصائص المبرد فى فهم العقليات الأدبيه وتفصح عن رأيه فى أهل الحديث !

ومما يدل على التفات المبرد إلى الأدب ماحدث به فقال : سمعت المازنى يقول : قرأ الرياشى علىّ كتاب سيبويه ، فاستفدت منه أكثر مما استفاد منى . يعنى أنه أفاده لغته وشعره وأفاده هو النحو[2] .

---

(١) ارجع إليه ص ١٤١ ج ٧ ياقوت (٢) ص ٢٨٥ ج ٤

❁

وشهرة المبرد باللغة أضافت إليه طائفة من النوادر ، فقد حدثوا أنه ورد الدينور زائراً لعيسى بن ماهان ، فأول ما دخل عليـه وقضى سلامه قال له عيسى : أيها الشيخ ! ما الشاة المجثمة التى نهى النبى صلى الله عليهِ وسلم عن أكل لحمها ؟ فقال : هى الشاة القليلة اللبن مثل اللجبة، فقال : هل من شاهد؟ فقال : نعم قول الراجز :

لَمْ يَبْقَ مِنْ آلِ الْحُمَيْدِ نَسَمَهْ إلاَّ عُنَيْزٌ لَجِبَـــــــةٌ مُجَثَّمَهْ

فاذا بالحاجب يستأذن لأبى حنيفة الدينورى ، فلما دخل قال له : أيها الشيخ ! ما الشاة المجثمة التى نهينا عن أكل لحمها ؟ فقال : هى التى جثمت على ركبها وذبحت من خلف قفاها . فقال : كيف تقول وهـذا شيخ العراق ـ يعنى المبرد ـ يقول هى مثل اللجبة وهى القليلة اللبن ، وأنشده البيت ، فقال الدينورى : أَيْمَانُ البيعة تلزم أبا حنيفة إن كان هذا التفسير سمعه هذا الشيخ أوقرأه ، وإن كان البيت إلا لساعته هذه! فقال المبرد : صدق الشيخ أبو حنيفة! فإنى أنِفْت أنْ أرد عليك من العراق ، وذِكرى ما قد شاع فأول ما تسألنى عنه لا أعرفه (1) ! !

ونظير هذا ما حدّث المفجع البصرى قال : كان المبرد لـكثرة حفظه للغة وغريبها يُتّهم بالوضع فيها ، فتواضعنا على مسألة نسأله عنها لا أصل لهـا لننظر ماذا يجيب ، وكنا قبل ذلك تمارينا فى عروض بيت الشاعر :

---

(1) ياقوت ج ١ ص ١٢٦

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبْقِ بَعْضَنَا حَنَانَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

فقال البعض: هو من البحر الفلانى، وقال آخرون: هو من البحر الفلانى، وتردد على أفواهنا من تقطيعه «ق بعضا» ثم ذهبنا إلى المبرد فقلنا له: أيدك الله تعالى، ما القِبَعْضُ عند العرب؟ فقال: هو القطن، وفى ذلك يقول الشاعر:

☼ كَأَنَّ سِنَامَهَا حُشِيَ القِبَعْضَا ☼

قال فقلت لأصحابى: ترون الجواب والشاهد، فإن كان صحيحا فهو عجب وإن كان مُخْتَلَقًا على البديهة فهو أعجب (1) !!

☼☼☼

والظاهر أن الخصومة بينه وبين ثعلب كان لها دَخْلٌ فى افتعال مثل هذه الأقاويل، وهى خصومة لم تكن بين شخصين، وانما كانت بين فرقتين فرقة البصريين وفرقة الكوفيين.

ومن شواهد هذه الخصومة ماحدث العجوزى قال: صرت إلى المبرد مع القاسم والحسن ابنى عبيد الله بن سليمان بن وهب، فقال لى القاسم: سَلْهُ عن شىء من الشعر، فقلت ما تقول أعزك الله فى قول أوس:

وَغَيَّرَهَا عَنْ وَصْلِهَا الشَّيْبُ إِنَّهُ شَفِيعٌ إِلَى بِيضِ الخُدُورِ مُدَرَّبُ

فقال بعد تمكث وتمهل وتمطق: يريد أن النساء أنسن به فصرن لا يستترن منه. ثم صرنا إلى أبى العباس ثعلب، فلما غص المجلس سألته عن البيت،

(1) ص ١٣٨ ج ٧ ياقوت.

فقال قال لنا ابن الأعرابى إن الهاء فى « إنه » للشباب ، وإن لم يجر له ذكر لأنه عُلِم . والتفتّ إلى الحسن والقاسم وقلت أين صاحبنا من صاحبكم[1] !

وحدّث على بن سليمان الأخفش قال : كنت يوما بحضرة ثعلب فأسرعت القيام قبل انقضاء المجلس فقال : إلى أين ؟ ما أراك تصبر عن مجلس الخلدى ! يعنى المبرد ، فقلت له : لى حاجة ! فقال لى : إنى أراه يقدم البحترى على أبى تمام ، فاذا أتيته فقل له ما معنى قول أبى تمام :

أآلِفَةَ النَّحِيبِ كَمِ افْتِرَاقٍ　　أظَلَّ فَكَانَ دَاعِيَةَ اجْتِمَاعِ

فقال أبو الحسن فلما صرت إلى أبى العباس المبرد سألته عنه فقال : معنى هذا أن المتحابين العاشقين قد يتصارمان ويتهاجران إدْلالاً لاعَزْمًا على القطيعة ، فاذا حان الرحيل وأحسّا بالفراق تراجعا إلى الودّ ، وتلاقيا خوف الفراق ، وأن يطول العهد بالالتقاء بعده ، فيكون الفراق حينئذ سببا للاجتماع ، كما قال الآخر :

مُتِّمَا بِالْفِرَاقِ يَوْمَ الْفِرَاقِ　　مُسْتَجِيرَيْنِ بِالْبُكَا وَالْعِنَاقِ
كَمْ أَسَرَّا هَوَاهُمَا حَذَرَ النَّا　　سِ وَكَمْ كَاتَمَا غَلِيلَ اشْتِيَاقِ
فَأَظَلَّ الْفِرَاقُ فَالْتَقَيَا فِيــهِ فِرَاقًا أَتَاهُمَا بِاتِّفَاقِ
كَيْفَ أَدْعُو عَلَى الْفِرَاقِ بِحَتْفٍ　　وَغَدَاةَ الْفِرَاقِ كَانَ التَّلَاقِى

قال فلما عدت إلى ثعلب سألنى عنـــه ، فأعدت عليه الجواب والأبيات فقال : ما أشدّ تمويهه ! ماصنع شيئا ، إنما معنى البيت أن الانسان قد

(١) ياقوت ج ٢ ص ١٣٨

يفارق محبوبه رجاء أن يغنم فى سفره فيعود إلى محبوبه مستغنيا عن التصرف فيطول اجتماعه معه ، ألا تراه يقول فى البيت الثانى :

وَلَيْسَتْ فَرْحَةُ الْأَوْبَاتِ إِلَّا ... لِمَوْقُوفٍ عَلَى تَرَحِ الْوَدَاعِ

وهذا نظير قول الآخر ، بل منه أخذ أبو تمام :

وَأَطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرَبُوا ... وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا(١)

والخصومة بين المبرد وثعلب كانت عنيفة جدا ، حدث الخطيب قال : كان بين المبرد وثعلب منافرات كثيرة ، والناس مختلفون فى تفضيل كل واحد منهما على صاحبه ، قال : وجاء رجل إلى ثعلب فقال له : يا أبا العباس ، قد هجاك المبرد ، فقال بماذا ؟ فأنشده :

أُقْسِمُ بِالْمُبْتَسِمِ الْعَذْبِ ... وَمُشْتَكَى الصَّبِّ إِلَى الصَّبِّ
لَوْ أَخَذَ النَّحْوَ عَنِ الرَّبِّ ... مَا زَادَهُ إِلَّا عَمَى الْقَلْبِ

فقال أنشدنى مَن أنشده أبو عمرو بن العلاء :

يَشْتِمُنِي عَبْدُ بَنِي مِسْمَعٍ ... فَصُنْتُ عَنْهُ النَّفْسَ وَالْعِرْضَا
وَلَمْ أُجِبْهُ لِاحْتِقَارِي لَهُ ... مَنْ ذَا يَعَضُّ الْكَلْبَ إِنْ عَضَّا(٢)

وبلغ المبرد أن ثعلبا يهجوه فقال :

رُبَّ مَنْ يَعْنِيهِ حَالِي ... وَهْوَ لَا يَجْرِي بِبَالِي
قَلْبُهُ مَلْآنُ مِنِّي ... وَفُؤَادِي مِنْهُ خَالِي(٣)

وتعصّب أحمد بن عبد السلام للمبرد فقال يفضله على ثعلب :

---

(١) ياقوت ج ٢ ص ١٤٧ ، ١٤٨ (٢) ياقوت ج ٢ ص ١٤٩
(٣) ج ٧ ص ١٤٣

رَأيتُ مُحَمَّدَ بْنَ يَزِيدَ يَسْمُو ... إِلَى الْخَيْرَاتِ فى جَاهٍ وَقَدْرِ
جَلِيسُ خَلاَئِفٍ وَغَذِىُّ مُلْكٍ ... وَأَعْلَمُ مَنْ رَأَيْتُ بِكُلِّ أَمْرِ
وَفِتْيَانِيَّةُ الظُّرَفَاءِ فِيهِ ... وَأُبَّهَةُ الْكَبِيرِ بِغَيْرِ كِبْرِ
فَيَنْثُرُ إِنْ أَجَالَ الْفِكْرَ دُرًّا ... وَيَنْثُرُ لُؤْلُؤًا مِنْ غَيْرِ فِكْرِ
وَكَانَ الشِّعْرُ قَدْ أَوْدَى فَأَحْيَا ... أَبُو الْعَبَّاسِ دَاثِرَ كُلِّ شِعْرِ
وَقَالُوا ثَعْلَبٌ رَجُلٌ عَلِيمٌ ... وَأَيْنَ النَّجْمُ مِنْ شَمْسٍ وَبَدْرِ
وَقَالُوا ثَعْلَبٌ يُفْتِي وَيُمْلِي ... وَأَيْنَ الثَّعْلَبَانُ مِنَ الْهِزَبْرِ

وما زالت الخصومة تشتد بين هذين الرجلين حتى ضُربتْ بها الأمثال فقال بعض الشعراء :

كَفَى حَزَنًا أَنَّا جَمِيعًا بِبَلْدَةٍ ... وَيَجْمَعُنَا فى أَرْضِهَا شَرُّ مَشْهَدِ
وَكُلٌّ لِكُلٍّ مُخْلِصُ الْوُدِّ وَامِقٌ ... وَلٰكِنَّهُ فى جَانِبٍ عَنْهُ مُفْرَدِ
نَرُوحُ وَنَغْدُو لاَ تَزَاوُرَ بَيْنَنَا ... وَلَيْسَ بِمَضْرُوبٍ لَنَا يَوْمُ مَوْعِدِ
فَأَبْدَانُنَا فى بَلْدَةٍ وَالْتِقَاؤُنَا ... عَسِيرٌ كَلُقْيَا ثَعْلَبٍ وَالْمُبَرِّدِ

ومع ذلك كان مفهوما أنهما من الآيات فى الأدب والبيان، فقال بعض الشعراء :

أَيَا طَالِبَ الْعِلْمِ لاَ تَجْهَلَنْ ... وَعُذْ بِالْمُبَرِّدِ أَوْ ثَعْلَبِ
تَجِدْ عِنْدَ هٰذَيْنِ عِلْمَ الْوَرَى ... فَلاَ تَكُ كَالْجَمَلِ الْأَجْرَبِ
عُلُومُ الْخَلاَئِقِ مَقْرُونَةٌ ... بِهٰذَيْنِ فى الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ

ولما مات المبرد قال ابن العلاف :

ذَهَبَ المُبَرِّدُ وانْقَضَتْ أيّامُــهُ وليَذْهَبَنْ إثْرَ المُبَرِّدِ ثَعْلَبُ
بَيْتٌ مِنَ الآدابِ أصْبَحَ نِصْفُهُ خَرِباً وباقِي نِصْفِهِ سيُخْرَبُ
فابْكُوا لِما سَلَبَ الزَّمانُ ووَطِّنُوا لِلدَّهْرِ أنْفُسَكُمْ عَلَى ما يَسْلُبُ
وتَزَوَّدُوا مِنْ ثَعْلَبٍ فَبِكَأسِ ما شَرِبَ المُبَرِّدُ عَنْ قَرِيبٍ يَشْرَبُ
أُوصِيكُمُ أنْ تَكْتُبُوا أنْفاسَهُ إنْ كانَتِ الأنْفاسُ مِمّا يُكْتَبُ

❁

هذا وقد كان فى النية أن نستقصى أخبار المبرد، ونتحدث بالتفصيل عن أخباره اللغوية والأدبية ومنزلة « الكامل » بين كتب الآداب ، ولكن المكان المخصص لهذه المقدمة ضاق عن المراد ، فلم يبق إلا أن نقول كلمة قصيرة عن شرح الجزء الأول .

تلقينا شرح كتاب الكامل عن أستاذنا وصاحب الفضل علينا سيد بن على المرصفى ، وهو أفضل رجل عرفناه فى الأزهر الشريف ، وقد سمعنا عنه شرح الكامل مرتين ، مرة فى دروسه التى واظبنا عليها سبع سنين ، ومرة عند طبع (رغبة الآمل من كتاب الكامل) وكنا نعاونه على التصحيح .

وقد اعتمدنا على شرحه كل الاعتماد ، فليس لنا من فضل إلا اختصار ما فى شرحه المطوّل ، ولم يتفق لنا الابتكار إلا فى مواطن قليلة جدّا ، فان رآنا القارئ نصحح بعض أغلاط الشيخ المرصفى رحمه الله فليذكر أننا لم نصل إلى مؤاخذته إلا بفضل ما أخذنا عنه من أصول اللغة والبيان .

وكنت أحب أن أتحدث هنا عن الشيخ المرصفى ، ولكنى فصلت أخباره فى الطبعة الثانية من كتاب البدائع ، ومثلى يكره الحديث المعاد .

أيها القارئ !

أقدم إليك الجزء الأول من الكامل ، راجيا أن تذكرنى بالخير حين تشهد ما تمتاز به هذه الطبعة من الرونق والرواء .

محمد زكى عبد السلام مبارك

المفتش فى وزارة المعارف

مصر الجديدة فى ٩ شعبان سنة ١٣٥٦
١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٧

الكامل

فى اللغة والأدب والنحو والتصريف

تأليف

الإمام أبى العباس المبرد

بتحقيق

الدكتور زكى مبارك

الطبعة الأولى

١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م / ٧٢٦

مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

حدثنا أبو بكر[١] محمد بن عمر بن عبد العزيز قال حدثنا أبو عثمان سعيد بن جابر[٢] قال حدثنا أبو الحسن عليّ بن سليمان الأخفش[٣] قراءةً عليه قال قرئ لى هذا الكتاب على أبى العباس محمد بن يزيد المُبَرِّدِ :

الحمد لله حمدًا كثيرًا يَبْلُغُ رضاه ، ويوجب مَزيده ، ويُجِيرُ من سَخَطِهِ ، وصلى الله على محمد خاتَمِ النبيين ، ورسول رب العالمين ، صلاة تامة زاكية ، تُؤَدِّى حقه ، وتُزْلِفُه عند ربه[٤] .

قال أبو العباس : هذا كتاب أَلَّفناه يجمع ضروبا من الآداب ، ما بين كلام منثور ، وشِعْرٍ مَرْصوف[٥] ، ومَثَلٍ سائر ، وموعظة بالغة ، واختيار من خُطبة شريفة ، ورسالة بليغة .

والنِّيَّةُ أن نُفَسِّرَ كل ما وقع فى هذا الكتاب من كلام غريب ، أو معنى

---

(١) هو ابن القوطية الأندلسى المتوفى سنة ٣٦٧ . (٢) توفى سنة ٣٢٧ .

(٣) هو الأخفش الأصغر المتوفى سنة ٣١٥ ، أما الأخفش الأكبر فهو عبد الحميد بن عبد المجيد أحد أساتذة سيبويه ، وأول من فسر الشعر بيتاً بيتاً ، وكان الناس من قبله يسوقون القصيدة ثم يفسرونها بعد ذلك ، كما فى بغية الوعاة ، وأما الأخفش الأوسط ، فهو سعيد بن مسعدة أحد تلامذة سيبويه .

(٤) تزلفه : تقربه . (٥) مرصوف : وصل بعضه ببعض كما ترصف الحجارة .

مُسْتَغْلِقٍ ، وأن نشرح ما يَعْرِضُ فيه من الإِعْراب شرحا شافياً ، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفياً ، وعن أن يُرْجَعَ إلى أحد فى تفسيره مستغنياً ، وبالله التوفيق والحول والقوة ، وإليه مَفْزَعُنا فى دَرْكِ كل طَلِبَةٍ[1] والتوفيق لما فيه صلاح أمورنا مِنْ عَمَلٍ بطاعته ، وعَقْدٍ يرضاه[2] ، وقولٍ صادقٍ يرفعه عملٌ صالح ، إنه على كل شىء قدير .

*

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار فى كلام جرَى :
« إنكم لتَكْثُرُونَ عِنْدَ الفَزَعِ ، وتَقِلُّونَ عِنْدَ الطَّمَعِ » .

الفزع فى كلام العرب على وجهين : أحدهما ما تستعمله العامة تريد به الذُّعْرَ ، والآخر الاستنجاد والاستصراخ[3] ، من ذلك قول سَلَامَة بن جَنْدَلٍ :

كُنَّا إذا ما أَتانا صارِخٌ فَزِعٌ ... كانَ الصُّرَاخُ لَهُ قَرْعَ الظَّنَابِيبِ[4]

يقول : إذا أتانا مُسْتَغِيثٌ كانت إغاثته الجِدَّ فى نُصرته ، يقال قَرَعَ لذلك الأمر ظُنْبُوبَه إذا جدَّ فيه ولم يَفْتُرْ ، ويُشْتَقُّ من هذا المعنى أن يقع « فَزِعَ » فى معنى أغاث ، كما قال الكَلْحَبَةُ اليَرْبوعى :

(قال أبو الحسن : الكلحبة[5] لقبه ، واسمه هُبَيْرَةُ ، وهو من بنى عَرِينٍ

---

(١) المفزع : الملجأ ، والطلبة الغرض المطلوب . (٢) وعقد يرضاه : العقد الضمير ، وقرأ الشيخ المرصفى : وعقد برضاه ، والمعنى عنده : ضمير معقود برضاه . (٣) الاستصراخ : طلب الاغاثة . (٤) قصيدة سلامة بن جندل هى إحدى المفضليات ، والمطلع :

أودى الشباب حميداً ذو التعاجيب ... أودى وذلك شأو غير مطلوب

(٥) الكلحبة فى الأصل : صوت النار .

ابن يَرْبوع ، والنسب إليه عَرِنِيّ ، وكثير من الناس يقول عُرَنِىّ ، ولا يدْرِى(١) ، وعُرَيْنَةُ من اليَمَنِ . قال جرير يهجو عَرِين بن يربوع :

عَرِينٌ من عُرَيْنَةَ لَيْسَ مِنَّا ... بَرِئْتُ إلى عُرَيْنَةَ مِنْ عَرِينِ(٢)

فَقُلْتُ لِكَأْسٍ أَلْجِمِيهَا فَإِنَّمَا ... حَلَلْتُ الكَثِيبَ من زَرُودَ لِأَفْزَعا

يقول لأغيث ، وكَأْسٌ اسم جارية ، وإنما أمرها بإلجام فرسه ليغيث ، والظُّنْبُوب مُقدَّمُ عَظْم الساق .

⁂

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أُخْبِرُكُمْ بأحَبِّكُمْ إلىّ وأقْرَبِكُمْ مِنِّى مجالِسَ يَوْمَ القِيامَةِ ؟ أحاسِنُكُمْ أخلاقًا المُوَطَّئُونَ أكنافًا الذِينَ يَألَفُون ويُؤلَفونَ ، ألا أُخْبِرُكُمْ بأبْغَضِكُمْ إلىّ وأبْعَدِكُمْ مِنِّى مجالِسَ يَوْمَ القِيامَةِ ؟ الثَّرْثارُونَ المُتَفَيْهِقونَ » .

قوله صلى الله عليه وسلم الموطئون أكنافا مَثَلٌ ، وحقيقتُهُ أن التوطئة هى التذليل والتمهيد ، يقال دابة وَطِىءٌ يافتى ، وهو الذى لا يُحَرِّكُ راكبَهُ فى مسيره ، وفِرَاش وَطِىءٌ إذا كان وَثِيرًا لا يُؤْذِى جَنْبَ النائم عليه ، فأراد القائل بقوله مُوَطَّأ الأكناف أن ناحيته يتمكَّنُ فيها صاحبُها غير مُؤْذًى ، ولا نابٍ به موضعُه .

قال أبو العباس : حدثنى العباس بن الفَرَجِ الرِّيَاشِىّ(٣) قال حدثنى

---

(١) بيان ذلك أن ياء فعيل تثبت فى النسب إذا صحت لامه .

(٢) هذا آخر الكلام المعترض الذى ساقه الأخفش .

(٣) مات مقتولا سنة ٢٥٧ يوم دخل الزنج البصرة .

الأصْمَعِيُّ[١] قال قيل لأعرابى وهو المُنْتَجِعُ بن نَبْهان : ما السَّمَيْدَعُ ؟ فقال : السيد المُوَطَّأُ الأكناف .

وتأويل الأكناف الجوانب . يقال فى المثَل : فلانٌ فى كنف فلانٍ كما يقال فلان فى ظل فلان ، وفى ذَرَى فلانٍ ، وفى ناحية فلان ، وفى حَيِّزِ فلان . وقوله صلى الله عليه وسلمْ « الثرثارون » يعنى الذين يُكْثِرُون الكلام تَكَلُّفاً وتجاوُزاً ، وخروجًا عن الحق . وأصل هذه اللفظة من العين الواسعة من عيون الماء يقال عَيْنٌ ثَرْثارةٌ ، وكان يقال لنهر بعينه الثَّرْثارُ ، وإنما سمى به لكثرة مائه . قال الأخْطَلُ (واسمه غِياثُ بن غوْثٍ يُكْنَى أبا مالك ، ويلقب بِدَوْبَلٍ ، والدَّوْبَلُ الخنزير[٢]) :

لَعَمْرِى لقَدْ لاقَتْ سُلَيْمٌ وَعَامِرٌ عَلَى جَانِبِ الثَّرْثَارِ رَاغِيَةَ الْبَكْرِ

قوله « راغية البكر » أراد أن بَكْرَ ثمود رغا فيهم فأُهْلِكُوا ، فضربته العرب مَثَلاً ، وأكثرت فيه ، قال عَلْقَمَةُ بن عَبَدَةَ الفَحْلُ :

رَغَا فَوْقَهُمْ سَقْبُ السَّمَاءِ فَدَاحِضٌ بِشِكَّتِهِ لَمْ يُسْتَلَبْ وَسَلِيبُ[٣]

(قال أبو الحسن الداحض الساقط ، والداحض أيضاً الزالق) وكذلك إذا لم تُضَعَّف الثاء فقلت عينٌ ثَرَّةٌ فإنما معناها غزيرة واسعة ، قال عَنْتَرَةُ :

جَادَتْ عَلَيْهَا كُلُّ عَيْنٍ ثَرَّةٍ فَتَرَكْنَ كُلَّ حَدِيقَةٍ كَالدِّرْهَمِ

---

(١) الأصمعى : هو عبد الملك بن قريب المتوفى بالبصرة سنة ٢١٦ . (٢) وفيه قال جرير :

بكى دوبل لا يرقئ الله دمعه ألا إنما يبكى من الذل دوبل

وكانت وفاة الأخطل سنة ٩٠ . (٣) الشكة : اسم لما يلبس من السلاح .

قال أبو العباس : وليست الثرة عند النحويين البصريين من لفظة الثَّرْثَارَةِ ، ولكنها فى معناها ، ويجب أن يكون من الثَّرةِ ثَرْ ثَارَةٌ . وقوله صلى الله عليه وسلم « المتفيهقون » إنما هو بمنزلة قوله الثرثارون توكيد له ، ومُتَفَيْهِقٌ مُتَفَيْعِلٌ ، من قولهم فَهِقَ الغَدِيرُ يَفْهَقُ إذا امتلأ ماءً فلم يكن فيه موضع مَزِيدٍ ، كما قال الأعشى :

نَفَى الذَّمَّ عَنْ رَهْطِ المُحَلَّقِ جَفْنَةٌ   كَجَابِيَةِ الشَّيْخِ الْعِرَاقِىِّ تَفْهَقُ

كذا يُنْشِدُهُ أهل البصرة ، وتأويله عندهم أن العراقىّ إذا تمكّنَ من الماء ملأ جابِيَتَهُ لأنه حَضَرِىّ فلا يعرف مواقع الماء ولا مَحالَّهُ .

قال أبو العباس : وسمعت أعرابية تُنْشِدُ (قال أبو الحسن هى أمُّ الهيثمِ الكلابِيَّةُ من ولد المحلَّق وهى راوية أهل الكوفة) كجابية السَّيْحِ تريد النهر الذى يجرى على جابيته ، فماؤها لا ينقطع ، لأن النهر يَمُدُّهُ .

ومثل قول البصريين فيما ذكروا به « العراقِىّ الشيخ » قولُ الشاعر (قال أبو الحسن هو ذو الرُّمَّة[1]) .

لَهَا ذَنَبٌ ضَافٍ وذِفْرَى أَسِيلَةٌ   وَخَدٌّ كَمِرْآةِ الغَرِيبَةِ أَسْجَحُ[2]

يقول إن الغريبة لا ناصح لها فى وجهها، لبعدها عن أهلها، فِمرْآتها أبدًا مَجْلُوَّةٌ، لفرط حاجتها إليها .

وتصديقُ ما فسّرناه من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يريد

---

(١) توفى ذو الرمة سنة ١١٧ . (٢) الذفرى : الموضع الذى يعرق من البعير خلف الأذن . والأسيلة الرقيقة ، والأسجح من السجاحة وهى اللين .

الصدقَ فى المَنْطِق ، والقصدَ ، وتركَ مالا يُحْتاجُ إليه ، قولُهُ لجرير بن عبد الله البَجَلِى[١] (يا جَرِيرُ إذا قلت فأوجز ، وإذا بَلَغْتَ حاجتك فلا تتكلف) .

٭

قال أبو العباس : ومما يُؤثَرُ من حكيم الأخبار ، وبارع الآداب ، ما حُدِّثنا به عن عبد الرحمن بن عوفٍ[٢] وهو أنه قال : دخلت يوما على أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فى عِلَّتِهِ التى مات فيها ، فقلت له : أراكَ بارئًا يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أما إنِّى على ذلك لشَدِيدُ الْوَجَعِ ، ولَمَا لقِيتُ مِنْكُمْ يا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ أَشَدُّ عَلَىَّ مِنْ وَجَعِى ، إنِّى وَلَّيْتُ أموركم خيرَكم فى نفسى ، فكلُّكم وَرِمَ أَنْفُهُ أن يكون له الأمر من دونه ، والله لتَتَّخِذُنَّ نَضَائِدَ الدِّيبَاجِ ، وسُتُورَ الحَرِيرِ ، وَلَتَأْلَمُنَّ النَّوْمَ على الصُّوفِ الأذْرَبِىِّ[٣] كما يَأْلَمُ أحدُكم النوم على حَسَكِ السَّعْدان ، والذى نفسى بيده لَأَنْ يُقَدَّمَ أحدُكم فتُضْرَبَ عُنُقُهُ فى غَيْرِ حَدٍّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَخُوضَ غَمَراتِ الدُّنيا ، يا هادِىَ الطَّرِيق جُرْتَ ، إنما هو والله الفَجْرُ ، أو الْبَجْرُ . فقلتُ : خَفِّضْ عليك يا خليفةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن هذا يَهِيضُكَ إلى ما بك ، فوالله ما زِلْتَ صَالِحًا مُصْلِحًا ، لا تَأْسَ على شىء فاتك من أمر الدنيا ، ولقد تَخَلَّيْتَ بالأمر وحدك فما رأيتَ إلا خيراً .

---

(١) صحابى جليل كان يقرِّبه رسول الله . وكان فائق الجمال ، ومن أجل ذلك كان يسميه عمر ابن الخطاب يوسف هذه الأمة . وكان يقول ماحجبنى رسول الله منذ أسلمت ، ولا رآنى إلا تبسم .

(٢) عبد الرحمن بن عوف أحد أغنياء الصحابة ، وله حديث طويل فصلناه فى الجزء الثانى من كتاب (التصوف الإسلامى) .

(٣) هـذا يدل على أن الصوف اللين المصقول عرفه الناس منذ زمن بعيد ، وهو غير الصوف الخشن الذى كان يلبسه الرهبان والنساك والذى نسب إليه الصوفية .

قوله نضائد الديباج واحدتها نَضِيدةٌ ، وهى الوسادة ، وما يُنْضَدُ من المتاع ، قال الراجز :

وقَرَّبَتْ خُدَّامُهَا الوَسَائِدَا　　حَتَّى إِذَا مَا عَلَوا النَّضَائِدا

* سَبَّحْتُ رَبِّى قَائِمًا وَقَاعِدا *

وقد تسمى العرب جماعة ذلك النَّضَدَ ، والمعنى واحد ، إنما هو ما نُضِدَ فى البيت من متاع ، قال النابغة :

* ورَفَّعَتْهُ إلى السَّجْفَيْنِ فالنَّضَدِ *

ويقال نَضَدْتُ المتاع إذا ضممت بعضه إلى بعض فهذا أصله ، قال الله تبارك وتعالى «لها طَلْعٌ نَضِيدٌ» وقال عزّوجل « فِى سِدْرٍ مَخْضُودٍ ، وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ » ويقال نَضَدْتُ اللَّبِنَ على الميت . وقوله على الصوف الأذربى فهذا منسوب إلى أَذْرَبِيجانَ ، وكذلك تقول العرب ، قال الشَّمَّاخُ :

تَذَكَّرْتُهَا وَهْنًا وَقَدْ حَالَ دُونَهَا　　قُرَى أَذْرَبِيجانَ المَسَالِحِ والجَالِ[١]

وقوله « على حَسَكِ السَّعْدانِ » فالسعدان نبْتٌ كثير الْحَسَك تأكله الإبل فتسمن عليه ، ويغذوها غذاء لا يوجد فى غيره ، فمن أمثال العرب « مَرْعًى ولا كَالسَّعْدان » تفضيلاً له ، قال النابغة :

الْوَاهِبُ المِائة الأبْكَارَ زَيَّنَهَا　　سَعْدَانُ تُوضِحَ فى أوبارها اللِّبَدُ

ويروى فى بعض الحديث أنه يُؤْمَرُ بالكافر يوم القيامة فيُسْحَبُ على السَّعْدان ، والله أعلم بذلك .

---

(١) المسالح : مواضع المخافة وهى الثغور ، والمفرد مسلحة ، والجال : موضع بأذربيجان ، وهذا البيت من كلمة قالها الشاعر فى وصف غارة شهدها بسنجال من قرى أذربيجان .

(قال أبو الحسن: السَّعْدان نبت كثير الشوك، كما ذكر أبو العباس، ولا ساق له، إنما هو مُنْفَرِشٌ على وجه الأرض. حدثنا أبو العباس أحمد ابن يحيى الشَّيْبانيّ عن ابن الأعرابى قال: قيل لرجل من أهل البادية، وخرج عنها: أترجع إلى البادية؟ فقال: أمّا مادام السَّعْدانُ مُسْتَلْقِياً فلا، يريد أنه لا يرجع إلى البادية أبداً كما أن السعدان لا يزول عن الاستلقاء أبداً، وقال أبو على البَصير واسمه الفَضْل بن جعفر - وإن لم يكن بحُجَّة، ولكنه أجاد فذكَرْنا شِعْرَهُ هٰذَا لِجَوْدته لا للاحتجاج به - يمدح عُبَيْدَ الله بن يحيى ابن خاقان ولَه فقال:

يا وُزَراء السلطان أنتم وآلُ خاقان
كبَعْضِ ما رَوَيْنَا فى سالفات الأزمان
ماءٌ ولا كصَدَّاء مَرْعًى ولا كالسَّعْدان

وهذه الأمثال ثلاثة منها قولهم مَرْعًى ولا كالسَّعدان، وفَتًى ولا كمالِكٍ، وماء ولا كصَدَّاء، تُضْرَبُ هذه الأمثال للشىء الذى فيه فَضْلٌ وغيره أفضلُ منه كقولهم مامن طامَّةٍ إلا فوقها طامَّةٌ، أى مامن داهيةٍ إلا وفوقها داهيةٌ، ويقال: طَما الماءُ وطَمَّ إذا ارتفع وزاد ومالك الذى ذكروا هو مالك ابن نُوَيْرَةَ أخو مُتَمِّم بن نُوَيْرَة(١)، وصَدَّاء عِدٌّ، وبعضهم يقول صُدًّى،

(١) متمم بن نويرة هو أشعر الناس جميعاً فى الرثاء، وأبياته فى أخيه مالك لم يقل مثلها أحد فى مشرق ولا مغرب:

لقد لامنى عند القبور على البكا رفيقى لتذراف الدموع السوافك
فقال أتبكى كل قبر رأيته لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت له إن الشجى يبعث الشجى فدعنى فهذا كله قبر مالك

فيضم أوله ويَقصُرُ ، فأمّا أبو العباس محمد بن يزيد ، فإنه قال لم أسمع من من أصحابنا إلا صَدْءاء يافتى ، وهو اسم لماء، معرفة، وهما همزتان بينهما ألف ، والألف لا تكون إلا ساكنة ، كأنك قلت صَدْعاع يا هذا) .

وقوله إنما هو والله الفجر أو البَجْرُ(١)، يقول إن انتظرت حتى يُضِىء لك الفجرُ الطريقَ أبصرتَ قَصْدَكَ ، وإن خبطتَ الظَّلْماء ، وركبتَ العَشْوَاء ، هجما بك على المكروه ، وضرَبَ ذلك مَثَلاً لغَمَرات الدنيا ، وتحييرها أهلَها .

وقوله يَهِيضُكَ مأخوذ من قولهم هِيضَ العَظْمُ إذا جُبِرَ ثم أصابه شىء يُعَنِّتُهُ فآذاه فكسره ثانية ، أو لم يَكسِرْهُ ، وأكثر ما يستعمل فى كَسْرِهِ ثانيةً ، ويقال عظم مَهِيضٌ ، وَجَناح مَهِيضٌ فى هذا المعنى ، ثم يشتق لغير ذلك ، وأصله ما ذكرت لك، فمن ذلك قول عمر بن عبدالعزيز رحمه الله لما كَسَرَ يزيد ابن المُهلَّب سجنه وهَرَبَ ، فكتب إليه : لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَبْقَى مَا فَعَلْتُ وَلٰكِنَّكَ مَسْمُومٌ وَلم أَكُنْ لِأَضَعَ يَدِى فى يَدِ ابن عاتكة (هو يزيدُ ابن عبد المَلِك بن مَرْوانَ وأمه عاتكة بنت يزيد بن مُعاوية ولّى المُلْكَ بعد عمر ابن عبد العزيز ، ولا يُعْلَمُ أحَدٌ أعْرَقُ فى الخلافة منه) فقال عمر « اللّهُمَّ إنَّهُ قَدْ هاضَنِى فَهِضْهُ » فهذا معناه .

وقوله فَكأكم وَرِمَ أنفُهُ ، يقول امتلأ من ذلك غَضَباً ، وذكر أنفه دون السائر كما يقال فلان شامخ بأنفه ، يريد رافع رأسه ، وهذا يكون من الغضب كما قال الشاعر :

☆ ولا يُهاجُ إذا ما أنفُهُ وَرِمَا ☆

---

(١) البجر هو الشر أو الأمر العظيم .

أى لا يُكَلَّمُ عند الغضب ، ويقال للمائل برأسه كِبْرًا : مُتَشَاوِسٌ ، وثَانِى عِطْفِه وثَانِى جِيدِهِ ، إنما هذا كله من الكِبْرِياء . قال الله عز وجل « ثَانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » وقال الشَّمَّاخُ (يهجو الرُّبَيْعَ بن عِلْبَاء السُّلَمِىَّ) :

نُبِّئْتُ أَنْ رُبَيْعًا أَنْ رَعَى إِبِلاً ... يُهْدِى إِلَىَّ خَنَاهُ ثَانِىَ الجِيدِ

وقوله أراك بارئًا يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون من بَرِئْتُ من المرض وبَرَأْتُ ، كلاهما يقال ، فمن قال بَرِئْتُ قال أَبْرَأُ يا فتى لا غير ، ومن قال بَرَأْتُ . قال فى المضارع أَبْرَأُ وأَبْرُؤُ يا فتى ، مِثْلَ فَرَغَ يَفْرَغَ ويَفْرُغُ ، والآية تُقْرَأ على وجهين « سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ » وسَنَفْرَغُ والمصدر فيهما البُرْءُ يا فتى .

❋

ومما روى لنا عنه رضى الله عنه حيث عَهِدَ عند موته وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عَهِدَ به أبو بكر خليفةُ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند آخر عَهْدِه بالدنيا ، وأولِ عَهْدِهِ بالآخرة ، فى الحال التى يُؤْمِنُ فيها الكافر ، ويَتَّقِى فيها الفاجر ، إنى استعملتُ عليكم عمر بن الخطاب فإن بَرَّ وعَدَلَ فذلك عِلمى به ، ورأيى فيه ، وإن جار وبَدَّلَ فلا عِلْمَ لى بالغيب والخيرَ أردْتُ ، ولِكُلِّ امْرِىءٍ مَا اكْتَسَبَ ، وَسَيَعْلَمُ الذين ظلموا أىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » .

نُصِبَ أىَّ بقوله يَنْقَلِبون ولا يكون نَصْبُها بسيعلم لأن حروف الاستفهام إذا كانت أسماءً امتنعت مما قبلها كما يمتنع ما بعد الألف من أن يَعْمَلَ فيه

ما قبله ، وذلك نحو قولك « علمتُ زيداً منطلقاً » فإن أدخلتَ الألف قلت « علمتُ أزيدٌ منطلقٌ أم لا » فأيٌّ بمنزلة زيدٍ الواقع بعد الألف ، ألا ترى أن معناها : أذا أم ذا . وقال الله عزّ وجل « لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا » لأن معناها : أهذا أم هذا ؟ وقال تعالى : « فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا » على ما فسرتُ لك ، وتقولُ أَعْلَمُ أَيُّهُمْ ضَرَبَ زَيْدًا ، وَأَعْلَمُ أَيُّهُمْ ضرب زيدٌ، تنصب أيًّا بِضَرَبَ لأن زيدا فاعل، فإنما هذا لما بعده ، وكذلك ما أضيف إلى اسم من هذه الأسماء المُسْتَفْهَم بها نحو « قد علمتُ غلامُ أيِّهِمْ فى الدار ، وقد عرفتُ غُلَامُ مَنْ فى الدار ، وقد علمتُ غلامَ مَنْ ضربتَ » فتنصبه بضربتَ فعلى هذا مَجْرى الباب .

⁂

ومما يُؤْثَرُ من هذه الآداب ويُقدَّم قولُ عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى أول خُطْبَة خطَبها ، حدثنا العُتْبيُّ قال لم أرَ أقلَّ منها فى اللفظ ، ولا أكثر فى المعنى ، حَمِدَ الله وأثنى عليه وهو أهله ، وصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« أيها الناس ، إنَّهُ وَاللهِ مَا فيكُمْ أَحَدٌ أَقْوَى عِنْدِى مِنَ الضَّعِيفِ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ لَهُ ، وَلَا أَضْعَفُ عِنْدِى مِنَ الْقَوِىِّ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ » .

ثم نزل . وإنما حَسُنَ هذا القولُ مع ما يستحقه من قِبَلِ الاختيار بما عَضَدَهُ به من الفعل المشاكل له .

(قال أبو الحسن : قد رَوَيْنا هذه الخطبة التى عزاها إلى عمر بن الخطاب عن أبى بكر رضى الله عنهما ، وهو الصحيح) .

⁂

قال أبو العباس ومن ذلك رسالته فى القضاء إلى أبى موسى الأشعرىّ وهى التى جَمَعَ فيها جُمَلَ الأحكام ، واختصرها بأجود الكلام ، وجَعَل الناسُ بعده يتخذونها إمامًا ، ولا يَجِدُ مُحِقٌّ عنها مَعْدِلا ، ولا ظالمٌ عن حدودها مَحِيصًا ، وهى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قَيْسٍ ، سلامٌ عليك ، أما بعد فإن القَضاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ ، وسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ ، فافْهَمْ إذا أُدْلِىَ إلَيْكَ ، فإنه لا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بحقٍّ لا نفاذ له ، آسِ بَيْنَ النَّاسِ فى وَجْهِكَ ، وعَدْلك ، ومَجْلِسِك ، حتّى لا يَطْمَعَ شريفٌ فى حَيْفك ، ولا يَيْأَسَ ضعيفٌ من عدلك ، البيِّنةُ على مَنِ ادَّعَى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين ، إلاَّ صُلحًا أحلَّ حرامًا أوْ حرَّمَ حلالاً ، لا يمنعنَّك قضاءٌ قضيتَهُ اليومَ فراجعْتَ فيه عقلَكَ ، وهُدِيتَ فيه لِرُشْدِك ، أن تَرْجِعَ إلى الحق ، فإن الحق قديمٌ ، ومراجعةُ الحق خير من التمادى فى الباطل ، الفَهْمَ الفَهْمَ فيما تَلَجْلَجَ فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سُنَّةٍ ، ثم اعْرِفْ الأَشْباهَ والأَمْثالَ ، فَقِسِ الأُمور عند ذلك ، واعْمِدْ إلى أقربها إلى الله ، وأشبهها بالحق ، واجْعَلْ لِمَنِ ادَّعى حقًّا غائبًا أو بينةً أَمَدًا ينتهى إليه ، فإن أحضر بينته أخذتَ له بحقه ، وإلاَّ اسْتَحْلَلْتَ عليه القضيةَ فإنه أنفى

للشك ، وأجْلَى للعمى . المسلمون عُدُولٌ بعضُهم على بعض إلاّ مَجْلودًا فى حدٍّ أو مُجَرَّبًا عليه شهادةُ زُورٍ ، أو ظَنِينًا فى ولاء ، أو نَسَبٍ ، فإن الله تَوَلَّى منكم السرائر ، ودَرَأَ بالبينات والأيمان ، وإياكَ والغَلَقَ ، والضَّجَرَ ، والتأَذِّىَ بالخصوم ، والتَّنَكُّرَ عند الخصومات ، فإن الحق فى مواطن الحق يُعْظِمُ الله به الأجر ، ويُحْسِنُ به الذُّخْرَ ، فمن صَحَّتْ نِيَّتُهُ ، وأَقْبَلَ على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تَخَلَّقَ للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانَهُ الله ، فما ظنك بثواب عند الله عزّ وجل فى عاجِلِ رزقه وخزائن رحمته ، والسلام . »

قال أبو العباس : قوله آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، يقول : سَوِّ بينهم ، وتقديره اجعل بعضهم أُسْوَةَ بعضٍ ، والتأَسِّى من ذا أن يَرَى ذُو البلاء مَنْ به مِثلُ بلائه ، فيكونَ قد ساواه فيه فيُسَكِّنَ ذلك من وَجْدِهِ ، قالت الخنساء :

فَلَوْلاَ كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِى ... عَلَى إخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِى
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِى وَلٰكِنْ ... أُعَزِّى النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّى
يُذَكِّرُنِى طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا ... وَأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِ

تقول أذكره فى أوّل النهار للغارة ، وفى آخره للضِّيفان . وتَمَثَّلَ مُصْعَبُ ابن الزُّبَيْرِ يوم قُتِلَ بهذا البيت :

وَإِنَّ الأُلَى بِالطَّفِّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ ... تَآسَوْا فَسَنُّوا لِلْكِرَامِ التَّآسِيَا[1]

(١) الطف : اسم موضع .

وقوله حتى لا يَطْمَعَ شريفٌ فى حَيْفك يقول فى مَيْلك معه لشرفه ، وقوله فيما تَلَجْلَجَ فى صدرك يقول تَرَدَّدَ ، وأصل ذلك المُضْغَةُ والأُكْلَةُ يُرَدِّدُها الرجلُ فى فِيهِ فلا تزال تتردد إلى أن يُسِيغَهَا أو يَقْذِفَها ، والكلمة يرددها الرجل إلى أن يَصِلَهَا بأخرى ، يقال لِلْعَيِّ لَجْلاجٌ ، وقد يكون من الآفة تَعْتَرِى اللسان . قال زُهَيْرٌ :

تُلَجْلِجُ مُضْغَةً فِيها أَنِيضٌ أَصَلَّتْ فَهِيَ تَحْتَ الكَشْحِ دَاءُ

وقوله أَنِيضٌ أى لم تَنْضَجْ ، ومن أمثال العرب « الحقُّ أَبْلَجُ والباطل لَجْلَجٌ » أى يتردد فيه صاحبه فلا يصيب مَخْرَجًا ، وقوله أو ظَنِينًا فى وَلاء ، أو نسب ، فهو المُتَّهَمُ وأصله مَظْنُون ، وهى ظننت التى تتعدى إلى مفعول واحد ، تقول ظننت بزيد ، وظننت زيدًا أى اتَّهَمْتُ ، ومن ذلك قول الشاعر ، وأحْسَبُهُ عبد الرحمن بن حسَّان :

فَلاَ وَيَمِينِ اللهِ مَا عَنْ جِنَايَةٍ هُجِرْتُ وَلٰكِنَّ الظَّنِينَ ظَنِينُ

وفى بعض المَصَاحف « وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ » وإنما قال عمر رضى الله عنه ذلك لِمَا جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم « مَلْعُون مَلْعون من انْتَمَى إلى غير أبيه ، أو ادَّعَى إلى غير مَوَاليه » فلما كانت معه الإقامةُ على هذا لم يره للشهادة موضعاً ، وقوله وَدَرأ بالبينات والأيمان إنما هو دَفَعَ ، من ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ادْرَءوا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ » وقال الله عز وجل « قُلْ فَادْرَءوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » وقال « فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا » أى تدافَعْتُمْ .

وأما قوله وإياكَ والغَلَقَ والضَّجَرَ فإنه ضيقُ الصدر، وقلة الصبر، يقال في سوء الخُلُقِ رجل غَلِقٌ، وأصل ذلك من قولهم أُغْلِقَ عليه أمرُهُ إذا لم يَتَّضِحِ ولم ينفتح، من ذلك قولهم غَلِقَ: الرَّهْنُ أي لم يوجد له تخلُّصٌ، وأغْلَقْتُ البابَ من هذا، قال زُهَيْرٌ:

وفارَقَتْكَ بِرَهْنٍ لا فَكَاكَ لَهُ   يَوْمَ الْوَداعِ فَأَمْسَى الرَّهْنُ قَدْ غَلِقا

وقوله ومن تَخَلَّقَ للناس يقول أظْهَرَ للناس في خُلُقِهِ خلافَ نيته، وقوله تَخَلَّقَ يريد أظهَرَ خُلُقاً مثل تجمَّلَ يريد أظهر جمالا وتَصنَّعَ، وكذلك تجبَّرَ إنما تأويله الاظهار أي أظهر جبرِيَّةً (وإن شئت جبرُوَّة، وإن شئت جبَروتا، وإن شئت جبَرُوتَى، ومن كلام العرب على هذا الوزن رَهَبُوتَى خير لك من رَحَمُوتَى، أي لأَنْ تُرْهَبَ خيرٌ لك من أن تُرْحَمَ[1]). قال أبو العباس وأنْشَدونا عن أبي زيد (الشعر لسالم بن وابِصَةَ الأَسَدِيِّ):

يا أيها المُتَحَلِّي غَيْرَ شِيمَتِهِ   (وَمِنْ سَجِيَّتِهِ الإِدْغالُ وَالْمَلَقُ
دَعِ التَّخَلُّقَ يَبْعُدْ عَنْكَ أَوَّلُهُ)   إنَّ التَّخَلُّقَ يَأْتي دُونَهُ الخُلُقُ
وَلَا يُؤَاتِيكَ فيما نابَ مِنْ حَدَثٍ   إلاَّ أَخُو ثِقَةٍ فَانْظُرْ بِمَنْ تَثِقُ

قال وأنْشَدَتْني أمُّ الْهَيْثَمِ الكلابيَّةُ:

وَمَنْ يَتَّخِذْ خِيماً سِوَى خِيمِ نَفْسِهِ   يَدَعْهُ وَيَغْلِبْهُ عَلَى النَّفْسِ خِيمُها

---

(١) تذكر دائماً أن ما يقع بين قوسين هو في الأغلب من كلام الأخفش.

وقال ذو الإصبع العَدْوَانيُّ (ذو الإصبع اسمه حُرْثَانُ بن الحَارِثِ بْنِ مُحرِّثٍ ، وقيل له ذو الإصبع لأن أفعى نَهَشَتْ إصبعه) :

كُلُّ امْرِئٍ رَاجِعٌ يَوْمًا لِشِيمَتِهِ ... وَإِنْ تَمَتَّعَ أَخْلَاقًا إِلَى حِينِ

وأما قوله ثواب فاشتقاقه من ثاب يَثُوبُ إذا رجع وتأويله ما يَثُوبُ إليك من مُكافأة الله وفضله .

⁂

وكتب عثمان بن عفَّان إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما حين أُحيطَ به :

« أما بعد : فإنه قد جاوزَ الماءُ الزُّبَى ، وبَلَغَ الحزامُ الطُّبْيَيْنِ ، وتجاوزَ الأمرُ بي قَدْرَهُ ، وطَمِعَ فيَّ من لا يَدْفَعُ عن نفسه :

فَإِنْ كُنْتُ مَأْكُولًا فَكُنْ خَيْرَ آكِلٍ ... وَإِلَّا فَأَدْرِكْنِي وَلَمَّا أُمَزَّقِ »

قوله قد جاوز الماء الزبى ، فالزُّبْيَةُ مَصيدة الأسد ، ولا تُتَّخذُ إلا في قُلَّةٍ ، أو رَابِيَةٍ ، أو هَضْبَةٍ . قال الراجز :

(فَأَنْتَ وَالْأَمْرُ الَّذِي قَدْ كِيدَا) ... كَالَّذْ تَزَبَّى زُبْيَةً فَاصْطِيدَا

وقال الطِّرِمَّاحُ :

يَا طَيِّئَ السَّهْلِ وَالْأَجْبَالِ مَوْعِدُكُمْ ... كَمُبْتَغِي الصَّيْدِ أَعْلَى زُبْيَةِ الْأَسَدِ

(ويروى : في عِرِّيسَةِ الأَسَدِ) وتقول العرب قد عَلَا الماءُ الزُّبَى ، وقد بَلَغَ السِّكِّينُ العَظْمَ ، وبَلَغَ الحِزامُ الطُّبْيَيْنِ ، وقد انقطع السَّلَى في البطن ، فالسَّلَى من المرأةِ والشاةِ ما يَلْتَفُّ فيه الولدُ في البطن . قال العجَّاجُ :

* فَقَدْ عَلاَ المَاءُ الزُّبَى فَلاَ غِيَرْ *

أى قد جَلَّ الأمرُ عن أن يُغيَّرَ ويُصْلَحَ . وقوله: وبلغ الحزام الطبيين ، فإن السِّباع والخيل يقال لمواضع الأَخْلاف منها أَطْباء يا فتى ، واحدها طُبْىٌ كما يقال فى الظِّلْفِ والخُفِّ خِلْفٌ ، هذا مكانُ هذا ، فإذا بلغ الحزامُ الطبيين فقد انتهى فى المكروه ، ومِثل هذا من أمثالهم : التقَتْ حَلْقتا البِطَانِ ، ويقولون التقتْ حلقتا البطان والحَقَبُ ، ويقال حَقِبَ البعيرُ إذا صار الحزامُ فى الحقبِ . قال الشاعر : (قال أبو بكر هو الوليدُ بن يَزيدَ بن عبد المَلِك ، وأوله :

سُلَيْمَى تِلْكَ فى الْعِيرِ ... قِفِى إنْ شِئْتِ أَوْ سِيرِى
فَلمَّا أَنْ بَدَا الصُّبْحُ ... بِأَصْــوَاتِ الْعَصَافِيرِ
خَرَجْــنَا نَبْتَغِى الصَّيْدَ ... بِأَمْـــثَالِ الْيَعَافِيرِ
إِذَا مَا حَقَبٌ جَالَ ... شَــدَدْنَاهُ بِتَصْدِيرِ
(زَجَرْنَا الْعِيسَ فَازْمَدَّتْ ... بِإِهْــدَابٍ وَتَشْمِيرِ)

وقال أَوْس بن حَجَرٍ :

وَازْدَحَمَتْ حَلْقَتَا الْبِطَانِ بِأَقْوَا ... مٍ وَطَارَتْ نُفُوسُهُم جَــزَعَا

وتَمثُّلُهُ بالبيتِ يشاكِلُ قولَ القائل :

فَإِنْ أَكُ مَقْتُولاً فَكُنْ أَنْتَ قَاتِلِى ... فَبَعْضُ مَنَايَا الْقَوْمِ أَكْرَمُ مِنْ بَعْضِ

❁

ويروى عن قَنْبَرٍ مَوْلى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال: دخلتُ مع علىّ بن أبى طالب على عثمان بن عفّان رضى الله عنهما فأحبَّا الخَلْوَةَ ، فأَوْمأ إلىّ علىٌّ بالتَّنحّى فتنحَّيْتُ غيْرَ بعيدٍ ، فجعَلَ عثمانُ يعاتب عليًا وعلىٌّ مُطْرِقٌ ، فأَقْبَلَ عليه عثمانُ فقال : ما بالك لا تقول ؟ فقال : إنْ قلتُ لم أقل إلا ما تَكْرَهُ ، وليس لك عندى إلا ما تُحِبُّ .

تأويل ذلك : إن قلتُ اعْتَدَدْتُ عليك بمثل ما اعتددتَ به علَيّ فلَذَعَك عِتابى ، وعَقْدى ألاّ أفْعَلَ — وإن كنتُ عاتباً — إلا ما تُحِبُّ .

❁

وَتَحدَّثَ ابن عائشة فى إسناد ذكره أن عليا رضى الله عنه انتهى إليه أن خيلا لمعاوية وردت الأَنْبار فقتلوا عاملا له يقال له حَسَّانُ بن حسان ، فخرج مُغْضَباً يجُرُّ ثوبَهُ حتى أتى النُّخَيْلَةَ ، واُتبعه الناس فرَقِىَ رَبَاوَةً من الأرض ، فحَمِدَ الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

أما بعد فإن الجهادَ بابٌ من أبواب الجنة ، فَمَنْ تركه رَغْبَةً عنه أَلْبسَهُ اللهُ الذُّلَّ ، وسِيماَ الخَسْفِ ، ودُيِّثَ بالصَّغار ، وقد دعوتكم إلى حَرْب هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً ، وسرًّا وإعْلاناً ، وقلتُ لكم اغزوهم من قبل أن يَغْزُوكم ، فوالذى نفسى بيده ما غُزِىَ قومٌ قطُّ فى عُقْرِ دارهم إلاّ ذَلُّوا ، فتخاذلتم وَتوَاكَلْتُمْ ، وثَقُلَ عليكم قولى ، واتخذتموه وراءكم ظِهْرِيًّا ، حتى شُنَّتْ عليكم الغاراتُ . هذا أخو غامدٍ قد وَرَدَتْ خيْلُهُ الأنْبار ، وقتَلوا حسَّان بن حسَّان ،

ورجالاً منهم كثيراً ونساءً، والذى نفسى بيده لقد بلغنى أنه كان يُدْخَلُ على المرأة المُسْلمة والمُعاهِدة، فتُنْتَزَعُ أحجالهما ورُعُثُهما، ثم انصرفوا مَوْفُورين لم يُكْلَمْ منهم أحدٌ كَلْمًا، فلو أن امْرَأً مسلماً مات من دون هذا أسَفاً ما كان عندى فيه مَلُومًا، بل كان به عندى جَدِيراً، يا عَجبا كلَّ العَجب، عَجَبٌ يُميت القلب، ويَشْغَل الفَهْمَ، ويُكْثِر الأحزان، من تَضَافُرِ هؤلاء القوم على باطلهم، وفَشَلِكُمْ عن حقكم، حتى أصبحتم غَرَضاً تُرْمَوْنَ ولا تَرْمُونَ، وَيغارُ عليكم ولا تُغِيرونَ، ويُعْصَى اللهُ عزّ وجل فيكم وتَرْضَوْنَ. إذا قلتُ لكم اغزوهم فى الشتاء قلتم هذا أَوَانُ قُرٍّ وصِرٍّ، وإن قلتُ لكم اغْزُوهم فى الصيف قلتم هذه حَمارَّةُ القَيْظِ أنظِرْنا يَنْصَرِم الحَرُّ عنا، فإذا كنتم من الحر والبرد تفِرُّون، فأنتم والله من السَّيْفِ أفَرُّ يا أشْباهَ الرجال ولا رِجال، ويا طَغَامَ الأحْلام، ويا عُقُولَ ربَّاتِ الحِجالِ، والله لقد أفسدتم علَيَّ رأيى بالعِصْيان، ولقد ملأتم جوْفِى غيْظًا حتى قالت قُرَيْشٌ: ابن أبى طالب رجل شجاع، ولكن لا رَأْىَ له فى الحرب. لله دَرُّهُمْ ومَنْ ذا يكونُ أعلَمَ بها منى، أو أشدَّ لها مِرَاساً، فوالله لقد نَهَضْتُ فيها، وما بَلَغْتُ العِشْرين، ولقد نَيَّفْتُ اليوم على الستين، ولكن لا رأى لمن لا يُطاع - يقولها ثلاثاً - فقام إليه رجل ومعه أخوه (الرجل وأخوهُ يُعرفان بِابْنَىْ عَفِيفٍ من الأنصار)، فقال يا أمير المؤمنين: أنا وأخى هذا كما قال الله تعالى «رَبِّ إنِّى لاَ أمْلكُ إلاَّ نَفْسى وأخى» فَمُرْنَا بأمرك، فوالله لنَنْتَهِيَنَّ إليه، ولو حال بيننا وبينه جَمْرُ الغَضَى، وشَوْكُ القَتَادِ، فَدعا لهما بخير، ثم قال لهما: وأين تقَعَانِ مما أريد. ثم نَزَلَ.

قال أبو العباس قوله سِيما الخَسْفِ. قال هكذا حدّثوناه، وأظنه سِيمَ الخَسْفَ يا هذا، من قول الله عزّ وجل «يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العذابِ» ومعنى قوله سِيما الخسفِ تأويله عَلامَةٌ، هذا أصل ذا. قال الله عزّ وجل: «سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ»، وقال عز وجلّ: «يُعْرَفُ المُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ».

وقال أبو عبيدة فى قوله عز وجل «مُسَوِّمِينَ» قال: مُعْلِمِينَ واشتقاقه من السِّيما التى ذكرنا، ومن قال: مُسَوَّمِينَ، فإنما أراد مُرْسَلين: من الإبل السائمة: أى المُرْسَلَةِ فى مراعيها، وإنما أخذ هذا من التفسير، وقال المفسرون فى قوله تعالى: (والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ) القولين جميعاً من العَلامة والارسال، وأما قوله عز وجل: (حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ ربك) فلم يقولوا فيه إلا قولاً واحداً. قالوا: مُعْلَمَةً، وكان عليها أمثالُ الخَوَاتيم، ومن قال سِيما قَصَر، ويقال فى هذا المعنى سِيمِياء، ممدود، قال الشاعر: (وهو ابن عَنْقَاء الْفَزَارِىُّ فى عُمَيْلَةَ الْفَزَارِىِّ):

غُلَامٌ رَمَاهُ اللهُ بالحُسْنِ يَافِعاً لَهُ سِيمِياءُ لَا تَشُقُّ عَلَى الْبَصَرْ
(كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فِى جَبِينِهِ وَفِى أَنْفِهِ الشِّعْرَى وَفِى جِيدِهِ الْقَمَرْ)

وقوله: وقَتَلُوا حَسَّانَ بن حَسَّان من أخذَ حَسَّاناً من الحُسْنِ صَرَفَهُ لأن وزنه فَعَّالٌ فالنون منه فى موضع الدال من حَمَّادٍ، ومن أخذَهُ من الحَسِّ لم يَصْرِفْهُ لأنه حينئذ فَعْلانُ فلا ينصرف فى المعرفة، وينصرف فى النكرة، لأنه لَيْسَتْ لَهُ فَعْلَى فهو بمنزلة سَعْدانٍ وسِرْحانٍ.

وقوله : دُيِّثَ بالصَّغار، تأويله ذُلِّلَ ، يقال للبعير إذا ذَلَّلَتْهُ الرياضَةُ بعير مُدَيَّثٌ أى مذلل .

وقوله : فى عُقْر دارهم ، أى فى أصل دارهم والعُقْرُ الأصل ، ومِنْ ثَمَّ قيل : لفلان عَقار ، أى أصل مال ، ويروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : مَنْ بَاعَ داراً أَوْ عقاراً فلم يَرْدُدْ ثَمَنَهُ فى مثله فذلك مال قَمَنٌ أَلاَّ يُبارَكَ له فيه ، وقوله قَمَنٌ يريد خليقٌ ، ويقال أيضاً قَمِنٌ وقَمِنٌ (قال أبوالحسن : من قال قَمَنٌ لم يُثَنِّ ولم يَجْمَعْ(١) ، ومَنْ قال قَمِنٌ وقَمِينٌ ثَنَّى وجَمَعَ) ويقال للرجل إذا اتخذ ضَيْعَةً ، أو داراً تأثَّلَ فلانٌ أى اتّخَذَ أصلَ مالٍ .

وقوله وتَوَاكَلْتم : إنما هو مشتق من وكَلْتُ الأمرَ إليكَ ووكَلْتَهُ أنت إلىّ أى لم يَتَوَلَّهُ واحدٌ منا دون صاحبه ولكن أحالَ به كلٌ واحدٍ منا على الآخر ، ومن ذلك قول الحُطَيْئَةِ :

فَلأْيًا قَصَرْتَ الطَّرْفَ عَنْهُمْ بِجَسْرَةٍ أَمُونٍ إِذَا وَاكَلْتَهَا لاَ تُوَاكِلُ

وقوله : « وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا » أى رميتم به وراء ظهوركم أى لم تلتفتوا إليه ، ويقال فى المَثَل : لا تجْعَلْ حاجتى منك بظَهْرٍ ، أى لا تَطْرَحها غير ناظر إليها .

وقوله : حتى شُنَّتْ عليكم الغاراتُ يقول صُبَّتْ ، يقال شَنَنْتُ الماءَ على رأسه : أى صَبَبْتُهُ ، وشَنَنْتُ الشراب فى الإناء أى صَبَبْتُهُ ، ومن كلام العرب : فلما لَقِيَ فلانٌ فلانا شَنَّهُ السيفَ ، أى صَبَّهُ عليه صَبًّا .

وقوله : هذا أخو غامدٍ ، فهو رجل مشهور من أصحاب معاوية من بنى

---

(١) أى لأنه أراد المصدر ، فيقال : هما قمن ، وهم قمن .

غامد بن نَصْر بن الأَزْد بن الغَوْث ، وفى هذه القبيلة يقول القائل :

أَلَا هَلْ أَتَاهَا عَلَى نَأْيِهَا   بِمَا فَضَحَتْ قَوْمَهَا غَامِدُ

تَمَنَّيْتُمُ مِائَتَيْ فَارِسٍ   فَرَدَّكُمْ فَارِسٌ وَاحِـــدُ

(هُوَ رَبِيعَةُ بْنُ مُكَدَّمٍ)

فَلَيْتَ لَنَا بِارْتِبَاطِ الْخُيُو   لِ ضَأْنًا لَهَا حَالِبٌ قَاعِدُ

وقوله : فَتَنْتَزِعُ أحجالهُما ، يعنى الخلاخيل ، واحدها حِجْل ، ومن هذا قيل للدابة مُحَجَّلٌ ، ويقال للقيد حِجْل لأنه يقع فى ذلك الموضع ، قال جَرِيرٌ: يُعَيِّرُ الفَرَزْدَقَ حين قَيَّدَ نَفسه ، وأقسم ألا يَحُلَّها حتى يَحْفَظَ القرآن ، فلما هاجَى جرير البَعِيثَ هجا الفرزدقُ جريراً مَعُونَةً للبعيث وذَبًّا عن عَشِيرَتِهِ ، فقال جرير :

وَلَمَّا اتَّقَى الْقَيْنُ الْعِرَاقِيُّ بِاسْتِهِ   فَرَغْتُ إِلَى الْعَبْدِ الْمُقَيَّدِ فِى الْحِجْلِ

(يعنى بقوله : ولما اتقى القين العراق باسته البعيثَ ، وسَمَّاهُ القينَ لأنه من رَهْطِ الفرزدق) ومعنى فرغت عَمَدْتُ . قال الله عزّ وجل : سَنَفْرُغُ لكم أيُّها الثَّقَلان . أى سنَعْمِدُ (تَمِيمٌ تقول فرَغَ يَفرَغُ فَرَاغًا ، وأهل العالية وهم قُرَيْشٌ ، ومَنْ والاها يقولون فَرَغَ يَفرُغُ فُرُوغًا) وقوله : ورُعُثُهما الواحدة رَعْثَةٌ ، وجمعها رِعاثٌ ، وجمع الجمع رُعُثٌ ، وهى الشُّنُوف .

وقوله : ثم انصرفوا مَوْفورين من الوَفْرِ ، أى لم يَنَلْ أحدٌ منهم بأن يُرْزَأَ فى بدَنٍ ولا مالٍ ، يقال فلانٌ مَوْفور ، وفلان ذو وفْرٍ : أى ذو مال ، ويكون مَوْفوراً فى بدنه إذا ذكر ما أصيب به غيرُه فى بدنه . قال حاتم الطائىُّ :

وَقَدْ عَلِمَ الْأَقْوَامُ لَوْ أَنَّ حَاتِمًا ... أَرَادَ ثَرَاءَ الْمَالِ كَانَ لَهُ وَفْرُ

ويروى : أمسَى له وَفْر .

وقوله : لم يُكلَمْ أحد منهم كَلْماً : يقول لم يُخْدَشْ أحدٌ منهم خَدْشاً ، وكلُّ جُرْحٍ صَغُرَ أو كَبُرَ فهو كَلْمٌ . قال جرير :

تَوَاصَتْ مِنْ تَكَرُّمِهَا قُرَيْشٌ ... بِرَدِّ الْخَيْلِ دَامِيَةَ الْكُلُومِ

وقوله : مات من دون هذا أسفاً ، يقول تحسُّراً ، فهذا موضع ذا ، وقد يكون الأسَفُ الغضبَ . قال الله عزّ وجل : « فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ » والأَسِيفُ يكون الأجيرَ ، ويكون الأسيرَ ، فقد قيل فى بيت الأعشى :

أَرَى رَجُلاً مِنْهُمْ أَسِيفاً كَأَنَّمَا ... يَضُمُّ إِلَى كَشْحَيْهِ كَفًّا مُخَضَّبَا

المشهور أنه من التأسف لقطع يده ، وقيل بل هو أسير قد كُبِلَتْ يَدُهُ ، ويقال قد جرحها الغُلُّ ، والقول الأول هو المُجْتَمَعُ عليه ، ويقال فى معنى أسيفٍ عَسِيفٌ أيضاً .

وقوله من تضافُرِ هؤلاء القوم على باطلهم ، يقول من تعاوُنِهِمْ وَتَظَاهُرِهِمْ

وقوله : وفَشِلكُمْ عن حقكم ، يقال : فَشِلَ فلانٌ عن كذا إذا هابه فَنَكَلَ عنه ، وامتنع من المُضِيّ فيه .

وقوله قلتم هذا أوانُ قُرٍّ وصِرٍّ فالصِّرُّ شدة البرد ، قال الله عزّ وجل : « كَمَثَلِ رِيحٍ فيها صِرٌّ » .

وقوله : هذه حَمَارَّةُ الْقَيْظِ فالقَيْظُ الصيف ، وحَمَارَّتُهُ اشتداد حره واحْتِدامُهُ ، وحَمَارَّةٌ مما لا يجوز أن يحتج عليه ببيت شِعْرٍ لأن كل ما كان

فيه من الحروف التقاء ساكنين لا يقع في وَزْنِ الشعر إلا في ضَرْبٍ منه يقال له المُتَقَارِبُ فإنه جُوِّزَ فيه على بُعْدِ التقاء الساكنين، وهو قوله :

فَذَاكَ الْقِصَاصُ وَكَانَ التَّقا ص فَرْضاً وَحَتْماً عَلَى المُسْلِمِينَا

ولو قال وكان القصاص فرضاً كان أجود وأحسن، ولكن قد أجازوا هذا في في هذه العَرُوض، ولا نظير له في غيرها من الأعاريض .

وقوله : ويا طَغَامَ الأحلامِ فمجازُ الطَّغامِ عند العرب مَنْ لا عقل له، ولا معرفة عنده، وكانوا يقولون طَغامُ أهلِ الشأم كما قال :

(إذَا مَا كَانَ مِثْلُهُمْ رِجالًا) فَمَا فَضْلُ اللَّبِيبِ عَلَى الطَّغَامِ

وقوله : وياعقولَ رَبَّاتِ الحِجال يَنْسُبُهُمْ إلى ضَعْفِ النساء وهو السائر في كلام العرب . قال الله تعالى يذكر البنات : (أَوْ مَنْ يُنَشَّأُ فِى الْحِلْيَةِ وَهُوَ فى الخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ) .

باب

قال أبو العباس : من كلام العرب : الاختصار المُفْهِمُ ، والاطناب المُفَخَّمُ وقد يقع الايماء إلى الشىء فيُغْنِي عند ذوى الألباب عن كشفه ، كما قيل لَمْحَةٌ دَالّةٌ ، وقد يُضْطَرُّ الشاعرُ المُفْلِقُ ، والخطيبُ المِصْقَعُ ، والكاتب البليغ ، فيقع فى كلام أحدهم المعنى المُسْتَغْلِق ، واللفظ المُسْتَكْرَهُ ، فإن انعطفتْ عليه جَنْبتا الكلام غَطَّتَا على عَوارِهِ ، وستَرتا من شَيْنِه ، وإن شاء قائل أن يقول بل الكلام القبيح فى الكلام الحَسَنِ أظهرُ ، ومجاورته له أشهر، كان ذلك له ، ولكن يغتفر السيئ للحَسَن ، والبعيد للقريب .

فمن ألفاظ العرب البَيِّنَةِ القريبةِ المُفْهِمَةِ الحَسَنةِ الوصفِ الجميلةِ الرَّصْفِ قول الحُطَيْئَةِ :

وَذَاكَ فَتًى إِنْ تَأْتِهِ فِى صَنِيعَةٍ ... إِلَى مَالِهِ لَا تَأْتِهِ بِشَفِيعِ

وكذلك قول عَنْتَرَةَ :

يُخْبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ أَنَّنِى ... أَغْشَى الْوَغَى وَأَعِفُّ عِنْدَ الْمَغْنَمِ

وكما قال زُهَيْرٌ :

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ حَقُّ مَنْ يَعْتَرِيهِمُ ... وَعِنْدَ الْمُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ

ومما وقع كالايماء قولُ الفرزدق :

ضَرَبَتْ عَلَيْكَ الْعَنْكَبُوتُ بِنَسْجِهَا ... وَقَضَى عَلَيْكَ بِهِ الْكِتَابُ الْمُنْزَلُ

فتأويل هذا أن بيت جرير فى العرب كالبيت الواهى الضعيف ، فقال وقضى عليك به الكتابُ المنزل يريد به قول الله تبارك وتعالى « وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

ومن كلامه المُسْتَحْسَنِ قولُهُ لجرير :

فَهَلْ ضَرْبَةُ الرُّومِىِّ جَاعِلَةٌ لَكُمْ ... أَبًا عَنْ كُلَيْبٍ أَوْ أَبًا مِثْلَ دَارِمِ

ومن أقبح الضرورة ، وأهْجَنِ الألفاظِ ، وأبْعَدِ المعانى قوله :

وَمَا مِثْلُهُ فِى النَّاسِ إِلاَّ مُمَلَّكًا ... أَبُو أُمِّهِ حَىٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ

مَدَحَ بهذا الشعر إبراهيم بن هشام بن إسمعيل بن هشام بن المُغِيرة بن عبد الله بن عمر بن مَخْزومٍ وهو خال هشام بن عبد الملك فقال وما مِثْلُه فى الناس إلا مُمَلَّكًا يعنى بالمُمَلَّكِ هشامًا ، أبو أمّ ذلك المُمَلَّكِ أبو هذا الممدوح ، ولو كان هذا الكلام على وجهه لكان قبيحاً ، وكان يكون إذا وَضَعَ الكلامَ فى مَوْضعه أن يقول : وما مثله فى الناس حَىٌّ يقاربه إلا مُمَلَّكٌ أبو أمِّ هذا المُمَلَّك أبو هذا الممدوح ، فدَلَّ على أنه خاله بهذا اللفظ البعيد وهَجَّنَهُ بمَا أوقع فيه من التقديم والتأخير حتى كأن هذا الشعر لم يجتمع فى صدر رجل واحد مع قوله حيث يقول :

تَصَرَّمَ مِنِّى وُدُّ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ ... وَمَا كَادَ مِنِّى وُدُّهُمْ يَتَصَرَّمُ
قَوَارِصُ تَأْتِينِى وَيَحْتَقِرُونَهَا ... وَقَدْ يَمْلَأُ الْقَطْرُ الإِنَاءَ فَيَفْعَمُ

(القارِصة الكلمة المؤذية) وكأنه لم يقع ذلك الكلام لمن يقول :

وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي السَّوَادِ كَأَنَّهُ ... لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارُ

فهذا أوْضح معنًى ، وأعْربُ لفظٍ ، وأقْربُ مأْخذٍ .

وليس لِقِدَم العهْدِ يُفضَّلُ القائلُ ، ولا لحدثانِ عهْدٍ يُهْتضمُ المصيب ، ولكن يُعْطَى كلٌّ ما يستحق ، ألا ترى كيف يفضل قول عُمارةَ على قرب عهده :

تبَحَّثْتُمُ سُخْطِي فغيَّرَ بَحْثُكُمْ ... نَخِيلَةَ نفْسٍ كَانَ نُصْحًا ضَمِيرُهَا

وَلَنْ يُلْبِثَ التَّخْشِينُ نَفْسًا كَرِيمَةً ... عَرِيكَتُهَا أَنْ يَسْتَمِرَّ مَرِيرُهَا

وَمَا النَّفْسُ إِلَّا نُطْفَةٌ بِقَرَارَةٍ ... إِذَا لَمْ تُكَدَّرْ كَانَ صَفْوًا غَدِيرُهَا

فهذا كلام واضح ، وقول عَذْبٌ ، وكذلك قوله أيضاً :

بَنِي دَارِمٍ إِنْ يَفْنَ عُمْرِي فَقَدْ مَضَى ... حَيَاتِي لَكُمْ مِنِّي ثَنَاءٌ مُخَلَّدُ

بَدَأْتُمْ فَأَحْسَنْتُمْ فَأَثْنَيْتُ جَاهِدًا ... وَإِنْ عُدْتُمُ أَثْنَيْتُ وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ

*

ومما يُفضَّلُ لتخلُّصِهِ مِنَ التَّكلُّف ، وسلامته من التَّزيُّدِ ، وبُعْدِهِ من الاستعانة قولُ أبي حَيَّةَ النُّمَيْريّ :

رَمَتْنِي وَسِتْرُ اللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ... عَشِيَّةَ آرَامِ الْكِنَاسِ رَمِيمُ

(قيل فى سِتْرِ الله الإِسلامُ ، وقيل فيه إنه الشَّيْبُ ، وقيل ماحَرَّمَ الله عليهما) .

أَلَا رُبَّ يَوْمٍ لَوْ رَمَتْنِي رَمَيْتُهَا ... وَلَٰكِنَّ عَهْدِي بِالنِّضَالِ قَدِيمُ

(يَرَى النَّاسُ أَنِّي قَدْ سَلَوْتُ وَإِنَّنِي ... لَمَرْمِيُّ أَحْنَاءِ الضُّلُوعِ سَقِيمُ

يقول رَمَتْنِي بطرْفها وأصابتْنِي بمحاسنها ولو كنتُ شابا لرَمَيْتُ كما رُمِيتُ ،

وَفتَنْتُ كما فُتِنْتُ ، ولكن قد تطَاوَلَ عَهْدِى بالشّباب ، فهذا كلام واضح

(قال أبو الحسن أنْشَدَنا أبو العباس أحمد بن يحيى البيتين عن عبد الله ابن شَبِيبٍ ورَوَى ٭ عَشِيَّةَ أَحْجارِ الْكِناسِ رَمِيمُ ٭ وزاد فيه :

رَمِيمُ الَّتِى قالَتْ لِجَارَاتِ بَيْتِهَا ضَمِنْتُ لَكُمْ أَنْ لاَ يَزالَ يَهِيمُ

الكِناس والمَكنِسُ الموضع الذى تأوى إليه الظِّباء ، وجمع الكِناس كُنُسٌ وجمع المَكْنِس مَكانِس ، ورَمِيم اسم جارية مأخوذ من العظام الرَّميم ، وهى البالية ، وكذلك الرِّمَّةُ والرُّمَّةُ القطعة البالية من الحبل ، وكل ما اشتق من هذا فاليه يَرْجِعُ) .

٭٭٭

قال أبو العباس : وأما ما ذكرناه من الاستعانة ، فهو أن يُدْخِلَ فى الكلام ما لاحاجة بالمستمع إليه ليُصَحِّحَ به نَظْماً أو وَزْناً إن كان فى شِعر ، أو ليتذكر به ما بعده إن كان فى كلام منثور ، كنحو ما تَسْمَعُهُ فى كثير من كلام العامة مثل قولهم : أَلَسْتَ تَسْمَعُ ؟ أَفَهِمْتَ ؟ أين أنتَ ؟ وما أشبه هذا ، وربما تَشاغَلَ العَيِىُّ بِفَتْلِ إصبعه ، ومَسِّ لِحْيَتِهِ ، وغير ذلك من بدنه ، وربما تَنَحْنَحَ ، وقد قال الشاعر يَعِيبُ بعضَ الخُطَباء فى شعر :

مَلِىءٌ بِبُهْرٍ وَالْتِفَاتٍ وَسُعْلَةٍ وَمَسْحَةِ عُثْنُونٍ وفَتْلِ الْأَصابِعِ

وقال رجل من الخَوارج يصف خَطيباً منهم بالْجُبْنِ ، وأنه مُجِيدٌ لولا أن الرُّعْبَ أذهَلَهُ :

تَنَحْنَحَ زَيْدٌ وَسَعَلْ لَمَّا رَأَى وَقْعَ الْأَسَلْ

وَيْلُمِّهِ إذا ارْتَجَلْ ثُمَّ أطَالَ وَاحْتَفَلْ

(وقال رجل يصف رجلا من إياد بالعِيِّ، وكان أبوه خطيباً وخالُهُ:

جَمَعْتَ صُنُوفَ العِيِّ مِنْ كُلِّ وِجْهَةٍ وَكُنْتَ مَلِيئاً بِالْبَلاغَةِ مِنْ كَثَبْ
أَبُوكَ مُعَمٌّ فِي الْكَلامِ وَمُخْوَلٌ[1] وَخَالُكَ وَثَّابُ الجَرَاثِيمِ[2] فِي الخُطَبْ)

ومما يشاكل هذا المعنى، ويُجانِسُ هذا المذهب، ما كان من خالد بن عبد الله القَسْرِيّ فإنه كان متقدِّما فى الخَطَابةِ ومُتَنَاهِياً فى البلاغة، فخرج عليه المُغيرةُ بن سَعيد بالكوفة فى عشرين رجلاً فعطْعَطُوا به[3]، فقال خالد: أطعِمونى ماء، وهو على المِنبر، فعُيِّرَ بذلك، فكَتَبَ به هِشامٌ إليه فى رسالة يُوَبِّخُهُ فيها، وسنذكرها فى موضعها إن شاء الله، وعَيَّرَهُ يحيى بن نَوْفَلٍ فقال:

لِأَعْلاجٍ[4] ثَمانِيَةٍ وَعَبْدٍ لَئِيمِ الأَصْلِ فِي عَدَدٍ يَسِيرِ
هَتَفْتَ بِكُلِّ صَوْتِكَ أَطْعِمُونِي شَرَاباً ثُمَّ بُلْتَ عَلَى السَّرِيرِ

فهذا عارضٌ[5]، وقال آخر يُعَيِّرُهُ:

بَلَّ المَنَابِرَ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ وَهَلٍ[6] وَاسْتَطْعَمَ المَاءَ لمَّا جَدَّ فِي الهَرَبِ
وَأَلْحَنُ النَّاسِ كُلِّ النَّاسِ قَاطِبَةً وَكَانَ يُولَعُ بِالتَّشْدِيقِ فِي الخُطَبِ

ومما يُسْتَحْسَنُ لَفْظُهُ، ويُسْتَغْرَب معناه، ويُحْمَدُ اخْتِصارُهُ، قولُ أعرابيّ مِنْ بنى كِلَاب:

فَمَنْ يَكُ لَمْ يَغْرَضْ فَإِنِّي وَنَاقَتِي بِحَجْرٍ إِلَى أَهْلِ الحِمَى غَرِضَانِ

---

(١) معم ومخول: كريم الأعمام والأخوال. (٢) الجراثيم: الأماكن العالية، والمراد شريفات المعانى. (٣) عطعطوا: من العطعطة، وهى اختلاف الأصوات واختلاطها فى الحرب.
(٤) الأعلاج: من غلظت أبدانهم من الكفار. (٥) أى طارئ عليه لا يقدح فى اقتداره الحلى عطابة. (٦) الوهل: الفزع.

(هَوَى نَاقَتِى خَلْفِى وَقُدَّامِىَ الْهَوَى ... وَإِنِّى وَإِيَّاهَا لَمُخْتَلِفَانِ)
تَحِنُّ فَتُبْدِى مَا بِهَا مِنْ صَبَابَةٍ ... وَأُخْفِى الَّذِى لَوْلَا الْأُسَى لَقَضَانِى

(أنشد صاعدٌ بعدهما زيادةً فيهما :

فَيَا كَبِدَيْنَا أَجْمِلَا قَدْ وَجَدْتُمَا ... بِأَهْلِ الْحِمَى مَالَمْ يَجِدْ كَبِدَانِ
إِذَا كَبِدَانَا خَافَتَا وَشْكَ نِيَّةٍ ... وَعَاجِلَ بَيْنٍ ظَلَّتَا تَجِبَانِ[1])

يريد لقضى علَىَّ ، فأخرجه لفصاحته وعلمه بجوهر الكلام أحسَنَ مُخْرَجٍ .
قال الله عزّ وجل : « وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » والمعنى إذا كالوا لهم أو وَزَنُوا لهم ، ألا تَرَى أنّ أول الآية : « الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ » فهؤلاء أَخَذُوا منهم ثم أعطوهم ، وقال الله تبارك وتعالى : « وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا » أى من قومه ، وقال الشاعر (هُوَ أَعْشَى طَرُودٍ وَاسْمُهُ إياسُ بن عامر) :

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَافْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ ... فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وَذَا نَشَبِ

أى أمَرْتُكَ بالخير ، ومن ذا قول الفرزدق :

وَمِنَّا الَّذِى اُخْتِيرَ الرِّجَالَ سَمَاحَةً ... وَجُودًا إِذَا هَبَّ الرِّيَاحُ الزَّعَازِعُ

أى من الرجال ، فهذا الكلام الفصيح .

وتقول العرب : أَقَمْتُ ثلاثًا ما أَذُوقُهُنَّ طعامًا ولا شرابًا : أى ما أذوقُ فيهنّ ، وقال الشاعر :

---

(١) تجبان : تخفقان ، والمصدر الوجيب .

وَيَوْمًا شَهِدْنَاهُ سُلَيْمًا وَعَامِرًا(١) قَلِيلاً سِوَى الطَّعْنِ النِّهَالِ نَوَافِلُهْ(٢)

قال أبو الحسن قوله : لم يغرض ، أى لم يشتق ، يقال : غرضتُ إلى لقائك ، وحننتُ إلى لقائك ، وعطشتُ إلى لقائك ، وجعتُ إلى لقائك : أى اشتقتُ ، أخبرنا بذلك أبو العباس أحمد بن يحي عن ابن الأعرابى ، وأنشدنا عنه :

مَنْ ذَا رَسُولٌ نَاصِحٌ فَمُبَلِّغٌ عَنِّى عُلَيَّةَ غَيْرَ قَوْلِ الْكَاذِبِ

أَنِّى غَرِضْتُ إِلَى تَنَاصُفِ وَجْهِهَا غَرَضَ الْمُحِبِّ إِلَى الْحَبِيبِ الْغَائِبِ

التناصُفُ الحُسْنُ . وأما قوله : لقضانى فإنما يريد لقضى علىَّ الموتَ ، كما قال الله تبارك وتعالى : « فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ » فالموتُ فى النية وهو معلوم بمنزلة ما نطقتَ به ، فلهذا ناسب هذا قولَهُ عزّ وجل : « وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ » وكذلك قولهُ تعالى : « كَالُوهُمْ » فالشىء المكيلُ معلوم ، فهو بمنزلة ما ذُكِرَ فى اللفظ ، ولا يجوز مررت زيداً ، وأنت تريد مررت بزيد ، لأنه لا يتعدى إلا بحرف جر ، وذلك أنه فعل الفاعل فى نفسه ، وليس فيه دليل على المفعول ، وليس هذا بمنزلة ما يتعدّى إلى مفعولين ، فيتعدى إلى أحدهما بحرف جرّ ، وإلى الآخر بنفسه ، لأن قولك اخترتُ الرجالَ زيداً ، قد عُلِمَ بذِكْرِكَ زيداً أن حرف الجر محذوف من الأوّل ، فأما قول الشاعر ، وهو جرير ، وإنشادُ أهل الكوفة له ، وهو قوله :

تَمُرُّونَ الدِّيَارَ وَلَمْ تَعُوجُوا كَلاَمُكُمُ عَلَىَّ إِذًا حَرَامُ

---

(١) شهدناه : أى شهدنا فيه . (٢) يرى الشيخ المرصفى أن صواب الرواية (سوى طعن النهال) بحذف الألف واللام ، والنهال الرماح العطاش تروى بالدماء ، والنوافل الغنائم وهى مرفوعة بقليلا .

وروايةُ بعضِهم له «أَتَمْضُونَ الدِّيارَ» فليسا بشيء لما ذَكَرْتُ لك ، والسماع الصحيح ، والقياس المُطَّرِدُ ، لا تعْتَرِضُ عليه الرِّوايةُ الشاذةُ . أخبرنا أبو العباس محمد بن يَزِيدَ قال قرأت على عُمارَةَ بن عَقِيل بن بلال بن جَرِيرٍ :

* مَرَرْتُمْ بِالدِّيارِ وَلَمْ تَعُوجُوا *

فهذا يدُلُّكَ على أن الرواية مُغَيَّرَةٌ ، فأما قولهم : أقمت ثلاثا ما أذوقهن طعاما ولا شرابًا ، وقولُ الراجز :

قَدْ صَبَّحَتْ صَبَّحَهَا السَّلامُ[1] بِكَبِدٍ خَالَطَهَا سَنَامُ

* فِي سَاعَةٍ يُحَبُّهَا الطَّعَامُ *

يريد في ساعة يُحَبُّ فيها الطَّعَامُ ، وكذلك الأوّل معناه ما أذوقُ فيهنّ ، فليس هذا عندى من باب قوله جَلَّ وعَلاَ « وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ » إلا في الحذف فقط ، وذلك أن ضمير الظَّرْف تجعله العربُ مفعولاً على السَّعَةِ ، كقولهم يَوْمُ الجمعة سِرْتُهُ ، ومكانُكُمْ قُمْتُهُ ، وَشَهْرُ رمضان صُمْتُهُ ، فهذا يُشَبَّهُ في السَّعَةِ بقولك زيدٌ ضربتُهُ وما أشبهه ، فهذا بَيِّنٌ[2]) .

***

قال أبو العباس : ومما يُسْتَحْسَنُ وَيُسْتَجَادُ قول أعرابيّ من بني سَعْد ابن زيد مَنَاةَ بن تميم ، وكان مُمْلَكًا[3] ، فنزل به أضياف ، فقام إلى الرحى فطحن لهم ، فَمَرَّتْ به زوجتُهُ في نِسْوَةٍ ، فقالتْ لهن : أهذا بَعْلِي ؟ فأُعْلِمَ بذلك فقال (قال أبو الحسن أخبرنا به عن أبي مُحَلِّمٍ له يعني السَّعْدِيَّ) :

---

(١) صبحت أتت بالتصبيح وهو الفطور . (٢) هذا نهاية كلام ابن القوطية .

(٣) مملكا : اسم مفعول من أملكه المرأة : زوّجه إياها .

تَقُولُ وَصَكَّتْ صَدْرَهَا بِيَمِينِهَا ... أَبَعْلِيَ هٰذَا بِالرَّحَى الْمُتَقَاعِسُ
فَقُلْتُ لَهَا لَا تَعْجَبِي وَتَبَيَّنِي ... بَلَائِي إِذَا الْتَفَّتْ عَلَيَّ الْفَوَارِسُ
أَلَسْتُ أَرُدُّ الْقِرْنَ يَرْكَبُ رَدْعَهُ ... وَفِيهِ سِنَانٌ ذُو غِرَارَيْنِ يَابِسُ
إِذَا هَابَ أَقْوَامٌ تَجَشَّمْتُ هَوْلَ مَا ... يَهَابُ حُمَيَّاهُ الْأَلَدُّ الْمُدَاعِسُ
لَعَمْرُ أَبِيكِ الْخَيْرِ إِنِّي لَخَادِمٌ ... لِضَيْفِي وَإِنِّي إِنْ رَكِبْتُ لَفَارِسُ

قوله الْمُتَقاعِسُ إنما هو الذى يُخْرِجُ صَدْرَه وَيُدْخِلُ ظهره ، ويقال عِزَّةٌ قعساء ، وإنما هذا مَثَلٌ ، أى لا تَضَعُ ظهرَها إلى الأرض ، وقوله بالرحى المتقاعس لو أراد الذى يتقاعَسُ بالرحى لم يَجُزْ ، لأن قوله بالرحى من صلة الذى، والصلة من تمام الموصول ، فلو قدمها قبله لكان لحناً وخطأ فاحشاً ، وكان كَمَنْ جَعَلَ آخر الاسم قبل أوله ، ولكنه جَعَلَ المتقاعسَ اسما على وجهه ، وجعل قوله بالرحى تَبْيِيناً بمنزلة لَكَ التى تَقَعُ بعد قولك سقْياً ، وبمنزلة بِكَ التى تقع بعد مَرْحباً، فإن قَدَّمْتَهَا قبل سَقْياً وَمَرْحباً فذلك جيِّدٌ بالغ، تقول بك مرحباً وأهلا، وتقول لك حَمْدًا، ولزيدٍ سَقْياً، فأما قولُ الله عزّ وجل «وأنا على ذٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » وكذلك « وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ » فيكون تفسيره على وجهين أحدهما أن يكون : وأنا ناصحٌ لكما ، وأنا شاهد على ذلكم ، ثم جعل من الشاهدين ولَمِن الناصحين تفسيراً لشاهدٍ وناصح ، ويكون على ما فسرنا يراد به التبيين فلا يدخل فى الصلة ، ويكون على مذهب المازنى . وقال أبو العباس : وهو الذى أختار ، على أن الألف واللام للتعريف لا على معنى الذى ، ألا ترى أنك تقول نِعْمَ القائمُ زيدٌ ، ولا يجوز نِعْمَ الذى قامَ زيد ، وإنما هو بمنزلة قولك نِعْمَ الرجلُ زيدٌ ، وهذا الذى

شرحناه متصلٌ فى هذا الباب كُلِّهِ مُطَّرِدٌ على القياس ، وقوله :

* أَلَسْتُ أَرُدُّ القِرْنَ يَرْكَبُ رَدْعَهُ * فإنما اشتقاقه من السهم يقال ارتدع السهم إذا رجع النَّصْلُ متأخرا فى السِّنْخِ[1] ، ويقال ركب البعيرُ رَدْعَهُ إذا سقط ، فدخلت عُنُقُهُ فى جوفه ، فالكلام مُشْتَقٌّ بعضُه من بعض ، ومُبَيِّنٌ بعضُه بعضاً ، فيقال من هذا فى المَثَلِ ذهب فلانٌ فى حاجتى فارتدَعَ عنها أى رجع ، وكذلك : فلان لا يَرْتَدِعُ عن قبيح ، والأصل ما ذكرتُ لك أوّلاً .

ومثل هذا قولهم فلانٌ على الدّابة ، وعلى الجبل ، أى فوق كل واحد منهما ، ثم تقول فلانٌ عليه دَيْنٌ تمثيلاً ، وكذلك رَكِبَهُ دَيْنٌ ، وإنما يريد أن الدَّيْنَ علاه وقَهَرَهُ ، وكذلك فلان على الكوفة إذا كان وَالِياً عليها ، وكذلك : عَلاَ فلانٌ القومَ ، إذا علاهم بأمره وقهرهم ، أو جُعِلَ فى هذا الموضع .

وقوله : * وَفِيهِ سِنَانٌ ذُو غِرَارَيْنِ يَابِسُ * فالغِرار هاهنا الحَدُّ وللغرار مواضع .

قال أبو العباس : وحدثنى الرِّيَاشِيُّ فى إسنادٍ له قال قال جَبْرُ بن حبيبٍ ، وذكر الراعى أخطأ الأعْوَرُ قال ولم يَعْلَمْ الحاكى عنه أن الراعى كان أعورَ إلا مِنْ هذا الخبر فى قوله :

فَصَادَفَ سَهْمُهُ أَحْجَارَ قُفٍّ[2] كَسَرْنَ الْعَيْرَ مِنْهُ وَالْغِرَارَا[3]

وجَبْرُ بن حبيب هو المخطئُ لأن الغرار ههنا هو الحدّ ، وذهب جَبْرٌ إلى أنه المِثالُ ، وقد يكون المثالَ وليس ذلك بمانعه من أن يَحْتَمِلَ مَعَانِيَ ، يقال بَنَوْا

---

(١) السنخ : الأصل ، وهو هنا طرف الرمح . (٢) القف : حجارة غاصّ بعضها ببعض .
(٣) العير : ما نتأ فى وسط النصل .

بيوتهم على غِرارٍ واحد أى على مثالٍ واحد، كما قال عمرو بن أحمر الباهلىّ :

وَضَعْنَ وَكُلُّهُنَّ عَلَى غِرارٍ   هِجانَ اللَّوْنِ[1] قَدْ وَسَقَتْ جَنِينا[2]

(الرواية عن أبى العباس وضَعْنَ بفتح الضاد والواو والصحيح وُضِعْنَ بضم الواو وكسر الضاد).

ويقال لِسُوقِنا دِرَّةٌ وغِرارٌ أى نَفَاقٌ وَكَسادٌ، فهذا معنى آخر، وإنما تأويل الغرار فى هذا المعنى الأخير أنه شىء بعد شىء، ومن هذا غارَّ الطائرُ فَرْخَهُ، لأنه إنما يعطيه شيئاً بعد شىء، وكذلك غارَّتِ الناقةُ فى الحَلَبِ، ويقال من هذا ما نِمْتُ إلا غِراراً[3]. قال الشاعر :

ما أذُوقُ النَّوْمَ إلاَّ غِراراً   مِثْلَ حَسْوِ الطَّيْرِ ماءَ الثِّمادِ[4]

فَكَشَفَ فى هذا البيت معنى الغرار وأوضحه.

وقوله : ٭ يهابُ حُمَيّاهُ الأَلَدُّ المُداعِسُ ٭ فأصل الحُمَيّا إنما هى صَدْمَةُ الشىء، يقال فلان حامى الحُمَيّا، ويقال صَدَمَتْهُ حُمَيّا الكأسِ، يراد بذلك سَوْرَتُها.

وقوله الألدّ فأصله الشديد الخصومة، يقال خَصْمٌ ألَدُّ : أى لا ينثنى عن خصمه. قال الله عزّ وجل : « وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا » كما قال « بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ » وقال مُهَلْهِلٌ :

إنَّ تَحْتَ الأَحْجارِ حَزْمًا وَجُوداً   وَخَصِيمًا أَلَدَّ ذا مِعْلاقِ

ويروى مِغْلاق، فمن رَوَى ذلك فتأويله أنه يُغْلِقُ الحُجَّةَ على الخصم، ومن

---

(١) هجان اللون : المراد بيض اللون . (٢) وسقت : حملت . (٣) أى قليلا .

(٤) حسا الطائر الماء : أخذه بفيه ، والثماد : اسم للماء القليل .

قال ذا مِغْلاق ، فإنما يريد أنه إذا عَلِقَ خصمًا لم يَتَخَلَّصْ منه ، وجعل السَّعْدِيُّ الألدَّ الذى لا ينثنى عن الحرب تشبيها بذلك ، والمداعِسُ المُطَاعن يقال دَعَسَهُ بالرمح إذا طَعَنَهُ : قال عُمَيْرُ بن الحُبابِ السُّلَمِيُّ :

أَنَا عُمَيْرٌ وَأَبُو المُغَلِّسْ وَبِالقَناةِ مَازِنِيٌّ مِدْعَسْ

(قال أبو الحسن تأويل قوله أى قول السعدى: * أَبَعْلِيَ هٰذَا بِالرَّحَى المُتَقَاعِسُ * بالرحى تبيين ولم يوضحه ، فإن تقدير ما كان من هذا الضرب أنه إذا قال: أبعلى هذا بالرحى المتقاعسُ ، فإن المتقاعِسَ يدل على أن تَقَاعُسًا وَقَعَ ، فكأنه قال وَقَعَ التَّقَاعُسُ بالرحى ، ولم يرد أَنْ يُعْمِلَ المتقاعِسَ فى قوله بالرحى ، لأنه فى الصِّلَةِ ، والصلةُ من الموصول بمنزلة الدال من زيد أو الياء ، فكما لا يجوز أن يتقدم حروفُ الاسم بعضُها على بعض ، لم يجز أن تتقدَّم الصلةُ على الموصول، فأما قول الله عزّ وجل « وقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لِمَنَ النَّاصِحِينَ » وكذلك « وَأَنَا عَلَى ذٰلِكُمْ من الشَّاهِدِينَ » فإنه يكون على التبيين الذى قدَّمنا ذِكْرَهُ وهو قول البصريين أجمعين ، إلا أن أبا عُمَرَ الجَرْمِيَّ[1] أجاز أن يُجْعَلَ لكما، وعلى ذلكم مُعَلَّقين بشيئين محذوفين دلَّ عليهما من الناصحين ومن الشاهدين ، لأن من مُبَعِّضَةٌ ، فكأنه قال والله أعلم : وقَاسَمَهُمَا إنى ناصحٌ لكما من الناصحين ، وأنا شاهد على ذلكم من الشاهدين ، وأما اختياره وذِكْرُهُ أنه قولُ المازنىّ ، وجَعْلُهُ الألف واللام للعهد مِثْلَهُمَا فى الرجل وما أشبهه ، فإن هذا القول غير مَرْضِيٍّ عندى، لأنك إذا قلتَ نِعْمَ القائمُ زيدٌ ، فجعلتَ الألف واللام كالألف واللام الداخلتين على مالم يؤخذ من الفعل كالإنسان والفرس وما أشبهه، فإنه

---

(١) نسبة إلى بنى جرم لأنه مولاهم ، وهو من نحاة البصرة مات سنة ٢٢٥

إذا كان هكذا دخل فى باب الأسماء الجامدة ، وهى التى لم تؤخذ من أمثلة الفعل، وامتنع من أن يعمل مُؤَخَّراً إلا على حِيلَة ووَجْهٍ بعيدٍ من التبيين الذى ذَكَرْنا ، وإذا كان فى التأخير لا يَعْمَلُ بنفسه فكيف يَعْمَلُ إذا تقدّم عليه الظَّرْفُ ؟ وهذا مستحيل لا وَجْهَ له ، وأما إنشاده:

* لَا أَذُوقُ النَّوْمَ إلَّا غِرَارًا * فإن هذه أبيات أربعة أَنْشَدْنَاها عن الزّيَادِىّ(١) ، وَذَكَرَ أنه كان يستحسنها ، وهى لأعرابىّ قال :

مَا لِعَيْنَيْنِي كُحِلَتْ بِالشُّهَادِ ... وَلِجَنْبِي نَابِيًا عَنْ وِسَادِى
لَا أَذُوقُ النَّوْمَ إلَّا غِــرَارًا ... مِثْلَ حَسْوِ الطَّيْرِ مَاءَ الثِّمَادِ
أَبْتَغِي إِصْلَاحَ سُعْدَى بِجُهْدِى ... وَهْيَ تَسْعَى جُهْدَهَا فى فَسَادِى
فَتَتَارَكْنَا عَلَى غَــيْرِ شَىْءٍ ... رُبَّمَا أَفْسَــدَ طُولُ التَّمَادِى

وأما إنشاده : * وَضَعْنَ وَكُلُّهُنَّ على غِرَارٍ * فإن البيت لِعَمْرِو بن أحمر ابن العَمَرَّدِ الباهِلِىّ).

***

قال أبو العباس : ومن سَهْلِ الشِّعْرِ وَحَسَنِهِ قول طُخَيْم بن أبى الطَّخْمَاء الأَسَدِىّ يمدح قوما من أهل الحِيرَةِ(٢) من بنى امْرِئِ القَيْسِ بن زَيْدِ مَنَاةَ ابن تميم ثم من رَهْطِ عَدِىّ بن زيد العِبادِىّ(٣) قال :

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ يَوْمٌ بِزُورَةَ صَالِحٌ(٤) ... وَبِالْقَصْرِ ظِلٌّ دَائِمٌ وَصَدِيقُ

---

(١) نسبة إلى زياد الذى استلحقه معاوية بن أبى سفيان ، مات سنة ٢٤٩

(٢) الحيرة : بلد قديم بظاهر الكوفة ، وللشريف الرضى قصيدة رائية فى بكاء سكانه القدماء .

(٣) نسبة إلى العباد ، وهم قبائل شتى اجتمعوا على النصرانية بالحيرة .

(٤) زورة : موضع بين الكوفة والشام .

وَلَمْ أَرِدِ الْبَطْحَاءَ يَمْزُجُ مَاءَهَا ... شَرَابٌ مِنَ الْبَرُوقَتَيْنِ عَتِيقُ(١)

مَعِي كُلُّ فَضْفَاضِ الْقَمِيصِ كَأَنَّهُ ... إِذَا مَا سَرَتْ فِيهِ الْمُدَامُ فَنِيقُ

بَنُو السِّمْطِ وَالْحُدَّاءِ كُلُّ سَمَيْدَعٍ ... لَهُ فِي الْعُرُوقِ الصَّالِحَاتِ عُرُوقُ(٢)

وَإِنِّي وَإِنْ كَانُوا نَصَارَى أُحِبُّهُمْ ... وَيَرْتَاحُ قَلْبِي نَحْوَهُمْ وَيَتُوقُ

قال أبو العباس : أَنْشَدَنِي هذا الشِّعْرَ أبو مُحَلِّمٍ ، ثم أَنْشَدَنِيهِ رجلٌ نصرانى يُكْنَى أبا يَحْيَى ، شاعرٌ من هؤلاء القوم الذين مُدِحُوا به ، وذَكَرَ أنه يَذْكُرُ طُخَيْماً وهو يَتَرَدَّدُ إليهم ويَظَلُّ عندهم ، قال هذا النصرانى وهو رجل من بنى الحُدَّاء ، قال أَذْكُرُهُ وأنا صغيرٌ جداً ، والسلطانُ يطلبه لقوله :

* له فى العروق الصالحات عروق *

يقول : أتقول هذا لقومٍ من النصارى ؟ وكان هذا النصرانى قد قارَبَ مائة سنة فيما ذُكِرَ .

وقوله معى كل فضفاض القميص يريد أن قميصه ذو فُضُولٍ ، وإنما يقصد إلى ما فيه من الخُيَلاء ، كما قال زُهَيْرٌ :

يَجُرُّونَ الذُّيُولَ وَقَدْ تَمَشَّتْ ... حُمَيَّا الْكَأْسِ فِيهِمْ وَالْغِنَاءُ

ويقال إن تأويل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (فَضْلُ الإزارِ فى النار) إنما أراد معنى الخُيَلاء ، وقال الشاعر :

وَلَا يُنْسِينِيَ الْحَدَثَانُ عِرْضِي ... وَلَا أُرْخِي مِنَ الْمَرَحِ الْإِزَارَا(٣)

وقد رُوِيَ عن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم أنه قال لأبى تَمِيمَةَ الهُجَيْمِيِّ

---

(١) فى ياقوت : برووقتين ، بواوين ، وهو موضع قرب الكوفة .

(٢) بنو السمط والحدّاء : رهطان من النصارى . (٣) المرح : التبختر والاختيال .

(إِيَّاكَ وَالمَخِيلَةَ) فقال : يا رسول الله نَحْنُ قَوْمٌ عَرَبٌ ، فما المَخِيلَةُ ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : سَبْلُ الإِزارِ . والحَدِيثُ يَعْرِضُ لما يَجْرِى فى الحَدِيثِ قَبْلَهُ ، وإن لم يكن من بابه ، ولكن يُذْكَرُ بِهِ .

قال أبو العباس : رُوِىَ لنا أَنَّ رَجُلاً من الصالحين كان عند إبراهيم ابن هشام[١] ، فأنشدَ إبراهيمُ قولَ الشاعر :

إذ أَنْتِ فِينا لِمَنْ يَنْهاكِ عاصِيَةٌ　　وَإِذْ أَجُرُّ إِلَيْكُمْ سادِراً رَسَنِى[٢]

فقام ذلك الرجل (هو ابن أبى عَتِيقٍ) فَرَمَى بشِقِّ رِدائِهِ ، وأَقْبَلَ يَسْحَبُهُ حتى خرج من المجلس ، ثم رجع على تلك الحال فجلس ، فقال له إبراهيم ابن هشام : ما بكَ ؟ فقال : إِنِّى كُنتُ سمعتُ هذا الشعر فاستحسنته فآلَيْتُ أَلاَّ أَسْمَعَهُ إلاَّ جَرَرْتُ رِدَائى كما تَرَى كما سَحَبَ هذا الرجل رَسَنَهُ .

وأما الفنيقُ فإنه الفَحْلُ[٣] ، وإنما أراد[٤] خطرانَهُ بِذَنَبِهِ من الخُيَلاء ، فشبَّهَ الرجلَ من هؤلاء إذا انْتَشَى بالفحل ، وهو إذا خطرَ ضَرَبَ بذنبِهِ يَمْنَةً وشَأْمَةً ، قال ذو الرُّمَّةِ :

وَقَرَّبْنَ بالزُّرْقِ[٥] الجَمائِلَ بَعْدَما[٦]　　تَقَوَّبَ عَنْ غِرْبانِ أَوْراكِها الخَطْرُ[٧]

---

(١) خال هشام بن عبد الملك .　(٢) قبل هذا البيت .

سقياً لربعك من ربع بذى سلم　　وللزمان به إذ ذاك من زمن

(٣) الفحل المودع للفحلة لا يركب ولا يهان لكرامته على أهله .

(٤) الضمير عائد على طخيم صاحب الأبيات القافية .　(٥) الزرق : رمال بالدهناء .

(٦) الجمائل : جمع جمل . وقيل جمع جمالة ، وهى جماعة الابل إذا كانت كلها ذكورا .

(٧) يريد تقوبت غربان أوراكها عن الخطر . ففى البيت قلب ، والمتقوب : من تقلع عن جلده الجرب

*

ومِنْ حسَنِ الشعر وما يقرُبُ مأخذُهُ قولُ مُحَيِّسِ بن أرطاةَ الأعرَجِيِّ، وَالأعرَجُ الحارثُ بن كَعْب بن سَعْد بن زيد مَنَاةَ بن تميم لرجل من بنى حَنيفَةَ يقال له يَحْيىٰ ، وكان يَصِيرُ إلى امرأة فى قرية من قُرَى اليمامةِ يقال لها بَقْعاء : (قال أبو الحسن: أَنْشدْتُهُ عن الرِّيَاشِيِّ نَقْعاء ، وسألت رجلاً من أهل اليمامة فَصِيحاً من بنى حنيفة عن هذا ، فقال ما أعرفه إلا بَقْعاء بالباء) :

عرَضْتُ نَصِيحَةً مِنِّى لِيَحْيَى ... فَقَالَ غَشَشْتَنِى وَالنُّصْحُ مُرُّ
وَمَا بِى أنْ أكُونَ أَعِيبُ يَحْيىٰ ... وَيَحْيىٰ طاهِرُ الأَخْلاقِ بَرُّ
وَلٰكِنْ قَدْ أَتَانِى أَنَّ يَحْيىٰ ... يُقَالُ عَلَيْهِ فِى بَقْعاءَ شَرُّ
فَقُلْتُ لَهُ تَجَنَّبْ كُلَّ شَىْءٍ ... يُعَابُ عَلَيْكَ إِنَّ الحُرَّ حُرُّ

فهذا كلام ليس فيه فَضْلٌ عن معناه .

وقوله : إن الحر حر إنما تأويله أن الحُرَّ على الأخلاق التى عُهِدَتْ فى الأحرار ، ومثلُ ذلك : * أنا أَبُو النَّجْمِ وَشِعْرِى شِعْرِى *

أَىْ شِعْرِى كما بَلَغَكَ وكما كُنْتَ تَعْهَدُ ، وكذلك قولهم : الناسُ الناسُ أى الناس كما كنت تَعْهَدُهُمْ (قال أبو الحسن : ومنه قول الله عزّ وجل : « فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ») .

وقوله : فقلتُ له تَجَنَّبْ كل شىء يعاب عليك كقول عمرو بن العاص لمعاوية حين وَصَفَ عَبْدَ المَلِكِ بن مَرْوان فقال : آخِذٌ بثلاث ، تارِكٌ لثلاث ، آخِذٌ بقلوب الرجال إذا حَدَّثَ ، وبِحُسْنِ الاستماع إذا حُدِّثَ ، وبأيسرِ

الأمرين عليه إذا خُولِفَ ، تاركٌ لِلمِرَاء ، تاركٌ لمقاربة اللئيم ، تاركٌ لما يُعْتَذَرُ منه ، كقوله :

.... تجنَّبْ كُلَّ شَيْء يُعَابُ عَلَيْكَ إنَّ الحُرَّ حُرٌّ

⁂

ومما يُسْتَحْسَنُ إنشاده من الشعر لصحة معناه ، وجزالة لفظه ، وكثرة تَرَدُّدِ ضَرْبِهِ من المعانى بين الناس ، قولُ ابن مَيَّادَةَ لرِيَاحِ بن عثمان ابن حَيَّانَ المُرِّىّ ، من مُرّة غطفانَ ، وكلاهما من مُرَّةِ غَطَفانَ ، يقوله فى فتنة محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن ، وكان أشار عليه بأن يَعْتَزِلَ القومَ فلم يفعل فَقُتِلَ ، فقال ابن مَيَّادَةَ :

أَمَرْتُكَ يَا رِيَاحُ بِأَمْرِ حَزْمٍ فَقُلْتَ هَشِيمَةٌ مِنْ أَهْلِ نَجْدِ
نَهَيْتُكَ عَنْ رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى مَحْبُوكَةِ الْأَصْلَابِ جُرْدِ
وَوَجْداً مَا وَجَدْتُ عَلَى رِيَاحٍ وَمَا أَغْنَيْتُ شَيْئاً غَيْرَ وَجْدِى

فقوله : (فقلت هَشِيمَةٌ من أهل نجد) تأويله ضَعَفَةٌ ، وأصل الهشيمِ النَّبْتُ إذا وَلَّى وَجَفَّ وتكسَّر ، فذَرَتْهُ الرِّياحُ يميناً وشِمالاً . قال الله تعالى : « فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ » والنَّجْدُ أعالى الأرض .

وقوله : * عَلَى مَحْبُوكَةِ الْأَصْلَابِ جُرْدِ * فالمَحْبُوك الذى فيه طَرَائق(١) واحدها حِباكٌ ، والجماعة حُبُكٌ(٢) يقال لطرائق الماء حُبُكٌ(٣) ،

---

(١) قال الشيخ المرصفى : والصواب أن يقول : فالمحبوك الذى أحكم خلقه من حبكت الثوب إذا أحكمت نسجه ، يريد أن أصلاب الخيل موثقة مدمجة ، ثم يقول : والمحبوك أيضا الذى فيه طرائق ، فيكون معنى ثانياً للكلمة .

(٢) ويقال أيضا للواحد : حبيكة والجمع حبائك . (٣) أى الماء الساكن حين تحركه الريح .

وكذلك الطرائق التى على جناح الطائر[١] من ذلك قول الله تبارك وتعالى : « وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ » .

قال أبو الحسن : ابن مَيَّادَةَ اسمه الرَّمَّاحُ وأمه مَيَّادَة وأبوه أَبْرَدُ ، وكان عاقًّا بأمه ، ولها يقول :

أَعْرَنْزِمِى مَيَّادَ لِلْقَوافِى ... وَاسْتَمِعِيهِنَّ وَلاَ تَخافِى
* سَتَجِدِينَ ابْنَكِ ذَا قِذافِ *

وأصل الاعْرِنْزَامِ : التَّجَمُّعُ والتَّقَبُّضُ ، يقول : اسْتَعِدِّى لها وتَهَيَّئِى .

وأنْشَدَنا أبو العباس محمد بن يَزِيدَ له :

وَنَواعِمٍ قَدْ قُلْنَ يَوْمَ تَرَحُّلِى ... قَوْلَ الْمُجِدِّ وَهُنَّ كالْمُزَّاحِ
يا لَيْتَنا مِنْ غَيْرِ أَمْرٍ فَادِحٍ ... طَلَمَتْ عَلَيْنا الْعِيسُ بِالرَّمَّاحِ

فى أبيات له يعنى نَفْسَه . قال أبو الحسن ، وتمام الأبيات :

بَيْنا كَذَاكَ رَأَيْنَنِى مُتَعَصِّباً ... بِالْخَزِّ فَوْقَ جُلالَةٍ[٢] سِرْداحِ[٣]
فِيهِنَّ صَفْراءُ المَعاصِمِ[٤] طَفْلَةٌ[٥] ... بَيْضاءُ مِثْلُ غَرِيضَةِ التُّفَّاحِ[٦]
رَيَّشْنَ حِينَ أَرَدْنَ أَنْ يَرْمِينَنِى ... نَبْلاً بِلاَ رِيشٍ وَلاَ بِقِداحِ
وَنَظَرْنَ مِنْ خَلَلِ السُّتُورِ بِأَعْيُنٍ ... مَرْضَى مُخالِطُها السَّقامُ صِحاحِ

***

قال أبو العباس : ثم نَذْكُرُ من كلام الحكماء وأمثالهم وآدابهم صدراً ، ثم نعود إلى الْمُقَطَّعاتِ إن شاء الله .

---

(١) يعنون بها الخطوط السود التى على الجناح .

(٢) الجلالة : الناقة الضخمة . (٣) السرداح والسرداحة : الناقة الطويلة .

(٤) من التضمخ بالزعفران . (٥) الطفلة بفتح الطاء : الناعمة . (٦) الغريض : الطرى .

يروى عن ابن عمر أنه كان يقول : إنّا مَعْشَرَ قريشٍ كنا نَعُدُّ الْجُودَ والحِلْمَ السُّؤْدَدَ ، ونَعُدُّ العفَافَ وإصْلَاحَ المالِ المُرُوءَةَ .

قال الأَحْنَفُ بن قَيْسٍ : كثرةُ الضَّحِكِ تُذْهِبُ الْهَيْبَةَ ، وكثرةُ المَزْحِ تُذْهِبُ المُرُوءَةَ ، ومن لَزِمَ شيئاً عُرِفَ به .

وقيل لعَبْدِ المَلِكِ بن مَرْوَانَ : ما المُرُوءَةُ ، فقال مُوَالَاةُ الْأَكْفاءِ ، ومُدَاجاةُ الْأَعْدَاءِ .

وتأويل المُدَاجاةِ : المُدَارَاةُ . أى لا تُظْهِرْ لهم ما عندك من العداوة ، وأصله من الدُّجى ، وهو ما أَلْبَسَكَ الليلُ من ظلمته .

وقيل لمعاوية : ما المُرُوءَةُ ؟ فقال : احتمال الجَرِيرَةِ ، وإصْلَاحُ أَمْرِ الْعَشِيرَةِ ، فقيل له : وما النُّبْلُ ؟ فقال : الحِلْمُ عند الغضب ، والعَفْوُ عند القُدْرَة .

وكان أبو سُفْيَانَ إذا نزل به جارٌ قال له : ياهذا ، إنك قد اُخترتنى جاراً ، واخترتَ دارى داراً ، فَجِنايَةُ يَدِكَ علىَّ دونَكَ ، وإن جَنَتْ عليك يَدٌ فاحْتَكِمْ علىَّ حُكْمَ الصبىِّ على أهله .

وذلك أن الصبى قد يَطْلُبُ ما لايوجد إلاّ بعيداً ، ويطلب مالا يكون أَلْبَتَّةَ ، قال الشاعر (هُوَ الأَعْرَجُ المَعْنِىُّ) :

وَلَا تَحْكُمَا حُكْمَ الصَّبِىِّ فَإِنَّهُ كَثِيرٌ عَلَى ظَهْرِ الطَّرِيقِ مَجَاهِلُه (١)

ويروى أن معاوية بن أبى سفيان لما نَصَبَ يَزِيدَ لِوِلايةِ الْعَهْدِ أَقْعَدَهُ فى قُبَّةٍ حمراء ، فَجَعَلَ الناسُ يُسَلِّمُونَ على معاوية ، ثم يميلون إلى يزيد ، حتى جاء

---

(١) المجاهل : كالمحاسن والملامح ، جمع ليس له واحد .

رجل ففعل ذلك ، ثم رجع إلى معاوية ، فقال : يا أمير المؤمنين ، اعْلَمْ أنك لو لم تُوَلِّ هذا أمورَ المسلمين لَأَضَعْتَهَا - والأَحْنَفُ جالس - فقال له معاوية : ما بالُكَ لا تقولُ يا أبا بَحْرٍ ، فقال : أخاف الله إن كَذَبْتُ ، وأخافُكُمْ إن صَدَقْتُ . فقال : جزاكَ الله عن الطاعة خيراً ، وَأَمَرَ له بألوفٍ ، فلما خرج الأحنفُ لَقِيَهُ الرجلُ بالباب ، فقال : يا أبا بَحْرٍ ، إنى لَأَعْلَمُ أن شَرَّ مَنْ خَلَقَ اللهُ هذا وابْنُهُ ، ولكنهم قد اسْتَوْثَقُوا من هذه الأموال بالأبواب والأَقْفَالِ ، فلَسْنا نَطْمَعُ فى استخراجها إلا بما سمعتَ ، فقال له الأحنف : ياهذا أمْسِكْ ، فإن ذا الوجهين خَلِيقٌ ألَّا يكونَ عند الله وجِيهاً .

⁂

وقال رجل يهجو بلال بن البَعِيرِ المحارِبِيَّ (الشاعرُ الرَّمّاحُ بن مَيَّادَةَ) :

يقولون أَبْنَاءُ البَعِيرِ وَما لَهُ ... سَنَامٌ وَلَا فِي ذِرْوَةِ المَجْدِ غَارِبُ
أَرَادَتْ وَذَا كُمْ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهَا ... لِأَهْجُوهَا لَمَّا هَجَتْنِي مُحَارِبُ[(١)]
مَعَاذَ إِلٰهِي إِنَّنِي بِعَشِيرَتِي ... وَنَفْسِيَ عَنْ ذَاكَ المَقَامِ لَرَاغِبُ

وقال أبو الطَّمَحَانِ القَيْنِيُّ (اسمه حَنْظَلَةُ بن الشَّرْقِيِّ ، وَالطَّمَحَانُ فَعَلَانٌ من طَمَحَ بأنفه و بصره إذا تَكَبَّرَ ، وَالْقَيْنُ الحَدَّادُ ، وكلُّ صانعٍ قَيْنٌ ، والْقَيْنُ أيضاً موضع القَيْدِ مِن البعير) :

وَإِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ هُمُ هُمُ ... إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ سَيِّدٌ قَامَ صَاحِبُهْ
نُجُومُ سَمَاءٍ كُلَّمَا غَارَ كَوْكَبٌ ... بَدَا كَوْكَبٌ تَأْوِي إِلَيْهِ كَوَاكِبُهْ

---

(١) وفى رواية أخرى :

أظنت سفاها من سفاهة رأيها ... أن اهجوها لما هجتنى محارب

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
وما زال منهم حيث كانوا مسود تسير المنايا حيث سارت كتائبه

وقال إياس بن الوليد يمدح قومه :

إني وجدك من قوم إذا طلبوا بعد النسيئة دينا أحسنوا الطلبا(١)
لا تحسبوا هجم أبياتي علانية ولا استلاب سلاحي ذاهبا لعبا
تبقى المعاير بعد القوم باقية ويذهب المال فيما كان قد ذهبا

وقال آخر :

ليسوا لعمرو غير تأشيب نسبة(٢) ولكن عمرا غيبته المقابر(٣)
إذا عيروا قالوا مقادير قدرت وما العار إلا ما تجر المقادر

وقال رجل من بني نهشل بن دارم :

إذا مولاك كان عليك عونا(٤) أتاك القوم بالعجب العجيب
فلا تخنع إليه ولا تردْه ورام برأسه عرض الجبوب
فما لشآفة من غير ذنب إذا ولى صديقك من طبيب

قوله : ورام برأسه عرض الجبوب ، يريد الأرض ، وهو اسم من أسمائها ،
أنشدني التوزي لرجل من بني مرة يرثي ابنه :

بني على عيني وقلبي مكانه ثوى بين أحجار ورهن جبوب

وقوله فما لشآفة يقول لبغض ، يقال شئفت الرجل أشأفه شآفة وشأفا مثل

---

(١) النسيئة : تأخير الدين .
(٢) التأشيب : أصله من الأشب ، وهو شدة التفاف الشجر .
(٣) أي لو كان حيا لنفى نسبتهم إليه . (٤) مولاك : ابن عمك .

شَغْفاً ، وقد يقال فى هذا المعنى شَنِفْتُهُ . قال الراجز :

لَمَّا رَأَتْنِى أُمُّ عَمْرٍو صَدَفَتْ   وَمَنَعَتْنِى خَيْرَهَا وَشَنِفَتْ

وقال آخر : * وَلَمْ تُدَاوِ غُلَّةَ الْقَلْبِ الشَّنِفْ *

وقال نَبْهَانُ بن عَكِّىٍّ العَبْشَمِىُّ :

يُقِرُّ بِعَيْنِى أَنْ أَرَى مَنْ مَكَانُهُ   ذُرَا عَقِدَاتِ الْأَبْرَقِ الْمُتَقَاوِدِ

وَأَنْ أَرِدَ المَاءَ الَّذِى شَرِبَتْ بِهِ   سُلَيْمَى وَقَدْ مَلَّ السُّرَى كُلُّ وَاجِدِ

وَأُلْصِقَ أَحْشَائِى بِبَرْدِ تُرَابِهِ   وَإِنْ كَانَ مَخْلُوطًا بِسُمِّ الْأَسَاوِدِ

قوله ذُرَا عَقِدات ، فالذِّرْوَةُ من كل شىء أعلاه ، فَذُرْوَةُ السنام أعلاه ، وَذُرْوَةُ المَجْدِ أَرْفعهُ وأسناه ، ويقال فلان فى ذُرْوة قَوْمِهِ إذا كان فى الموضع الرفيع منهم ، وأما قول لَبِيدٍ :

مُدْمِنٌ يَجْلُو بِأَطْرَافِ الذُّرَا   دَنَسَ الْأَسْؤُقِ عَنْ عَضْبٍ أَفَلّ

فإنما يقول هذا رجل يُعَرْقِبُ الإبل لِيَنْحَرَها ثم يمسح ذُرَا أَسْنِمَتِهَا بسيفه ، لِيَجْلُو مَا عليه من دم الأَسْؤُق .

وقوله عَضْب أى قاطع ، ومن ذلك رجل عَضْبُ اللسانِ ، وجعله أَفَلّ لكثرة ما يُقَارِعُ به الحُرُوبَ كما قال النابغةُ :

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ   بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

وقوله عَقِدات فهو ما انعقَدَ وَصَلُبَ من الرمل ، الواحدة عَقِدَةٌ ، والجمع عَقِدٌ وأعْقادٌ أيضاً وَعَقِدَاتٌ ، قال ذو الرُّمَّةِ لِهِلَالِ بن أَحْوزَ المَازِنِىِّ يمدحه :

رَفَعْتَ مَجْدَ تَمِيمٍ يَا هِلَالُ لَهَا   رَفْعَ الطِّرَافِ عَلَى الْعَلْيَاءِ بِالْعَمَدِ

حَــتَّى نِساءُ تَمِيمٍ وَهِيَ نَازِحَةٌ   بِقُلَّةِ الحَزْنِ فَالصَّمَّانِ فَالعَقَدِ
لَوْ يَسْتَطِعْنَ إِذَا صَافَتْكَ مُجْحِفَةٌ   وَقَيْنَكَ المَوْتَ بِالآباءِ وَالْوَلَدِ

وقوله الأبرق فالأَبْرَقُ حجارة يَخْلِطُها رَمْلٌ وطين، يقال لتلك بُرْقَةٌ، وأَبْرَقُ، وَبَرْقاء، يافتى، كما يقال الأَمْعَزُ والمَعْزاء، وهى الأرض الكثيرة الحَصْباء، ومثل ذلك الأَبْطَحُ وَالْبَطْحاء، وهو ما انبطَحَ من الأرض، فمن قال أَبْرَقُ فإنما أراد المكان، ومن قال بَرْقاء فإنما أراد البقعة.

وقوله المتقاود يريد المنقاد المستقيم، ومن ذلك قولهم قُدْتُهُ أى جرَرْتُهُ على استقامة، وكذلك طريق مُنْقاد، وفلان قائد الجيش، قال حاتم بن عبد الله الطائى يضرب هذا مثلا:

إِنَّ الْـكَرِيمَ مَنْ تَلَفَّتَ حَوْلَهُ   وَإِنَّ اللَّئِيمَ دَائِمُ الطَّرْفِ أَقْوَدُ(١)

وقوله: ولو كان مخلوطًا بسمّ الأساود يريد جمع أَسْوَدَ سالخٍ(٢)، وجَمْعُهُ على أساود، لأنه يجرى مَجْرَى الأسماء، وما كان من باب أَفْعَلَ اسمًا فَجَمْعُهُ على أفاعِلَ، نحو أفْكَل وأفاكِلَ(٣)، والأَكْبَرِ وَالأَكابِرِ، وكذلك كلُّ ماسَمَّيْتَ به رجلا، تقول أَحْمَدُ وأحامِدُ، وأَسْلَمُ وأسالِمُ، فإن كان نعتا فَجَمْعُهُ على فُعْلٍ نحو أَحْمَرَ وحُمْرٍ، وأَصْفَرَ وصُفْرٍ، ولكن أَسْوَدَ إذا عَنَيْتَ به الحيةَ، وأَدْهَمَ إذا عَنَيْتَ به القَيْدَ، وأَبْطَحَ إذا عنيت به المكان المُنْبَطِح، وأَبْرَق إذا عنيت

---

(١) رواية الديوان:

فنهــم جواد قد تلفت حوله   ومنهم لئيم دائم الطرف أقود

(٢) سالخ: لأنه يسلخ جلده كل عام، وهو من أخبث الحيات.

(٣) الأفكل: اسم لرعدة من برد أو خوف.

به المكان ، مُضارِعَةٌ للاسماء ، لأنها تدل على ذات الشىء ، وإن كانت فى الأصل نعتاً ، تقول فى جمعها الأَباطِح والأَبارِق والأَداهِم والأَساوِد ، فإن أَرَدْتَ نعتاً مَحْضاً يَتْبَعُ المنعوت قلت مررت بثياب سُودٍ ، وبِخَيلٍ دُهْمٍ ، وكل ما أشْبَهَ هذا فهذا مَجْراه ، قال جريرٌ :

هُوَ القَيْنُ وَابْنُ القَيْنِ لا قَيْنَ مِثْلُهُ لِفَطْحِ المَساحِى أو لِجَدْلِ الأَداهِمِ (١)

وقال الأَشْهَبُ بن رُمَيْلَةَ (قال أبو الحسن رُمَيْلَةُ اسم أُمِّهِ) :

أُسُودُ شرًى لاقَتْ أُسودَ خَفِيَّةٍ تَساقَوْا عَلَى حَرْدٍ دِماءَ الأَساوِدِ

قوله على حرد يقول على قَصْدٍ ، فأما قولُ الله عز وجل :

« وغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قادِرِينَ » ، فإن فيه قولين : أحدهما ما ذَكَرْنا من القصد . قال الشاعر :

قَدْ جاء سَيْلٌ جاء مِنْ أَمْرِ اللهْ يَحْرِدُ حَرْدَ الجَنَّةِ المُغِـــلَّهْ

(قال أبو حاتم هذه صنعة (٢) مَنْ لا أَحْسَنَ اللهُ ذِكْرَهُ - يعنى قطرِيّاً (٣))

وقالوا على حَرْدٍ : أى على مَنْعٍ من قولهم حارَدَتِ السنةُ إذا مَنَعَتْ قَطْرَها ، وحاردت الناقة إذا مَنَعَتْ دَرَّها .

(قال أبو الحسن رواية أبي العباس يُقِرُّ بعينى يريد يُقِرُّ عينى ثم أتى بالباء توكيداً ، وقال لنا هكذا سمعته ، ويقال أقرَّ الله عينَهُ يُقِرُّها ، وَقَرَّتْ عينُهُ تَقَرُّ ، وقَرَرْتُ بالمكان أقِرُّ ، وقال الأصمعى : قَرَّتْ عينُهُ من القُرِّ وهو البَرْدُ : أى جَمَدَتْ فلم تدمع ، وهو بحِذاء سَخِنَتْ عينُهُ ، وأجْوَدُ مما رَوَى

---

(١) المساحى : واحدتها مسحاة ، وهى المجرفة من حديد يسحى بها الطين عن وجه الأرض .

(٢) يريد حذف الألف فى لفظ الجلالة . (٣) قطرى بن الفجاءة أحد شعراء الخوارج .

عندى يَقَرُّ بعينى ، وهو الأصل ، والباء فى موضعها غيرُ مؤكدة ، وقال أبو العباس : الذى رَوَيْتُ : وقد مَلَّ السُّرَى كُلُّ واحد ، وهو المنفرد فى السير المُتَوَحِّدُ به ، ورَوَى غيره كلُّ وَاجِدِ ، أى عاشق ورُوِىَ أيضاً كل واخِدِ ، وهو من الوَخْد والوَخَدانِ ، وهو السير الشديد ، والوَخْدُ المصدرُ ، والوَخَدانُ الأسم) .

☆☆☆

قال أبو العباس : وقال القَتَّالُ الكِلاَبِىُّ ، واسمه عُبَيْدُ بن مَضْرَحِىّ :

أَنَا ابْنُ أَسْمَاءَ أَعْمَامِى لَهَا وَأَبِى[1] إِذَا تَرَامَى بَنُو الْإِمْوَانِ بِالْعَارِ
لاَ أَرْضَعُ الدَّهْرَ إِلاَّ ثَدْىَ وَاضِحَةٍ لِوَاضِحِ الخَدِّ يَحْمِى حَوْزَةَ الجَارِ
مِنْ آلِ سُفْيَانَ أَوْ وَرْقَاءَ يَمْنَعُهَا تَحْتَ الْعَجَاجَةِ ضَرْبٌ غَيْرُ عُوَّارِ
يَا لَيْتَنِى وَالْمُنَى لَيْسَتْ بِنَافِعَةٍ لِمَالِكٍ أَوْ لِحِصْنٍ أَوْ لِسَيَّارِ
طِوَالُ أَنْضِيَةِ الْأَعْنَاقِ لَمْ يَجِدُوا رِيحَ الْإِمَاءِ إِذَا رَاحَتْ بِأَزْفَارِ

قوله إذا ترامى بنو الإموان بالعار ، فالإِمْوَانُ جمع أَمَةٍ ، وأصل أَمَةٍ فَعَلَةٌ متحركة العين ، وليس شىء من الأسماء على حرفين إلا وقد سقط منه حرف يُسْتَدَلُّ عليه بجمعه ، أو بتثنيته أو بفعل إن كان مشتقاً منه ، لأن أقل الأصول ثلاثة أحرف ، ولا يَلْحَقُ التصغيرُ ما كان أقلَّ منها ، فأَمَةٌ قد علمنا أن الذاهب منها واو بقولهم إمْوَان ، كما علمنا أن الذاهب من أبٍ وأخٍ الواو بقولهم أَبَوَانِ وَأَخَوَانِ ، وعلمنا أن أمة فَعَلَةٌ متحركة بقولهم فى الجميع آمٍ ، فوزن هذا أفْعُلٌ[2] ، كما قالوا أَكَمَةٌ وآكُمٌ ، ولا تكون فَعْلَةٌ على أفعلٍ ، ثم قالوا

---

(١) أسماء أصلها وسماء : من الوسامة ، فهى على وزن فعلاء . (٢) فيكون الأصل : أأمو ، قلبت الضمة كسرة ، وقلبت الواو ياء ، وأعلت إعلال قاض ، وقلبت الهمزة الثانية مدة .

إمْوانٌ كما قالوا فى المذكَّر الذى هو منقوص مثله إخْوانٌ ، واستوى المذكر والمؤنث لأن الهاء زائدة كما استوَيا فى فَعْل الساكن العين ، تقول كَلْبٌ وكِلاب ، وكَعْبٌ وكِعابٌ ، كما تقول فى المؤنث طَلْحَةٌ وَطِلاحٌ ، وَجَفْنَةٌ وجِفان وصَحْفَةٌ وصِحَافٌ ، ونظير ذلك من غير المعتل وَرَلٌ(١) وورْلانٌ ، وَبَرَقٌ ، وبِرْقانٌ وَخَرَبٌ ، وَخِرْبانٌ ، وهو ذَكَرُ الحُبارى والبَرَقُ الحَمَلُ ، ومن أنشد امْوانٌ فقد غلط ، لأنه يَحْتَجُّ بقولهم حَمَلٌ وحُمْلانٌ ، وفَلَقٌ وفُلْقانٌ ، وهذا إنما يحمل على ما كان معتلاً مِثْلَهُ نحو أخ وإخوانٍ ، وقد رَوَى أبو زيد أُخْوان ، فإلى هذا ذهبوا ، والقياس المطرد لا تَعْتَرِضُ عليه الرِّوايةُ الضعيفةُ .

وقوله : لا أرْضِعُ الدَّهرَ فهذا على لغته ، لأن قيْسًا تقول رَضَعَ يَرْضِعُ ، وأهل الحجاز يقولون رَضِعَ يَرْضَعُ ، وينشدون بيت عبد الله بن هَمَّامٍ السَّلُولِيّ على ، وجهين وهو :

إذَا نَصبُوا لِلْقَوْلِ قَالُوا فَأَحْسَنُوا ... وَلـكِنَّ حُسْنَ القَوْلِ خَالَفَهُ الفِعْلُ

وَذَمُّوا لَنَا الدُّنْيَا وَهُمْ يَرْضِعُونَهَا ... أَفَاوِيقَ حَــتَّى مَا يَدُرُّ لَهَا ثُعْلُ(٢)

وبعضهم يقول يَرْضَعُونها ، وقوله لا أرْضِعُ الدهرَ إلا ثَدْىَ واضحة يقول إنما تُرْضِعُنى أمِّى ، وليست غير كريمة ، كما قال الأعْشى :

يَا خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ المَطِيَّ وَلاَ ... يَشْرَبُ كَأْسًا بِكَفِّ مَنْ بَخِلاَ

يقول إنما تَشْرَبُ بكفك ، ولَسْتَ ببخيل ، ومثلُ هذا قولُ التَّمِيمِيِّ لِنَجْدَةَ ابن عامرٍ الحَنَفِيِّ الخارجىِّ :

---

(١) الورل : دابة طويلة الذنب على خلقة الضب .

(٢) الثعل : خلف زائد صغير فى أخلاف الناقة ، وضرع الشاة لا يدر من اللبن شيئا .

مَتَى تلْقَ الحَرِيشَ حَرِيشَ سَعْدٍ وَعَبَّاداً يَقُودُ الدَّارِعِينا
تبَيَّنْ أَنَّ أُمَّكَ لَمْ تورَّكْ(١) وَلَمْ تُرْضِعْ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَا

وقوله واضحة أى خالصة فى نَسَبها، وليستْ بأمَةٍ وهذا توكيد لبيته الأول، وقد أنشد بعضهم (لواضح الجدّ) والمعنى قريب.

وقوله: يَحْمِى حَوْزَةَ الجارِ أى مايَحُوزُهُ، يقال فلان مانع لحَوْزَتِهِ: أى لما صار فى حَيِّزِهِ، ويُرْوَى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال: للأزْدِ أرْبَعٌ ليْست لِحَيٍّ: بَذْلٌ لما ملَكتْ أيديهم، ومَنْعٌ لِحَوْزَتِهِمْ، وحَيٌّ عِمارَةٌ(٢) لايحتاجون إلى غيرهم، وشُجْعانٌ لا يَجْبُنُونَ.

(وقولُه: لِمالِكٍ، أو لِحِصْنٍ، أولسيّار، فهؤلاء بيت فَزارَةَ، وبُيُوتاتُ العَرَبِ فى الجاهلية ثلاثة، فبيتُ تَميمٍ بنو عبد الله بن دارِمٍ، ومَرْكزُهُ بنو زُرارَةَ، وبيتُ قَيْسٍ بنو فزارَةَ ومَرْكزُهُ بنو بَدْرٍ، وبيت بَكْرِ بن وائِلٍ بنو شَيْبان ومَرْكزُهُ بنو ذى الجَدَّيْنِ.

(وقوله: طوالُ أنْضيةِ الأعْناقِ فالنَّضِيُّ مُرَكَّبُ النَّصْلِ فى السِّنْخِ، وَضَرَبَهُ مَثَلاً، وإنما أراد طِوال الأعناق، كما قال الأعشى:

الْوَاطِئِينَ عَلَى صُدُورِ نِعالِهِمْ يَمْشُونَ فى الدَّفَنِيِّ وَالأَبْرَادِ(٣)

يريد السُّودَدَ والنِّعْمَةَ وَلَمْ يَخُصَّ الصدورَ، وإنما أراد النعال كلها، وقال الشاعر (هُوَ الشَّمَرْدَلُ بْنُ شُرَيْكٍ الْيَرْبُوعِيُّ عَنِ ابْنِ قُتَيْبَةَ):

يُشَبَّهُونَ مُلُوكاً فِى تَجِلَّتِهِمْ وَطُولِ أَنْضِيَةِ الْأَعْنَاقِ وَاللِّمَمِ

---

(١) أى لم تحملك على وركها. (٢) عمارة بفتح العين وكسرها: أى يقومون بأمورهم.
(٣) الدفنى: نوع من الأبراد.

إِذَا بَدَا المِسْكُ يَنْدَى فِي مَفَارِقِهِمْ رَاحُوا كَأَنَّهُمُ مَرْضَى مِنَ الكَرَمِ

(قال أبو الحسن: وغيره يَرْوِى يُشَبَّهُونَ قُرَيْشًا فى تجلتهم).

وقوله بأزفار: فالزِّفْرُ الحِمْلُ ويُضْرَبُ مَثَلاً لارجل فيقال إنه لَزُفَرٌ. أى حَمَّالٌ للأَثْقال. ويقال أَتَى حِمْلَهُ فازْدَفَرَهُ، قال أبو قُحافَةَ أَعْشَى باهِلَةَ:

أَخُو رَغَائِبَ يُعْطِيهَا وَيُسْئَلُهَا يَأْبَى الظُّلَامَةَ مِنْهُ النَّوْفَلُ الزُّفَرُ

وإنما يريده بعينه كقولك لئن لَقِيتَ فلانا ليَلْقَيَنَّكَ منه الأَسَدُ.

وقوله النَّوْفَلُ من قولهم إنه لذو فَضْلٍ وَنَوافِلَ.

وقال رجل من بنى عَبْسٍ (قال أبو الحسن يقوله لعُرْوَةَ بن الوَرْدِ).

لا تَشْتُمَنِّى يابن وَرْدٍ فَإِنَّنِى تَعُودُ عَلَى مَالِى الحُقُوقُ العَوائِدُ

وَمَنْ يُؤْثِرِ الحَقَّ النَّؤُوبَ تَكُنْ بِهِ خَصَاصَةُ جِسْمٍ وَهُوَ طَيَّانُ مَاجِدُ

وَإِنِّى امْرُؤٌ عَافِى إِنَائِىَ شِرْكَةٌ وَأَنْتَ امْرُؤٌ عَافِى إِنَائِكَ وَاحِدُ

أُقَسِّمُ جِسْمِى فِى جُسُومٍ كَثِيرَةٍ وَأَحْسُو قَرَاحَ المَاءِ وَالمَاءُ بَارِدُ

قوله النؤوب يريد الذى يَنُوبُهُ وكلُّ واو انْضَمَّتْ لغير عِلَّةٍ فأنتَ فى همزها وتركها بالخيار، تقول فى جَمْعِ دارٍ أَدْؤُرٌ، وإن شئتَ لم تهمِزْ، وكذلك النَّؤُوب والقَؤُولُ لانضمام الواو، فأمَّا الواو الثانية فإنها ساكنة وقبلها ضمة، وهى مَدَّةٌ فلا يُعْتَدُّ بها، ولو التقتْ واوانِ فى أوّل كلمةٍ، وليستْ إحداهما مَدَّةً لم يكن بُدٌّ مِنْ هَمْزِ الأولى، تقول فى تصغير واصِلٍ وواقِدٍ أُوَيْصِلٌ وأُوَيْقِدٌ لا بُدَّ من ذلك، فأما وُجُوهٌ فإن شئت هَمَزْتَ فقلت أُجوهٌ، وإن شئتَ لم تهمِزْ، قال الله عزّ وجل: «وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ» والأصل وُقِّتَتْ، ولوكان فى

غير القرآن لجاز إظهار الواو ان شئت[١] . وقوله تعالى : « مَا وُورِىَ عَنْهُمَا » الواو الثانية مَدّة فلا يُعْتَدّ بها ، ولو كان فى غير القرآن لجاز الهمز لا نضمام الواو .

وقولى إذا انضمت من غير علة ، فالعلة أن تكون ضمتها إعرابا نحو هذا غَزْوٌ يا فتى ودَلْوٌ كما ترى ، فهذا مما لا يجوز هَمْزُهُ لأن الضمة للإعراب فليستْ بلازمة ، أو تنضَمّ لالتقاء الساكنين ، فذلك أيضاً غير لازم ، فلا يجوز همزه نحو اخشَوُا الرجل « وَلَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، وَلَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ » ومَنْ هَمَزَ من هذا شيئاً فقد أخطأ .

⁂

وقال رجل من بنى تَمِيمٍ :

أَلْبَانُ إبْلِ تَعِلَّةَ بْنِ مُسَافِرٍ ... ما دَامَ يَمْلِكُهَا عَلَىَّ حَـرَامُ
وَطَعامُ عِمْرَانَ بْنِ أَوْفَى مِثْلُهَا ... مَا دَامَ يَسْلُكُ فِى الْبُطُونِ طعامُ
إنَّ الَّذِينَ يَسُـوغُ فِى أَعْنَاقِهِمْ ... زَادٌ يُمَنُّ عَلَيْهِمُ لَلِئَامُ
لَعَنَ الْإلٰهُ تَعِـلَّةَ بْنَ مُسَافِرٍ ... لَعْنًا يُشَنُّ عَلَيْهِ مِنْ قُدَّامُ

وهذا كلام فصيح جدًّا .

قوله يسوغ فى أعناقهم يريد حُلُوقَهُمْ لأن العُنقَ يحيط بالحَلْقِ ، ويُشْبِهُ هذا فى الاتساع فى الفصاحة لا فى المعنى قول القُطَامِىّ[٢] :

---

(١) قال الشيخ المرصفى : بها قرأ أبو عمرو فضم الواو وشدد القاف، وبها قرأ عمرو بن عبيد أيضا
(٢) بضم القاف وفتحها .

لَمْ تَرَ قَوْمًا هُمُ شَرٌّ لِإِخْوَتِهِمْ ... مِنَّا عَشِيَّةَ يَجْرِى بِالدَّمِ الْوَادِى
نَقْرِيهِمُ لَهْذَمِيَّاتٍ نَقُدُّ بِهَا ... مَا كَانَ خَاطَ عَلَيْهِمْ كُلُّ زَرَّادِ

لأن الخِياطة تَضُمُّ خَرقَ القميص، والسَّرْدَ يضم حَلقَ الدِّرْع، فضَرَبَهُ، مَثَلاً فجَعَلَهُ خِيَاطةً (قال أبو الحسن رَوَى أبو العباس:

* وطعام عمران بن أوفى مثلها *

ردّ الهاء والألف على الألبان، وهذا لا نظر فيه، ورَوَى أيضاً مِثْلُهُ لأن الألبان تجرى مَجْرَى اللبن، فحَمَلَهُ على المعنى، وقد يجوز أن تُجْعَلَ الألبانُ جَمْعاً فتُذَكَّرَ لتذكير الجمع، ورُوِىَ أيضاً.

* مادَامَ يَسْلُكُ فى الْحلوقِ طعَامُ *

ورَوَى الفرَّاء فى هذا الشِّعْر:

* إنَّ الَّذِينَ يَسُوغُ فى أَخْلاقِهِمْ *

وإنما كان ينبغى أن يكون فى أَحْلُقِهِمْ كقولك فَلْسٌ وأَفْلُسٌ، وما أشبهه، ولكنه شَبَّهَ باب فَعْلٍ بباب فَعَلٍ، كما قالوا زَنْدٌ وأَزْنادٌ، وفَرْخٌ وأفْرَاخٌ، قال الحُطَيْئَةُ لِعُمَرَ[١] رحمه الله تعالى:

مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاخٍ بِذِى مَرَخٍ ... حُمْرِ الحَوَاصِلِ لا ماءٌ وَلا شَجَرُ

ففعلوا هذا تشبيهاً بباب فَعَلٍ كما شَبَّهُوا فَعَلاً بِفَعْلٍ فى الجمع، فقالوا: جَبَلٌ وأَجْبُلٌ، وزَمَنٌ وأَزْمُنٌ، كما قال:

إِنِّى لَأَكْنِى بِأَجْبَالٍ عَنَ اَجْبُلِهَا ... وَبِاسْمِ أَوْدِيَةٍ حُبًّا لِوَادِيهَا

---

(١) وكان هجا الزبرقان بن بدر فاستعدى عليه عمر بن الخطاب فحبسه.

فَأَتَى به على الأصل ، وتشبيهاً بغيره على ما أخبرْتُكَ ، وقال ذو الرُّمَّةِ :

أَمَنْزِلَتَىْ مَىٍّ سَــلامٌ عَلَيْكُمَا   هَلِ الْأَزْمُنُ اللَّائِى مَضَيْنَ رَوَاجِعُ

والباب أزمان كما قال رُؤْبَةُ :

أَزْمَانَ لا أَدْرِى وَإِنْ سَأَلْتِ   مَا فَرْقُ بَيْنَ جُمْعَةٍ وَسَبْتِ

وروَى أبو العباس : البيتَ الأخير مُقْوًى ، وجَعَلَهُ نكرة ، وهو قوله من قُدَّامٍ ، كما تقول جئتك من قَبْلٍ ، ومن بَعْدٍ ، ومن علٍ ، وما أشبهه ، كما قرأ بعضهم « لِلّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلٍ ومِنْ بَعْدٍ » ، كما تقول أوّلاً وآخِرًا ، ورواه الفراء من قُدَّامُ ، وجعله معرفة(١) ، وأجراه مُجْرَى الغايات(٢) ، نحو قَبْلُ وبَعْدُ ، كما قال طَرَفَةُ بن العَبْدِ :

ثُمَّ تَفْرِى اللُّجْمَ مِنْ تَعْدَائِهَا   فَهْىَ مِنْ تَحْتُ مُشِيحَاتُ الحُزُمْ

وكما قال عُتَىُّ(٣) بن مَالِكٍ العُقَيْلِىُّ ، أنشده الفراء أيضاً :

إِذَا أَنَا لَمْ أُومَنْ عَلَيْكَ وَلَمْ يَكُنْ   لِقَاؤُكَ إِلَّا مِنْ وَرَاءُ وَرَاءُ

فهذا الضرب مما وقع معرفة على غير جِهَةِ التعريف ، وجِهَةُ التعريف أن يكون مُعَرَّفًا بنفسه ، كزيد وعمرو ، أو يكون مُعَرَّفًا بالألف واللام ، أو بالإضافة ، فهذه جهة التعريف ، وهذا الضرب إنما هو مُعَرَّفٌ بالمعنى ، فلذلك بُنِىَ إِذْ خَرَجَ من الباب ، ويُرْوَى لَمْنًا يُسَنُّ عليه بالسين ، ويُسَنُّ وَيُشَنُّ واحد ، أى يُصَبُّ إلا أن بعضهم قال : السَّنُّ الصَّبُّ على جهة واحدة ، وقالوا

---

(١) بإضافته إلى محذوف يعلمه المخاطب .

(٢) أى الكلمات التى جعلت غاية بعد حذف المضاف إليه .   (٣) شاعر جاهلى .

يقال: شَنَنْتُ عليه الماء، وسَنَنْتُهُ، وسَنَنْتُ عليه الدِّرْعَ لاغير، وقالوا شَنَنْتُ عليه الغارَةَ لاغير[1] » .

❁

قال أبو العباس وقال القُطامِيُّ :

فَمَنْ تَكُنِ الحَضارَةُ أَعْجَبَتْهُ ... فأَىَّ رِجالِ بادِيَةٍ تَرانا
وَمَنْ رَبَطَ الجِحاشَ فإنَّ فينا ... قَنًا سُلُباً وأَفْراساً حِسانا[2]
وَكُنَّ إذا أَغَرْنَ عَلَى قَبيلٍ[3] ... فأَعْوَزَهُنَّ نَهْبٌ حَيْثُ كانا
أَغَرْنَ مِنَ الضِّبابِ عَلَى حِلالٍ[4] ... وَضَبَّةَ إِنَّهُ مَنْ حانَ حانا
وَأَحْيانًا عَلَى بَكْرٍ أَخينا[5] ... إِذا ما لَمْ نَجِدْ إِلّا أَخانا

قوله الحَضارةُ يريد الأمْصارَ ، وتقول العرب فلانٌ بادٍ وفلانٌ حاضِرٌ ، وفى الحديث : ولا يَبيعَنَّ حاضِرٌ لبادٍ ، وتأويلُ ذلك أن البادى يَقْدَمُ وقد عرَفَ أسْعار مامَعَهُ وما مِقْدارُ رِبْحِهِ ، فإذا جاءه الحاضِرُ عرَّفَهُ سُنَّةَ البَلَدِ ، فأَغْلَى على الناس ، ومِثْلُ ذلك النهى عن تَلَقِّى الجَلَبِ[6] ، ومثله : دَعُوا عِبادَ الله يُصِبْ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، ويقال حَىٌّ حِلالٌ إذا كانوا مُتَجاوِرِينَ مُقيمين ، وأنشد الأصمعى :

أَقَوْمٌ يَبْعَثُونَ العِيرَ نَجْرًا ... أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ حَىٌّ حِلالُ

---

(١) انتهى كلام ابن القوطية .
(٢) القنا السلب : الرماح الطوال . (٣) القبيل : الجماعة من الناس .
(٤) اسم علم، وكذلك ضبة . (٥) بكر بن وائل .
(٦) أى المجلوب .

باب

قيل لمعاوية : ما النُّبْلُ ؟ فقال : الحِلْمُ عند الغضب ، والعفْوُ عند القدرة .
ويُرْوَى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ألاَ أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ ؟ قالوا بَلَى. قال: منْ أَكَلَ وَحْدَهُ، ومَنَعَ رِفْدَهُ ، وضَرَبَ عَبْدَهُ ؛ ألاَ أُخْبِرُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِكُمْ ؟ مَنْ لا يُقِيلُ عَثْرَةً ، وَلاَ يَقْبَلُ مَعْذِرَةً ، وَلا يَغْفِرُ ذَنْباً ؛ ألاَ أُخْبِرُكُمْ بِشَرٍّ من ذٰلِكُمْ؟ مَن يُبْغِضُ الناسَ وَيُبْغِضُونَهُ . ويُرْوَى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : المُسْلِمون تَتَكافَأُ دِماؤُهُمْ وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْناهُمْ ، وهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِواهُمْ ، والمَرْءُ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ .

قوله صلى الله عليه وسلم : تَتَكافَأُ دماؤُهم ، من قولك فلان كُفْءٌ لفلان ، أى عَدِيلُهُ ، وموضوع بحذائه . قال الله عزّ وجل : « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » ويقال : فلان كِفاءُ فلانٍ ، وكَفِيءُ فلانٍ ، وكُفْءُ فلان .

ويروى أن الفَرَزْدَقَ بَلَغَهُ أَنَّ رجلاً من الحَبِطاتِ بن عَمْرو بن تميم خَطَبَ امرأة من بنى دارِمِ بن مالك بن حَنْظَلَةَ بن مالك بن زيد مَناةَ بن تميم ، فقال الفرزدق :

بَنُو دارِمٍ أَكْفاؤُهُمْ آلُ مِسْمَعٍ ... وَتَنْكِحُ فى أَكْفائِها الحَبِطاتُ

فآلُ مِسْمَعٍ بيت بَكْرِ بن وائلٍ فى الإسلام ، وهم من بنى قَيْسِ بن ثَعْلَبَةَ

ابن عُكابَةَ بن صَعْبِ بن عليّ بن بكر بن وائل ، والحبطات[1] هم بنو الحارثِ ابن عمرو بن تميم ، فقوله أكفاؤهم إنما هو جمع كُفْء يا فتى ، فقال رجل من الحَبطاتِ يُجيبُه :

أمَا كَانَ عَبَّادٌ كَفِيئاً لِدَارِمٍ بَلَى وَلأَبْيَاتٍ بِهَا الحُجُرَاتُ

يعنى بنى هاشم[2] ، من قول الله عز وجل : « إنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ » .

وقال علىٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه : مَنْ لانَتْ كَلِمَتُهُ وَجَبَتْ مَحَبَّتُهُ . وقال : قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُ .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ثلاثٌ يُثْبِتْنَ لكَ الوُدَّ فى صَدْرِ أخيك : أنْ تَبْدَأَهُ بالسَّلام ، وتُوَسِّعَ له فى المجلس ، وتَدْعُوَهُ بأحبِّ الأسماءِ إليه .

وقال : كَفَى بِالمَرْءِ غَيًّا أن تكون فيه خَلَّةٌ من ثلاثٍ : أن يَعِيبَ شيئاً ثم يَأْتِيَ مِثْلَهُ ، أو يَبْدُوَ لَهُ من أخيه ما يَخْفَى عليه من نَفْسه ، أو يُؤْذِيَ جَليسه فيما لا يَعْنيه .

وقال عبد الله بن العباس لبعض اليمانِيَةِ : لكم من السماء نَجْمُهَا ، ومن الكَعْبَةِ رُكْنُهَا ، ومن السُّيوفِ صَمِيمُهَا ، يعنى سُهَيْلاً من النجوم ، والرُّكْنَ اليمانى ، وصَمْصَامَةَ عمرو بن مَعْدِى كَرِبَ .

ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال يومًا : مَنْ أجْوَدُ العرب؟

---

(١) تفتح الباء عند النسب إلى الحبط بكسرها ، وهو الحارث أكل شيئاً انتفخت به بطنه فسمى بذلك.
(٢) يريد أن الأبيات أبيات بنى هاشم ، أما الحجرات فهى بيوت الرسول .

فقيل له : حاتِمٌ . قال : فَمَنْ شاعِرُها ؟ قيل : أمرؤُ القَيْس بن حُجْر . قال : فَمَنْ فارِسُها ؟ قيل : عمرو بن معدى كرب . قال : فأىُّ سُيوفِها أمْضى ؟ قيل : الصَّمصامة .

وقال مُعاوية بن أبى سُفيان للأحْنَف بن قَيْسٍ ، وجارِيَةَ بن قُدامَةَ ، ورجالٍ من بنى سَعْدٍ معهما كَلامًا أحْفَظَهُمْ ، فَرَدُّوا عليه جوابًا مُقْذِعًا ، وابْنَةُ قَرَظَةَ فى بَيْتٍ يَقْرُبُ منه ، فَسَمِعَتْ ذلك ، فلما خرجوا قالت : يا أمير المؤمنين ، لقد سَمِعْتُ من هؤلاء الأَجْلافِ كلاما تَلَقَّوْكَ به فلم تُنْكِرْ ، فَكِدْتُ أخْرُجُ إليهم فأسْطو بهم ، فقال لها معاوية : إنَّ مُضَرَ كاهِلُ العَرَبِ ، وتميمًا كاهِلُ مُضَرَ ، وسَعْدًا كاهلُ تميمٍ ، وهؤلاء كاهلُ سَعْدٍ .

وكان معاوية يقول : إنِّى لا أحْمِلُ السَّيْفَ عَلَى مَنْ لا سَيْفَ معه ، وإن لم تكن إلا كلمةٌ يَشْتَفِى بها مُشْتَفٍ جَعَلْتُها تحْتَ قَدَمِى ، وَدَبْرَ أُذُنِى[1] (المُقْذِعُ الذى فيه إقْذاعٌ ، وهو السيءُ من القول) .

---

(١) دبر أذنى : أى خلف أذنى ، والدَّبر هنا بفتح الدال .

باب

قال أبو العباس : قال رجل أحْسِبُهُ من بنى سَعْد يرثى رجلا :

وَمُخْتَصَرِ المَنَافِعِ أرْيَحِيٍّ (١) نَبِيلٍ فى مَعَاوِزَةٍ طِوَالِ
عَزِيزٍ عِزَّةً فِى غَيْرِ فُحْشٍ ذَلِيلٍ لِلذَّلِيلِ مِنَ المَوَالِى
جَعَلْتُ وِسَادَهُ إحْدَى يَدَيْهِ وَتَحْتَ جَمَائِهِ خَشَبَاتُ ضَالِ (٢)
وَرِثْتُ سِلاحَهُ وَوَرِثْتُ ذَوْداً وَحُزْناً دَائِماً أُخْرَى اللَّيَالِى

قوله أرْيَحِيٌّ : هو الذى يَرْتاح للمَعْروف أى يَخِفُّ له ، ويقال أخَذَتْ فلاناً أرْيَحِيَّةٌ أى خِفَّةٌ وحركةٌ لفعل المعروف ، والمَعاوِزُ الثياب التى يَتَبَذَّلُ فيها الرجل ، وهى دون الثياب التى يَتَجَمَّلُ بها ، واحدها مِعْوَزٌ ، قال الشَّمَّاخُ فى نعت القَوْس :

إذَا سَقَطَ الأَنْدَاءُ صِينَتْ وَأُشْعِرَتْ (٣) حَبِيرًا وَلَمْ تُدْرَجْ عَلَيْهَا المَعَاوِزُ

وقوله فى مَعَاوِزَةٍ : فزاد الهاء فإنما يُفْعَلُ ذلك لتحقيق التأنيث ، لأن كل جَمْعٍ مؤنثٌ ، كما تقول فى جمع صَيْقَلٍ صَيَاقِلٌ وصَيَاقِلَة ، وكذلك جَوَارِب وجَوَارِبَة ، إلا أن أكثر الأعجمى يختص بالهاء ، وهو فى العربىّ جَيِّدٌ ، وفى العَجَمِيِّ أكثر استعمالا نحو المَوَازِجَةِ ، فإن كان منسوبًا كان البابُ فيه إثباتَ الهاء ، وتَرْكُها جائزٌ نحو : المَهَالِبَةِ ، والمَسَامِعَةِ ، والمَنَاذِرَةِ ، والأَحَامِرَةِ ،

---

(١) مختصر المنافع : يقدم الحاضر ولا يتكلف شيئاً ، كذلك فسره الشيخ المرصفى ، وقد يكون المراد أنه حاضر النفع فلا يخيب سائلوه . (٢) يرى الشيخ المرصفى أن الصواب « وفوق جمائه »
(٣) أشعرت : ألبست الشعار ، وهو الثوب الذى يلى الجسد.

وقالوا السَّبَابِجَةَ (١) لأنه قد اجتمع فيه النَّسَبُ والعُجْمَةُ ، وقوله تحت جُمّائه يعنى شخصه ، والضال السِّدْرُ البَرِّىُّ ، وما كان من السِّدْرِ على الأنهار فليس بِضَالٍ ، ولكن يقال له عُبْرِىٌّ ، قال ذو الرُّمَّةِ :

قَطَعْتُ إذا تَجَوَّبَتِ العَوَاطِى (٢) ضُرُوبَ السِّدْرِ عُبْرِيًا وضَالا

وقوله : ورِثْتُ سِلاحه ووَرِثْتُ ذَوْدًا ، يصف قُرْبَ نَسَبِه منه ، والذَّوْدُ : القطعة من الإبل ، وأكثر ما يُستعمل ذلك فى الإناث ، ويجوز فى السائر ، ومنه قولهم : الذَّوْدُ إلى الذَّوْدِ إبِلٌ ، ثم قال :

✲ وَحُزْنًا دَائِمًا أُخْرَى اللَّيَالِى ✲

كما قال الأول ، وغُبِطَ بميراثٍ وَرِثَهُ من أحد أهله :

يَقُولُ جَزْءٌ وَلَمْ يَقُلْ جَلَلاً إنِّى تَرَوَّحْتُ نَاعِمًا جَذِلاَ
إنْ كُنْتَ أَزْنَنْتَنِى بِهَا كَذِبًا جَزْءٌ فَلاَقَيْتَ مِثْلَهَا عَجِلاَ
أُغْبَطُ أَنْ أَرْزَأَ الْكِرَامَ وَأَنْ أُورَثَ ذَوْدًا شَصَائِصًا نَبَلاَ

قوله : ولم يقل جللا : أى صغيراً ، والجَلَلُ يكون للصغير ، ويكون للكبير ، من ذلك قوله : ✲ كُلُّ شَىْءٍ مَا خَلاَ اللّٰهَ جَلَلْ ✲

أى صغير ، وقال لبيدٌ فى الكبير :

وَأَرَى أَرْبَدَ قَدْ فَارَقَنِى وَمِنَ الأَرْزَاءِ رُزْءٌ ذُو جَلَلْ

وقوله شصائصاً : يعنى حقيرةً دَمِيمَةً (٣) ، وزعم التَّوَّزِىُّ أَنَّ النَّبَلَ من الأَضداد ، يكون للجليل والحقير ، واحْتَجَّ بهذا البيت الذى ذكرناه قال يريد ههنا الحقيرة

---

(١) هم قوم من السند نزلوا البصرة فكانوا بها شرطة وحراس سجون .

(٢) العواطى : الظباء تمد أعناقها إلى الشجر (٣) الشصائص جمع شصوص وهى الناقة التى قل لبنها

وقوله أَزْنَنْتَنِي : أي قَرَفْتَنِي ونَسَبْتَنِي إليه[١] ، يقال فلان يُزَنُّ بكذا . وكذا . أي يُسَمَّى به ، وَيُنْسَبُ إليه ، قال امْرُؤُ القَيْسِ بن حُجْرٍ :

كَذَبْتِ لَقَدْ أُصْبِي عَلَى المَرْءِ عِرْسَهُ ... وَأَمْنَعُ عِرْسِي أَنْ يُزَنَّ بِهَا الخَالِي

وفي معنى قوله ورثت سلاحه قولُ الشاعرِ :

يَفْرَحُ الْوَارِثُ بِالْمَالِ إِذَا ... وَرِثَ المَالَ وَيَبْكِي إِنْ غَضِبْ

ومثله قول نعامَةَ الفَزَارِيِّ :

﴿ يَا حَبَّذَا التُّرَاثُ لَوْلَا الذِّلَّهْ ﴾

⁂

وقال جَمِيلُ بن مَعْمَرٍ :

مَا صَائِبٌ مِنْ نَابِلٍ قَذَفَتْ بِهِ[٢] ... يَدٌ وَمُمَرُّ العُقْدَتَيْنِ وَثِيقُ

لَهُ مِنْ خَوَافِي النَّسْرِ حُمٌّ نَظَائِرٌ ... وَنَصْلٌ كَنَصْلِ الزَّاعِبِيِّ فَتِيقُ

عَلَى نَبْعَةٍ زَوْرَاءَ أَيْمَا خِطَامُهَا ... فَمَتْنٌ وَأَيْمَا عُودُهَا فَعَتِيقُ

بِأَوْشَكَ قَتْلاً مِنْكِ يَوْمَ رَمَيْتِنِي ... نَوَافِذَ لَمْ تُعْلَمْ لَهُنَّ خُرُوقُ

كَأَنْ لَمْ نُحَارِبْ يَا بُثَيْنُ لَوَ انَّهَا ... تَكَشَّفُ غُمَّاهَا وَأَنْتِ صَدِيقُ

قوله ما صائب يريد قاصداً يقال : صاب يَصُوبُ إذا قَصَدَ ، ومن ذلك قوله تعالى : « أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ » وقد قالوا النازلُ[٣] والقَصْدُ أَحْكَمُ ، كما قال بِشْرُ بن أبي خازِمٍ الأَسدِيُّ :

---

(١) من قولهم : فلان يزنّ بكذا ، أي يتهم به .

(٢) النابل : صاحب النبل ، كما يقال تامر ولابن ، لصاحب التمر واللبن . (٣) أي في تفسير الصائب.

تُؤَمِّلُ أنْ أؤُوبَ لها بِغُنْمٍ وَلَمْ تَعْلَمْ بِأنَّ السَّهْمَ صابَا

(صَدْرُ البيت عن أبي الحسن) وقوله ومُمَرُّ المُقْذَتين يعنى وَتَرًا ، والمُمَرُّ الشديد الفَتْلِ ، وقوله من (خَوَافِى النَّسْرِ حُمٌّ نَظَائِرُ) يريد ريش السهم ، والحُمُّ : السُّودُ ، وذلك أخلصُهُ وأجوَدُهُ ، وجعَلها نظائرَ فى مقاديرها ، لأنه أقصَدُ لِلسَّهْمِ ، وإذا كانت الريشات بَطْنُ الواحدةِ منها إلى ظهر الأخرى فهو الذى يُختار ، وهو الذى يقال له اللُّؤَامُ ، وإنما أُخِذَ من قولهم مُلْتَئِمٌ ، وإن كان ظهرُ الواحدة إلى ظهر الأخرى ، وبَطْنُها إلى بطن الأخرى ، فذلك مكروه ، يقال له اللُّغَابُ .

وقوله : كنصل الزاعبى ، شبَّهَ نَصْلَ السَّهْمِ بِنَصْلِ الرُّمْحِ الزَّاعِبِيِّ ، وهو منسوب إلى رجل من الخَزْرَجِ يقال له زاعِبٌ كان يَعْمَلُ الأسِنَّةَ ، هذا قول قوم ، وأما الأصمعى فكان يقول : الزَّاعِبِيُّ هو الذى إذا هُزَّ فكأنَّ كُعُوبَهُ يَجْرِى بعضُها فى بعضٍ ، لِلِينِهِ وتَثَنِّيه[1] ، يقال مَرَّ يَزْعَبُ بِحِمْلِهِ إذا مَرَّ به مَرًّا سهلاً .

وقوله فتيق : يعنى حادًّا رقيقاً ، يقال فَتِيقُ الشَّفْرَتَيْنِ ، وتأويله أنه يَفْتُقُ ما عُمِدَ به له ، وفَعِيلٌ يقع اسما للفاعل ، ويقع للمفعول ، فأمَّا الفاعل فَمِثْلُ رَحِيم وَعَلِيمٍ وَحَكِيمٍ وَشَهِيدٍ ، وأما ما كَانَ للمفعول فنحو جَرِيحٍ وقَتِيلٍ وصَرِيعٍ .

وقوله زَوْرَاء : يريد مُعْوَجَّةً ، وكلَّما كانت القَوْسُ أشَدَّ انعطافا كان سَهْمُها أمْضَى .

---

(١) وعلى ذلك تكون الياء فيه للمبالغة لا للنسب .

وقوله على نَبْعَةٍ : يعنى قوْساً ، وأَكْرَمُ القِسِيِّ ما كان من النَّبع .

وقوله أيْمَا : يريد أمّا ، واستثقل التضعيف فأبْدَلَ الياء من إحدى الميمين ، ويُنْشَدُ بيتُ ابن أبى رَبِيعَةَ :

رَأَتْ رَجُلاً أَيْمَا إذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ   فَيَضْحَى وَأَيْمَا بِالْعَشِيِّ فَيَخْصَرُ

وهذا يقع ، وإنما بابه[1] أن تكون قبل المضاعف كَسْرَةٌ فيما يكون على فِعَّال فيكرهون التضعيفَ والكَسْرَ ، فيُبْدِلون من المُضَعَّفِ الأول الياء للكسرة ، وذلك قولهم دِينارٌ وقِيراطٌ ودِيوانٌ وما أشبه ذلك ، فإن زالت الكَسْرة وانفصل أحد الحرفين من الآخر رجعَ التضعيفُ ، فقلت دَنانير وقَراريط ودَواوِين ، وكذلك إن صَغَّرْتَ قلتَ قُرَيْرِيطٌ ودُنَيْنِيرٌ .

وقوله وأيْمَا عُودُها فعَتِيق : يصف كَرَمَ هذه القوس وعِتْقها ، ويُحْمَدُ منها أن تُتْرَكَ ولِحَاؤُها عليها بعد القطع حتى تشرب ماءه ، كما قال الشَّمَّاخُ :

فَمَظَّعَهَا حَوْلَيْنِ مَاءَ لِحَائِهَا   وَيَنْظُرُ مِنْهَا أَيُّهَا هُوَ غَامِزُ

مَظَّعَهَا : شَرَّبَهَا (قوله فمظعها حولين أى تركها فى الظل حولين حتى تشرب ماء اللِّحاء ، يقال تَمَظَّعَ الرجلُ الظلَّ : إذا تحوَّلَ من مكان إلى مكان) .

وقوله : بأوْشَكَ قتلا منك ، يقول بأسرع ، يقال أمْرٌ وشِيكٌ أى سريع ، ويقال : يُوشِكُ فلانٌ أن يفعل كذا وكذا : أى يقاربُ ذلك ، ويُوشِكُ يفعل كذا بطرح أنْ ، كل ذلك جيدٌ[2] . قال الشاعر (هو أُمَيَّةُ بن أبى الصَّلْت) :

يُوشِكُ مَنْ فَرَّ مِنْ مَنِيَّتِهِ   فِى بَعْضِ غِرَّاتِهِ يُوَافِقُهَا
مَنْ لَمْ يَمُتْ عَبْطَةً يَمُتْ هَرَمًا   لِلْمَوْتِ كَأْسٌ فَالْمَرْءُ ذَائِقُهَا

(١) أى قياسه المطرد . (٢) والأجود إثبات أن .

(قال أبو الحسن : هذه الأبيات أربعة ، وهى لرجل من الخوارج قتلَهُ الحجّاجُ ، أوّلها :

مَا رَغْبَةُ النَّفسِ فِى الحيَاةِ وَإنْ عَاشَتْ قَليلاً فَالمَوْتُ لاَحِقُهَا
وَأيْقَنَتْ أنّهَا تَعُودُ كَمَا كَانَ بَرَاهَا بِالأمْسِ خَالِقُهَا)

قوله : عَبْطة ، أى شابًّا ، يقال اعْتُبِطَ الرجلُ : إذا مات شابًّا من غير مرض[١] ، وأصل العبيط : الطَّرِىُّ من كل شىء .

وقوله : نَوَافِذَ لم تُعْلم لهن خروق : معنى طَرِيفٌ ، وقد أخذه أبو حَيَّة منه فكشفه فى أبيات مختارة ، وهى : (اسم أبى حَيّة : الهَيْثَم بن الرّبيع) :

وَإنَّ دَمًا ــ لَوْ تَعْلَمِينَ ــ جَنَيْتِهِ عَلَى الحَىِّ جَانِى مِثْلِهِ غَيْرُ سَالِمِ
أمَا إنَّهُ لَوْ كَانَ غَيْرُكِ أرْقَلَتْ إلَيْهِ القَنَا بِالرّاعِفَاتِ اللّهَاذِمِ[٢]
وَلٰكِنْ لَعَمْرُ اللّهِ مَا طَلَّ مُسْلِمًا كَغُرِّ الثَّنَايَا وَاضِحَاتِ المَلاَغِمِ
إذَا هُنَّ سَاقَطْنَ الحَدِيثَ كَأنّهُ سِقَاطُ حَصَى المَرْجَانِ مِنْ سِلْكِ نَاظِمِ
رَمَيْنَ فَأقْصَدْنَ القُلُوبَ فَلَمْ نَجِدْ[٣] دَمًا مَائِرًا إلاَّ جَوًى فِى الحَيَازِمِ

(الكاف فى قوله : كَغُرٍّ فاعلةٌ بقوله طل[٤] ، ومنه قول الأعشى :

أتَنْتَهُونَ وَلَنْ يَنْهَى ذَوِى شَطَطٍ كَالطَّعْنِ يَذْهَبُ فِيهِ الزَّيْتُ وَالفُتُلُ

وقول امْرِئِ القَيْس :

وَإنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرٍ ضَعِيفٍ وَلَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ

---

(١) وذلك مجاز من قولهم عبط الناقة إذا نحرها وهى سمينة فتية ليس بها داء ولا كسر .
(٢) اللهاذم : القواطع ، والمفرد لهذم على وزن جعفر .
(٣) من قولهم : قصد الرجل أى طعنه فلم يخطئ مقاتله .
(٤) وعلى ذلك تكون الكاف اسما .

(قال أبو الحسن: وأول هذه الأبيات المختارة أنْشَدَناهُ غَيْرُهُ:

خَبَّرَكِ الْوَاشُونَ أَنْ لَنْ أُحِبَّكُمْ   بَلَى وَسُتُورِ اللهِ ذَاتِ المَحارِمِ
أَصُدُّ وَمَا الصَّدُّ الَّذِى تَعْلَمِينَهُ   شِفَاءٌ لَنَا إِلاَّ اجْتِرَاعَ الْعَلاقِمِ(١)
حَيَاءً وَبُقْيَا أَنْ تَشِيعَ نَمِيمَةٌ   بِنَا وَبِكُمْ أُفٍّ لِأَهْلِ النَّمَائِمِ)

قال أبو العباس: فهذا مأخوذ من ذلك.

وقوله: ولكن لَعَمْرُ الله ما طَلَّ مسلماً، يقول ما طَلَّ دَمَهُ، يقال دَمٌ مَطْلولٌ: إذا مَضَى هدَرًا، كما قال الراجز:

* بِغَيْرِ عَقْلٍ وَدَمٍ مَطْلُولِ *

وحدثنى التَّوَّزِىُّ قال: قال يَحْيَى بن يَعْمَرَ لرجل نازَعَتْه امرأته عنده «آنْ طالبَتْكَ بِثَمَنِ شَكْرِهَا وَشَبْرِكَ أَنْشَأْتَ تَطُلُّهَا وَتَضْهَلُهَا؟» قوله: ثمن شكرها، فإنما يعنى الرَّضاعَ، والشَّبْرُ: النكاح، والشَّكْرُ الفَرْجُ، وقوله أنشأتَ تطلُّها، أى تَسْعَى فى بطلان حقها، وقوله تضهلها: أى تعطيها الشىء بعى‌ء، يقد الشال بِرَضهُولٌ إذا كان ماؤها يَخْرُجُ من جرابها شيئًا بعد شىء، وجِرَابُهَا جَوَانِبُهَا، وإنما يَغْزُرُ ماؤها إذا خرج من قَرَارتها فَتَعْظُمُ جَمَّتُهَا.

وقوله: واضحات الملاغمِ، يريد العَوارِضَ(٢). قال الفَرَزْدَقُ:

سَقَتْهَا خُرُوقٌ فى المَسَامِعِ لَمْ تَكُنْ   عِلاَطًا وَلاَ مَخْبُوطَةً فى المَلاَغِمِ

يقول: عَلِمَ أربابُ الماء لِمَنْ هِىَ فَسَقَاها ما سمعوه من ذكر أصحابها لِعزِّهِمْ ومَنَعَتِهِمْ، ولم تَحْتَجْ أن تكون بها سِمَةٌ، والعِلاَطُ: وَسْمٌ فى العُنُقِ، والخِبَاطُ فى الوجه.

---

(١) الاجتراع: الابتلاع، والعلاقم: واحدها العلقم جمع العلقمة، وهى القطعة من الحنظل.
(٢) وهى مايبدو من الفم عند الضحك.

باب

قال بعض الحكماء: مَنْ أدَّبَ ولَدَهُ صغيراً سُرَّ به كبيراً .

وكان يقال: منْ أدَّبَ ولده أرْغمَ حاسِدَهُ .

وقال رجل لعبْدِ المَلِكِ بن مَرْوان: إنى أريد أن أسِرَّ إليك شيئاً ، فقال عبد المَلِكِ لأصحابه: إذا شئتم ، فَنَهضُوا ، فأراد الرجلُ الكلامَ ، فقال له عَبْدُ الملك: قِفْ لا تَمْدَحْنِي ، فأنا أعْلَمُ بنفسى منك ، ولا تَكْذِبْنِي ، فإنه لا رأىَ لِمَكْذُوبٍ[1] ، ولا تغْتَبْ عندى أحداً .

فقال الرجل: يا أمير المؤمنين أفتأذن لى فى الانصراف ؟ قال له: إذا شئت .

وقال بعض الحكماء: ثلاثٌ لا غُرْبَةَ معهنّ: مجانَبَةُ الرِّيَبِ ، وحُسْنُ الأَدَبِ ، وكَفُّ الأذى .

وقال عمرو بن العاص لِدِهْقَانِ[2] نَهْرِ تِيرَى[3]: بِمَ يَنْبُلُ الرجلُ عندكم ؟ فقال: بترك الكَذِبِ: فإنه لا يَشْرُفُ إلا مَنْ يُوثَقُ بقوله ، وبقيامِهِ بأمرِ أهْلِهِ: فإنه لا يَنْبُلُ مَنْ يحتاجُ أهلُهُ إلى غيره ، وبمجانبة الرِّيَبِ: فإنه لا يعزُّ مَنْ لا يُؤْمَنُ أن لا يُصادَفَ على سَوْأة ، وبالقيام بحاجات الناس: فإنه مَنْ رُجِيَ الفَرَجُ لَدَيْهِ كَثُرتْ غاشِيَتُهُ[4] .

---

(١) أصل المثل: ليس لمكذوب رأى . (٢) الدهقان ـ بكسر الدال وضمها ـ زعيم فلاحى العجم ، ويطلق على رئيس الإقليم ، والجمع دهاقين ودهاقنة .

(٣) نهر تيرى: بلد بناحية الأهواز . (٤) الغاشية: هم الذين يغشون أبواب الكرماء .

وقال بَزَرْجُمهر : مَنْ كَثُرَ أدبُه كَثُرَ شرفُهُ وإن كان قبلُ وَضِيعاً ، وبعُدَ صِيتُهُ وإن كان خامِلاً ، وسادَ وإن كان غريباً ، وكثُرت الحاجةُ إليه وإن كان مُقتِراً .

وكان يقال : علَيكُمْ بِالأدب ، فإنه صاحبٌ فى السَّفرِ ، ومُؤْنِسٌ فى الوحدة ، وجَمالٌ فى المَحْفِلِ ، وسبَبٌ إلى طلَب الحاجة .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من أفضل ما أُعْطِيَتْهُ العربُ الأبياتُ يُقدِّمُها الرجلُ أمامَ حاجتِهِ : فيَستَعْطِفُ بها الكريم ، ويستنزل بها اللئيم .

وكان شُعْبةُ بن الحجاج ، أو سِماكُ بن حَرْبٍ (قال أبو الحسن هو سِماكٌ بلا شك) إذا كانت له إلى أمير حاجةٌ استنزله بأبيات يقولها فيه .

وقال بعض الملوك لبعض وُزَرائِهِ — وأراد مِحْنَتَهُ — : ما خيْرُ ما يُرْزَقُهُ العبدُ ؟ قال : عَقلٌ يعيش به . قال : فإنْ عدِمَهُ ؟ قال : فأدبٌ يتحلَّى به . قال : فإنْ عدِمَهُ ؟ قال : فمالٌ يستره . قال : فإن عدِمَهُ ؟ قال : فصاعِقةٌ تُحْرِقُهُ ، فتُرِيحُ منه العبادَ والبلادَ .

وقيل لرجل من ملوك العجم : متى يكونُ العِلْمُ شرّاً من عدَمه ؟ قال: إذا كَثُرَ الأدبُ ، ونقَصت القريحةُ .

وقال أرْدَشِيرُ : مَنْ لم يكن عقلُهُ أغلبَ خِلالِ الخير عليه ، كان حتفُهُ فى أغلب خلال الخير عليه .

وقال محمد بن علىّ بن عبد الله بن العباس ، وذكر رجلاً من أهله : إنى

لأكره أن يكون لِعِلْمِهِ فَضْلٌ على عقله، كما أكره أن يكون للسانه فَضْلٌ على علمه.

وقال محمد بن عليّ بن الحسين: جميع التَّعايُشِ والتَّناصُفِ والتَّعاشُرِ فى مِلْءِ مِكْيالٍ ثلثاه فِطْنَةٌ، وثلث تغافُلٌ. فلم يَجْعَلْ لغير الفِطْنَة نَصِيباً من الخير، ولا حَظًّا فى الصَّلاح، لأن الإنسان لا يتغافل إلا عن شىء قد عَرَفَهُ وَفَطِنَ به[1].

باب

قال رجل[2] من بنى عبد الله بن غَطَفان، وجاوَرَ فى طيئٍ وهو خائف:

جزَى اللهُ خَيْرًا طَيِّئًا مِنْ عَشِيرَةٍ ... وَمِنْ صَاحِبٍ تَلْقَاهُمُ كُلَّ مَجْمَعِ
هُمُ خَلَطُونِى بِالنُّفُوسِ وَدَافَعُوا ... وَرَائِى بِرُكْنٍ ذِى مَنَاكِبَ مِدْفَعِ
وَقَالُوا تَعَلَّمْ أَنَّ مَالَكَ إِنْ يُصَبْ ... نُفِدْكَ وَإِنْ تُحْبَسْ نَزُرْكَ وَنَشْفَعِ

وقال رجل من بنى سَلامَانَ بن سَعْد هُذَيْم من قُضَاعَةَ، وَجاوَرَ فِى طَيِّئٍ:

كَأَنَّ الْجَارَ فِى شَمَجَى بْنِ جَرْمٍ ... لَهُ نَعْمَاءُ أَوْ نَسَبٌ قَرِيبُ
يُحَاطُ ذِمَارُهُ وَيُذَبُّ عَنْهُ[3] ... وَيَحْمِى سَرْحَهُ أَنْفٌ غَضُوبُ[4]
أَلِفْتُ مَسَاكِنَ الْجَبَلَيْنِ إِنِّى ... رَأَيْتُ الْغَوْثَ يَأْلَفُهَا الْغَرِيبُ

(الجبلان: سَلْمَى وأَجَأٌ، وهُمَا لِطَيِّئٍ، وَالغَوْثُ قبيلة من طيئ.

---

(١) ويقال أيضا: فطن إليه، وفطن له.

(٢) نسبه أبو تمام فى حماسته الصغرى إلى ابن دارة، وهو سالم بن مسافع.

(٣) الذمار: ما لزمك حفظه من أهل ومال. (٤) السرح: مايسام فى المرعى من الأنعام.

❁

وأنشدنى عبد الوهاب بن جَنْبَةَ الغَنَوِىُّ لعُبَيْدِ بن العَرَنْدَسِ الكِلَابِىِّ يصف قومًا نزَلَ بهم :

هَيْنُونَ لَيْنُونَ⁽¹⁾ أَيْسَارٌ ذَوُو يَسَرٍ سُوَّاسُ مَكْرُمَةٍ أَبْنَاءُ أَيْسَارِ

لَا يَنْطِقُونَ عَلَى العَمْيَاءِ إِنْ نَطَقُوا وَلَا يُمَارُونَ إِنْ مَارَوْا بِإِكْثَارِ

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لَاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِى يَسْرِى بِهَا السَّارِى

❁

(قال أبو الحسن حدَّثنا أبو العباس أحمد بن يحيى قال حُدِّثْتُ عن أبى الفَضْل العبَّاس بن الفرَجِ الرِّيَاشِىِّ قال : قَصَدَ رجل من الشعراء ثلاثةَ إخوةٍ من غَنِىٍّ ، وكانوا مُقِلِّينَ ، فامتدحهم ، فجعلوا له عليهم فى كل سنة ذَوْدًا ، فكان يأتى فيأخذ الذَّوْدَ ، والشِّعْرُ الذى امتدحهم به قوله :

يَا دَارُ بَيْنَ كُلَيَّاتٍ⁽²⁾ وَأَظْفَارِ وَالحَمَّتَيْنِ سَقَاكِ اللهُ مِنْ دَارِ

عَلَى تَقَادُمِ مَا قَدْ مَرَّ مِنْ عُصُرٍ مَعَ الَّذِى مَرَّ مِنْ رِيحٍ وَأَمْطَارِ

عَنَّا غَنِيتِ بِذَاتِ الرِّمْثِ مِنْ أَجَلِى وَالعَهْدُ مِنْكِ قَدِيمٌ مُنْذُ أَعْصَارِ

أراد أَنِّى فقلب الهمزة عينا :

وَقَدْ نَرَى بِكِ وَالأَيَّامُ جَامِعَةٌ بِيضًا عَقَائِلَ مِنْ عِينٍ وَأَبْكَارِ

فِيهِنَّ عَثْمَةُ لَا يَمْلَلْنَ عِشْرَتَهَا وَلَا عَلِمْنَ لَهَا يَوْمًا بِأَسْرَارِ

---

(1) يرى بن الأعرابى أن العرب تمدح بهاتين الكلمتين مخففتين وتذم بهما مشددتين ، وغيره يجعلهما بمعنى واحد . (2) جمع كلية مصغر كلوة ، وهى : اسم واد قريب من نجد وأظفار موضع لبنى فزارة بنجد ، والحمتين هما حمتا النوير ، وذكر بعض الناس أنهما جبلان .

إِذْ يَحْسِبُ النَّاسُ أَنْ قَدْ نِلْتَ نَائِلَهَا ... قِدْمًا وَأَنْتَ عَلَيْهَا عَاتِبٌ زَارِي[١]

بَلْ أَيُّهَا الرَّاكِبُ الْمُفْنِي شَبِيبَتَهُ ... يَبْكِي عَلَى ذَاتِ خَلْخَالٍ وَأَسْوَارِ

خَبِّرْ ثَنَاءَ بَنِي عَمْرٍو فَإِنَّهُمُ ... أُولُو فُضُولٍ[٢] وَأَنْفَالٍ[٣] وَأَخْطَارِ[٤]

هَيْنُونَ لَيْنُونَ أَيْسَارٌ ذَوُو كَرَمٍ ... سُوَّاسُ مَكْرُمَةٍ أَبْنَاءُ أَيْسَارِ

فِيهِمْ وَمِنْهُمْ يُعَدُّ الْمَجْدُ مُتَّلِدًا[٥] ... وَلَا يُعَدُّ نَثَا خِزْيٍ وَلَا عَارِ

لَا يَظْعَنُونَ عَلَى الْعَمْيَاءِ إِنْ ظَعَنُوا[٦] ... وَلَا يُمَارُونَ إِنْ مَارَوْا بِإِكْثَارِ

وَإِنْ تَلَيَّنْتَهُمْ[٧] لَانُوا وَإِنْ شُهِمُوا[٨] ... كَشَّفْتَ أَذْمَارَ حَرْبٍ غَيْرَ أَغْمَارِ

إِنْ يُسْأَلُوا الْعُرْفَ يُعْطُوهُ وَإِنْ جُهِدُوا ... فَالْجُهْدُ يَكْشِفُ مِنْهُمْ طِيبَ أَخْبَارِ

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لَاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ ... مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي)

⁂

قال أبو العباس: وكان قوم نزلوا ببني الْعَنْبَرِ بن عَمْرِو بن تَمِيمٍ، والقومُ من بني ضَبَّةَ، فَأُغِيرَ عليهم، فاستغاثوا جيرانهم فلم يُغِيثُوهُمْ، وجعلوا يُدَافِعونهم حتى خافوا فَوْتَهَا، فاستغاثوا بني مازن بن مالك بن عمرو بن تميم، فَرَكِبُوا فَرَدُّوها عليهم، فقال الْمُكَعْبَرُ الضَّبِّيُّ في ذلك (اسمه حُرَيْثُ بن عَفُوظٍ).

أَبْلِغْ طَرِيفًا حَيْثُ شَطَّتْ بِهَا النَّوَى ... فَلَيْسَ لِدَهْرِ الطَّالِبِينَ فَنَاءُ

كُسَالَى إِذَا لَاقَيْتَهُمْ غَيْرَ مَنْطِقٍ ... يُلَهَّي بِهِ الْمَحْرُوبُ وَهْوَ عَنَاءُ

---

(١) من زرى عليه: إذا عابه.

(٢) الفضول: جمع فضل، وهو ضد النقص. (٣) والأنفال: جمع نفل بالتحريك، وهو العطية.

(٤) جمع خطر بالتحريك، وهو رفعة المنزلة. (٥) المتلد: القديم.

(٦) المراد أنهم لا يسيرون في ضلال. (٧) أي تلينت لهم. (٨) شهموا: ذعروا وخافوا.

وَإِنِّى لَأَرْجُوكُمْ عَلَى بُطْءِ سَعْيِكُمْ   كما فِي بُطُونِ الْحَامِلاَتِ رَجَاء
أُخَبَّرُ مَنْ لاَقَيْتُ أَنْ قَدْ وَفَيْتُمُ   وَلَوْ شِئْتُ قال الْمُخَبِّرُونَ أَساءوا
فَهلاَّ سَعَيْتُمْ سَعْيَ أُسْرَةِ مَالِكٍ   وَهَلْ كُفَلاَئِى فِى الْوَفَاءِ سَوَاء
كَأَنَّ دَنَانِيرًا عَلَى قَسِماتِهِمْ   وَإِنْ كانَ قَدْ شَفَّ الْوُجُوهَ لِقَاء
لَهُمْ أَذْرُعٌ بَادٍ نَوَاشِرُ لَحْمِهَا   وَبَعْضُ الرِّجَالِ فِى الْحُرُوبِ غُثَاء

قوله : حيث شَطَّتْ بها النَّوَى ، معنى شَطَّتْ: تباعدتْ ، يقال أشَطَّ فلانٌ فى الحُكْمِ : إذا عَدَلَ عنه متباعداً ، قال الله تعالى : فاحْكُمْ بيننا بالْحَقِّ ولا تُشْطِطْ ، وقال الأحْوَصُ(١) :

أَلاَ يَالَقَوْمِى قَدْ أَشَطَّتْ عَوَاذِلِى   وَيَزْعُمْنَ أَنْ أَوْدَى بِحَقِّىَ بَاطِلِى
وَيَلْحَيْنَنِى فِى اللَّهْوِ أَلاَّ أُحِبَّهُ   وَلِلَّهْوِ دَاعٍ دَائِبٌ غَيْرُ غَافِلِ

والنَّوَى:البُعْدُ، ويقال شَطَّتْ بِهِمْ نِيَّةٌ قَذَفٌ، أى رِحْلَةٌ بعيدة ، قال الشاعر: * وَصَحْصَحَانٍ قَذَفٍ كالتُّرْسِ * وليس بمأخوذ من نأيت فى اللفظ ولكنه مثله فى المعنى .

وقوله : * فَلَيْسَ لِدَهْرِ الطَّالِبِينَ فَنَاء * يقول : الطالب فى إثْرِ طَلِبَتِهِ أبداً .

وَيُرْوَى أن رجلاً من قُرَيْشٍ بَعَثَ إلى رجل منهم وكان أَخَذَ له غلامًا : ياهذا، إن الرجل ينام على الثُّكْلِ ، ولا ينام على الحَرَبِ ، فإمَّا رَدَدْتَهُ ، و إما عَرَضْتُ اسمك على الله فى كل يوم وليلة خمس مرات(٢) .

---

(١) هو عبد الله بن محمد من شعراء العصر الأموى ، ولقب بالأحوص لضيق فى مؤخر عينه ، وكانت وفاته سنة ١٠٥ هـ . (٢) المعنى أنه يدعو عليه فى أعقاب الصلوات .

ومن أمثال العرب لا ينام إلا مَنِ اثَّأَرَ ، ويقال لِمَنْ أدرك ثأراً نبيلاً أصاب ثأراً مُنِيماً ، وأنشد :

تَقُولُ لِيَ ابْنَةُ الْبَكْرِيِّ عَمْرٍو ... لَعَلَّكَ لَسْتَ بِالثَّأْرِ الْمُنِيمِ

وقوله :

وَإِنِّى لَأَرْجُوكُمْ عَلَى بُطْءِ سَعْيِكُمْ ... كَمَا فِى بُطُونِ الْحَامِلَاتِ رَجَاءُ

يقول : هذا رجاء غيرُ صادقٍ ولا موقوفٍ عليه ، كما أن هذه الحَوامل لا يُعْلَمُ ما فى بطونها وليس بِمَيْئُوسٍ منه ، وإنما يتهكَّمُ بهم وهو يَعْلَمُ أن سَعْيَهُمْ غير كائن ، ألا تراه يقول :

أُخَبِّرُ مَنْ لَاقَيْتُ أَنْ قَدْ وَفَيْتُمُ ... وَلَوْ شِئْتُ قَالَ الْمُخْبِرُونَ أَسَاءُوا

وقوله : « كَأَنَّ دَنَانِيرًا عَلَى قَسِمَاتِهِمْ » زعم أبو عبيدة أن القَسِماتِ مَجَارى الدُّمُوع ، واحدتها قَسِمَة ، وقال الأصمعىُّ : القَسِماتُ أعالى الوجه ولم يُبَيِّنْهُ بأكثر من هذا ، وقول أبى عبيدة مَشْرُوحٌ ، ويقال من هذا رجل قَسِيمٌ ، ورجل مُقَسَّمٌ ، ووجه قَسِيمٌ ومُقَسَّمٌ ، قال الشاعر :

وَيَوْمًا تُوَافِينَا بِوَجْهٍ مُقَسَّمٍ ... كَأَنْ ظَبْيَةً تَعْطُو إِلَى وَارِقِ السَّلَمْ

قوله : تعطو أى تتناول ، يقال عطا يَعْطُو : إذا تناوَلَ ، وأعْطيتُهُ أنا أى ناولته ، قال امْرُؤُ القَيْسِ :

وَتَعْطُو بِرَخْصٍ[1] غَيْرِ شَثْنٍ[2] كَأَنَّهُ ... أَسَارِيعُ ظَبْيٍ[3] أَوْ مَسَاوِيكُ إِسْحِلِ[4]

---

(١) الرخص : اللين الناعم . (٢) الشثن : الغليظ الخشن .

(٣) ظبي : اسم رملة ، والأساريع دود مفصل الألوان بياضاً وحمرة تشبه به أصابع النساء .

(٤) الاسحل : شجر يستاك بعيدانه ، والمفرد إسحلة .

والسَّلَمُ شجر بعينه كثير الشوك، فإذا أرادوا أن يَحْتطبوهُ شَدّوه ، ثم قطعوه، فمن ذلك قولُ الحجَّاج : « وَاللهِ لَأَحْزِمَنَّكُمْ حَزْمَ السَّلَمَةِ ، وَلَأَضْرِبَنَّكُمْ ضَرْبَ غَرَائِبِ الْإِبِلِ[١] » .

قال : وحدثنى التَّوَّزِىُّ عن أبى زيد قال : سمعت العرب تُنْشِدُ هذا البيتَ فتنصب الظَّبْيَةَ وترفعها وتخفضها ، قال أبو العباس : أما رفعها فعلى الضمير يريد كأنَّها ظَبْيَةٌ ، وهذا شرط أنّ وكأنّ إذا خُفِّفَتَا إنما هو على حذف الضمير وعلى هذا قوله تعالى : « عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى » وهذا الباب قد شرحناه فى الكتاب المُقْتَضَب فى باب إنّ وأنّ بجميع عِلَلِهِ ، ومَنْ نَصَبَ فعلى غير ضمير ، وعَمَلُها مخففةً عَمَلُها مُثَقَّلَةً لأنها تعْمَلُ لشبهها بالفعل ، فإذا خُفِّفَتْ عَمِلَتْ عَمَلَ الفعل المحذوف[٢] ، كقولك : لم يَكُ زيدٌ منطلقاً ، فالفعل إذا حذف يَعْمَلُ عَمَلَهُ تامًّا ، فيصير التقدير كأنّ ظَبْيَةً تَعْطُو إلى وارِقِ السَّلَم هذه المرأةُ ، وحَذَفَ الخبر لما تقدم من ذكره ، ومن قال كأنْ ظَبْيَةٍ جَعَلَ أن زائدةً ، وأعْمَلَ الكاف أراد كظبية، وزاد أنْ كما تزيدُها فى قولك : لَمَّا أنْ جاء زيدٌ كَلَّمْتُهُ ، ووالله أنْ لو جئتَنى لأعطيتك ، وقوله :

* لَهُمْ أَذْرُعٌ بَادٍ نَوَاشِرُ لَحْمِها * فكلُّ شىء كان على فِعَالٍ من المؤنث فجمْعُهُ أفعُلٌ ، وكذلك فُعَالٌ ، تقول: ذِرَاعٌ وأذْرُعٌ ، وكُرَاعٌ وأكْرُعٌ ، لأنهما مؤنثتان ، ومن أنَّثَ اللسانَ قال ألْسُنٌ ، ومن ذكّرَهُ قال ألْسِنَةٌ ، وشِمالٌ وأشْمُلٌ ، كما قال (هو أبو النَّجْمِ العِجْلِىُّ) * يَأْتِى لهَا مِنْ أَيْمُنٍ وَأَشْمُلِ *

---

(١) أى الابل الغريبة التى تدخل مع الابل عند ورود الماء فيطردها الرعاة .
(٢) أى الذى حذف منه حرف .

فأما المذكر فعلى أفْعِلَةٍ فى أدنى العَدَدِ وفُعُلٍ فى الكثير، يقال حِمارٌ وأحْمِرَةٌ وحُمُرٌ، وفِرَاشٌ وأفْرِشَةٌ وفُرُشٌ، والنَّوَاشِرُ: ما يظهر من العُرُوق فى ظَهْرِ الذِّراعِ مما يُدانِى المِعْصَمَ، وذلك الموضع يقال له أسَلَةُ الذِّراع، قال زُهَيْرٌ:

وَدَارٌ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا مَرَاجِعُ وَشْمٍ فى نَوَاشِرِ مِعْصَمِ

وقوله: * وَبَعْضُ الرِّجَالِ فى الحُرُوبِ غُثَاءُ * فالغُثَاءُ: مايَبِسَ من البَقْلِ حتى يصير حُطاما، وينتهىَ فى اليُبْسِ فيَسْوَدَّ، فيقال له: غُثاءٌ وهَشِيمٌ ودِنْدِنٌ وثِنٌّ، على قَدْرِ اختلاف أجناسه، ويقال له الدرِينُ، قال الله عز وجلّ: «فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى» وقال «فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ»، وقال الشاعر يصف سحابا (هو ابن مَيَّادَةَ، وقبله:

سَحَائِبُ لَا مِنْ صَيِّفٍ[1] ذِى صَوَاعِقٍ وَلَا مُحْرِقَاتٍ مَاؤُهُنَّ حَمِيمُ)

إِذَا مَا هَبَطْنَ الْأَرْضَ قَدْ مَاتَ عُودُهَا بَكَيْنَ بِهَا حَتَّى يَعِيشَ هَشِيمُ

وقال الراجز: * تَكْفِى الفَصِيلَ أُكْلَةٌ مِنْ ثِنٍّ * وقد يقال للشىء الذى لاخير فيه: هذا غُثَاءٌ، أى قد صار كذلك الذى وَصفناه، ويُضْرَبُ هذا مَثَلًا للكلام الذى لا وَجْهَ له، وقال رجل أحْسِبُهُ تَمِيميًّا (هو الفَرَزْدَقُ):

لَوْ لَمْ يُفَارِقْنِى عَطِيَّةُ لَمْ أَهِنْ وَلَمْ أُعْطِ أَعْدَائِى الَّذِى كُنْتُ أَمْنَعُ

شُجَاعٌ إِذَا لَاقَى وَرَامٍ إِذَا رَمَى وَهَادٍ إِذَا مَا أَظْلَمَ اللَّيْلُ مِصْدَعُ

سَأَبْكِيكَ حَتَّى تُنْفِدَ الْعَيْنُ مَاءَهَا وَيَشْفِىَ مِنِّى الدَّمْعُ مَا أَتَوَجَّعُ

أَحْسَنُ الإنْشادَيْنِ عندى لَمْ أَهِنْ، يأخذه مِنْ وَهَنَ يَهِنُ، لأنه إذا قال لم

---

(١) الصيف: المطر الذى يأتى فى الصيف، وفى رواية «صيب».

أهُنْ فهو من الهَوَانِ ، ومن قال : لم أهِنْ فإنما هو من الضَّعْفِ ، وهو أشبه بقوله : * وَلَمْ أُعْطِ أعْدائى الّذِى كُنْتُ أمْنَعُ * والآخر غير بعيد ، يقول لم أهُنْ على أعدائى ، وإذا قال لم أهِنْ فالأصل لم أوْهِنْ ، ولكنّ الواوَ إذا كانت فى موضع الفاء من الفِعْلِ ، وكان ذلك الفعل على يَفْعِلُ ، فالواو محذوفة ، وإنما تُحْذَفُ الواو لوقوعها بين ياء وكسرة ، وتصير حروف المُضارَعَةِ الباقيةُ تابعةً للياء ، لئلا يَخْتلِفَ البابُ ، وهى التاء من قولك تَفْعِلُ إذا عَنَيْتَ مخاطباً أو مؤنثاً غائباً ، نحو أنت تَعِدُ وهى تَعِدُ ، والهمزة إذا عنيت نفسك نحوأنا أعِدُ ، والنون إذا أخْبَرْتَ عن نَفْسِكَ ومعكَ غيْرُكَ ، نحو نَحْنُ نَعِدُ ، فإن قال قائل : إنما هذا لأن الفعل المتعدى تحذف منه الواو ، فإن كان غَيْرَ مُتَعَدٍّ ثبتت ، فقد قال أقْبَحَ قولٍ ، لأن التَّعَدِّىَ أو غَيْرَ التعدى لايُحْدِثُ فى أنْفُسِ الأفْعال شيئاً ، ولو كان كما يقول لأثْبَتَّ الواوَ فى وَهَنَ يهِنُ ، لأنك لا تقول : وَهَنْتُ زيداً ، وكذلك وَرِمَ يرِمُ ، ووَكف البيتُ يَكِفُ ، ووَنَمَ الذُّبابُ يَنِمُ ، وهذا أكثر من أن يُحْصَى ، فإن لم تكن بعد الواو كسرةٌ لم تُحْذَف ، نحو وَحِلَ يَوْحَلُ ، ووَجِلَ يَوْجَلُ ، ووَجِعَ الرجلُ يَوْجَعُ ، وقديجوز يَيْجَعُ وَيَاجَعُ وييجَعُ لما نذكره إذا جرى ذِكْرُ هذه المفتوحة إن شاء الله ، فأما الحذف فلا يكون فيها ، فإن قال قائل : فما بالُ يَطَأُ ويَسَعُ حذفتْ منهما الواوُ ، ومثلهما ثَبَتَتْ فيه الواوُ ، فإنما ذلك لأنه كان فَعِلَ يَفعِلُ مثل وَلِىَ يَلِى ، وورِمَ يرِمُ ، فَفَتَحتْهُ الهمزةُ والعينُ ، والأصل الكسر ، فإنما حذفت الواو مما يلزَمُ فى الأصل ، ألا ترى أنك تقول : وَلَغَ السَّبُعُ يَلَغُ فهذا فَعَلَ يَفعَلُ

والأصل يَفعِلُ ، ولكن فتحتهُ الغينُ ، لأن حروف الحَلْقِ تَفْتَحُ ما كَانَ على يَفعِلُ ويَفْعُلُ ، ولولا ذلك لم تقع فعَلَ يَفعَلُ . وحروفُ الحَلْقِ ستة : الهمزة والهاء ، والعين والغين ، والحاء والخاء ، وهُنَّ يُفتَحْنَ إذا كُنَّ فى موضع العين واللام ، فأما العين فنحو سَأَلَ يسْأَلُ وذَهَبَ يَذْهَبُ ، وأما اللام فمثل قَرَأَ يَقْرَأُ ، وَصَنَعَ يَصْنَعُ ، وسائر هذا الباب على ما وَصَفْتُ لك .

وقوله : ٭ وَهَادٍ إذَا مَا أَظْلَمَ اللَّيْلُ مِصْدَعُ ٭ فتأويل مِصدع أى ماضٍ فى الأمرِ ، قال الله عز وجلّ : « فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ » ويقال : أحْزَمُ الناس مَنْ إذا وَضَحَ له الأمْرُ صدَعَ به ، وقال أعرابىّ يمدح سوَّار بن عبد الله القاضى ، وَسَوَّارٌ أحد بنى العَنْبَرِ بن عمرِو بن تَميم :

وَأَوْقَفُ عِنْدَ الْأَمْرِ مَالَمْ يَضِحْ لَهُ وَأَمْضَى إذَا ما شَكَّ مَنْ كَانَ مَاضِيَا

فاستَجْمَعَ فى هذا المَدْح رَكَانَةَ الحَزْمِ ، وإمْضاءَ العَزْمِ ، ومثله قول النابغة الجَعْدِىّ :

أَبَى لِى الْبَلَاءُ وَأَنِّى امْرُؤٌ إذَا مَا تَبَيَّنْتُ لَمْ أَرْتَبِ

٭٭٭

ومن أمثال العرب السائرة الجَيِّدَةِ « رَوِّ تَحزُمْ ، فإذا اسْتَوْضَحْتَ فاعْزِمْ » ومن أمثالهم « قد أَحْزُمُ لَوْ أَعْزِمُ » وإنما يكون هذا بعد التَّوَقُّفِ والتَّبَيُّنِ ، فقد قال الشَّعْبِىُّ : أصابَ مُتأَمِّلٌ أو كاد ، وأخطأ مُسْتَعْجِلٌ أو كاد .

وَمثل قوله : ٭ وَيَشْفِى مِنِّى الدَّمْعُ مَا أَتَوَجَّعُ ٭ قولُ الفرزْدقِ :

أَلَمْ تَرَ أَنِّى يَوْمَ جَوِّ سُوَيْقَةٍ بَكَيْتُ فَنَادَتْنِى هُنَيْدَةُ مَالِيَا
فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْبُكَاءَ لَرَاحَةٌ بِهِ يَشْتَفِى مَنْ ظَنَّ أَنْ لَا تَلَاقِيَا

(قال أبو الحسن ويتلو هذين البيتين مما يُسْتَحْسَنُ :

قَعِيدَكُمَا اللّهَ الَّذِى أَنْتُمَا لَهُ أَلَمْ تَسْمَعَا بِالْبَيْضَتَيْنِ الْمُنَادِيَا
حَبِيبٌ دَعَا وَالرَّمْلُ بَيْنِى وَبَيْنَهُ فَأَسْمَعَنِى سَقْيًا لِذٰلِكَ دَاعِيَا

يقال : قَعِيدَكَ اللّهَ ، وَقَعْدَكَ اللّهَ ، وَنِشْدَكَ اللّهَ : أى سألتُكَ بالله ، كما قال مُتَمِّمُ بن نُوَيْرَةَ ، وهو من بنى يَرْبُوعٍ :

قَعِيدَكِ أَلَّا تُسْمِعِينِى مَلَامَةً وَلَا تَنْكَئِى قَرْحَ الْفُؤَادِ فَيَيْجَعَا

ويروى فَقِعْدَكِ أَلَّا تُسْمِعِينِى ، والبيضتان موضع معروف)

قال أبو العباس ، وقال أبو بكر بن عيَّاشٍ : نَزَلَتْ بى مصيبةٌ أوجعتنى ، فذَكَرْتُ قول ذِى الرُّمَّةِ .

لَعَلَّ انْحِدَارَ الدَّمْعِ يُعْقِبُ رَاحَةً مِنَ الْوَجْدِ أَوْ يَشْفِى نَجِىَّ الْبَلَابِلِ

فَخَلَوْتُ ، فبَكَيْتُ ، فَسَلَوْتُ .

وقال نَضْلَةُ السُّلَمِىُّ فى يوم غَوْلٍ ، وكَانَ حقيرًا دميمًا ، وكَانَ ذا نَجْدَةٍ وبَأْسٍ :

أَلَمْ تَسَلِ الْفَوَارِسُ يَوْمَ غَوْلٍ بِنَضْلَةَ وَهْوَ مَوْتُورٌ مُشِيحُ
رَأَوْهُ فَازْدَرَوْهُ وَهْوَ حُرٌّ وَيَنْفَعُ أَهْلَهُ الرَّجُلُ الْقَبِيحُ
فَشَدَّ عَلَيْهِمُ بِالسَّيْفِ صَلْتًا كَمَا عَضَّ الشَّبَا الْفَرَسُ الْجَمُوحُ
فَأَطْلَقَ غُلَّ صَاحِبِهِ وَأَرْدَى قَتِيلًا مِنْهُمُ وَنَجَا جَرِيحُ

وَلَمْ يَخْشَـوْا مَصالَتَهُ عَلَيْهِمْ   وَتَحْتَ الرَّغْوَةِ اللَّبَنُ الصَّرِيحُ

قوله: وهو مَوْتور مُشِيحُ، فالمُشِيحُ الحاملُ الجادُّ، يقال: أشاحَ يُشِيحُ إذا حَمَلَ، وأنشدنى التَّوَّزِىُّ قال أنشدنى أبو زَيْدٍ (وهو لأبى العِيَال الهُذَلِىّ) :

مُشِيحٌ فَوْقَ شِيحَانٍ   يَشُـدُّ كَأَنَّهُ كَلِبُ

قال شِيحان اسم فرسه (قال أبو الحسن ويروى «شَيْحان» بفتح الشين، وحقه على رواية أبى زيد أن لا يَنْصَرِفَ لأنه فَعْلان، فالألف والنون زائدتان، وهو معرفة، فضَارَعَ عَطْشان وما جرى مَجْراه، وإنما اضْطُرَّ فصَرَفَهُ)، وقال ابن الإِطْنَابَةِ، واسمه عمرو :

وَإِجْشَامِى(١) عَلَى المَكْرُوهِ نَفْسِى   وَضَرْبِى هَامَةَ البَطَلِ المُشِيحِ

ويقال فى هذا المعنى: رجل شِيحٌ كما يقال ناقة نِقْضٌ إذا كانتْ هَزِيلًا(٢)، قال أبو ذُؤَيْبٍ. * وَشَايَحْتَ قَبْلَ اليَوْمِ إِنَّكَ شِيحُ * وقوله بالسيف صَلْتًا يقول مُنْتَضًى، ورجل صَلْتُ الجَبِينِ إذا كان نَقِيَّهُ، وقوله «كما عَضَّ الشَّبَا» يريد حَدَّ اللجام، وشَبَا كُلِّ شىءٍ حَدُّهُ، وقوله «وَأَرْدَى» أى أهْلَكَ، يقال رَدِىَ يَرْدَى إذا هَلَكَ، والرَّدَى الهَلاكُ، قال الله عزّ وجل: «وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى» قيل فيه قولان: أحدهما إذا تَرَدَّى فى النار، والآخر إذا مات، وهو تَفَعَّلَ من الرَّدَى.

وقوله: * وَلَمْ يَخْشَوْا مَصَالَتَهُ عَلَيْهِمْ * فهى مَفْعَلَةٌ من صالَ يَصُولُ، ويقالُ صالَ البعيرُ إذا عَضَّ.

---

(١) مصدر أجشمه الأمر: كلفه إياه.   (٢) يريد أن «شيح» تشبه «نقض» من حيث الوزن، وإن كانت الأولى بمعنى فاعل والثانية بمعنى مفعول.

وقيل للمغيرة بن شُعْبَة: إنّ بوّابك يأذنُ لأصحابه قبل أصحابك، فقال: إن المعْرفة لتنْفعُ عند الكلب العقُورِ، والجَملِ الصّئُولِ، فكيف بالرجُلِ الكريمِ؟

وقوله: * وَتحتَ الرّغوةِ اللَبنُ الصّرِيحُ * يقول إذا رأيت الرّغْوةَ وهو ما يرْغُو كالجلدة فى أعْلَى اللّبنِ لم تدْرِ ما تحتها، فربما صادفْتَ اللبنَ الصّرِيح إذا كشفْتَهَا: أى أنّهُمْ رَأَوْنِى فازْدرَوْنِى لِدمامَتِى، فلما كشفُوا عنى وَجَدُوا غير ما رأوا. والصّرِيح المَحْضُ الخالص، من ذلك قولهم عرَبِىٌّ صَرِيحٌ أى خالص، ومَوْلًى صَرِيحٌ.

ومن أمثال العرب: «إنه ليَسُرُّ حسْواً فى ارْتِغاء» ومعنى ذلك أنه يُوهِمُكَ أنه يأخذ بفِيهِ تلك الجلدةَ عن اللبن لِيُصْلِحَهُ لك، وإنما يَحْسُو من تحتها، يُضْرَبُ هذا المَثلُ لمن يُرِيكَ أنه يُعِينُكَ، وإنما يجْتَرُّ النفعَ إلى نفسه.

وقال أعرابى خُبِّرْتُ أنه من بنى سَعْدٍ، وقد تمَثّلَ بهذا الشِّعْرِ الخَنَوْتُ وهو تَوْبَةُ بن مُضَرِّسٍ، أحد بنى مالك بن سَعْد بن زيد مَناة بن تَميم، فى خِلاف الدّمامة:

وَلَمّا الْتقَى الصّفّانِ وَاخْتلَفَ الْقَنا ... نِهالاً وَأَسْبابُ المنايا نِهالُها
تبَيّنَ لِى أنّ الْقَماءَةَ ذِلّةٌ ... وَأَنّ أَشِدّاءَ الرِّجالِ طِوالُها
دَعَوْا يا لَسَعْدٍ وَانْتَمَيْنا لِطَيِّئٍ ... أُسُودُ الشَّرَى إِقْدامُها وَنِزالُها

قوله نِهالاً، يريد أنها قد وَرَدَتِ الدّمَ مرة ولم تُثَنِّ، وذلك أن الناهل الذى يَشْرَبُ أوّلَ شَرْبَةٍ، فإذا شَرِبَ ثانية فهو عالٌّ، يقال سقاه عَلاًّ بعد نَهلٍ وعَلَلاً

بَعْدَ نَهَلٍ ، وفى المثل : سُمْتُهُ سَوْمَ عَالَّةٍ إذا عَرَضْتَ عليه عَرْضاً يستحيى من أن يُقبَلَ معه ، والعالَّةُ لاحاجة بها إلى الشُّرْبِ ، وإنما يُعْرَضُ عليها تعزيراً. قال : ✲ وَأَسْبَابُ المَنَايَا نِهَالُهَا ✲ أى أول ما يقع منها يكون سبباً لما بعده . وأنشدنى غير واحد : ✲ وَأَنَّ أَشِدَّاءَ الرِّجَالِ طِيَالُهَا ✲ وليس هذا بالجيِّدِ ، وإنما قَلَبَ الواو ياء لوقوعها بين كسرة وألف كقولهم : ثِيَابٌ ، وحِياضٌ ، وسِياطٌ ، والواحد : ثَوْبٌ ، وحَوْضٌ وسَوْطٌ ، وهذا جيد ، لسكون الواو فى الواحد ؛ فأما فى مثل طِوَالٍ ، فإنما يجوز على التشبيه بهذا ، وليس بجيد لِتَحَرُّكِ الواو فى الواحد ، وأنشدنى مَسْعود بن بِشْرٍ المازنىُّ :

لَهُمْ أَوْجُهٌ بِيضٌ حِسَانٌ وَأَذْرُعٌ ... طِيَالٌ وَمِنْ سِيمَا المُلُوكِ نِجَارُ

ومجاز هذا فى النحو على ما وصفتُ لك .

والعرب تَمدَحُ بالطول ، وتَضَعُ من القِصَرِ ، فلا يَذْكُره منهم إلا مُحْتَجٌّ عن نفسه ، ولا يَمْدَحُ به غَيْرَهُ ، قال عَنْتَرَةُ :

بَطَلٌ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فى سَرْحَـــةٍ ... يُحْذَى نِعَالَ السِّبْتِ لَيْسَ بِتَوْأَمِ (١)

يقول : لم يُشَارَكْ فى الرَّحِمِ ، وقال جَرِيرٌ :

تعالَوْا فَفَاتُونَا (٢) فَفِى الحُكْمِ مَقْنَعٌ ... إلَى الغُرِّ مِنْ أَهْلِ البِطَاحِ الأَكَارِمِ
فَإِنِّى لَأَرْضَى عَبْدَ شَمْسٍ وَمَا قَضَتْ ... وَأَرْضَى الطِّوَالَ البِيضَ مِنْ آلِ هَاشِمِ

وقال حسَّان بن ثابت :

---

(١) السبت بالكسر : الجلد المدبوغ بالقرظ ، وكانت تصنع منه نعال يلبسها أهل الترف .
(٢) فاتونا : أمر من المفاتاة وهى المحاكمة .

وَقَدْ كُنَّا نَقُولُ إِذَا رَأَيْنَا ... لِذِى جِسْمٍ يُعَدُّ وَذِى بَيَانِ
كَأَنَّكَ أَيُّهَا الْمُعْطَى بَيَانًا ... وَجِسْمًا مِنْ بَنِى عَبْدِ الْمَدَانِ[١]

⁂

ويقال إن علىَّ بن عبد الله بن العباس بن عبد المُطَّلِبِ كان إلى مَنْكِبِ عبد الله ، وكَانَ عبدُ الله إلى مَنْكب العبَّاسِ ، وكان العباسُ إلى مَنْكِبِ عبد المُطَّلِبِ . وحدثنى التَّوَّزِىُّ قال : طافَ علىٌّ بن عبد الله بالبيت ، وهناك عجوزٌ قديمةٌ ، وعلىٌّ قد فرَعَ الناسَ ، كأنه راكِبٌ والناسُ مُشاةٌ ، فقالت: مَنْ هذا الذى فرَعَ الناسَ ؟ فقيل علىُّ بن عبد الله بن العباس ، فقالت : لا إله إلا الله ، إن الناس لَيَرْذُلُونَ ، عهدِى بالعباس يَطُوفُ بهذا البيت كأنه فُسْطاطٌ أبيضُ[٢] .

وحدثنى علىُّ بن القاسم بن علىّ بن سُليمان بن علىّ بن عبد الله بن العباس قال : كَانَ يُقال صارَ شَبَهُ علىّ بن عبد الله فى عِظَمِ الْأَجْسام فى الْعَلِيَّيْنِ، يعنى علىَّ بن أمير المؤمنين المهْدِى المنسوبَ إلى أمِّهِ رَيْطَةَ ، وعلىَّ بن سليمان ابن علىّ .

ويُرْوَى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الْأُسْوَةُ والْقُدْوَةُ كان فوق الرَّبْعَةِ[٣] ، ولم يكن بالطويل المُشَذَّبِ[٤] ، وكَانَ إذا مَشَى مع

---

(١) بنو عبد المدان كانوا مضرب المثل فى الشرف ، قال الشاعر :

ولو أنى بليت بهاشمى ... خئولته بنو عبد المدان
لهان علىّ ما ألقى ولكن ... تعالوا فانظروا بمن ابتلانى

(٢) المراد بالفسطاط: البناء المرتفع . (٣) الربعة: هو المربوع الخلق، الذى ليس بالطويل ولا القصير
(٤) المشذب : هو المفرط فى الطول وهو تشبيه بالشجرة التى تهذب فروعها فتطول .

الطِّوَالِ طالَهُمْ ، ولم يختلف أهل الحِكْمَةِ وَالنَّظَرِ من العَرَبِ وَالعجمِ أن الكمال فى الاعتدال ، ولا يقال غير هذا عن حَكِيمٍ . وأبْيَنُ مافيه ما اختاره الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم !

وقد يقال : الكَيْسُ فى القِصَرِ، وقد قيل فى خبرِ قَصِيرٍ و كَيْدِهِ ومَكْرِهِ ما قد سارَ بِهِ المَثَلُ ، واستغنى عن الإعادة .

وحدّثنى العباس بن الفرج الرِّيَاشِيُّ قال: حدثنى أبو عثمان المازنى قال: كان أعرابى يختلف إلى مُغَنِّيَةٍ لآل سليمان، فأشرفتْ عليه ذات مَرَّةٍ، فأوْمَأَتْ إليه بيدها إيماء عائبٍ له بالقِصَرِ ، فأنشأ يقول :

يَا جَعْفَرٌ يَا جَعْفَرٌ يَا جَعْفَرُ ... إنْ أَكُ رَبْعَةً فَأَنْتِ أَقْصَرُ
أَوْ أَكُ ذَا شَيْبٍ فَأَنْتِ أَكْبَرُ ... غَرَّكِ سِرْبَالٌ عَلَيْكِ أَحْمَرُ
ومِقْنَعٌ(١) مِنَ الحَرِيرِ أَصْفَرُ ... وَتَحْتَ ذَاكِ سَوْأَةٌ لَوْ تُذْكَرُ

❋

(قال أبو الحسن أَنْشَدَنِى أبو العباس محمد بن الحسن الوَرَّاقُ الشِّعْرَ الذى فيه قولُهُ : ❋ وَلَمَّا الْتَقَى الصَّفَّانِ واختلف الْقَنا ❋ بتمامه، وهو شِعْرٌ مُخْتارٌ لرجل من طيٍّ ، ويدل على ذلك ما تَسْمَعُهُ فى الشعر، وهو قوله :

جَمَعْنَا لَهُمْ مِنْ حيِّ غَوْثٍ وَمَالِكٍ ... كَتَائِبَ يُرْدِى المُقْرِفِينَ نَكَالُهَا
لَهُمْ عَجُزٌ بِالْحَزْنِ فالرَّمْلِ فاللِّوَى ... وَقَدْ جَاوَزَتْ حَيَّ جَدِيسَ رِعَالُهَا
وَتَحْتَ نُحُورِ الخَيْلِ حَرْشَفُ رَجْلَةٍ ... تُتَاحُ لِحَبَّاتِ الْقُلُوبِ نِبَالُهَا

(١) المقنع : ماتغطى به المرأة رأسها وتستر محاسنها به.

أَبَى لَهُمُ أَنْ يَعْرِفُوا الضَّيْمَ أَنَّهُمْ ... بَنُو نَاتِقٍ كَانَتْ كَثِيرًا عِيَالُهَا
فَلَمَّا أَتَيْنَا السَّفْحَ مِنْ بَطْنِ حَائِلٍ ... بِحَيْثُ تَنَاصَى طَلْحُهَا وَسَيَالُهَا
دَعَــوْا لِنِزَارٍ وَانْتَمَيْنَا لِطَيِّئٍ ... كَأُسْــدِ الشَّرَى إِقْدَامُهَا وَنِزَالُهَا
فَلَمَّا الْتَقَيْنَا بَيَّنَ السَّيْفُ فِيهِمُ ... لِسَائِلَةٍ عَنَّا حَفِيٍّ سُــؤَالُهَا
وَلَمَّا عَصَيْنَا بِالرِّمَاحِ تَضَلَّعَتْ ... صُــدُورُ الْقَنَا مِنْهُمْ وَعَلَّتْ نِهَالُهَا
وَلَمَّا تَدَانَوْا بِالسُّيُوفِ تَقَطَّعَتْ ... وَسَائِلُ كَانَتْ قَبْلُ سِلْمًا حِبَالُهَا
فوَلَّوْا وَأَطْرَافُ الرِّمَاحِ عَلَيْهِمُ ... قَوَادِمُ مَرْبُوعَاتُهَا وَطِوَالُهَا

الكتائب : جمع كَتيبةٍ، سميت كَتيبةً لاجتماعها ، وانضمام بعضها إلى بعض ، يقال تَكَتَّبَ القومُ إذا تضامُّوا ، ومنه أُخِذَ الكِتابُ لانضمام حروفه ، ولذلك قالوا بَغْلة مكْتوبة إذا شُدَّ حياؤها وضُمَّ . ويردى يُهْلِكُ ، يقال رَدِىَ الرجلُ إذا هَلَكَ ، والرَّدى : الهلاكُ ، والإرْداء : الإهْلاكُ . والمُقْرِفونَ الذين دخلوا فى الفَساد والعيْثِ ، وهو فى الأصل الهُجْنَةُ ، يقال فرس مُقْرِفٌ إذا كان هَجيناً، ثم يَشيعُ فى الفساد . والعَجُزُ مُؤَخَّرُ العَسْكَرِ هٰهنا،وهو مستعار. والحَزْنُ ماخَشُنَ من الأرض وغلُظَ . واللِّوَى مُسْتَدَقُّ الرَّمْلة حيث ينقطع، يقال أَلْوَيْتُمْ فانزلوا : أى صِرْتُمْ إلى آخر الرملة، وهو اللوى ، وجَديس قبيلة معروفة، فلذلك لم يصْرِفها،والرِّعالُ:الجماعات المتفرقة، واحدها رَعْلَةٌ،والحَرْشَفُ نبت يكثر فى البادية ، وإنما شبَّهَ النَّبْلَ به فى الكثرة ، والرَّجْلَةُ الرَّجَّالةُ ، وتُتاح تُقَدَّرُ، يقال أتاحَ اللهُ له كذا وكذا : أى قدَّرَ له ، والنِّبالُ جمع نَبْلٍ ، والنَّاتِقُ:الوَلُودُ، فإذا أسْرفَتْ فى ذلك وكثرولدها جِدًّا قيل مِنتاقٌ، والسَّفْحُ :

أصل الجبل من الوادى . وحائل: موضع . وتَناصَى : تقابَلَ وتقرَّبَ حتى يَعْلَقَ هذا بهذا ، وهذا بهذا عند هبوب الرياح ، يقال تَناصَى الرجلان نِصاءً وتَناصِياً إذا اقتتلا ، فَأَخَذَ كلُّ واحدٍ منهما بناصِيةِ صاحبِهِ، والطَّلْحُ والسَّيال ضربانِ من الشجر معروفان، وانْتَمَى و نَمَي انْتَسَبَ، والشَّرَى موضع كثيرُ السباع، وإنما يريد كإقْدامِ أُسْدِ الشَّرَى إقْدَامُها، ثم حَذَفَ لعلم السامع . وعَصَيْنا جعلنا الرماح كالْعِصِيِّ . والعَلَلُ : الشُّرْب الثانى ، والنَّهَلُ الأول ، يريد إنَّا أَعدْناها إلى الطعن مرة بعد أخرى . وقوادم ذاتُ إقْدامٍ ، فجاء به على الأصل، كما قال: * يخْرُجْنَ مِنْ أَجْوَازِ لَيْلٍ غاضٍ * أى مُغْضٍ ، فجاء به على الأصل، وهو كثير . والمَرْبوعات المُعْتَدِلةُ التى لم تَبْلُغْ أن تكون رُمْحاً ، وهو رَفْعٌ كأنه قيل له ما هى ؟ فقال : هى مربوعاتها وطِوالُها ، ولو خَفَضَ وجَعَلَهُ بدل البعض من الكل لكان حسنا ، وكان يكون مُقْوًى ، ولكن هكذا أَنْشَدْنَاهُ مرفوعًا على التقدير الذى ذكرناه[1]) .

(١) ابن القوطية هو الذى ذكر القصيدة وأتبعها بالشرح .

باب

قال أبو العباس : حُدِّثْتُ أن صَبِرَةَ بن شَيْمَانَ الحُدَّانِيَّ(١) دخل على معاوية والوُفودُ عنده ، فتكلموا فأكثروا ، فقام صَبِرَةُ فقال :

يا أمير المؤمنين إنَّا حَيُّ فِعالٍ ، ولَسْنا بحَيِّ مَقالٍ ، ونحن بأدْنَى فِعالنا عند أحسن مقالهم . فقال صَدَقْتَ .

وحُدِّثْتُ أن أبا بكر رضى الله عنه ، ولَّى يَزِيدَ بن أبي سفيان رُبْعًا من أرباع الشأم ، فَرَقِيَ المِنْبَرَ فتكلَّمَ فَأُرْتِجَ عليه(٢) ، فاستأْنفَ فَأُرْتِجَ عليه ، فقطع الخطبة ، فقال :

سَيَجْعَلُ اللهُ بعد عُسْرٍ يُسْرًا ، وبعد عِيٍّ بيانًا ، وأنتم إلى أميرٍ فَعَّالٍ أحْوَجُ منكم إلى أمير قَوَّالٍ .

فَبلَغَ كلامُهُ عمرو بن العاص ، فقال : هُنَّ مُخْرِجاتِي من الشأم ، استحسانًا لكلامه .

وقال عثمان بن عَفَّانَ رضى الله عنه لعامر بن عَبْدِ قَيْسٍ العَنْبَرِيِّ ورآه ظاهرَ الأعْرابيَّة : يا أعرابيُّ أين ربك ؟ فقال بِالمِرْصادِ !

وقال قائل لعليّ بن أبي طالب رضى الله عنه: أين كان ربُّنا قبل أن يَخْلُقَ السمواتِ والأرضَ ؟ فقال عليّ: أينَ سُؤالٌ عن مكانٍ ، وكان اللهُ ولا مَكانَ .

وحُدِّثْتُ أن راهبين دخلا البَصْرَةَ من ناحية الشام ، فنظرا إلى الحسن

---

(١) نسبة إلى حدان بن شمس . (٢) أرتج عليه : احتبس قوله فلم ينطق .

البصري ، فقال أحدهما لصاحبه : مِلْ بنا إلى هذا الذى كأنَّ سَمْتَه سَمْتُ المَسِيح ، فعدَلا إليه ، فألفياهُ مُفْتَرِشاً بذَقَنِهِ ظاهِرَ كفِّه ، وهو يقول : يا عجباً لقوم قد أُمِرُوا بالزاد ، وأُوذِنُوا بالرحيل ، وأقام أوّلهم على آخرهم ، فليت شِعْرِى ما الذى ينتظرون ؟!

وَنَظَرَ الحَسَنُ إلى الناس فى مُصَلَّى البَصْرَة يضحكون ويلعبون فى يوم عيد ، فقال الحسنُ : إن الله جَعَلَ الصوم مِضْماراً لعباده لِيَسْتَبِقُوا إلى طاعته ، فَسَبَقَ أقوامٌ ففازوا ، وتخلَّفَ آخرون فخابوا ، ولعَمْرِى لو كُشِفَ الغطاء لَشُغِلَ مُحْسِنٌ بإحسانه ، ومُسِيءٌ بإساءته عن تَجْدِيد ثوب ، أو تَرْطيل شَعَرٍ .

قوله «ترطيل شعر» إنما هو تليينُ الشَّعَر بالدُّهْنِ وما أشبهه، ويقال للرجل إذا كان فيه لِينٌ وتوضيع رجل رَطْلٌ ، والذى يُوزَنُ به ويُكالُ يقال له رِطْلٌ بكسر الراء .

وكان الحسن يقول : اُجْعَلِ الدنيا كالقَنْطَرةِ تَجُوزُ عليها ولا تَعْمُرُها .

قوله القنطرة : يعنى هذه المَعْقُودة المعروفة عند الناس ، والعرب تُسمِّى كل أَزَجٍ[1] قنطرة . قال طَرَفَةُ بن العَبْدِ :

كَقَنْطَرَةِ الرُّومِيِّ أَقْسَمَ رَبُّهَا ... لَتُكْتَنَفَا حَتَّى تُشَادَ بِقَرْمَدِ

قوله: حتى تشاد، يقول تُطْلَى، وكلُّ شيء طَلَيْتَ به البناء من جِصٍّ ، أو جيَارٍ وهو الكِلْسُ ، فهو الشِّيد ، يقال دار مُشَيَّدَةٌ ، وقَصْرٌ مَشِيدٌ ، قال الله عزَّ وجل : « وَلَوْ كُنْتُمْ فى بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ » ، وقال الشَّمَّاخُ :

---

(١) الأزج : البناء الممتد .

لَا تَحْسِبَنِّى وَإِنْ كُنْتُ امْرَأً غُمُرًا كَحَيَّةِ المَاءِ بَيْنَ الطِّينِ وَالشِّيدِ

وقال عدىٌّ بن زيد العِبادِىّ :

شَادَهُ مَرْمَرًا وَجَلَّلَهُ كِلْـــساً فَلِلطَّيْرِ فى ذُرَاهُ وُكُورُ

والقُرْمُدُ : المطلىُّ أيضاً ، فمن ثَمَّ قال حتى تُشاد بقَرْمَدِ فى معنى حتى تُطْلَى ، ومن ذلك قول النابغة : * رَابِى المَجَسَّةِ بالعَبِيرِ مُقَرْمَدِ *

وقال الحسن : تَلْقَى أحدَهُمْ أبيضَ بضًّا يَمْلَخُ فى الباطل مَلخاً يَنْفُضُ مِذْرَوَيْهِ، ويَضْرِبُ أَصْدَرَيْهِ يقول ها أنا ذا فاعْرِفونى . قد عرَفْناك ، فَمَقَتَكَ الله ، ومَقَتَكَ الصالحون .

قوله : أبيض بضا ، فالبضُّ الرقيقُ اللون ، الذى يُؤَثِّرُ فيه كلُّ شىء .

وفى الحديث أن معاوية قَدِمَ على عمر بن الخَطَّاب رضى الله عنه من الشأم وهو أبَضُّ الناسِ ، فضَرَبَ عُمَرُ بيده على عَضُدِهِ ، فَأَقْلَعَ عن مثل الشِّرَاب ، أو مثل الشِّرَاكِ ، فقال هذا والله لِتَشاغُلِكَ بالحَمّاماتِ ، وذَوُو الحاجاتِ تُقَطَّعُ أنفُسُهُمْ حسَرَاتٍ على بابك .

وقال حُمَيْدُ بن ثَوْرٍ الهِلالِىُّ :

مُنَعَّمَةٌ بَيْضَاءُ لَوْ دَبَّ مُحْوِلٌ عَلَى جِلْدِهَا بَضَّتْ مَدَارِجُهُ دَمَا

وقوله : يَمْلَخُ فى الباطل مَلْخاً يقول: يَمُرُّ مَرًّا سريعاً ، يقال بَكْرَةٌ مَلُوخٌ إذا كانت سَهْلةَ المَرِّ .

وقوله : يَضْرِبُ أَصْدَرَيْهِ وَأَزْدَرَيْهِ ، فإنما يقال ذلك للفارغ ، يقال جاء فلانٌ يَضْرِبُ أَصْدَرَيْهِ وَأَزْدَرَيْهِ ، ولا يُتَكَلَّمُ منه بواحد ، ويقال فلانٌ

يَنْفُضُ مِذْرَوَيْهِ، وهما ناحيتاه ، وإنما يوصف بالخُيَلاء ، قال عَنْتَرَةُ :

أَحَوْلِى تَنفُضُ اُسْتُكَ مِذْرَوَيْهَا لِتَقْتُلَنِى فَهَا أَنَا ذَا عُمَارَا

ولا واحد لهما ، ولو أُفْرِدَتْ لقلتَ فى التثنية مِذْرَيانِ ، لأن ذوات الواو إذا وقعَتْ فيهنَّ الواو رابعةً رَجَعَتْ إلى الياء ، كما تقول فى مَلْهًى مَلْهَيانِ ، وهو من لَهَوْتُ ، وفى مَغْزًى مَغْزَيانِ ، وهو من غَزَوْتُ ، وإنما فعلتَ ذلك لأن فِعْلَهُ تَرْجِعُ فيه الواوُ إلى الياء إذا كانتْ رابعةً فصاعِدًا ، نحو غزوت ، فإذا أَدْخَلْتَ فيه الألف قلتَ أَغْزَيْتُ ، وكذلك غازَيْتُ واُسْتَغْزَيْتُ ، وإنما وجب هذا لانقلابها فى المضارع نحو يُغْزِى ، ويَسْتَغْزِى ، ويُغازِى ، وإنما اُنقلبتْ لانكسار ما قبلها ؛ فإن قال قائلٌ فما بالُ يَتَرَجَّى ويتَغازَى يكونان بالياء نحو : هُما يتغازَيانِ ويَتَرَجَّيانِ ، فإنما ذلك لأنهما فى الأصل رَجَّى يُرَجِّى ، وغازَى يُغازِى ، ثم لَحِقتْ التاء بعد ثَبات الياء ، والدليلُ على ذلك أن التاء إنما تَلْحَقُهُ على معناه. فقولك مِذْرَوانِ لاواحد له لما أَعْلَمْتُكَ ، وثَبات الواوِ دليلٌ على أن أحدهما لا يُفْرَدُ من الآخر ، فلذلك جاء على أصله .

باب

قال أبو العباس : قال يزيد بن الصَّقيلِ الْعُقَيْلِيُّ ، وكان يَسْرِقُ الإبل ، ثم تاب ، وقُتِلَ في سبيل الله :

أَلَا قُلْ لِأَرْبابِ المَخائِضِ أَهْمِلُوا ... فَقَدْ تابَ مِمَّا تَعْلَمُونَ يَزِيدُ
وَإِنَّ امْرَأً يَنْجُو مِنَ النَّارِ بَعْدَ ما ... تَزَوَّدَ مِنْ أَعْمالِها لَسَعِيدُ

وفي هذا الشِّعر :

إِذَا مَا المَنَايَا أَخْطَأَتْكَ وَصَادَفَتْ ... حَمِيمَكَ فَاعْلَمْ أَنَّها سَتَعُودُ

قوله : ألا قُلْ لأرباب المخائض ، فإن الناقة إذا لَقِحَتْ قيل لها خَلِفَةٌ ، وللجميع مَخاضٌ ، وهذا جَمْعٌ على غير واحده ، إنما هو بمنزلة امرأةٍ ونِساء ، ثم جَمَعَ الجَمْعَ فقال مَخائض ، كقولك في رِسالةٍ رَسائلُ ، وكما تقول في قوم أقوام ، فتَجْمَعُ الاسم الذي هو للجَمْع ، وكذلك أعْراب وأعاريبُ ، وأنعامٌ وأناعيم .

وقوله أَهْمِلُوا : أي اسْرَحُوا إبِلكُمْ ، والهَمَلُ : ما كان غيرَ مَحْظور ، وهو السُّدَى ، ويُرْوَى في مِثْلِ قوله :

إِذَا مَا المَنَايَا أَخْطَأَتْكَ وَصَادَفَتْ ... حَمِيمَكَ . . . . . .

عن بعض الصالحين (هو محمد بن الحَنَفِيَّةِ) أنه كان يقول إذا مات له جار أو حَمِيمٌ : أَوْلَى لِي ، كِدْتُ وَاللهِ أَكُونُ السَّوادَ المُخْتَرَمَ .

وقال ابن حَبْناء التميمي :

أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ حالٍ تُزَيِّنُ لِي ... لَوْمَ الْعَشِيرَةِ أَوْ تُدْنِي مِنَ النَّارِ

لا أَقْرَبُ الْبَيْتَ أَحْبُو مِنْ مُؤَخَّرِهِ وَلَا أُكَسِّرُ فِى ابْنِ الْعَمِّ أَظْفَارِى
إِنْ يَحْجُبِ اللهُ أَبْصَارًا أُرَاقِبُهَا فَقَدْ يَرَى اللهُ حَالَ الْمُدْلِجِ السَّارِى

قوله لا أَقرب البيت أحبو من مؤخره، يقول لا آتيه لِرِيبةٍ. ومِثْلُ ذلك قولُ الشاعر: (وهو عَقِيلُ بن عُلَّفَةَ)

وَلَسْتُ بِصَادِرٍ مِنْ بَيْتِ جَارِى كَفِعْلِ الْعَــيْرِ غَمَّرَهُ الْوُرُودُ

يقول لا أخْرُجُ خُروجَ الخائف، لأنه إنما يقال تغمَّرَ الشارب إذا لم يَرْوَ، ويقال للقدَح الصغير الغُمَرُ من هذا، وقوله:

* ولا أُكسِّر فى ابن العم أظفارى * يقول لا أغتابه، وهذا مَثَلٌ كما قال الحُطَيْئَةُ:

مَلُّوا قِرَاهُ وَهَرَّتْهُ كِلَابُهُمُ وَجَرَّحُوهُ بِأَنْيَابٍ وَأَضْرَاسِ

وقوله * فقد يرى الله حال المدلج السارى * فالمُدْلِجُ الذى يسير من أول الليل يقال أَدْلَجْتُ: أى سِرْتُ من أول الليل، وادَّلَجْتُ: أى سرت فى السَّحَر، قال زُهَيْرٌ: * بَكَرْنَ بُكُورًا وَادَّلَجْنَ بِسُحْرَةٍ * والسُّرَى لا يكون إلا سير الليل. قال اللهُ عز وجل: «فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ» مِنْ قولك أَسْرَيْتُ، وهى اللغة القُرَشِيَّةُ، وغيرُهُمْ من العرب يقول سَرَيْتُ، وقد جاءت هذه اللغة فى القرآن، قال الله عزّ وجل: «وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ» فهذا من سَرَى، ولو كان من أَسْرَى لكان يُسْرِى كما قال (هو لَبِيدُ بن رَبِيعة):

فَبَاتَ وَأَسْرَى الْقَوْمُ آخِرَ لَيْلِهِمْ وَمَا كَانَ وَقَّافًا بِغَيْرِ مُعَصَّرِ

والمُعَصَّرُ المَلْجَأُ، والسارى إنما هو من قولك سَرَى، كقولك قَضَى فهو قاضٍ،

ومن أسرى يقال للفاعل ، مُسْرٍ كما تقول أعْطى فهو مُعْطٍ ، كما قال الأَخْطَلُ :

نَازَعْتُهُمْ طَيِّبَ الرَّاحِ الشَّمُولِ وَقَدْ صَاحَ الدَّجَاجُ وَحَانَتْ وَقْعَةُ السَّارِى (١)

والدجاج هٰهنا : الديُوك ، يريد وَقْتَ السَّحَرِ ، لأنه يقال للديك: هذا دَجاجةٌ ، فإن أردت الأنثى قلت هذه ، وكذلك هذا بقرة ، وهذا بَطَّةٌ ، وهذا حَمامةٌ إذا أردت الذكر ، ولهذا باب يُذْكَرُ فيه إن شاء الله . قال جرير :

لَمَّا تَذَكَّرْتُ بِالدَّيْرَيْنِ أَرَّقَنِى صَوْتُ الدَّجَاجِ وَقَرْعٌ بِالنَّوَاقِيسِ

(قال أبو الحسن : أنشدنا أبو العباس أحمد بن يحيى الأبيات الرائيَّةَ المتقدمة بتمامها على ما أذكره لك عن أبى عبد الله بن الأعرابى ، وهى لأحد ابْنَىْ حَبْناء ، أحْسبُهُ صَخْرا ، وهما من بنى تميم . وكانا من الأَزارِقةِ . قال:

إِنِّى هَزِئْتُ مِنْ أُمِّ الْغَمْرِ إِذْ هَزِئَتْ بِشَيْبِ رَأْسِى وَمَا بِالشَّيْبِ مِنْ عَارِ
مَا شِقْوَةُ الْمَرْءِ بِالْإِقْتَارِ يُقْتِرُهُ وَلَا سَعَادَتُهُ يَوْمًا بِإِكْثَارِ

يُقْتِرُهُ الهاء تعود على الإقتار

إِنَّ الشَّقِيَّ الَّذِى فِى النَّارِ مَنْزِلُهُ وَالْفَوْزَ فَوْزُ الَّذِى يَنْجُو مِنَ النَّارِ
أَعُوذُ بِاللّٰهِ مِنْ أَمْرٍ يُزَيِّنُ لِى لَوْمَ الْعَشِيرَةِ أَوْ يُدْنِى مِنَ الْعَارِ
وَخَيْرِ دُنْيَا يُنَسِّى شَرَّ آخِرَةٍ وَسَوْفَ يُنْبِئُنِى الْجَبَّارُ أَخْبَارِى

ثم يتفقان بَعْدُ فى الرواية ، وكان ربما أنشَدَنا : ٭ إِنِّى هَزَأْتُ مِنُ أُمِّ الْغَمْرِ ٭

قال أبو العباس : وقال أعرابى من بنى الحارث بن كَعْبٍ :

رَأَيْتُ لِسَلْمَى بَوَّ ضَيْمٍ وَإِنَّنِى قَدِيمًا لَآبِى الضَّيْمِ وَابْنُ أُبَاةِ
فَقَدْ وَقَّفَتْنِى بَيْنَ شَكٍّ وَشُبْهَةٍ وَمَا كُنْتُ وَقَّافًا عَلَى الشُّبُهَاتِ

---

(١) وقعة السارى : نومته .

فيَا بَعْلَ سَلْمى كَمْ وَكَمْ بِأَذاتِهَا عَدِمْتُكَ مِنْ بَعْلٍ تُطيلُ أَذاتِى
بِنَفْسِى حَبِيبٌ حالَ بَابُكَ دُونَهُ تَقَطَّعُ نَفْسِى دُونَهُ حَسَراتِ
وَوَاللهِ لَوْلَا أَنْ تُسَاءَ لَرُعْتُهُ بِمَا لَيْسَ بِالْمَأْمُونِ مِنْ فَتَكَاتِى

قوله رَئِمْتُ لِسَلْمَى بَوَّ ضَيْمٍ فإنما هذا مَثَلٌ، وأصله أن الناقة إذا أَلْقَتْ سَقْبَها فَخِيفَ انقطاع لبنها أخذوا جِلْدَ حُوَارٍ فَحَشَوْهُ تبناً، ولَطَخُوهُ بشىء من سَلاها، ثم حَشَوْا أنفها بِخِرْقَةٍ، فَتَجِدُ لذلك كَرْبًا، ويقال للخرقة التى تُجْعَلُ فى أنفها الغِمامةُ، ثم تُسَلُّ تلك الخرقة من أنفها فتجد رَوْحًا، وتَرَى ذلك البَوَّ تحتها، وهو جلد الحُوار المَحْشُوُّ فترْأَمُهُ، فإن دَرَّتْ عليه قيل ناقة دَرورٌ، وتَرْأَمُهُ تَشَمُّهُ، ويقال فى هذا المعنى ناقة ظَؤُورٌ، فيُنْتَفَعُ بلبنها، ويقال ناقة رائمٌ ورَؤُومٌ إذا كانت تَرْأَمُ ولدها أو بَوَّها، فإن رَئِمَتْ ولم تَدُرَّ عليه فتلك العَلُوقُ، ولا خير عندها.

وأنشدونا عن أبى عمرو وكان يقرأ « ثم كان عاقبةُ الذين أساءوا السُّوأى » على فُعْلَى (الشِّعْرُ لأُفْنُونٍ التَّغْلِبِىِّ):

أَنَّى جَزَوْا عامِراً سُوأَى بِفِعْلِهِمُ أَمْ كَيْفَ يَجْزُونَنِى السُّوأَى مِنَ الحَسَنِ
أَمْ كَيْفَ يَنْفَعُ ماتُعْطِى الْعَلُوقُ بِهِ رِئْمَانَ أَنْفٍ إِذَا مَا ضُنَّ بِاللَّبَنِ

فقوله رئمتُ لسلمى بَوَّ ضيم: أى أقمتُ لها على الضَّيْمِ، ويقال فلان رَؤُومٌ للضَّيْمِ إذا كان ذليلاً راضياً بالخَسْفِ، وقال أعرابى أحْسبُهُ تميميًا:

وَدَاهِيَةٍ دَاهى بِهَا الْقَوْمَ مُفْلِقٌ شَدِيدٌ بِعُورَانِ الْكَلامِ أَزُومُهَا
أَصَخْتُ لَهَا حَتَّى إِذَا مَا وَعَيْتُهَا رَمَيْتُ بِأُخْرَى يَسْتَدِيرُ أَمِيمُهَا

تَرَى الْقَوْمَ مِنْهَا مُطْرِقِينَ كَأَنَّمَا ... تَسَاقَوْا عُقَاراً لاَ يَبِلُّ سَلِيمُهَا
فَلَمْ تَلْقَنِى فَهًّا وَلَمْ تَلْقَ حُجَّتِى ... مُلَجْلَجَةً أَبْغِى لهَا مَنْ يُقِيمُهَا

قوله وداهية يعنى حُجَّةً داهى بها القوم مُفْلِقٌ، يريد عَجِيبة، والفِلقُ اسم من أسماء الدواهى، ويقال فَلْقٌ فى هذا المعنى، ويقال داهية فَلِيقٌ، وجاء القوم بالفَليق، وهذا مشهور كثير فى الكلام، ومنه قول خَلَفِ الأحمرِ :

* مَوْتُ الإِمَامِ فِلْقَةٌ مِنَ الْفِلَقِ * وأنشدنى مُنْشِدٌ :

(إِذَا عَرَضَتْ دَاوِيَّةٌ مُدْلَهِمَّةٌ) ... وَغَرَّدَ حَادِيهَا عَمِلْنَ بِنَا فَلْقَا

بفتح الفاء، وقوله شديدٌ بعُوران الكلام، العَوْراء هى القبيحة، قال حاتم ابن عبد الله الطائىُّ :

وَعَوْرَاءَ قَدْ أَعْرَضْتُ عَنْهَا فَلَمْ تَضِرْ ... وَذِى أَوَدٍ قَوَّمْتُهُ فَتَقَوَّمَا
وأَزُومُهَا إمْسَاكُهَا، يقال أَزِمَ به إِذا عَضَّ به فأمسكه بين ثَنِيَّتَيْهِ .

وفى الحديث أن أبا بكر رضى الله عنه قال فى يوم أُحُدٍ : فَنَظَرْتُ إلى حَلْقَةٍ من دِرْعٍ قد نَشِبَتْ فى جَبِينِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانْكَبَبْتُ لأَنْزِعَها، فَأَقْسَمَ عَلَىَّ أبو عبيدة، فَأَزَمَ بها أبو عبيدة بثَنِيَّتَيْهِ، فجذبها جَذْبًا رفيقًا، فانتزعها ، وسَقَطَتْ ثَنِيَّتُهُ ، ثم نَظَرْتُ إلى أخرى فأردتُها فَأَقْسَمَ عَلَىَّ أبو عبيدة، ففعل فيها مافعل فى الأولى، وكان مُشْفِقاً من تحريكها، لئلا يُؤْذِىَ بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان أبو عبيدةَ أَهْتَمَ .

وقوله : فَأَزَمَ بها ، يقال : أَزَمَ يَأْزِمُ ، وأَزَمَ يَأْزَمُ ، وقوله : أَصَخْتُ لها : يقول استَمَعْتُ لها ، قال العَبْدِىُّ (وهو المُثَقِّبُ) :

يُصِيخُ لِلنَّبْأَةِ أَسْمَاعَــهُ إصَاخَةَ النَّاشِدِ لِلْمُنْشِدِ

والإصاخةُ: الاستماع، والناشد: الطالب، والمنشد: المعرِّفُ، يقال: نَشَدْتُ الضالةَ أَنْشُدُها نِشْدَاناً: إذا طلبتها، وأَنْشَدْتُها: إذا عرَّفتها، وَالنَّبْأَةُ: الصوت، قال ذو الرُّمَّةِ:

وَقَدْ تَوَجَّسَ رِكْزًا مُقْفِرٌ نَدُسٌ بِنَبْأَةِ الصَّوْتِ مَا فِي سَمْعِهِ كَذِبُ

وقوله: حتى إذا ما وَعَيْتُها، يقول: جمعتُها فى سمعى، يقال: وَعَيْتُ العِلْمَ، وَأَوْعَيْتُ المَتاع فى الوعاء، قال الله عزّ وجل: «وَجَمَعَ فَأَوْعَى» وقال الشاعر (عَبِيدُ بْنُ الأَبْرَصِ):

الْخَيْرُ يَبْقَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ وَالشَّرُّ أَخْبَثُ مَا أَوْعَيْتَ مِنْ زَادِ

وقوله: رَمَيْتُ بأخرى، يستدير أَمِيمُهَا، يريد يستدير من الدُّوار، ويقال فى هذا المعنى يستديم، ومنه سميت الدُّوَّامَةُ، وفى الحديث «كره البول فى الماء الدائم» لأنه كالمستدير فى موضعه. قال جرير:

عَوَى الشُّعَرَاءُ بَعْضُهُمُ لِبَعْضٍ عَلَيَّ فَقَدْ أَصَابَهُمُ انْتِقَامُ

إِذَا أَرْسَلْتُ صَاعِقَةً عَلَيْهِمِ رَأَوْا أُخْرَى تَحَرَّقُ فَاسْتَدَامُوا

وقوله أميمها: يريد المأموم بها، يقال: أَمِيمٌ وَمَأْمُوم، كقولك قَتِيلٌ ومقتولٌ، وجريح ومَجْروح، ويقال: للشَّجَّةِ التى قد وَصَلَتْ إلى أُمِّ الدماغ، وأُمُّ الدماغ: جُلَيْدَةٌ رقيقة تُحيط بالدِّماغ، فإذا وُصِلَ إلى تلك فالشَّجَّةُ آمَّةٌ ومَأمومة. قال الشاعر:

يَحجُ مَأْمُومَةٍ فى قَعرِهَا لَجَفٌ ... فَاسْتُ الطَّبِيبِ قَذاهَا كالمغَارِيدِ

المغاريد: صغارٌ مِنَ الكَمْأَةِ .

وقوله فى قعرها لجف: أى تقلُّعٌ، يقال: تَلجَّفَتِ البئر: إذا انقلع طيُّها من أسفلها، ولَجَّفَ القومُ مِكْيالهم: إذا وَسَّعوه من أسفله، وقوله تَسَاقَوْا عُقارًا: يريد كأنهم سُكارى لما نالهم من تلك الحُجَّةِ، والعُقارُ: اسم من أسماء الخمر، وإنما سميت عُقارًا لِمعاقرتِها الدَّنَّ .

وقوله ما يَبِلُّ يقال: بَلَّ وأَبَلَّ من مرضه، وكذلك اسْتَبَلَّ، والسَّلِيمُ الملْسوع، وقيل له سَلِيم على جهة التَّفؤُّل، كما يقال للمَهْلِكَةِ مَفازَةٌ، وللغراب الأَعْوَرُ على الطِّيَرَةِ منه لِصِحَّةِ بَصَرِهِ . وقوله: فلم تلفنى فهًّا يقول ضَعيفاً، يقال فَهَّ فلانٌ عن حُجَّتِهِ إذا ضَعُفَ عنها، ويقال رجل مُفَهَّهٌ إذا كان عاجزاً، وقوله مُلَجْلَجَةً، وهو أن يُرَدِّدَها فى فيه، وقد مضى تفسيره .

❋

وقال رجل يُكْنَى أبا مَخْزوم من بنى نَهْشَلِ بن دارِمٍ: (هو بَشامة ابن حَزْنٍ النَّهْشَلِىُّ عن أبى رِياش):

إنَّا بَنِى نَهْشَلٍ لاَ نَدَّعِى لِأَبٍ ... عَنْــهُ وَلاَ هُوَ بِالْأَبْناءِ يَشْرِينا
إنْ تُبْتَدَرْ غَايَةٌ يَوْمًا لِمَكْرُمَةٍ ... تَلْقَ السَّوابِقَ مِنَّا وَالمُصَلِّينَا
وَلَيْسَ يَهْلِكُ مِنَّا سَيِّدٌ أَبَدًا ... إلَّا افْتَلَيْنَا غُــلامًا سَيِّدًا فِينَا
إنِّى لِمِنْ مَعْشَرٍ أَفْنَى أَوَائِلَهُمْ ... قِيلُ الكُمَاةِ أَلاَ أَيْنَ المُحَامُونَا ؟
لَوْ كَانَ فِى الْأَلْفِ مِنَّا وَاحِدٌ فَدَعَوْا ... مَنْ فَارِسٌ خَالَهُمْ إيَّاهُ يَعْنُونَا

وَلَا تَرَاهُمْ وَإِنْ جَلَّتْ رَزِيَّتُهُمْ ... مَعَ الْبُكَاةِ عَلَى مَنْ مَاتَ يَبْكُونَا
إِنَّا لَنُرْخِصُ يَوْمَ الرَّوْعِ أَنْفُسَنَا ... وَلَوْ نُسَامُ بِهَا فِى الْأَمْنِ أُغْلِينَا
إِذَا الْكُمَاةُ تَنَحَّوْا أَنْ يَنَالَهُمُ ... حَدُّ الظُّبَاتِ وَصَلْنَاهَا بِأَيْدِينَا
فَرْضٌ عَلَى مُكْثِرِينَا نَيْلُ بَذْلِهِمُ ... وَالْجُودُ وَالْبَذْلُ فِى طَبْعِ الْمُقِلِّينَا
إِنِّى وَمَنْ كَأَبِى يَحْيَى وَعِتْرَتِهِ ... لَا فَخْرَ إِلَّا لَنَا أَم من يُوَازِينَا

قوله إنا بنى نهشل : يعنى نَهْشَلَ بن دارِم بن مالك بن حَنظَلَةَ بن مالك بن زَيْدِ مَنَاةَ بن تَميمٍ ، ومن قال إنَّا بَنُو نَهْشَلٍ ، فقد خَبَّرَكَ ، وجَعَلَ بنو خبر إنَّ ، ومن قال بنى ، فإنما جعَلَ الخبرَ

إنْ تُبْتَدَرْ غَايَةٌ يوما لِمَكْرُمَةٍ ... تَلْقَ السوابق منا والمصلينا

ونَصَبَ بَنِى عَلَى فِعلٍ مضمر للاختصاص ، وهذا أَمْدَحُ ، ومثله :

* نَحْنُ بَنِى ضَبَّةَ أَصْحابُ الْجَمَلْ * أراد نحن أصحاب الجمل ، ثم أبان مَنْ يَخْتَصُّ بهذا ، فقال أعنى بنى ضبة ، وقرأ عيسى بن عمر « وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ » أراد وامرأتُهُ « فى جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ » ثم عَرَّفها بحمَّالة الحطب ، وقوله عز وجل : « وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ » بعد قوله : « لَـٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ » إنما هو على هذا ، وهو أبلغ فى التعريف ، وسَنَشْرَحُهُ على حقيقة الشرح فى موضعه إن شاء الله .

وأكثر العرب يُنْشِدُ (هو لِعَمْرِو بن الأَهْتَمِ المِنْقَرِىِّ) :

إِنَّا بَنِى مِنْقَرٍ قَوْمٌ ذَوُو حَسَبٍ ... فِينَا سَرَاةُ بَنِى سَعْدٍ وَنَادِيهَا

وقرأ بعض القراء : « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ » . وقوله : يَشْرِينَا ، يريد يَبِيعُنَا ، يقال : شَرَاه يَشْرِيه إذا باعه ، فهذه المعروفة ، قال الله عزّ وجل :

« وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ » وقال ابن مُفَرِّغ الحِمْيَرِيُّ :

شَرَيْتُ بُرْدًا وَلَوْلَا مَا تَكَنَّفَنِي ... مِنَ الحَوَادِثِ مَا فَارَقْتُهُ أَبَدَا

(يَا بُرْدُ مَا مَسَّنَا دَهْرٌ أَضَرَّ بِنَا ... مِنْ قَبْلِ هٰذَا وَلَا بِعْنَا لَهُ وَلَدَا)

ويكون شَرَيْتُ فى معنى اشْتَرَيْتُ ، وهو من الأضداد ، وأنشدنى التَّوَّزِيُّ :

اشْرُوا لَهَا خَاتِنًا وَابْغُوا لِخَتْنَتِهَا ... مَوَاسِيًا أَرْبَعًا فِيهِنَّ تَذْكِيرُ

(كان ابن جابر يروى لِخُنْتَتِها، ويقول: الخُنْتُ العَفَلُ) وقوله: تلق السوابق منا والمصلينا . فالمُصَلِّى الذى فى إِثْرِ السابق ، وإنما سُمِّىَ مصليا لأنه مع صَلَوَىِ السابِق ، وهما عِرْقان فى الرِّدْفِ ، قال الشاعر :

تَرَكْتُ الرُّمْحَ يَعْمَلُ فى صَلَاهُ ... كَأَنَّ سِنَانَهُ خُرْطُومُ نَسْرِ

وقوله: إلا افتلينا غلاماً سيداً فينا. مأخوذ من قولهم: فَلَوْتُ الفَلُوَّ يافتى إذا أخذته عن أمه ، قال الأعشى :

مُلْمِعٍ لَاعَةِ الفُؤَادِ إِلَى جَحْـــشٍ فَلَاهُ عَنْهَا فَبِئْسَ الفَالِى

وأخذ هذا المعنى من قول أبى الطَّمَحان القَيْنِيِّ :

☆ إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ سَيِّدٌ قَامَ صَاحِبُهْ ☆ وقوله :

لَوْ كَانَ فِى الأَلْفِ مِنَّا وَاحِدٌ فَدَعَوْا ... مَنْ فَارِسٌ خَالَهُمْ إِيَّاهُ يَعْنُونَا

مأخوذ من قول طَرَفَةَ بن العَبْدِ :

إِذَا القَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتًى خِلْتُ أَنَّنِى ... عُنِيتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدِ

ومن قول مُتَمِّمِ بن نُوَيْرَةَ :

إِذَا القَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتًى لِعَظِيمَةٍ ... فَمَا كُلُّهُمْ يُدْعَى وَلٰكِنَّهُ الفَتَى

وقوله : حَدُّ الظُّبات ، فالظُّبَةُ الحَدُّ بعينه ، يقال أصابته ظُبَةُ السيف ، وظُبَةُ النَّصْلِ ، وجمعه ظُباتٌ ، وأراد بالظُّبَةِ هاهنا موضع المَضْرِبِ من السيف ، وأخذ هذا المعنى من قول كعب بن مالك بن أبى كعب الأنصارى :

نَصِلُ السُّيُوفَ إذا قَصُرْنَ بِخَطْوِنَا قُدُمًا وَنُلْحِقُهَا إذَا لَمْ تَلْحَقِ

وقوله : إنا لَنُرْخِصُ يوم الرَّوْعِ أَنْفُسنا ، أخذه من قول الهَمْدانِىِّ ، وهو الأَجْدَعُ أبو مسروق بن الأجدع الفقيه :

لَقَدْ عَلِمَتْ نِسْوَانُ هَمْدَانَ أَنَّنِى لَهُنَّ غداةَ الرَّوْعِ غَيْرُ خَذُولِ
وَأَبْذُلُ فى الهَيْجَاءِ وَجْهِى وَإِنَّنِى لَهُ فى سِوَى الهَيْجَاءِ غَيْرُ بَذُولِ

ومن القَتَّالِ الكِلاَبِىِّ حيث يقول :

أَنَا ابْنُ الأكْرَمِينَ بَنِى قُشَيْرٍ وَأَخْوَالِى الكِرَامُ بَنُو كِلاَبِ
نُعَرِّضُ لِلطِّعَانِ إذا الْتَقَيْنَا وُجُوهًا لا تُعَرَّضُ لِلسِّبَابِ

باب

قال أبو العباس : قال عُمرُ بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه : ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه فقد كَمُلَ : مَنْ لم يُخْرِجْهُ غضبُهُ عن طاعة الله ، ولم يستنزله رضاه إلى معصية الله ، وإذا قَدَرَ عفا وكَفَّ .

وقال الحسن : نِعَمُ الله أكثرُ مِنْ أَنْ تُشْكَرَ الا ما أعانَ عليه ، وذُنوبُ ابن آدم أكثر من أَنْ يَسْلَمَ منها إلا ما عفا الله عنه . وقال عمر ابن ذَرٍّ ، ودخل على ابنه وهو يَجُود بنفسه فقال : يا بُنَيَّ ، إنه ما علينا من موتك غضاضةٌ ، ولا بنا إلى أحد سوى الله حاجةٌ . فلما قَضَى وصَلَّى عليه وواراه ، وَقفَ على قبره ، فقال :

يا ذَرُّ إنه قد شَغَلَنا الحُزْنُ لك عن الحزن عليك ، لأنَّا لا ندْرِي مَا قُلْتَ ، ولا ما قيلَ لك ، اللهم إني قد وَهَبْتُ له ما قَصَّرَ فيه مما افترضْتَ عليه من حق ، فهَبْ له ما قصَّرَ فيه من حقك ، واجعل ثوابي عليه له ، وزِدْنِي من فَضْلك ، إنِّي إليك من الراغبين.

وسُئِلَ : ما بَلَغَ من بِرِّهِ بك ؟ فقال ما مَشَى معي بِنَهارٍ قطُّ إلَّا قدَّمَنِي ، ولا بليلٍ إلَّا تَقَدَّمَنِي ، ولا رَقِيَ سَطْحاً وأنا تحته .

وماتت بنت عَمٍّ للمنصور فَحَضَرَ جِنازتها ، وجلس لدفنها ، وأقبل أبو دُلامَةَ الشاعر(١) ، فقال له المنصور : ويحَكَ ! ما أعْدَدْتَ لهذا اليوم ؟

---

(١) هو زند بن الجون مولى بنى أسد .

فقال : يا أمير المؤمنين ، ابنَة عمِّك هذه التى وارَيْتها قُبَيْلُ ! قال : فَضَحِكَ المنصور حتى استغرب .

ودخل لَبَطَةُ بن الفرزدق على أبيه وهو محبوس فى سجن مالك ابن المُنْذِر بن الجارود ، ومالكٌ عامِلٌ على البصرة لخالد بن عبد الله القَسْرِىّ ، فقال : يا أبتِ ، هذا عُمَرُ بن يزيد الأُسَيْدِىُّ ضُرِبَ آنِفاً أَلْفَ سَوْطٍ فمات ، فَشُدَّ على حمار . فقال الفَرَزْدَقُ : كأنك والله يا بُنَىَّ بمثل هذا الحديث قد تُحُدِّثَ به عن أبيك ، والحَسَنُ إذ ذاك عند محبوس له ، فقال يا أبا فِراسٍ : ما عندك إن كان ذلك ؟ فقال : والله يا أبا سعيد لَلّهُ أحبُّ إلىَّ من سَمْعِى وبَصَرِى ، ومن مالى وولدى ، ومن أهلى وعَشيرتى ، أَفتَراهُ يَخْذُلُنِى ؟ فقال الحسن : لا .

وكان عمر بن يزيد الأُسَيْدِىُّ شريفاً ، حدثنى التَّوَّزِىُّ عن أبى عُبَيْدَةَ قال : كان رجلُ أهلِ البَصْرَةِ عُمَرَ بن يزيد الأُسَيْدِىُّ ، ورجلُ أهل الشام عمرَ بن هُبَيْرَةَ الفزارىّ ، ورجلُ أهل الكوفة بلالَ بن أبى بُرْدَةَ بن أبى موسى الأشعرى ، فقيل ذلك لعمر بن عبد العزيز ، فقال أَجَلْ ، لَوَلاَ خِبٌّ فى بلالٍ ، فقال بلالٌ لمَّا بلغه ذلك : رَمَتْنِى بدائها وانْسَلَّتْ ! وقتله مالك ابن المُنْذِرِ تعَصُّباً فيما تذكره المُضَرِيَّةُ ، فلما دُخِلَ بمالك على هشام أَقْبَلَ على أصحابه ، فقال : أما رأيتم عمر بن يزيد ؟ أمَا إنى ما تَمَنَّيْتُ أن تكون أمّى وَلَدَتْ رجلاً من العرب غَيْرَهُ ، ثم قال لمالك : قَتَلْتَ والله خيراً منك حَسَباً ونَسَباً ، ودِيناً ، وعَقِباً ، فقال : وكيف يا أمير المؤمنين ، أَلَسْتُ ابن المنذر

أبن الجارود ، وابن مالك بن مِسْمَعٍ ؟ ـ وكان جدَّهُ أبا أمّه ـ وجعل عمر والسِّياطُ تأخذه ينادى يا هِشَامَاهُ ! فى ذلك يقول الفرزدقُ :

أَلَمْ يَكُ مَقْتَلُ الْعَبْدِيِّ ظُلْماً أَبَا حَفْصٍ مِنَ الْكُبَرِ الْعِظَامْ
قَتِيلُ جَمَاعَةٍ فِى غَيْرِ حَقٍّ يُقَطَّعُ وَهْوَ يَدْعُو يا هِشَامْ

❋

وَالْتقى الحَسَنُ وَالفرزدق فى جِنازةٍ ، فقال الفرزدق للحسن : أتدرى مايقول الناس يا أبا سعيد ؟ قال : ومايقولون ؟ قال يقولون : اجتمع فى هذه الجِنازة خيرُ الناس وشرُّ الناس ! فقال الحسن : كَلَّا ، لَسْتُ بخيرهم ، ولَسْتَ بشرهم ، ولكن ما أعْدَدْتَ لهذا اليوم ؟ فقال : شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة ، وخَمْسَ نجائِبَ لا يُدْرَكْنَ . يعنى الصلواتِ الخمسَ ، فيزعم بعض التَّمِيمِيَّة أنه رُئِىَ فى النوم ، فقيل له ما صَنَعَ بك رَبُّكَ ؟ فقال غَفَرَ لى . فقيل له بأىِّ شىء ؟ فقال بالكلمة التى نازعنى فيها الحسنُ .

وحدثنى العباس بن الفرَج الرِّيَاشِىُّ فى إسنادٍ له ذَكَرَهُ قال : كان الفرزدق يَخْرُجُ من منزله فيرى بنى تميم والمَصاحِفُ فى حُجُورهم فَيُسَرُّ بذلك ، ويَجْذَلُ به . ويقول : إيهٍ فِدًا لكم أبى وأمى ، كذا والله كان آباؤكم .

قال أبوالحسن : إنما هو فِداءٌ لكم فمن فتحَ قصرَ لاغير ، ومن كسرَ مَدَّ ، لكنه قصرَ الممدود على هذه الرواية .

قال أبو العباس ونظر إليه أبو هُرَيْرَةَ الدَّوْسِىُّ ، فقال له : مَهْما فعلْتَ

فقَنَّطك الناسُ ، فلا تقنط من رحمة الله ، ثم نظر إلى قدميه فقال : إنى أرى لك قدمَيْن لطيفتين فابتغِ لهما موْقعاً صالحًا يوم القيامة .

يقال : قنِطَ يقنَطُ ، وقنَطَ يقنِطُ ، وكلاهما فصيح ، فاقرأ بأيهما شئت ، وكذلك نقِمَ ينقَمُ ، ونقَمَ ينقِمُ .

والفرزدق يقول فى آخر عُمْرِهِ حين تعَلَّق بأستار الكعبة ، وعاهد الله أن لا يكْذِبَ ، ولا يشتِمَ مُسْلِماً :

أَلَمْ تَرَنِى عاهدْتُ رَبِّى وَإِنَّنِى ... لَبَيْنَ رِتَاجٍ قَائِمًا وَمَقَامِ
عَلَى حَلْفَةٍ لاَ أَشْتِمُ الدَّهْرَ مُسْلِماً ... وَلاَ خَارِجًا مِنْ فِىَّ زُورُ كَلاَمِ

وفى هذا الشعر :

أَطَعْتُكَ يَا إِبْلِيسُ تِسْعِينَ حِجَّةً ... فَلَمَّا انْقَضَى عُمْرِى وَتَمَّ تَمَامِى
رَجَعْتُ إِلَى رَبِّى وَأَيْقَنْتُ أَنَّنِى ... مُلاَقٍ لِأَيَّامِ الْمَنُونِ حِمَامِى

قوله : لبين رِتاج ، فالرِّتاجُ : غلَقُ الباب ، ويقال باب مُرْتَجٌ : أى مُغْلَقٌ ، ويقال : أُرْتِجَ على فلان : أى أُغلِقَ عليه الكلامُ ، وقولُ العامة أُرْتُجَّ عليه : ليس بشىء ، إلا أن التَّوَّزِىَّ حدثنى عن أبى عُبَيْدَةَ . قال يقال : ارْتُجَّ عليه ، ومعناه وَقعَ فى رَجَّةٍ ، أى فى اختلاط ، وهذا معنى بعيد جداً . وقوله : ولا خارجاً إنما وَضَعَ اسم الفاعل فى موضع المصدر ، أراد لا أشْتِمُ الدهر مُسْلماً ، ولا يخْرُجُ خروجاً من فِىَّ زُورُ كلامٍ ، لأنه على ذا أقْسَمَ ، والمصدر يقع فى موضع اسم الفاعل ، يقال ماء غوْرٌ : أى غائر ، كما قال الله عزّ وجل : « إنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غوْرًا » ، ويقال رجل عدْلٌ : أى عادل ، ويوم غمٌّ : أى غامٌّ ،

وهذا كثير جدًّا ، فعلى هذا جاء المصدر على فاعِلٍ كما جاء اسم الفاعل على المصدر ، يقال قُمْ قائمًا فيوضع فى موضع قولك قُمْ قيامًا ، وجاء من المصدر على لفظ فاعِلٍ حروفٌ منها فَلَجَ فالِجًا ، وعُوفِىَ عافيةً ، وأَحْرُفٌ سوى ذلك يسيرة ، وجاء على مَفْعول نحو رجل ليس له مَعْقول ، وخذ مَيْسورَهُ ، ودَعْ مَعْسورَهُ ، لدخول المفعول على المصدر ، يقال رجل رضًا : أى مَرْضِىٌّ ، وهذا درهم ضَرْبُ الأمير : أى مَضْرُوبٌ ؛ وهذه دراهم وزن سَبْعةٍ . أى مَوْزونةٌ ، وكان عيسى بن عمر يقول : إنما قوله لا أشْتِمُ حال ، فأراد عاهدت ربى فى هذه الحال وأنا غير شاتِمٍ ، ولا خارج من فِىَّ زُورُ كلامٍ ، ولم يَذْكُرِ الذى عاهدَ عليه .

وقال الفرزدق فى أيام نُسْكِهِ :

أَخافُ وَراءَ الْقَبْرِ إنْ لَمْ يُعافِنِى ... أَشَدَّ مِنَ الْقَبْرِ الْتِهابًا وَأَضْيَقا
إذا قادَنِى يَوْمَ الْقِيامَةِ قائِدٌ ... عَنِيفٌ وَسَوّاقٌ يَسُوقُ الْفَرَزْدَقا
لَقَدْ خابَ مِنْ أَوْلادِ آدمَ مَنْ مَشَى ... إلَى النّارِ مَغْلُولَ الْقِلادَةِ مُوثَقا
إذا شَرِبُوا فِيها الْحَمِيمَ رَأَيْتَهُمْ ... يَذُوبُونَ مِنْ حَرِّ الْحَمِيمِ تَمَزُّقا

وحدثنى بعض أصحابنا عن الأَصْمَعِىِّ عن الْمُعْتَمِرِ بن سليمان عن أبى مَخْزومٍ عن أبى شَفْقَلٍ راويةِ الفرزدق[(١)] ، قال : قال لى الفرزدق يوما : امْضِ بنا إلى حَلْقةِ الحَسَنِ ، فإنِّى أريد أن اطلِّق النَّوارَ ، فقلتُ : إنى أخاف عليك أن تَتْبَعَها نَفْسُكَ ، ويَشْهَدَ عليك الحسنُ وأصحابه ، فقال : امْضِ بنا ، فجئنا حتى

---

(١) وفى شفقل يقول الفرزدق :

أبو شفقل شيخ عن الحق جائر ... بباب الهدى والرشد غير بصير

وقفنا على الحسن ، فقال : كيف أصبَحْتَ يا أبا سعيدٍ ؟ فقال : بخير ، كيف أصبحتَ يا أبا فِراسٍ ؟ ، قال : تعلَمُنْ أن النَّوار منى طالق ثلاثاً، فقال الحسنُ وأصحابه: قد سمعنا ، قال : فانطلقا ، قال: فقال لى الفرزدق: يا هذا ، إن فى قلبي من النَّوار شيئاً ، فقلت قد حَذَّرْتُكَ ، فقال :

نَدِمْتُ نَدامَةَ الْكُسَعِيِّ لَمَّا غَدَتْ مِنِّى مُطَلَّقَةً نَوارُ
وَكُنْتُ كَفاقِئٍ عَيْنَيْهِ عَمْداً فَأَصْبَحَ لاَ يُضِيء لَهُ النَّهارُ
وَمَا فَارَقْتُها شِبَعاً ولٰكِنْ رَأَيْتُ الزُّهْدَ يَأْخُذُ مَا يُعارُ
وَكَانَتْ جَنَّتِي فَخَرَجْتُ مِنْها كَآدَمَ حِينَ أَخْرَجَهُ الضِّرارُ
وَلَوْ أَنِّي مَلَكْتُ يَدِى وَنَفْسِى لَكَانَ عَلَىَّ لِلْقَدَرِ الخِيارُ

قال الأصمعى : ما روى المعتمر هذا الشعر إلا من أجل هذا البيت .

باب

قال لَقيطُ بن زُرارَةَ :

شَرِبْتُ الخَمْرَ حَتَّى خِلتُ أَنِّى　　أَبُو قَابُوسَ أَوْ عَبْدُ المَدَانِ
أَمَشِّى فى بَنِى عُدُس بْنِ زَيْدٍ　　رَخِىَّ البَالِ مُنْطَلِقَ اللِّسَانِ

وحدثنى أبو عثمان المازنى قال : أُسِرَ رجلٌ يوم الحسين بن علىٍّ رضى الله عنه ، فَأُتِىَ به يَزيدُ بن معاوية ، فقال له: أليس أبوكَ القائل :

أُرَجِّلُ جُمَّتِى وَأَجُرُّ ذَيْلِى　　وَتَحْمِلُ شِكَّتِى أُفُقٌ كُمَيْتُ
أُمَشِّى فى سَرَاةِ بَنِى غُطَيْفٍ　　إذَا مَا سَامَنِى ضَيْمٌ أَبَيْتُ

قال : بَلَى ، فَأَمَرَ به فقُتِلَ .

قال أبو العباس : ونُمِيَ إلىَّ أن معاوية وَلَّى كَثِيرَ بن شِهاب المَذْحِجِىَّ خُرَاسانَ فاختانَ مالاً كثيراً ، ثم هرَبَ ، فاسْتَتَرَ عند هانِئِ بن عُرْوَةَ المُرادِىِّ ، فبلغ ذلك معاويةَ ، فنَذَرَ دم هانئ ، فخرج هانئ فكان فى جِوارِ معاوية ، ثم حضَرَ مجلسَهُ ، ومعاويةُ لا يعْرِفُهُ ، فلما نهَضَ الناس ثبَتَ مكانه ، فسأله معاوية عن أمره ، فقال: أنا هانِئُ بن عُرْوَةَ ، فقال إن هذا اليومَ ليس بيومٍ يقولُ فيه أبوكَ : أُرَجِّلُ جُمَّتِى ، الشِّعْرَ ، فقال له هانئ : أنا اليومَ أعَزُّ منى ذلك اليومَ ، فقالَ له : بِمَ ذاكَ ؟ فقال : بالإسلام يا أمير المؤمنين ، فقال له : أين كَثِيرُ بن شِهابٍ؟ ، قال عندى فى عَسكرِكَ يا أميرَ المؤمنين ، فقال له معاوية: انْظُرْ إلى ما اختانه ، فَخُذْ منه بَعْضاً ، وسَوِّغْهُ بَعْضاً .

❋

وقال أعرابيّ :

وَلَقَدْ شَرِبْتُ الرَّاحَ حَتَّى خِلْتَنِي ... لَمَّا خَرَجْتُ أَجُرُّ فَضْلَ الْمِئْزَرِ
قَابُوسَ أَوْ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ مَاثِلاً ... يُجْبَى لَهُ مَا دُونَ دَارَةِ قَيْصَرِ

وقال آخر :

شَرِبْنَا مِنَ الدَّاذِيِّ(١) حَتَّى كَأَنَّنَا ... مُلُوكٌ لَهُمْ بَرُّ الْعِرَاقَيْنِ وَالْبَحْرُ
فَلَمَّا انْجَلَتْ شَمْسُ النَّهَارِ رَأَيْتُنَا ... تَوَلَّى الْغِنَى عَنَّا وَعَاوَدَنَا الْفَقْرُ

وقال آخر ، وهو عبد الرحمن بن الحَكَم :

وَكَأْسٍ تَرَى بَيْنَ الْإِنَاءِ وَبَيْنَهَا ... قَذَى الْعَيْنِ قَدْ نَازَعْتُ أُمَّ أَبَانِ(٢)
تَرَى شَارِبَيْهَا حِينَ يَعْتَوِرَانِهَا ... يَمِيلَانِ أَحْيَانًا وَيَعْتَدِلَانِ
فَمَا ظَنُّ ذَا الْوَاشِي بِأَرْوَعَ مَاجِدٍ ... وَبَدَّاءَ(٣) خَوْدٍ حِينَ يَلْتَقِيَانِ(٤)

وقال آخر :

دَعَتْنِي أَخَاهَا أُمُّ عَمْرٍو وَلَمْ أَكُنْ ... أَخَاهَا وَلَمْ أَرْضَعْ لَهَا بِلِبَانِ
دَعَتْنِي أَخَاهَا بَعْدَ مَا كَانَ بَيْنَنَا ... مِنَ الْأَمْرِ مَا لَا يَفْعَلُ الْأَخَوَانِ

وقال آخر (أنشده أبو عليّ لأمّ ضَيْغَمٍ الْبَلَوِيَّةِ(٥)) :

فَبِتْنَا فُوَيْقَ الْحَيِّ لَا نَحْنُ مِنْهُمُ ... وَلَا نَحْنُ بِالْأَعْدَاءِ مُخْتَلِطَانِ

---

(١) الداذي : اسم نبت يوضع حبه على الشراب ، والياء فيه ليست للنسب .

(٢) يريد أنها صافية ، حتى أنك لترى فى نواحيها مايشبه فى دقته قذى العين .

(٣) البداء : بادية المحاسن . (٤) والخود الناعمة .

(٥) نسبة إلى بليّ على وزن غنيّ ، وهى قبيلة من قضاعة .

وَبَاتَ يَقِينًا سَاقِطَ الطَّلِّ وَالنَّدَى مِنَ اللَّيْلِ بُرْدَا يُمْنَةٍ عَطِرَانِ
نُعَدِّى بِذِكْرِ اللهِ فِى ذَاتِ بَيْنِنَا إِذَا كَانَ قَلْبَانَا بِنَا يَرِدَانِ

قال أبو الحسن : وزادنى فيه غيرُ أبى العباس :

وَنَصْدُرُ عَنْ رِىِّ الْعَفَافِ وَرُبَّمَا نَقَعْنَا غَلِيلَ النَّفْسِ بِالرَّشَفَانِ

قال أبو العباس : نُعَدِّى أى نَصْرِفُ الشر بذكر الله ، يقال فَعَدِّ عما ترى ، أى فانْصَرِفْ عنه إلى غيره ، ويقال : لا يَعْدُوَنَّكَ هذا الحديثُ : أى لا يتجاوَزَنَّكَ إلى غيرك .

قال أبو العباس : وقال رجل من قُرَيْشٍ :

مَنْ تَقْرَعِ الْكَأْسُ اللَّئِيمَةُ سِنَّهُ فَلاَ بُدَّ يَوْمًا أَنْ يُسِىءَ وَيَجْهَلاَ
وَلَمْ أَرَ مَطْلُوبًا أَخَسَّ غَنِيمَةً وَأَوْضَعَ لِلأَشْرَافِ مِنْهَا وَأَخْمَلاَ
وَأَجْدَرَ أَنْ تَلْقَى كَرِيمًا يَذُمُّهَا وَيَشْرَبُهَا حَتَّى يَخِرَّ مُجَدَّلاَ(١)
فَوَاللهِ مَا أَدْرِى أَخَبْلٌ أَصَابَهُمْ أَمِ الْعَيْشُ فِيهَا لَمْ يُلاَقُوهُ أَشْكَلاَ

وقال آخر :

إِذَا صَدَمَتْنِى الْكَأْسُ أَبْدَتْ مَحَاسِنِى وَلَمْ يَخْشَ نَدْمَانِى أَذَاتِى وَلاَ بُخْلِى
وَلَسْتُ بِفَحَّاشٍ عَلَيْهِ وَإِنْ أَسَا وَمَا شَكْلُ مَنْ آذَى نَدَامَاهُ مِنْ شَكْلِى

وقال آخر :

كُلْ هَنِيئًا وَمَا شَرِبْتَ مَرِيئًا ثُمَّ قُمْ صَاغِرًا فَغَيْرُ كَرِيمِ
لاَ أُحِبُّ النَّدِيمَ يُومِضُ بِالْعَيْـنِ إِذَا مَا انْتَشَى لِعِرْسِ النَّدِيمِ

(١) مجدل : مصروع على الجدالة : وهى الأرض .

الإيماضُ: تفتُّحُ البرْقِ ولمحُهُ. يقال أوْمضتِ المرأةُ إذا ابْتسمتْ، وإنما ذلك تشبيه لِلمْعِ ثناياها بتبسُّمِ البرق، فأراد أنه فتحَ عينَهُ ثم غمَّضها بغمْزٍ.

وقال حسّان بن ثابت(١):

كَأَنَّ سَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ ... يَكُونُ مِزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءُ
إِذَا مَا الْأَشْرِبَاتُ ذُكِرْنَ يَوْمًا ... فَهُنَّ لِطَيِّبِ الرَّاحِ الْفِدَاءُ
نُوَلِّيهَا الْمَلَامَةَ إِنْ أَلَمْنَا ... إِذَا مَا كَانَ مَغْثٌ أَوْ لِحَاءُ
وَنَشْرَبُهَا فَتَتْرُكُنَا مُلُوكًا ... وَأُسْدًا مَا يُنَهْنِهُنَا اللِّقَاءُ

المَغْثُ: المُماغثةُ باليد، واللِّحاء: المُلاحاة باللسان، يقول: يعتذرُ المسيءُ بأن يقول: كنتُ سكرانَ فيُعذَرُ، وقوله كأنَّ سبيئةً، يقال سبأْتُها: إذا اشتريتها سِباءً يعني الخمرَ، والسابِئُ: الخمّارُ. وقوله: من بيت رأسٍ، يعني موضعاً: كما يقال حارِثُ الجوْلانِ.

(١) انظر الظروف التي قيلت فيها هذه القصيدة في كتاب (المدائح النبوية في الأدب العربي).

باب

قال أبو العاس : قال الأَحْنَفُ بن قَيْسٍ : ألا أدُلُّكُمْ على المَحْمَدَةِ بلا مَرْزِئَةٍ ؟ الخُلُقُ السَّجِيحُ(١)، والكَفُّ عن القبيح ، ألا أخبرُكُمْ بأدْوَإِ الداء ؟ ، الخُلُقُ الدَّنِيء ، واللسان البَذِيء .

وقال الأحنف : ثلاثٌ فِيَّ ما أقولهُنَّ إلا ليَعتَبِرَ مُعْتَبِرٌ، ما دَخلت بين اثنين حتى يُدْخِلانى بينهما ، ولا أتيتُ بابَ أحد من هؤلاء مالم أدْعَ إليه ، يعنى السُّلْطَانَ ، ولا حَلَلْتُ حُبْوَتى إلى ما يَقُومُ إليه الناسُ .

تَكْسِر الحاء وتضمها إذا أردتَ الاسم ، وتفتحها إذا أردتَ المَصْدر ، أنشدنى عُمارةُ بن عَقِيلٍ لِجَرِيرٍ :

قُتِلَ الزُّبَيْرُ وَأَنْتَ عاقِدُ حُبْوَةٍ ... قُبْحاً لِحُبْوَتِكَ الَّتِى لَمْ تُحْلَلِ

ويقال فى جمع حِبْوَةٍ : حِباً وحُباً مقصوران .

وقال عُبَيْدُاللهِ بن عبد الله بن عُتْبَةَ : ما أحْسَنَ الحَسَناتِ فى آثار السَّيِّئات ، وأقْبَحَ السيئاتِ فى آثار الحَسَنات ! ، وأقْبَحُ من ذا وأحْسَنُ من ذاكَ السَّيِّئاتُ فى آثار السيئات ، والحَسَناتُ فى آثار الحسناتِ .

والعَرَبُ تَلُفُّ الخبرين المختلفين ، ثم تَرْمى بتفسيرها جُمْلَةً ، ثِقَةً بأن السامع يَرُدُّ إلى كلٍّ خبرَهُ ، وقال الله عز وجل : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » .

---

(١) السهل .

وقال رجل لِسَلْمِ بن نَوْفَل: ما أَرْخَصَ السُّودَدَ فيكم! فقال سَلْمٌ: أَمَّا نحْنُ فلا نُسَوِّدُ إلاَّ مَنْ بذَلَ لنا مالَهُ، وأَوْطَأَنا عِرْضَهُ(١) وامْتَهَنَ فى حاجتنا نفسه.

فقال الرجل: إن السُّودَدَ فيكم لَغالٍ.

ولِسَلْمٍ يقول القائل:

يُسَوَّدُ أقْوامٌ وَلَيْسُوا بِسادَةٍ ... بَلِ السَّيِّدُ المَعْرُوفُ سَلْمُ بْنُ نَوْفَلِ

قال معاوية لعَرَابَةَ بن أَوْس بن قَيْظِيٍّ الأنصارىّ: بِمَ سُدْتَ قومك؟ فقال: لَسْتُ بسيدهم ولكنّي رجلٌ منهم. فعَزَمَ عليه فقال: أعْطَيْتُ فى نائبتهم، وحَلُمْتُ عن سَفِيهِهِمْ، وشَدَدْتُ على يَدَىْ حليمهم، فمَنْ فَعَلَ منهم مِثْلَ فِعْلى فهو مِثْلِي، ومن قصَّرَ عنه فأنا أفضلُ منه، ومن تجاوزه فهو أفضل منى.

وكان سَبَبُ ارتفاع عَرابة أنه قَدِمَ من سَفر، فجَمعَهُ الطريقُ وَالشَّمَّاخَ ابنَ ضِرارٍ المُرِّىَّ، فتحادثا فقال له عَرابةُ: ما الذى أقْدَمَكَ المدينة؟ قال: قَدِمتُ لِأَمْتارَ منها، فَمَلأَ له عَرابةُ رَوَاحِلَهُ بُرًّا وتمرا، وأتحفه بغير ذلك، فقال الشَّمَّاخُ:

رَأَيْتَ عَرَابَةَ الْأَوْسِيَّ يَسْمُو ... إِلَى الخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ القَرِينِ
إِذَا ما رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ ... تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِاليَمِينِ
إِذَا بَلَّغْتِنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي ... عَرَابَةَ فاشْرَقِي بِدَمِ الْوَتِينِ
وَمِثْلُ سَرَاةِ قَوْمِكَ لم يُجَارَوْا ... إِلَى رُبُعِ الرِّهَانِ وَلاَ الثَّمِينِ

---

(١) كناية عن احتمال المكروه.

قوله: تَلَقَّاها عَرابَةُ باليمين. قال أصحاب المعانى: معناه بالقوّة، وقالوا مثلَ ذلك فى قول الله عزّ وجل «وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيّاتٌ بيمينه»، وقد أحْسَنَ كلَّ الإحْسانِ فى قوله:

إذَا بَلَّغْتِنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي عَرَابَةَ فَاشْرَقِي بِدَمِ الْوَتِينِ

يقول: لَسْتُ أحتاج إلى أن أَرْحَلَ إلى غيره، وقد عاب بعضُ الرُّواةِ قولَهُ «فاشرقى بدم الوتين» وقال: كان ينبغى أن ينْظُرَ لها مع استغنائه عنها، فقد قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم للأنصارية المأسورة بمكة وقد نجَتْ على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، إنّى نذَرْتُ إنْ نَجَوْتُ عليها أن أنحرَها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَبِئْسَ ما جزَيْتِها»، وقال «لا نَذْرَ فى معصية، ولا نذر للإنسان فى غير ملكه».

ومما لم يُعَبْ فى هذا المعنى قول عبد الله بن رَواحةَ الأنْصارىّ لما أمَّرَه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعد زَيد وجَعْفَرٍ على جَيْش مُؤْتَةَ[1]:

إذَا بَلَّغْتِنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي مَسِيرَةَ أرْبَعٍ بَعْـدَ الْحِساء
فَشَأْنَكِ فَانْعَمِي وَخَلاكِ ذَمٌّ وَلاَ أَرْجِـعْ إلَى أَهْلِي وَرائى

الحِساء: جمع حِسْيٍ، وهو موضع رَمْلٍ تحته صَلابَةٌ، فإذا مطَرَت السماء على ذلك الرمل نزل الماء، فمنَعَتْهُ الصَّلابةُ أن يَغيضَ، ومنَعَ الرملُ السَّمائمَ أن تُنَشِّفَهُ، فإذا بحِثَ ذلك الرملُ أصيب الماء، يقال حِسْيٌ وأَحْساءٌ وحساء ممدودة، وقوله «ولاأرجعْ إلى أهلى ورائى» مجزوم لأنه دعاء، فقوله «لا» هى الجازمة له،

(١) مؤتة: اسم قرية بالشام.

ومعناه : اللهم لا أَرْجِعْ ، كما تقول زيد لا يَغْفِرِ الله له ، فهذا الدعاء يَنْجزِمُ بما يَنْجَزِمُ به الأمر والنهى ، كما تقول : زيد لِيَقُمْ ، وزيد لا يَبْرَحْ .

وقد اتَّبعَ ذو الرُّمَّةِ الشَّمَّاخَ فى قوله :

إذَا ابْنَ أَبِى مُوسَى بِلالاً بَلَغْتِهِ　　فَقَامَ بِفَأْسٍ بَيْنَ وِصْلَيْكِ جازِرُ

الوصل : المَفْصِلُ بما عليه من اللحم ، يقال قَطَعَ اللهُ أوصاله ، ويقال : وِصْلٌ ، وكِسْرٌ ، وجِدْلٌ ، فى معنى واحد .

باب

قال أبو العباس : أنشدنى التَّوَّزِىُّ لرجل من رُجَّازِ بنى تميم فى وَقْعَة الجُفْرة[1] .

نَحْنُ ضَرَبْنَا الْأَزْدَ بِالْعِرَاقِ　　وَالْحَىَّ مِنْ رَبِيعَةَ الْمُرَّاقِ
وَابْنَ سُهَيْلٍ قَائِدَ النِّفَاقِ[2]　　بِلَا مَعُونَاتٍ وَلَا أَرْزَاقِ
إلَّا بَقَايَا كَرَمِ الْأَعْرَاقِ　　لِشِدَّةِ الْخَشْيَةِ وَالْإِشْفَاقِ
* مِنَ الْمَخَازِى وَالْحَدِيثِ الْبَاقِى *

الأَعْرَاقُ : جمع عِرْقٍ ، يقال فلان كريم العِرْقِ ولئيم العِرْق أى الأَصْلِ .

وقال آخر يَصِفُ ابنه :

أَعْرِفُ مِنْهُ قِلَّةَ النُّعَاسِ　　وَخِفَّةً فِى رَأْسِهِ مِنْ رَاسِى
* كَيْفَ تَرَيْنَ عِنْدَهُ مِرَاسِى *

(١) الجفرة : موضع بناحية البصرة .
(٢) يرى الشيخ المرصفى أن الصواب « ابن أسيد » بفتح الهمزة وكسر السين .

يخاطب أمَّ ابنه ، فقوله أعرف منه قلة النعاس : أى الذَّكاء والحركة .

وكان عبد المَلِكِ بن مَرْوانَ يقول لِمُؤَدّبِ ولده : عَلِّمْهُمُ العَوْمَ ، وهَذِّبْهُمْ بقلة النوم . وكذا قال أبو كَبِيرٍ الْهُذَلِيُّ :

فَأَتَتْ بِهِ حُوشَ الجَنانِ(١) مُبَطَّنًا ... سُهُدًا إِذَا مَا نَامَ لَيْلُ الهَوْجَلِ

وقال الآخر :

فَجَاءَتْ بِهِ حُوشَ الْفُؤَادِ مُسَهَّدًا ... وَأَفْضَلُ أَوْلَادِ الرِّجَالِ المُسَهَّدُ

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ عَيْنَيَّ تنامانِ وَلَا ينامُ قَلْبِي » .

وقال عُرْوَةُ بن الوَرْدِ العَبْسِيُّ ، وهو عُرْوَةُ الصَّعاليكِ(٢) :

لَحَا اللهُ صُعْلُوكًا إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ ... مُصَافِي المُشَاشِ آلِفًا كُلَّ مَجْزَرِ

(يَعُدُّ الْغِنَى مِنْ نَفْسِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ ... أَصَابَ قِرَاهَا مِنْ صَدِيقٍ مُيَسَّرِ)

يَنَامُ ثَقِيلًا ثُمَّ يُصْبِحُ قَاعِدًا ... يَحُتُّ الحَصَى عَنْ جَنْبِهِ المُتَعَفِّرِ

يُعِينُ نِسَاءَ الحَيِّ مَا يَسْتَعِنَّهُ ... فَيُضْحِي طَلِيحًا كَالْبَعِيرِ المُحَسَّرِ

وَلٰكِنَّ صُعْلُوكًا صَفِيحَةُ وَجْهِهِ ... كَضَوْءِ سِرَاجِ الْقَابِسِ المُتَنَوِّرِ

مُطِلًّا عَلَى أَعْدَائِهِ يَزْجُرُونَهُ ... بِسَاحَتِهِمْ زَجْرَ المَنِيحِ المُشَهَّرِ

وَإِنْ بَعُدُوا لَا يَأْمَنُونَ اقْتِرَابَهُ ... تَشَوُّفَ أَهْلِ الْغَائِبِ المُتَنَظَّرِ

فَذٰلِكَ إِنْ يَلْقَ المَنِيَّةَ يَلْقَهَا ... حَمِيدًا وَإِنْ يَسْتَغْنِ يَوْمًا فَأَجْدِرِ

(يُرِيحُ عَلَى اللَّيْلِ أَضْيَافَ مَاجِدٍ ... كَرِيمٍ وَمَالِي سَارِحًا مَالُ مُقْتِرِ

---

(١) حوش الجنان : حديد القلب ، كأنه من الحوش وهم حىّ من الجن . والمبطن : الضامر البطن .

(٢) هم الفقراء .

قال أبو الحسن: كذا أنشده ، فذلكَ لأنه لم يَرْوِ أوّلَ الشّعر ، والصواب كسر الكاف ، لأنه يخاطب امرأةً ، ألا تراه قال :

أَقِلِّي عَلَيَّ اللَّوْمَ يا ابْنَةَ مَالِكٍ　　وَنَامِي وَإِنْ لَمْ تَشْتَهِي ذَاكِ فاسْهَرِي)

قوله ✲ يَحُتُّ الحَصَى عَنْ جَنْبِهِ المُتَعَفِّرِ ✲ يريد المُتَتَرِّبَ وَالعَفَرُ وَالعَفْرُ اسمان للتراب، من ذلك قولهم: عَفَّرَ الله خَدَّهُ، ويقال للظَّبْية عَفْراء إذا كانت يَضْرِبُ بياضُها إلى حُمْرة ، وكذلك الكَثِيبُ الأَعْفَرُ .

وقوله كالبعير المحسر : هو المُعْيِي ، يقال جَمَلٌ حَسِيرٌ وناقة حَسِيرٌ ، قال الله عزّ وجل « يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ » .

وقوله : ✲ وَإِنْ بَعُدُوا لاَ يَأْمَنُونَ اقْتِرَابَهُ ✲ على التقديم والتأخير ، أراد: لا يأمَنون اقترابه وإن بعدوا ، وهذا حسن في الإعْراب إذا كان الفعل الأول في المجازاة ماضياً ، كما قال زُهَيْرٌ :

وَإِنْ أَتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْئَلَةٍ　　يَقُولُ لاَ غَائِبٌ مَالِي وَلاَ حَرِمُ

فإن كان الفعلُ الأوّل مجزوما لم يَجُزْ رفع الثاني إلا ضرورة ، فسيبويه يذهب إلى أنه على التقديم والتأخير ، وهو عندي على إرادة الفاء ، لِعِلَّةٍ تَلْزَمُهُ في مذهبه ، ذكرها في باب المجازاة إذا جرى في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ، فمن ذلك قوله :

يَا أَقْرَعُ بْنَ حَابِسٍ يَا أَقْرَعُ　　إِنَّكَ إِنْ يُصْرَعْ أَخُوكَ تُصْرَعُ

أراد سيبويه إنك تُصْرَعُ إن يُصْرَعْ أخوك ، وهو عندي على قوله إن يُصْرَعْ أخوك فأنت تُصْرَعُ يافتى ، ونَستقصي هذا في بابه إن شاء الله تعالى.

وقوله : ٭ كَيْفَ تَرَيْنَ عِنْدَهُ مِراسِى ٭ يقول للمرأة عَزَزْتُكِ على شَبَهِهِ ، ويقال: أنجبُ الأولاد ولدُ الفارِكِ ، وذلك لأنها تُبْغِضُ زوجها ، فيَسْبِقُها بمائه ، فيَخْرُجُ الشَّبَهُ إليه، فيخرج الولد مُذْكِرًا. وكان بعض الحكماء يقول : إذا أردت أن تَطْلُبَ ولد المرأة فأغْضِبْها ، ثم قَعْ عليها ، فإنك تَسْبِقُها بالماء ، وكذلك ولد الفَزعَةِ ، كما قال أبو كَبِيرٍ الهُذَلِيُّ :

مِمَّنْ حَمَلْنَ بِهِ وَهُنَّ عَوَاقِدٌ حُبُكَ النِّطَاقِ فَشَبَّ غَيْرَ مُهَبَّلِ

(المهبل الكثير اللحم ، ومُهَبَّلٌ غير مَدْعُوٍّ عليه بالهَبَلِ) .

حَمَلَتْ بِهِ فِى لَيْلَةٍ مَزْؤُودَةٍ كَرْهاً وَعَقْدُ نِطَاقِهَا لَمْ يُحْلَلِ

مزؤودة ذات زُؤْدٍ ، وهو الفَزَعُ ، فمن نصب مزؤودة فإنما أراد المرأة ، ومن خفض فإنه أراد الليلةَ ، وجعل الليلة ذات فَزَعٍ ، لأنه يُفْزَعُ فيها ، قال الله عزّ وجل : « بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » والمعنى : بل مَكْرُكُم فى الليل والنهار؛ وقال جرير :

لَقَدْ لُمْتِنَا يَا أُمَّ غَيْلَانَ فِى السُّرَى وَنِمْتِ وَمَا لَيْلُ المَطِىِّ بِنَائِمِ

وقال آخر(١) : ٭ فَنَامَ لَيْلِى وَتَجَلَّى هَمِّى ٭ وهذا الرجزُ ضدٌّ ما قال الآخر فى ولده ، فإنه أقر بأن أُمرأته غَلَبَتْهُ على شَبَهِهِ ، وذلك قوله :

وَاللهِ مَا أَشْبَهَنِى عِصَامُ لَا خُلُقٌ مِنْـهُ وَلَا قَوَامُ

٭ نِمْتُ وَعِرْقُ الخَالِ لَا يَنَامُ ٭

يقول : عَزَّتْنِى(٢) أُمُّهُ على الشَّبَهِ ، فذهبتْ به إلى أخواله ، وقال آخر :

---

(١) هو رؤبة بن العجاج ، وصدر البيت : ٭ حارث قد فرّجت عنى غمى ٭ يخاطب الحارث بن سليم . (٢) غلبتنى .

لقد بَعَثْتُ صاحِباً من العَجَمْ   بَيْنَ ذَوِى الأَحْلامِ وَالبِيضِ اللِّمَمْ
* كَانَ أَبُوهُ غَائِباً حَتَّى فُطِمْ *

يقول : لم يُسْقَ غَيْلاً ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى أُمَّتِى عَنِ الغِيلَةِ ، حتى عَلِمْتُ أن فَارِسَ والرُّومَ تفعل ذلك بأولادها، فلا تَضِيرُ أولادَها » والغيلة أن تُرْضِعَ المرأةُ وهى حامل ، أو تُرْضِعَ وهى تُغْشَى ، ويَزْعُمُ أهلُ الطِّبِّ من العرب والعجم أن ذلك اللَّبَنَ داء ، وقالت أُمُّ تأبَّطَ شرًّا[1] : والله ما حَمَلْتُهُ تُضْعاً ـ ووُضْعاً أيضاً ـ ولا وَضَعْتُهُ يَتْناً ، ولا سَقَيْتُهُ غَيْلاً ، ولا أَبَتُّهُ مَئِقاً . وقال الأصمعى : ولا أَبَتُّهُ على مَأْقَةٍ . قولها : ما حملته تُضْعاً ، يقال إذا حملت المرأة عند مَقْبَلِ الحيض : حَمَلَتْهُ وُضْعاً وتُضْعاً ، وإذا خرجتْ رجْلا المولود من قَبْل رأسه قيلَ : وَضَعَتْهُ يَتْناً ، قال الشاعر :

فَجَاءَتْ بِهِ يَتْناً يَجُرُّ مَشِيمَةً[2]   تُسَابِقُ رِجْلاهُ هُنَاكَ الأَنَامِلاَ

ويقال للرجل إذا قلَبَ الشىء عن جهته جاء به يَتْناً . قال عيسى بن عمر : سألت ذا الرُّمَّةِ عن مسئلة ، فقال لى : أَتعرِفُ اليَتْنَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قال : فَمَسْئَلَتُكَ هذه يَتْنٌ . قال : وكنت قد قلبت الكلام ، والغَيْلُ ما فسرناه ، وأما قولها : ولا أَبَتُّهُ مَئِقاً ، تقول : لم أَبِتْهُ مَغِيظاً . وذلك أن الخَرْقاءَ تُبِيتُ ولدها جائعاً مَغْمُوماً ، لحاجته إلى الرضاع ، ثم تحرّكه فى مَهْده ، حتى يغلبه الدُّوَارُ فَيَنُومَهُ ؛ والكَيِّسَةُ تُشْبِعُهُ وتُغَنِّيهِ فى مَهْده ، فَيَسْرِى ذلك الفرَحُ فى بدنه من الشِّبَعِ ، كما سَرَى ذلك الغَمُّ والجوع فى بدن الآخر . ومن أمثال العرب : أنا تَئِقٌ وصاحبى مَئِقٌ فكيف نَتَّفِقُ ؟ التَّئِقُ : المملوء غيظا وغضباً ، والمئق : القليل الاحتمال ، فلا يقع الاتفاق

(١) واسمها أميمة ، إحدى نساء بنى القين .   (٢) المشيمة مايكون فيه الولد .

باب

قال أبو العباس: قال ابن عباس رضى الله عنهما : لا يُزَهِّدَنَّكَ فى المعروف كُفْرُ مَنْ كفره ، فإنه يَشْكُرُكَ عليه مَنْ لم تَصْطَنِعْهُ إليه[1] :

وأُنْشِدَ عبدُ الله بن جعفر قولَ الشاعرِ :

إنَّ الصَّنِيعَةَ لاَ تَكُونُ صَنِيعَةً   حَتَّى تُصِيبَ بِهَا طَرِيقَ المَصْنَعِ

فقال: هذا رجل يريد أن يُبَخِّلَ الناسَ ، أَمْطِرِ المعروف مطَرًا ، فإن صادف موضعاً فهو الذى قصدْتَ له ، وإلا كنتَ أحقَّ به .

(قال أبو الحسن الأخفش : حدثنا المبرد فى غير الكامل قال : قال الحسَنُ والحُسَيْنُ رضوان الله عليهما لعبد الله بن جعْفرٍ : إنك قد أسْرَفْتَ فى بَذْلِ المال. قال : بأبى أنتما وأُمِّى، إن الله عوَّدَنِى أن يُفْضِلَ علىَّ ، وعوَّدْتُهُ أن أُفْضِلَ على عباده ، فأخاف أن أَقْطَعَ العادَةَ فَيَقْطَعَ عنى) .

وَمَرَّ يَزِيدُ بن المُهَلَّبِ بأعرابية فى خروجه من سِجْنِ عمر بن عبد العزيز يريد البَصْرة ، فقرَتْهُ عنْزًا، فقبِلَها ، وقال لابنه معاوية : مامعك من النفقة ؟ فقال: ثمانى مائةِ دينارٍ، قال: فادْفَعْهَا إليها، قال له ابنه: إنك تريد الرجالَ، ولا يكون الرجالُ إلا بالمال ، وهذه يُرْضيها اليسير ، وهى بَعْدُ لا تعرِفُكَ .

فقال له : إن كانت ترضى باليسير ، فأنا لا أرضى إلا بالكثير ، وإن كانت لا تعرفنى فأنا أعرف نفسى ، ادْفَعْها إليها .

---

(١) وهو الله عز شأنه .

٭

وزعم الأصمعى أن حَرْبًا كانت بالبادية ، ثم اتصلت بالبصرة ، فتفاقَمَ الأمر فيها ، ثم مُشِيَ بين الناس بالصُّلْح ، فاجتمعوا فى المسجد الجامع ، قال : فبُعِثْتُ وأنا غلام إلى ضِرار بن القَعْقاع من بنى دارم ، فاستأذنتُ عليه ، فأذِنَ لى ، فدخلتُ ، فإذا به فى شَمْلَةٍ يَخْلِطُ بَزْرًا لِعَنزِله حَلُوبٍ ، فَخَبَّرْتُهُ بمُجْتَمَعِ القوم ، فأَمْهَلَ حتى أكلتِ العنز ، ثم غَسَلَ الصَّحْفَة وصاح : يا جاريةُ غَدِّينا ، قال : فأتته بزيت وتمر ، قال : فدعانى فَقَذَرْتُهُ أن آكُلَ معه ، حتى إذا قضى من أكله حاجةً ، وَثَبَ إلى طينٍ مُلْقًى فى الدار ، فغَسَل به يَدَهُ ، ثم صاح : يا جارية ، اسقينى ماء . فأتته بماء ، فشَرِبَهُ ، ومسح فَضْلَهُ على وجهه ، ثم قال : الحمد لله ، ماءِ الفُراتِ ، بتمر البصرة ، بزيت الشام ، متى نُؤَدِّى شُكْرَ هذه النعم ! ثم قال : ياجارية ، علىَّ بِردائى ، فأتته بِرِداءِ عَدَنِىٍّ ، فارْتَدَى به على تلك الشَّمْلَةِ . قال الأصمعى : فتجافَيْتُ عنه استقباحًا لِزِيِّهِ ، فلما دخل المسجد صلى ركعتين ، ثم مشى إلى القوم ، فلم تبقَ حُبْوَةٌ إلا حُلَّتْ إعظامًا له ، ثم جلس ، فتحمَّلَ جميعَ ما كان بين الأحياء فى ماله وانصرف .

٭

وحدثنى أبو عثمان بكر بن محمد المازِنىُّ عن أبى عبيدة قال : لما أتى زِيادُ ابن عمرو المِرْبَدَ ، فى عَقِبِ قتل مسعود بن عمرو العَتَكِىِّ ، جَعَلَ فى المَيْمَنَةِ بَكْرَ بن وائل ، وفى المَيْسَرَةِ عبد القَيْسِ ، وهم لُكَيْزُ بن أفْصَى بن دُعْمِىّ

ابن جَدِيلَةَ بن أسد بن ربيعة ، وكان زِياد بن عمرو العَتَكِيُّ فى القلْبِ ، فبلغ ذلك الأَحْنَف ، فقال : هذا غلام حدَثٌ ، شأنُهُ الشُّهْرَةُ ، وليس يُبَالِى أين قَذَفَ بنفسه ، فندَبَ أصحابَهُ ، فجاءه حارِثَةُ بن بَدْرٍ الغُدانِىُّ ، وقد اجتمعت بنو تميم ، فلما طلع قال : قُوموا إلى سيِّدكم ، ثم أجلسه فناظَرَهُ ، فجعلوا سَعْدًا والرَّبَابَ فى القَلْب ، ورئيسُهُمْ عَبْسُ بن طَلْقٍ الطَّعانُ ، المعروف بأخى كَهْمَسٍ ، وهو أحَدُ بنى صريم بن يَرْبوع ، فجُعِلَ فى القلْبِ بحذاء الأزْدِ ، وجُعِلَ حارثةُ بن بَدْرٍ فى بنى حَنْظَلَةَ بحِذاء بَكْرِ بن وَائِلٍ ، وجُعِلَتْ عمرو ابن تميم بحذاء عَبْدِ القَيْس ، فذلك حيثُ يقول حارثةُ بن بَدْرٍ للأَحْنَف :

سَيَكْفِيكَ عَبْسٌ أخُو كَهْمَسٍ مُقارَعَةَ الأَزْدِ بِالمِرْبَدِ
وَتَكْفِيكَ عَمْرٌو عَلَى رِسْلِهَا لُكَيْزَ بنَ أفْصَى وَما عَدَّدُوا
وَتَكْفِيكَ بَكْرًا إذا أقبلَتْ بِضَرْبٍ يَشِيبُ لَهُ الأمْرَدُ

فلما تواقفوا بعَثَ إليهم الأَحْنَفُ : يا مَعْشَرَ الأزْدِ ورَبيعةَ من أهل البصرة ، أنتم والله أحبُّ إلينا من تَميمِ الكوفة ، وأنتم جيرانُنا فى الدار ، ويَدُنا على العَدُوِّ ، وأنتم بدأْتمونا بالأَمْس ، ووطِئْتُمْ حَرِيمَنا ، وحرَّقْتُمْ علينا ، فدفَعْنا عن أنفسنا ، ولا حاجة لنا فى الشر ما أصبْنا فى الخير مَسْلَكًا ، فتيمَّمُوا بنا طريقةً قاصدةً(١) . فوجَّهَ إليه زياد بن عمرو : تخيَّرْ خَلَّةً من ثلاثٍ : إن شئت فانْزِلْ أنتَ وقومُكَ على حُكْمنا ، وإن شئت تَخَلِّ لنا عن البصرة

---

(١) أى مستقيمة عادلة .

وارْحَلْ أنت وقومُك إلى حيث شئتم ، وإلا فَدُوا(١) قَتْلانا ، وأَهْدِرُوا دِماءَكُمْ ، وليُودَ مسعودٌ دِيَةَ المُشْعَرَةِ .

قال أبو العباس: وتأويل قوله «دِيَة المشعرة» يريد أمْرَ الملوك في الجاهلية، وكان الرجلُ إذا قُتِلَ وهو من أهل بيت المَمْلَكة وُدِيَ عشرَ دِياتٍ .

فبَعَثَ إليه الأحنفُ : سنختارُ ، فانصرفوا في يومكم . فهَزَّ القومُ راياتِهِمْ وانصرفوا، فلما كان الغدُ بعث إليهم : إنكم خيرتمونا خِلالاً ليس فيها خيارٌ، أما النزول على حُكْمكم فكيف يكون والكَلْمُ يَقْطُرُ دمًا ؟ وأما ترك ديارنا فهو أخو القَتْلِ ، قال الله تعالى عز وجل : « وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوهُ إلاَّ قليلٌ » ولكنَّ الثالثةَ إنما هي حَمْلٌ على المال ، فنحن نُبْطِلُ دماءنا ، ونَدِي قَتْلاكم ، وإنما مسعودٌ رجل من المسلمين ، وقد أذْهَبَ اللهُ أمرَ الجاهلية .

فاجتمع القوم على أن يَقِفُوا أمرَ مسعود، ويُغْمَدَ السيفُ، ويُودَى سائرُ القَتْلَى من الأزْدِ وربيعةَ، فتَضَمَّنَ ذلك الأحنفُ ، ودفعَ إياسَ بن قتادة المُجاشِعِيَّ رهينةً حتى يُؤَدَّى هذا المالُ، فرَضِيَ به القومُ، ففَخَرَ بذلك الفرزدقُ فقال :

وَمِنَّا الَّذِي أَعْطَى يَدَيْهِ رَهِينَةً ... لِغَارَىْ مَعَدٍّ يَوْمَ ضَرْبِ الجَماجِمِ
عَشِيَّةَ سَالَ المِرْبَدَانِ كِلاهُمَا ... عَجاجَةَ مَوْتٍ بالسُّيُوفِ الصَّوارِمِ
هُنالِكَ لَوْ تَبْغِي كُلَيْبًا وَجَدْتَها ... أَذَلَّ مِنَ القِرْدَانِ تَحْتَ المَناسِمِ

(قال أبو الحسن وكان أبو العباس ربما رواه : لغازى مَعَدٍّ) ويقال إن

---

(١) من الدية ، تقول : ودى القتيل يديه ، إذا أعطى قومه الدية .

تميماً فى ذلك الوقت مع باديتها وحُلفائها من الأَساوِرَةِ والزُّطّ ، والسَّبابِجَةِ وغيرهم كانوا زُهاء سبعين ألفاً ، ففى ذاك يقول جرير :

سائِلْ ذوِى يَمَنٍ وَرَهطَ مُحَرِّقٍ ... وَالْأَزْدَ إِذْ نَدَبُوا لَنَا مَسْعودا

فَأَتَاهُمُ سَبْعُونَ أَلف مُدَجَّجٍ ... مُتَسَرْبِلِينَ يَلامِقاً وَحَـدِيدَا

قال الأحنفُ بن قيسٍ: فَكَثُرَتْ علىّ الدِّياتُ، فلم أَجِدْها فى حاضرة تميم، فخرجتُ نحو يَبْرِينَ ، فسألتُ عن المقصود هناك، فأُرْشِدْتُ إلى قُبَّةٍ ، فإذا شيخٌ جالس بفنائها ، مُؤْتَزِرٌ بشَمْلَةٍ ، مُحْتَبٍ بحبل ، فسلَّمْتُ عليه ، وانتسبت له، فقال: مافعلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقلت : تُوُفِّىَ صلوات الله عليه ! قال فما فعلَ عُمرُ بن الخطاب الذى كان يَحْفَظُ العرب ويَحُوطُها ؟ فقلت له : مات رحمه الله تعالى ! قال فأىُّ خيرٍ فى حاضرتكم بعدهما ؟ قال· فذكرتُ له الدِّياتِ التى لزِمَتْنا للأزْدِ وربيعةَ . قال : فقال لى : أقِمْ ، فإذا راعٍ قد أراحَ ألْفَ بعير ، فقال: خُذْها ، ثم أراحَ عليه آخرُ مثلها ، فقال خُذْها ، فقلت لا أحتاج إليها ، قال : فانصرفت بالألف عنه ، ووالله ما أدرى من هو الى الساعة .

قوله «المَناسِم» واحدها مَنْسِمٌ ، وهو ظُفْرُ البعير فى مُقدَّمِ الخفّ ، وهو من البعير كالسُّنْبُكِ من الفرَس .

وقوله ☆ عشية سالَ المربدانِ كلاهما ☆ يريد المِرْبَدَ وما يليه مما جرى مَجْراه ، والعرب تفعل هذا فى الشيئين إذا جرَيا فى بابٍ واحد ، قال الفرزدق :

أَخذْنَا بِآفاقِ السَّماءِ عَلَيْكُمُ ... لَنَا قَمَراهَا وَالنُّجُومُ الطَّوالِعُ

يريد الشمس والقمر ، لأنهما قد اجتمعا فى قولك النَّيِّرانِ ، وغُلِّبَ الاسم

المُذَكَّرُ، وإنما يُؤْثَرُ فى مثل هذا الخفَّةُ ، وقالوا «العُمَرانِ» لأبى بَكْرٍ وعُمَرَ، فإن قال قائل : إنما هو عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز، فلم يُصِبْ، لأن أهل الجَمَل نادَوْا بِعَلِىٍّ بن أبى طالب رضى الله عنه : أَعْطِنا سُنَّةَ العُمَرَيْن . فإن قال قائل: فَلِمَ لَمْ يقولوا أبَوَىْ بكرٍ وأبو بكر أفضلهما؟ فلأنّ عمر اسم مفرد، وإنما طلبوا الخفة ، وأنشدنى التَّوَّزِىُّ عن أبى عُبَيْدَةَ لجرير :

وَمَا لِتَغْلِبَ إِنْ عَدُّوا مَسَاعِيَهُمْ ... نَجْمٌ يُضِىءُ وَلاَ شَمْسٌ وَلاَ قَمَرُ
ما كَانَ يَرْضَى رَسُولُ اللهِ فِعْلَهُمُ ... وَالْعُمَرَانِ أَبُو بَكْرٍ وَلاَ عُمَرُ

هكذا أنْشَدَنيهِ : (إنما قال هكذا أنشدنيه لأن غير التَّوَّزِىِّ يرويه : والطَّيِّبانِ أبو بكر ولا عمر) وقال آخر (هو حُمَيْدٌ الأَرْقَطُ) :

* قَدْنِىَ مِنْ نَصْرِ الْخُبَيْبَيْنِ قَدِى * يريد عبد الله ومُصْعَبًا ابنى الزُّبَيْرِ، وإنما أبو خُبَيْبٍ عبد الله ، وقرأ بعضُ القُرَّاء[1] سَلامٌ على إلْياسِينَ ، فَجَمَعَهُمْ على لفظ إلْيَاسَ ، ومن ذا قولُ العرب: المَسامِعَةُ، وَالمَهالِبَةُ ، والمَناذِرَةُ ، فَجَمَعَهُمْ على اسم الأب ، والمُشْعَرَةُ: اسم لِقَتْلَى الملوك خاصّةً، كانوا يُكْبِرُونَ أن يقولوا قُتِلَ فلانٌ، فيقولون أُشْعِرَ فلانٌ من إشعار البُدْنِ ، ويروى أن رجلا قال : حضرتُ المَوْقِفَ مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فصاح به صائح: ياخليفة رسول الله ، ثم قال يا أمير المؤمنين ، فقال رجلٌ من خَلْفِى دعاه باسم ميِّتٍ مات ، والله أمير المؤمنين ، فالْتَفَتُّ فإذا رجل من بنى لِهْبٍ، وهم من بنى نَصْرِ ابن الأَزْدِ ، وهم أَزْجَرُ قوم ، قال كُثَيِّرٌ :

---

(١) هو عبد الله بن كثير .

سَأَلتُ أَخَا لِهْبٍ لِيَزْجُرَ زَجْرَةً ... وَقَدْ صَارَ زَجْرُ الْعَالَمِينَ إِلَى لِهْبِ

قال : فلما وقفنا لرمى الجمار إذا حَصاةٌ قد صَكَّتْ صَلْعَةَ عمر فَأَدْمَتْهُ ، فقال قائل: أُشْعِرَ والله أمير المؤمنين لا يَقِفُ هذا المَوْقِفَ أبداً ، فالْتفَتُّ فإذا بذلك اللِّهْبِيِّ بعينه ، فقُتِلَ عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه قبل الحَوْل .

باب

قال أبو العباس : أنشدنى رجل من أصحابنا من بنى سَعْدٍ ، قال: أنشدنى أعرابى فى قصيدة ذى الرُّمَّةِ :

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا دَارَ مَيَّ عَلَى الْبِلَى ... وَلَا زَالَ مُنْهَلًّا بِجَرْعَائِكِ الْقَطْرُ

بيتين لم تأْتِ بهما الرُّوَاةُ وهما :

رَأَيْتُ غُرَابًا سَاقِطًا فَوْقَ قَضْبَةٍ ... مِنَ الْقَضْبِ لَمْ يَنْبُتْ لَهَا وَرَقٌ نَضْرُ

فَقُلْتُ غُرَابٌ لِاغْتِرَابٍ وَقَضْبَةٌ ... لِقَضْبِ النَّوَى ، هَذِي الْعِيَافَةُ وَالزَّجْرُ

وقال آخر: (قال أبو الحسن هو جَحْدَرٌ الْعُكْلِيُّ ، وكان لِصًّا) :

وَقِدْمًا هَاجَنِي فَازْدَدْتُ شَوْقًا ... بُكَاءُ حَمَامَتَيْنِ تَجَاوَبَانِ

(وقِدْمًا عن أبى الحسن) :

تَجَاوَبَتَا بِلَحْنٍ أَعْجَمِيٍّ ... عَلَى عُودَيْنِ مِنْ غَرَبٍ وَبَانِ

فَكَانَ الْبَانُ أَنْ بَانَتْ سُلَيْمَى ... وَفِي الْغَرَبِ اغْتِرَابٌ غَيْرُ دَانِ

وأنشدنى أبو مُحَلِّمٍ لرجل من ولد طَلَبَةَ بن قَيْسِ بن عاصِمٍ :

وَكُنْتُ إِذَا خَاصَمْتُ خَصْماً كَبَبْتُهُ ... عَلَى الْوَجْهِ حَتَّى خَاصَمَتْنِى الدَّرَاهِمُ
فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الخُصُومَةَ غُلِّبَتْ ... عَلَىَّ وَقَالُوا قُمْ فَإِنَّكَ ظَالِمُ

وقرأت على أبى الفضل العباس بن الفرج الرِّيَاشِىِّ، عن أبى زيد الأنصارى :

وَلَقَدْ بَغَيْتُ المَالَ مِنْ مَبْغَاتِهِ ... وَالمَالُ وَجْهٌ لِلْفَتَى مَعْرُوضُ
طَلَبَ الْغِنَى عَنْ صَاحِبٍ لِيُحِبَّنِى ... إِنَّ الْفَقِيرَ إِلَى الْغَنِىِّ بَغِيضُ

وقال آخر أنْشَدَنِيهِ التَّوَّزِىُّ عن أبى زيد :

وَصَاحِبٍ نَبَّهْتُهُ لِيَنْهَضَا ... إِذَا الْكَرَى فِى عَيْنِهِ تَمَضْمَضَا
فَقَامَ عَجْلَانَ وَمَا تَأَرَّضَا ... يَمْسَحُ بِالْكَفَّيْنِ وَجْهاً أَبْيَضَا

قوله : أى وما تأرضا : أى لم يلزم الأرض ، وأنشدنى التَّوَّزِىُّ عن أبى زيد الأنصارى (قال أبو الحسن هو شَبِيبُ ابن البَرْصاء) :

لَقَدْ عَلِمَتْ أُمُّ الصَّبِيَّيْنِ أَنَّنِى ... إِلَى الضَّيْفِ قَوَّامُ السِّنَاتِ خَرُوجُ
إِذَا المُرْغِثُ الْعَوْجَاءُ بَاتَ يَعُزُّهَا ... عَلَى ضَرْعِهَا ذُو تُومَتَيْنِ لَهُوجُ
وَإِنِّى لَأُغْلِى اللَّحْمَ نِيًّا وَإِنَّنِى ... لِمَنْ يُهِينُ اللَّحْمَ وَهْوَ نَضِيجُ

قوله : قَوَّامُ السِّنات يريد سريع الانتباه ، والسِّنَةُ شدة النُّعاس وليس بالنوم بعينه قال الله عز وجل «لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ» وقال ابن الرِّقاع العامِلِىُّ :

لَوْلَا الْحَيَاءُ وَأَنَّ رَأْسِى قَدْ عَسَا ... فِيهِ المَشِيبُ لَزُرْتُ أُمَّ الْقَاسِمِ
وَكَأَنَّهَا بَيْنَ النِّسَاءِ أَعَارَهَا ... عَيْنَيْهِ أَحْوَرُ مِنْ جَآذِرِ عَاسِمِ (١)
وَسْنَانُ أَقْصَدَهُ النُّعَاسُ فَرَنَّقَتْ ... فِى عَيْنِهِ سِنَةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمِ

---

(١) عاسم : رملة لبنى سعد ، وفى رواية أخرى (جاسم) وهى قرية بالشام .

معنى رنقت تهيأت، يقال رَنَّقَ النَّسْرُ: إذا مَدَّ جناحيه ليطير، قال ذو الرُّمَّة:

(إذا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ رَنَّقَ فَوْقَنَا) عَلَى حَدِّ قَوْسَيْنَا كَمَا رَنَّقَ النَّسْرُ

وقوله المُرْغِثُ: يعنى الَّتِي تُرْضِعُ تُرْغِثُ ولدها، ويقال لها رَغُوثٌ، قال طَرَفَةُ:

لَيْتَ لَنَا مَكَانَ المَلْكِ عَمْرٍو رَغُوثًا حَوْلَ قُبَّتِنَا تَخُورُ

وقوله يَعُزُّها: أي يَغْلِبها، وقال الله عز وجل: «وَعَزَّنِى فى الْخِطَابِ» يقول غَلَبنى فى المُخَاطَبَةِ، وأصله من قوله كان أَعَزَّ مِنِّى فيها، ومن أمثال العرب: «من عَزَّ بَزَّ»، وتأويله: من غَلَبَ اُسْتَلَب، وقال زُهَيْرٌ:

* وَعَزَّتْهُ يَدَاهُ وَكَاهِلُهُ * يقول: كَانَ ذلك أَعَزَّ ما فيه، ويقال: لَهِجَ الفَصِيلُ فهو لَهُوجٌ، إذا لَزِمَ الضَّرْعَ، ويقال رجل مُلْهِجٌ: إذا لَهِجَتْ فِصالُهُ، فيَتَّخِذُ خِلالاً، فيَشُدُّه على الضَّرْعِ، أو على أنف الفصيل، فإذا جاء لِيَرْضَعَ أَوْجَعَها بالخلال، فضَرَحَتْهُ عنها برجلها، قال الشَّمَّاخُ يصف الحمار:

رَعَى بَارِضَ الْوَسْمِيِّ حَتَّى كَأَنَّمَا يَرَى بِسَفَا الْبُهْمَي أَخِلَّةَ مُلْهِجِ

البارِضُ: أوّلُ ما يَبْدُو من النبت، والبُهْمَي: يشبه السُّنْبُلَ، يقول: فهو لما اعتاد هذا المَرْعَى اللَّذْنَ اسْتَخْشَنَ البُهْمَي، وسَفاها: شوكُها، فيقول: كأنه مَخْلول عن البهمى، أى يراها كالأَخِلَّةِ، وقوله «ذو تُومتين»: فالتُّومةُ فى الأصل الحَبَّةُ، ولكنها فى هذا الموضع التى تُعلَّقُ فى الأُذن (وقوله الحبة إنما معناه من حَبَّاتِ النَّظْم) وكالبيت الأخير قوله:

وَإِنِّى لَأُغْلِى لَحْمَهَا وَهْيَ حَيَّةٌ وَيَرْخُصُ عِنْدِى لَحْمُهَا حِينَ تُذْبَحُ

بِذَا فَانْدُبِينِى وَامْدَحِينِى فَإِنَّنِى فَتًى تَعْتَرِيهِ هِزَّةٌ حِينَ يُمْدَحُ

باب

قيل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : أىُّ الجهادِ أفضلُ ؟ فقال جِهادُكَ هوَاكَ .

وقال رجل من الحكماء : اعْصِ النساء وهواكَ واصْنَعْ ما شئتَ .

وقال محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم : مالكَ من عَيْشك إلا لذَّةٌ تَزْدلِفُ بك إلى حِمامِكَ ، وتُقرِّبُكَ من يومك ، فأيَّةُ أُكْلَةٍ ليس معها غَصَصٌ أوْ شُرْبةٍ ليْسَ معَها شَرَقٌ ، فتأمَّلْ أمرَكَ فكأنَّك قد صِرْتَ الحبيبَ المفقود ، والخيالَ المُخْتَرَمَ ، أهلُ الدنيا أهلُ سَفَرٍ لا يَحُلُّونَ عُقَدَ رحالهم إلا فى غيرها .

قوله : تَزْدَلِفُ بك إلى حمامك ، يقول تُقرِّبُكَ ولذلك سميت المُزْدَلِفَةُ وقوله عز وجل « وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ » إنما هى ساعات يَقْرُبُ بعضُها من بعض ، قال العجّاجُ :

ناجٍ طَواهُ الأَيْنُ مِمّا وَجَفا   طَيَّ اللَّيالِى زُلَفًا فزُلَفا

* سَماوَةَ الهِلالِ حَتَّى احْقَوْقَفا *

نَاجٍ سريع ، والأَيْنُ : الإِعْياء ، والوَجِيفُ : ضَرْبٌ من السَّيْرِ ، ونَصبَ طَىَّ الليالى لأنه مصدر من قوله طواه الأَيْنُ ، وليس بهذا الفعل ، ولكنَّ تقديره طواه الأَيْنُ طَيًّا مثل طَىِّ الليالى ، كما تقول زيد يشرب شُرْبَ الإِبلِ ، إنما

التقدير يشرب شربًا مثل شرب الإبل ، فمثلَ نعت ، ولكن إذا حذفتَ المضاف استغنَى بأن الظاهر يبيِّنُهُ وقام ما أضيف إليه مَقامه فى الإعراب ، من ذلك قول الله تبارك تعالى « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » نصب لأنه كان واسأل أهلَ القريةِ ، وتقول بنو فلانٍ يطؤهُمُ الطريقُ تريد أهلَ الطريق ، فحذفتَ أهلُ فرفعتَ الطريقَ لأنه فى موضع مرفوع ، فعلى هذا فقِسْ إن شاء الله .

وقوله : سماوة الهلال إنما هو أعلاه ، ونَصبَ سماوة بطىّ يريد طواه الأينُ كما طوَتِ الليالى سَماوةَ الهلال ، والشاهد على أنه يريد أعلاه قولُ طُفَيْلٍ :

سَماوَتُهُ أَسْمالُ بُرْدٍ مُحَبَّرٍ وَسائِرُهُ مِنْ أَتْحَمِيٍّ مُشَرْعَبِ

ويروى مُعَصَّب، وإنما سماوته من قولك سَماء ، فاعلم ، فإذا وقع الاعراب على الهاء أظهرتَ ما تَبْنيهِ على التأنيث على أصله ، فإن كان من الياء أظهرتَ الياء ، وإن كان من الواو أظهرت فيه الواو ، تقول شَقاوةٌ لأنها من الشَّقْوةِ ، وتقول هذه امرأة سقَّايَةٌ ، إذا أردتَ البناء على غير تذكير ، فإن بنيته على التذكير قَلَبْتَ الياء والواو همزتين لأن الاعراب عليهما يقعُ ، فقلت سقَّاء وغزَّاء يا فتى ، فإن أنثْتَ قلت سقَّاءةٌ وَغزَّاءةٌ ، والأجْوَدُ فيما كان له تذكير الهمزُ(١) ، وفيما لم يكن له تذكير الإظهار(٢) ، وإنما السماء من الواو ، لأن الأصل سَما يَسْمُو إذا ارتفع ، وسماء كُلِّ شَيْءٍ سَقْفُهُ .

---

(١) نحو سقاء وسقاءة ومشاء ومشاءة ودعاء ودعاءة . (٢) نحو عظاية وصلاية وعباية .

وقوله : حتى احْقَوْقفا ، يريد اعْوجّ ، وإنما هو افْعَوْعَلَ من الحِقْفِ . والحِقْفُ النَّقا من الرَّمْلِ يَعْوجُّ ويَدِقُّ ، قال الله عزّ وجل « إِذْ أَنْذرَ قومَهُ بالأحْقافِ(١) » أى بموضع هو هكذا .

وقال رجل لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وهو فى خُطْبَةٍ : يا أمير المؤمنين ، صِفْ لنا الدنيا ، فقال : ما أصِفُ من دارٍ أوّلها عَناءٌ ، وآخرها فَناءٌ ، فى حَلالها حِسابٌ ، وفى حَرامها عِقابٌ ، مَنْ صَحّ فيها أمِنَ ، ومَنْ مَرِضَ فيها نَدِمَ ، ومن اسْتغْنَى فيها فُتِنَ : ومن افْتَقَرَ فيها حَزِنَ .

وقال الرَّبيعُ بن زيادٍ الحارثىُّ : كنتُ عاملاً لأبى موسى الأشعرىّ على البَحْرَيْنِ(٢) فَكتَبَ إليه عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه يأمره بالقُدوم عليه هو وعُمّالُهُ ؟ وأن يَسْتَخْلِفُوا جميعاً ، قال فلما قَدِمْنا أتيت يَرْفَأ(٣) فقلتُ : يا يَرْفأُ ، مُسْتَرْشِدٌ وابن سبيل ، أىُّ الهَيْآت أحَبُّ إلى أمير المؤمنين أن يَرَى فيها عُمّالَهُ ؟ فأوْمأ إلىّ بالخُشونة ، فاتّخذْتُ خُفَّيْنِ مُطارَقَيْنِ ، ولَبِسْتُ جُبَّةَ صوف ، ولثْتُ عمامتى على رأسى ، فدخلنا على عمر فصفَّنا بين يديه فَصَعَّدَ فينا وصوّبَ(٤) فلم تأْخُذْ عينُهُ أحداً غيرى ، فدعانى فقال مَنْ أنتَ ؟ قلتُ الرَّبيعُ بن زيادٍ الحارثىّ ، قال وما تَوَلَّى من أعمالنا ؟ قلتُ البَحْرَيْنِ ، قال : كَمْ تَرْتَزِقُ ؟ قلتُ : ألفاً ، قال : كثيرٌ ، فما تصْنَعُ به ؟ قُلْتُ : أتقوّتُ

---

(١) هى رمال مشرفة على البحر بالشحر من اليمن ، وهى مساكن عاد .

(٢) البحرين : اسم جامع للبلاد التى تقع على ساحل بحر الهند بين البصرة . قال الأزهرى : وإنما ثنوا البحرين لأن فى ناحية قراها بحيرة قدرها ثلاثة أميال فى مثلها لا يغيض ماؤها .

(٣) هو مولى عمر بن الخطاب . (٤) نظر إلى الأسفل .

منه شيئاً ، وأعود به على أقارِبَ لى . فما فضَلَ عنهم فعلى فُقَرَاء المسلمين ، قال فلا بأسَ ، ارْجِعْ إلى موضعك ، فرجعتُ إلى موضعى من الصَّفِّ ، فَصعَّدَ فينا وَصوَّبَ ، فلم تقع عينه إلا علىَّ ، فدعانى ، فقال : كَمْ سِنُّكَ ؟ قلتُ : خمس وأربعون سنةً ، قال : الآن حين أستَحْكَمْتَ ، ثم دعا بالطعام وأصحابى حَدِيثٌ عهدهم بِلَيِّنِ العيش ، وقد تجوَّعْتُ له فأُتِىَ بخبز وأَكْسارِ بعيرٍ ، فجعل أصحابى يعافون ذلك ، وجعلت آكُلُ فأُجِيدُ ، فجعلتُ أنظُرُ إليه يَلْحَظُنى من بينهم ، ثم سَبقتْ منى كلمةٌ تمنَّيْتُ أنى سُخْتُ فى الأرض ، فقلت: ياأميرالمؤمنين ، إن الناس يحتاجون إلى صلاحك فلو عَمَدْتَ إلى أَلْيَنَ من هذا، فزجَرَنى ، ثم قال: كيف قلتَ ؟ فقلتُ : أقول ياأميرالمؤمنين أن تنظر إلى قُوتك من الطَّحِينِ ، فيُخْبَزَ لك قبل إرادتك إياه بيوم ، ويُطْبَخَ لك اللحمُ كذلك ، فتؤْتَى بالخبز ليِّناً ، واللحم غَريضاً . فسكَنَ من غَرْبِهِ ، وقال أهاهنا غُرْتَ ؟ قلتُ : نعم ، فقال : يا رَبيعُ إنا لو نشا. ملأْنا هذه الرِّحابَ من صلائِقَ ، وسَبائِكَ وصِنابٍ ، ولكنى رأيت الله عز وجل نَعَى على قوم شَهَواتِهِمْ ، فقال : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّباَاتِكُمْ فى حياتِكُمُ الدُّنْيا » ، ثم أَمَرَ أبا موسى بإقرارى ، وأن يَستَبْدِلَ بأصحابى .

قوله : فَلَثْتُها على رأسى يقول أَدَرْتُ بعضَها على بعضٍ على غير استواء يقال : رجلٌ أَلْوَثُ إذا كان شديداً ، وذلك من اللَّوْثِ ، ورجل أَلْوَثُ إذا كان أهْوَجَ ، وهو مأخوذ من اللُّوثةِ . وحدثنى عبد الصَّمَدِ بن المُعَذَّلِ[1]

(١) شاعر ذهب أكثر شعره ، ولم تبق الا نتف ذكرها صاحب زهر الآداب .

قال : سئل الأصْمَعِيُّ عن المجنون المسمى قَيْسَ بن مُعاذٍ ، فَثَبَّتَهُ وقال : لم يكن مجنونًا ، ولـكن كانت به لُوثَةٌ كلُوثَةِ أبي حيَّةَ الشاعرِ .

وقيل للأشْعثِ بن قَيْس بن معْدِيكَرِبَ الكِنْدِيِّ : بِمَ كنتم تعرفون السُّوددَ فى الصبيِّ منكم ؟ قال : إذا كان مَلُوثَ الازْرةِ ، طوِيلَ الغُرْلة ، سائلَ الغُرَّةِ ، كأنَّ به لُوثَةً ، فلَسْنا نَشُكُّ فى سُودَدِهِ .

وقوله : تُؤْتَى باللحم غَرِيضاً يقول طرِيًّا ، يقال : لحم غَرِيض ، وشِواء غَرِيض ، يُراد به الطرَاء . قال الغسّانِيُّ : (هو السَّمَوْءَلُ) :

إذَا ما فَاتَنِى لَحْمٌ غَرِيضٌ ضَرَبْتُ ذِرَاعَ بَكْرِى فاشْتَوَيْتُ

وقوله صَلائق : فمعناه ما عُمِلَ بالنار طبخاً وشَيًّا ، يقال : صَلَقْتُ الجَنْبَ إذا شَوَيْتَهُ ، وصَلَقْتُ اللحم إذا طبختَه على وجهه ، وقوله سَبائك يريد ما يُسْبَكُ من الدقيق فيؤخذ خالصه يريد الحُوَّارَى (١) ، وكانت العرب تُسَمِّى الرُّقاقَ السَّبائك وأصله ما ذكرنا ، والصِّناب صِباغٌ يُتَّخَذُ من الخَرْدَلِ والزبيب ، ومن ذلك قيل للفرس (٢) صِنابِيٌّ إذا كان فى ذلك اللونِ .

وكان جَرِير اُشترى جارية من رجل يقال له زيد من أهل اليمامة ففرِكَتْ جريرًا (٣) ، وجعلت تحِنُّ إلى زيد ، فقال جَرير :

تُـكَلِّفُنِى مَعِيشَةَ آلِ زَيْدٍ وَمَنْ لِى بِالمُرَقَّقِ وَالصِّنَاب
وَقالَتْ لا تَضُمُّ كَضَمِّ زَيْدٍ وَمَا ضَمِّى وَلَيْسَ مَعِى شَبابِى

فقال الفرَزْدَقُ يُجيبه :

فَإِنْ تفرَكْكَ عِلْجَةُ (٤) آلِ زَيْدٍ وَيُعْوِزْكَ المُرَقَّقُ وَالصِّنَابُ

(١) اسم لما ينقى من لباب البر . (٢) وللإبل وسائر الدواب .
(٣) فركته بكسر الراء : أبغضته والمصدر الفرك بفتح الفاء وكسرها ، ولم يسمع أبو عبيدة هذه الـكلمة فى غير الزوجين : (٤) مؤنث العلج ، وهو الغليظ من كفار العجم .

فَقِدْمًا كَانَ عَيْشُ أبيكَ مُرًّا يَعِيشُ بِمَا تَعِيشُ بِهِ الْكِلَابُ

وأما قوله : أكسار بعير ، فإن الكِسْرَ والجِدْلَ والوِصْلَ : العَظْمُ يَنْفَصِلُ بما عليه من اللحم[1] ، وأما قوله : نَعَى على قوم فمعناه أنه عابهم بها ووبّخهم .

قال أبو عبيدة : اجتمع العُكاظيُّون[2] على أن فُرْسانَ العرب ثلاثةٌ ، ففارسُ تميمٍ عُتَيْبَةُ بن الحارث بن شِهاب أحدُ بنى ثَعْلَبَةَ بن يَرْبوع ابن حَنْظَلَةَ صَيَّادُ الفوارس وسَمُّ الفُرْسان ، وفارسُ قيسٍ عامرُ بن الطُّفَيْلِ ابن مالك بن جَعْفر بن كِلابٍ ، وفارسُ ربيعةَ بِسْطامُ بن قيسٍ بن مسعود ابن قيس بن خالد أحدُ بنى شَيْبان بن ثَعْلَبَةَ بن عُكابَةَ بن صَعْب بن علىّ ابن بَكْر بن وائلٍ ، قال : ثم اختلفوا فيهم حتى نَعَوْا عليهم سَقَطاتِهِم[3]

وأما قوله : أههنا غُرْتَ ، يقول : ذَهبْتَ ، يقال غارَ الرجلُ إذا أتى الغَوْرَ وناحيتَهُ مما انخفض من الأرض ، وأَنْجَدَ إذا أتى نَجْدًا وناحيتَهُ مما ارتفع فى الأرض ، ولا يقال أغار ، إنما يقال : غارَ وأنْجَدَ ، وبيتُ الأعشى يُنْشَدُ على هذا :

نَبِيٌّ يَرَى مالاَ تَرَوْنَ وَذِكْرُهُ لَعَمْرِىَ غَارَ فى الْبِلَادِ وَأَنْجَدَا[4]

وقوله : سكن من غَرْبِهِ ، يقول من حَدِّهِ ، وكذلك يقول فى كل شىء فى السَّيْف والسَّهْمِ والرجل وغير ذلك ، وقوله خفين مطارَقَيْنِ تأويله مُطْبَقَيْنِ يقال طارَقْتُ نَعْلى إذا أَطْبَقْتها ، ومن قال طَرَقْتُ أو أطْرَقْتُ فقد أخطأ ،

---

(١) الأفضل أن يقال بما عليه من قليل اللحم .

(٢) هم الذين كان من عادتهم الذهاب كل عام إلى عكاظ. (٣) والمشهورون تعد عليهم الزلات.

(٤) انظر موقف الأعشى فى كتاب « المدائح النبوية فى الأدب العربى » .

ويقال لكل ما ضُوعِف قد طُورِق، قال ذو الرُّمَّة (يصِفُ صقْرًا):

طِرَاقُ الْخَوَافِي وَاقِعٌ فَوْقَ رِيعَةٍ ... نَدَى لَيْلِهِ فِي رِيشِهِ يَتَرَقْرَقُ

قوله رِيعةٍ موضعُ ارتفاعٍ قال الله عزّ وجل: «أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ» وهو جمع ريعةٍ، وقال الشَّمَّاخُ:

تَعِنُّ لَهُ بِمَذْنَبِ كُلِّ وَادٍ ... إِذَا مَا الْغَيْثُ أَخْضَلَ كُلَّ رِيعِ

⁂

قال أبو العباس وحدثنى العباس بن الفَرَج الرِّيَاشِىُّ عن الأَصْمَعِىِّ قال: قال عَدِىُّ بن الفُضَيْلِ خرجت إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أستحفره بِئْرًا بالعَذْبة، فقال لى: وأين العَذْبة؟ فقلت على ليلتين من البصرة، فتأسَّف ألا يكونَ بمثل هذا الموضع ماء، فأَحْفَرَنى، واشترط علىّ أن أوّلَ شارِبٍ ابنُ السَّبيلِ، قال فَحَضَرْتُهُ فى جُمْعة وهو يَخْطُبُ فسمعتُه وهو يقول.

يأيها الناس، إنكم مَيِّتُون، ثم إنكم مبعوثون، ثم إنكم مُحَاسَبونَ، فلعَمْرِى لئن كنتم صادقين لقد قصَّرْتُمْ، ولئن كنتم كاذبين لقد هَلَكْتُمْ أيها الناس إنه من يُقَدَّرْ له رِزْقٌ برأس جبل أو بحَضِيض أرض يَأْتِهِ، فاتقو الله وأَجْمِلُوا فى الطَّلَبِ.

قال فأَقَمْتُ عنده شهراً ما بى إلا استماع كلامه.

قوله بحَضيض: يعنى المُسْتَقَر من الأرض إذا انْحَدَرَ عن الجبل، ولا يقال حَضيضٌ إلا بحَضْرةِ جبلٍ، يقال حَضيضُ الجبلِ، ويُطْرَحُ الجبلُ فيُسْتَغْنَى

عنه لأن هذا لا يكون إلا له ، ومن ذلك قول امرئ القَيْسِ :

* نَظَرْتُ إليْهِ قَائِمًا بِالْخَضِيضِ(١) *

***

وقال عليُّ بن أبي طالب رضى الله عنه: يا ابن آدم ، لا تحْمِلْ هَمَّ يومِك الذى لم يَأْتِ علَى يومك الذى أنتَ فيه ، فإنه إنْ يُعْلَمْ مِنْ أجلِكَ يَاتِ فيه رزقك ، واعلم أنك لا تَكْسِبُ من المال شيئًا فوق قُوتِكَ إلا كنتَ خازِنًا لغيرك فيه .

ويروى للنابغة : (هذا من شعر أَوْسِ بن حَجَرٍ مُثْبَتٌ فيه فى كلمة لم يَعْرِفْها الأصمعى) :

وَلَسْتُ بِخَابِئٍ أبدًا طعامًا   حِذَارَ غدٍ لِكُلِّ غدٍ طعامُ

ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من كان آمنا فى سَرْبِهِ ، مُعافًى فى بدَنِهِ ، عنده قُوتُ يَوْمِهِ ، كان كَمَنْ حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرِها . (كذا وقعتْ الرواية بفتح السين عن أبى العباس والصواب كسرها وإنما السَّرْبُ بفتح السين المال الراعى) قوله صلى الله عليه وسلم : فى سربه يقول : فى مَسْلَكه ، يقال فلان واسعُ السَّرْبِ ، وخَلِيُّ السَّرْب ، يريد المَسالِكَ والمَذَاهِبَ ، وإنما هو مثلٌ مضروب للصدر والقلب ، يقال خَلِّ سَرْبَهُ : أى طريقه حتى يَذْهَبَ حيث شاء ، ويقال ذلك للإبل لأنها تَنْسَرِبُ فى الطُّرُقات ، ويقال سَرِّبْ علَىَّ الإبلَ أى أرْسِلْها شيئًا بعد شىء ، فإذا قلت

(١) رواية الديوان « نزلت إليه » .

سِرْبٌ بكسر السين ، فإنما هو قَطِيعٌ من ظِباء ، أو بقر ، أو شاء ، أو نساء ، أو قطًا ، قال امْرُؤُ القَيْس :

فَعَنَّ لَنا سِرْبٌ كَأَنَّ نِعاجَــهُ(١) عَذارَى دُوارٍ فِي المُلاءِ المُذَيَّلِ

دُوارٌ نُسُكٌ يَنْسُكُونَ عنده فى الجاهلية ، ودُوَّارٌ ما استدار من الرمل ، ودَوّارٌ سِجْنُ اليمامةِ . قال بعض اللُّصوص (واسمه جَحْدَرٌ) :

كَانَتْ مَنازِلُنا الَّتِي كُنَّا بِهَا شَــتَّى فَأَلَّفَ بَيْنَنَا دَوَّارُ

وقال عُمَرُ بن أبى ربيعة :

فَلَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَ سِرْبٍ رَأَيْتُهُ خَرَجْنَ عَلَيْنَا مِنْ زُقاقِ ابْنِ وَاقِفِ

وكان الحسن يقول : ليس العَجَبُ ممن عَطِبَ كيفَ عطِبَ ، إنما العَجَبُ مِمَّنْ نجا كيف نجا .

⁂

وكان الحجاج بن يوسف يقول على المِنْبَرِ : أيها الناس ، اقْدَعُوا هذه الأنْفُسَ فإنها أسْأَلُ شىء إذا أُعْطِيَتْ ، وأَمْنَعُ شىء إذا سُئِلَتْ ، فَرَحِمَ الله امرَأً جَعَلَ لنفسه خِطامًا وزِمامًا(٢) فقادها بخطامها إلى طاعة الله ، وعَطَفَها بزِمامها عن معصية الله ، فإنى رأيت الصَّبْرَ عن محارم الله أيْسَرَ من الصبر على عذابه .

قوله : اقدعوا يقول امْنَعُوا ، يقال قَدَعْتُهُ عن كذا: أى منعته عنه ، ومنه قول الشَّمَّاخ :

---

(١) النعاج : جمع نعجة ، وهى البقرة الوحشية. (٢) الخطام: حبل من ليف أو شعر أو كتان يثنى طرفه على مخطم البعير ليقاد به ، والزمام : حبل دقيق يجعل فى أنفه .

إِذَا مَا اسْتَافَهُنَّ ضَرَبْنَ مِنْهُ   مَكَانَ الرُّمْحِ مِنْ أَنْفِ الْقَدُوعِ

قوله: استافَهُنَّ يعنى حِماراً يستافُ أُتُناً، يقول يَرْمَحْنَهُ إذا اشْتَمَّهُنَّ، والسَّوْفُ الشَّمُّ، وقوله *مكان الرمح من أنْفِ القَدُوع* يريد بالقَدُوع المقدوع، وهذا من الأضداد، يقال طريق رَكُوبٌ إذا كان يُرْكَبُ، ورجل رَكُوبٌ للدوابِّ إذا كان يَرْكَبها ، ويقال: ناقة رَغُوثٌ إذا كانت تُرْضِعُ ، وحُوَارٌ رَغُوثٌ إذا كَانَ يَرْضَعُ ، ومثل هذا كثير ، يقال شاة حَلُوبٌ إذا كانت تُحْلَبُ ، ورجل حَلُوبٌ إذا كَانَ يَحْلُبُ الشاةَ ، والقَدُوعُ هاهنا البعير الذى يُقْدَعُ وهو أن يريد الناقةَ الكريمةَ ولا يكون كريماً فيُضْرَبُ أَنْفُهُ بالرُّمْحِ حتى يَرْجِع يقال قَدَعْتُهُ ، وقَدَعْتُ أنفه ، ويروى أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم لما خَطَبَ خَدِيجَةَ بنت خُوَيْلِدِ بن أسَدِ بن عَبْدِ العُزَّى بن قُصَيٍّ ذُكِرَ لِوَرَقَةَ ابن نَوْفَلٍ فقال : محمد بن عبد الله يخطب خَديجة بنتَ خُوَيْلِدٍ ؟ الفَحْلُ لا يُقْدَعُ أنفه[١] .

وكان الحجاج يقول : إنَّ امرأً أتتْ عليه ساعةٌ من عُمْرِهِ لم يَذْكُرْ فيها ربه ، أو يستغفرْ من ذنبه ، أو يُفَكِّرْ فى مَعاده ، لَجَدِيرٌ أن تطول حَسْرَتُهُ يوم القيامة .

---

(١) ويروى : لايقرع أنفه ، من القرع وهوالضرب ، والمعنى أنه كفء كريم لايرد

باب

قال أبو العباس : أنشدني عُمارةُ بن عَقيلٍ لنفسه يَحُضُّ بني كَعْب وبني كِلابٍ ابنَى رَبيعةَ بن عامر بن صَعْصَعة بن معاوية بن بَكْرِ بن هَوازِنَ على بني نُمَيْرِ بن عامر بن صعصعة، وبينهم مُطالَبَاتٌ وتِراتٌ(١)، وكانت بنو نُمَيْر أعداءَ عُمارةَ فكان يَحُضُّ عليهم السلطانَ، ويُغْرِى بهم إخْوتَهُمْ، ويحاربهم في عشيرتِهِ، فقال:

رَأَيْنا كُما يا ابْنَىْ رَبيعةَ خُرْتُما(٢) … لِعَضِّ الْحُروبِ وَالْحَديدُ كَثِيرُ(٣)

وَصَدَّقْتُما قَوْلَ الْفَرَزْدَقِ فيكُما … وَكَذَّبْتُما ما كانَ قالَ جَريرُ

أَصابَتْ نُمَيْرٌ مِنْكُمُ فَوْقَ قَدْرِها … فَكُلُّ نُمَيْرِيٍّ بِذاكَ أَميرُ

فَإِنْ تَفْخَرُوا بِمامَضَى مِنْ قَديمِكُمْ … فَقَدْ هُدِمَتْ مَدائِنٌ وَقُصُورُ

رَمَتْها مَجانِيقُ الْعَدُوِّ فَقُوِّضَتْ … مَدائِنُ مِنْها كَالْجِبالِ وَسُورُ

وَشَيَّدَها الْأَمْلاكُ كِسْرَى وَهُرْمُزٌ … وَآلُ هِرَقْلٍ حِقْبَةً وَنَضِيرُ(٤)

فَإِنْ تَعْمُرُوا الْمَجْدَ الْقَديمَ فَلَمْ يَزَلْ … لَكُمْ في مُضِرَّاتِ الْحُروبِ ضَرِيرُ

خَبَطْتُمْ لُيُوثَ الشَّأْمِ حَتَّى تَناذَرَتْ … حِماكُمْ وَحَتَّى لا يَهِرُّ عَقُورُ

---

(١) التراث: جمع ترة على وزن عدة، وهي الجناية بقتل حميم أو سبي أهل أوسلب مال .

(٢) من خار يخور إذا ضعف .

(٣) وفي رواية ثانية * وعردتما والحرب ذات هرير * والتعريد النكوص والاحجام ، والرواية الثانية أجود لولا الاقواء .

(٤) نضير : أخو قريظة ، وهما حيان من يهود خيبر .

فَكَيْفَ بِأَكْنافِ الشَّرِيفِ تُصِيبُكُمْ
ثَعالِبُ يَبْحَثْنَ الحَصَى وَأَبُورُ

قوله * فقد هُدِّمَتْ مدائن وقصور * مثلٌ، يريد أنّ مَجْدَكم الذى بناه آباؤكم متى لم تعمُرُوه بأفعالكم خرِبَ وَذَهَبَ، وهذا كما قال عبد الله بن مُعاوية ابن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب :

لَسْنا وَإِنْ كَرُمَتْ أوائِلُنا ... يَوْماً عَلَى الأَحْسابِ نَتَّكِلُ
نَبْنِي كَما كانَتْ أَوائِلُنا ... تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَ ما فَعَلُوا

وكما قال الآخر :

أَلْهَى بَنِي جُشَمٍ عَنْ كُلِّ مَكْرُمَةٍ ... قَصِيدَةٌ قالَها عَمْرُو بْنُ كُلْثُومِ
يُفاخِرُونَ بِها مُذْ كانَ أَوَّلُهُمْ ... يا لَلرِّجالِ لِفَخْرٍ غَيْرِ مَسْئُومِ
إِنَّ القَدِيمَ إِذا ما ضاعَ آخِرُهُ ... كَساعِدٍ فَلَّهُ الأَيّامُ مَحْطُومِ

وكما قال عامر بن الطُّفَيْل العامرىّ :

إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ابْنَ فارِسِ عامِرٍ ... وَفِي السِّرِّ مِنْها وَالصَّرِيحِ المُهَذَّبِ
فَما سَوَّدَتْنِي عامِرٌ عَنْ وِراثَةٍ ... أَبَى اللهُ أَنْ أَسْمُو بِأُمٍّ وَلا أَبِ
وَلٰكِنَّنِي أَحْمِي حِماها وَأَتَّقِي ... أَذاها وَأَرْمِي مَنْ رَماها بِمَقْنَبِ

(قال أبو الحسن : أنشدنى هذه الأبياتَ محمد بن الحسن المعروف بابن الحَرُونِ ويكنى أبا عبد الله لعامر بن الطفيل العامرىّ، قال أبو الحسن، قال الأصمعى: وكان عامر بن الطفيل يُلقَّبُ مُحَبَّرًا، لِحُسْنِ شِعْرِهِ، وأوّلها :

تَقُولُ ابْنَةُ العَمْرِيِّ مالَكَ بَعْدَ ما ... أَراكَ صَحِيحاً كالسَّلِيمِ المُعَذَّبِ
فَقُلْتُ لَها هَمِّي الَّذِي تَعْلَمِينَهُ ... مِنَ الثَّأْرِ فِي حَيَّيْ زُبَيْدٍ وَأَرْحَبِ

إنْ أغزُ زُبَيْدًا أغزُ قومًا أعِزّةً ... مُرَكَّبُهُمْ فى الحىِّ خيرُ مُرَكَّبِ
وإنْ أغزُ حَيَّىْ خَثْعَمٍ فدِماؤُهُمْ ... شِفاءٌ وخيرُ الثأرِ لِلْمُتأَوِّبِ
فما أدركَ الأوْتارَ مِثْلُ مُحَقِّقٍ ... بأجْرَدَ طَاوٍ كالعَسِيبِ المُشَذَّبِ
وأسمرَ خطِّىٍّ وأبيضَ باترٍ ... وزَغْفٍ دِلاَصٍ كالغَدِيرِ المُثَوَّبِ
سِلاَحُ امْرِئٍ قدْ يَعْلَمُ النَّاسُ أنَّهُ ... طَلُوبٌ لِثاراتِ الرِّجالِ مُطَلَّبِ

ثم أتى بإنشاد أبى العباس على وجهه ، إلا أنه روى (مَنْ رَماهَا بِمَنْكِبِ[1]) السليم الملدوغ ، وقيل له : سَليم تفؤُّلاً له بالسلامة[2] ، وزُبَيْدٌ وأرْحَبُ حيَّانِ من اليمن ، والثأر ما يكون لك عند من أصاب حَميمك من التِّرَةِ ، ومن قال ثار فقد أخطأ ، والمتأوب الذى يأتيك لطلب ثأره عندك ، يقال : آبَ يئوبُ إذا رَجَعَ ، والتَّأْوِيبُ فى غير هذا السير فى النهار بلا توَقُّفٍ ، والأوتار والأحْقادُ واحدها وِتْرٌ وحِقْدٌ ، والأَجْرَدُ الفرس المُتَحَسِّرُ الشَّعَر ، والأجرد الضامر أيضاً ، والعسيب السَّعَفَةُ ، والمُشَذَّبُ الطويل الذى قد أُخِذَ ما عليه من العُقَدِ والسُّلاَءِ والخُوص ، ومنه قيل للطويل المُعَرَّقِ مُشَذَّب ، وخَطِّىٌّ رمح منسوب إلى الخَطِّ ، وهى جزيرة بالبَحْرَيْنِ ، يقال إنها تُنْبِتُ عصَى الرِّماح ، وقال الأصمعى : ليستْ بها رِماح ، ولكن سفينة كانت وقعتْ إليها فيها رِماحٌ ، وارْفَئَتْ بها فى بعض السنين المتقدمة ، فقيل لتلك الرماح الخَطِّيَّةُ ، ثم عَمَّ كلَّ رُمْحٍ هذا النَّسَبُ إلى اليوم ، والزغف الدرع الرقيقة النسج ، والمثوَّب الذى تُصَفِّقُهُ الرياح فيَذْهَبُ ويجىء ، وهو من ثابَ

---

(١) المنكب : مجتمع عظم العضد والكتف .
(٢) كما سموا الفلاة المهلكة مفازة ، وكما سموا رباط الكسر جبيرة .

يَثُوبُ إذا رَجعَ ، وإنما سُمِّيَ الغَديرُ غَديراً لأن السيل غادَرَهُ : أى تركه) .

قال أبو العباس وقوله ٭ لَكُم فى مُضِرّاتِ الحروب ضَرير ٭ يقال رجل ذو ضَرِيرٍ إذا كان ذا مشقة على العَدُوِّ ، وقال مُهَلْهِلُ بن رَبيعة التَّغْلبيُّ :

قَتِيلٌ مَا قَتِيلُ المَرْءِ عَمْرٍو ... وَهَمَّامُ بْنُ مُرَّةَ ذُو ضَرِيرِ

(ما زائدة وفيها معنى التعظيم) وقوله : خبطتم ليوث الشام يريد ما كان من نَصْرِ بن شَبَثٍ العُقَيْلِيِّ وهو عُقَيْلُ بن كَعْبِ بن ربيعة ، وقوله : أُبور جمع وَبْرٍ (١) وإذا انضمت الواو من غير علة فهمزها جائز وقد ذكرنا ذلك قبلُ ، وقال عُمارة أيضاً لهم أنْشَدَنيه :

أَلاَ لِلّهِ دَرُّ الْحَيِّ كَعْبٍ ... ذَوِى الْعَدَدِ الْمُضَاعَفِ وَالْخُيُولِ

أَمَا فِيهِمْ كَرِيمٌ مِثْلُ نَصْرٍ ... يُوَرِّعُ عَنْهُمُ سَنَنَ الْفُحُولِ

تَنَوَّخُهُمْ نُمَيْرٌ كُلَّ يَوْمٍ ... كَفِعْلِ أَخِى الْعَزَازَةِ بِالذَّلِيلِ

وَلَيْسُوا مِثْلَ عُشْرِهِمُ وَلٰكِنْ ... يَضِيعُ الْقَوْمُ مِنْ قِبَلِ الْعُقُولِ

فَأَيْنَ فَوَارِسُ السَّلِمَاتِ مِنْهُمْ ... وَجَعْدَةُ وَالْحَرِيشُ ذَوُو الْفُضُولِ

وَأَيْنَ عُبَادَةُ الْخَشْنَاءِ مِنْهُمْ ... إِذَا مَا ضَاقَ مُطَّلَعُ السَّبِيلِ

قوله : ٭ أَلاَ لِلّهِ دَرُّ الحَىِّ كَعْبٍ ٭ يريد كعب بن ربيعة بن عامر ابن صَعْصَعَةَ بن معاوية بن بكر بن هَوَازن بن منصور بن عِكْرِمَةَ بن خَصَفَةَ ابن قَيْسِ بن عَيْلانَ بن مُضَرَ ، وقوله : ٭ أَمَا فِيهِمْ كَرِيمٌ مِثْلُ نَصْرٍ ٭ يعنى نصر بن شَبَثٍ أحد بنى عُقَيْلِ بن كَعْب بن رَبيعة ،

---

(١) دويبة طحلاء اللون ليس لها ذنب ، وهى على قدر السنور .

وقوله: ✫ يُوَرِّعُ عَنْهُمُ سَنَنَ الْفُحُولِ ✫ هو مَثَلٌ ضَرَبَهُ فجعلهم لامساكهم عن الحرب بمنزلة النُّوق التى يقرَعُها الفحْل، ويُوَرِّعُ يكُفُّ، وَيَمْنَعُ وَيَدْفَعُ، والوَرَعُ فى الدين إنما هو الكَفُّ عن أخذ الحرام، وجاء فى الحديث: « لا تَنْظروا إلى صومه، ولا إلى صلاته، ولكن اُنظروا إلى وَرَعِهِ إذا أشْفَى » ومعناه إذا أشرف على الدينار والدرهم، والسَّنَنُ القصْدُ، ثم أبان ذلك بقوله: تَنَوَّخُهُمْ نُمَيْرٌ كُلَّ يوم، يقال سانَّ الفحلُ الناقة فتَنَوَّخها، وذلك إذا ركبها من غير أن تُوَطَّأ له، ولكن يَعْتَرِضُها اعْتراضاً، وتقول العرب إن ذلك أكرم النِّتاج، وذلك لأن الولد يخرج صَلِيباً مُذَكَّراً، ويقال لذلك الحَمْلِ الذى يقع من التَّنَوُّخ والاعتراض يَعَارَةٌ وعِراضٌ، يقال حَمَلَتْهُ عراضاً، وحملته يَعارةً يا فتى. قال الراعى:

قَلَائِصَ لَا يُلْقَحْنَ إِلَّا يَعَارَةً ... عِرَاضاً وَلَا يُشْرَيْنَ إِلَّا غَوَالِيَا

وقال الطِّرِمَّاحُ:

سَوْفَ تُدْنِيكَ مِنْ لَمِيسَ سَبَنْدَا ... ةٌ أَمَارَتْ بِالْبَوْلِ مَاءَ الْكِرَاضِ
نَضَّجَتْهُ عِشْرِينَ يَوْمًا وَنِيلَتْ ... حِينَ نِيلَتْ يَعَارَةً فِى عِرَاضِ

قوله: سَبَنْداةٌ فهى الجَرِيئةُ الصَّدْرِ، يقال للجرىءِ الصدرِ سَبَنْتاةٌ وَسَبَنْداةٌ، وأصل ذلك فى النَّمِرِ، وزعم الأَصْمَعِيُّ أن الكراضَ حَلَقُ الرَّحِمِ، قال ولم أسْمَعْهُ إلا فى هذا الشِّعْر، وقوله: نَضَّجَتْهُ عشرين يوما، إنما هو أن تزيد بعد الحول من حيث حَمَلَتْ أياما نحو الذى عَدَّ فلا يخرج الولد إلا مُحْكَما، قال الحُطَيْئَةُ:

لِأَدْمَاءَ مِنْهَا كَالسَّفِينَةِ نَضَّجَتْ ... بِهِ الحَوْلَ حَتَّى زَادَ شَهْرًا عَدِيدُهَا

والعَزَازةُ العِزُّ ، والمَصادر تقع على فَعالةٍ للمبالغة ، يقال : عَزَّ عِزًّا وعزازةً ، كما يقال : الشَّراسةُ ، والصَّرامةُ . قال اللّٰه تعالى : « قالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ » ، وفي موضع آخر : « لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ » ، وقوله : فَأَيْنَ فَوَارِس السَّلَمات، يريد بنى سَلَمَةَ الخَيْرِ ، وبنى سلمةَ الشر ابْنَيْ قُشَيْر بن كعب ، وجَمَعَ لأنه يريد الحَيَّ أَجْمَعَ ، كما تقول المَهالبةُ والمَسامِعَةُ ، فتجمعهم على اسم الأب على المُهَلَّبِ ومِسْمَعٍ ، وكذلك المَناذِرَةُ ، وقد مرت الحجة فى هذا ، وجَعْدَةُ ابن كَعْبٍ ، والحَرِيشُ بن كعب ، وبنو عُبادة من بنى عُقَيْلِ بن كَعْبٍ ، وقال الخَشْناء يريد القبيلة ، وذكرها بالخشونة على الأَعْداء .

⁂

ويروى أن معاوية بن أبي سُفْيان رحمه الله تعالى قال لِدَغْفَلِ ابن حَنْظَلَةَ النَّسَّابةِ: ما تقول فى بنى عامر بن صَعْصَعَةَ ؟ فقال : أعناق ظِباء ، وأَعْجازُ نساء ، قال : فما تقول فى بنى تميمٍ ؟ قال : حَجَرٌ أَخْشَنُ إن صادَمْتَهُ آذاكَ ، وإن تَرَكْتَهُ تركك ، قال : فما تقول فى اليمن ؟ قال : سَيِّدٌ وأَنْوَكُ .

قال أبو العباس : وأنشدنى عُمارةُ لنفسه ، وسبب هذا الشعر الذى ذكره أن رجلا من بنى تميم يُكْنَى أبا سَعْدٍ كان منقطعاً إلى أبى نصر ابن حُمَيْدٍ الطائيّ ، ثم أحد بنى نَبْهانَ ، وكان أبو نصر والياً على العرب ، وكتب أبو سعد إلى عُمارة يأمره أن يَضَعَ يده فى يد أبى نصر ، فقال عُمارة :

دَعَانِى أَبُو سَعْدٍ وَأَهْدَى نَصِيحَةً　　إِلَىَّ وَمِمَّا أَنْ تَغُـرَّ النَّصَائِحُ

(مما بمعنى رُبَّمَا) :

لِأُجْزِرَ لَحْمِى كَلْبَ نَبْهَانَ كَالَّذِى　　دَعَا الْقَاسِطِىَّ حَتْفُهُ وَهْوَ نَازِحُ
أَوِ الْبُرْجُمِىِّ حِينَ أَهْدَاهُ حَيْنُهُ　　لِنَارٍ عَلَيْهَا مُـوقِدَانِ وَذَابِحُ
وَرَأْىُ أَبِى سَعْدٍ وَإِنْ كَانَ حَازِمًا　　بَصِيراً وَإِنْ ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْمَسَارِحُ
أَعَارَ بِهِ مَلْعُونَ نَبْهَانَ سَـيْفَهُ　　عَلَى قَوْمِهِ وَالْقَوْلُ عَافٍ وَجَارِحُ
وَنَصْرُ الْفَتَى فِى الْحَرْبِ أَعْدَاءَ قَوْمِهِ　　عَلَى قَوْمِهِ لِلْمَرْءِ ذِى الطَّعْمِ فَاضِحُ

قوله : ＊ لِأُجْزِرَ لَحْمِى كَلْبَ نَبْهَانَ ＊ أى لأ كون جَزَرَةً له ، والجَزَرَةُ : البَدَنَةُ تُنْحَرُ ، يقال أجْزَرْتُ فلاناً وتركتُ فلاناً جَزَراً ، قال عَنْتَرَةُ الْعَبْسِىُّ :

إِنْ تَشْتُمَا عِرْضِى فَإِنَّ أَبَاكُمَا　　جَزَرُ السِّبَاعِ وَكُلِّ نَسْرٍ قَشْعَمِ

وقوله : « كالذى دعا القاسطىَّ حَتْفُهُ وهو نازح » فهذا رجل من النَّمِرِ ابن قاسِطٍ خرج يبتغى قَرَظًا من بُعْدٍ فَنَهَشَتْهُ حَيَّةٌ فمات فهو أحد القارِظَيْنِ ، والقارِظُ الأول من عَنَزَةَ كان خرج مع ابن عَمٍّ له فى طلب القَرَظِ فقتله ابن عمه ، لأنه كان يريد ابنته فمنعه منها ، قال أبو خِرَاشٍ الهُذَلِىُّ : (الصحيح أن الشعر لأبى ذُؤَيْبٍ) :

وَحَتَّى يَؤُوبَ الْقَارِظَانِ كِلَاهُمَا　　وَيُنْشَرَ فِى الْقَتْلَى كُلَيْبٌ لِوَائِلِ

وقوله : « كالذى دعا القاسطى حتفه » الهاء فى حتفه ترجع على الذى ،

وتقديره كالسبب الذى دعا القاسطيَّ حَتْفُهُ ، وقوله : « أو البُرْجُميّ » فهذا رجل من البَراجِمِ وهم بنو مالك بن حَنْظَلَةَ كان عمرو بن هِندٍ لما قتَلَ بنى دارمٍ بأُوارَةَ ، وكان سببُ ذلك أن أخاه أسْعَدَ بن المُنْذِرِ ، وكان مُسْتَرْضَعاً فى بنى دارمٍ فى حِجْرِ حاجب بن زُرارَةَ بن عُدَسَ بن زيد بن عبد الله بن دارِمٍ انصرف ذاتَ يوم من صَيْدِهِ وبه نَبيذٌ ، فَعَبِثَ كما تَعْبَثُ الملوك ، فرماه رجل من بنى دارم بسهم فقتله (رَمَى ناقةً بسهم فقتلها ، والرجلُ الذى قتله سُوَيْدُ أبن رَبيعةَ بن زيد بن عبد الله بن دارِمٍ) فى ذلك يقول القائل ، وهو عمرو أبن مِلْقَطٍ الطائى لعمرو بن هند :

فَاقْتُلْ زُرارَةَ لا أرى ... فى القَوْمِ أوْفَى مِنْ زُرارَهْ

فغزاهم عمرو بن هند ، فقتلهم يوم القُصَيْبَةِ ويوم أُوارَةَ ، فى ذلك يقول الأَعْشَى :

وَتَكُونُ فى الشَّرَفِ المُوا ... زِىّ مِنْقَرًا وَبَنِى زُرارَهْ

أَبْنَاءَ قَوْمٍ قُتِّلُوا ... يَوْمَ القُصَيْبَةِ وَالأُوارَهْ

ثم أقْسَمَ عمرو بن هند ليُحَرِّقَنَّ منهم مائة ، فبذلك سُمِّىَ مُحَرِّقًا ، فأَخَذَ تسعة وتسعين رجلا فقذفهم فى النار ، ثم أراد أن يُبِرَّ قَسَمَهُ بعجوز منهم لتَكْمُلَ بها العِدَّةُ ، فلما أَمَرَ بها قالت العجوز (على ما ذَكَرَ أصحابُ الأَخْبار اسمها الحمراء بنت ضَمْرَةَ) ألا فتًى يَفْدِى هذه العجوز بنفسه ؟ ثم قالت : هيهات صارت الفِتْيانُ حُمَماً ! وَمَرَّ وافدُ البَراجِمِ وهو الذى ذكرنا فاشتَمَّ رائحة اللحم فظن أن المَلِكَ يتخذ طعاما فَعَرَّجَ إليه فأُتِىَ به إليه ، فقال له : مَنْ أنت ؟ فقال :

أَبَيْتَ اللَّعْنَ ! أنا وافد البراجم ، فقال عمرو : إن الشقيَّ وافدُ البراجمِ ، ثم أمَرَ به فقُذِفَ فى النار ، ففى ذلك يقول جرير يُعَيِّرُ الفرزدق :

أَيْنَ الَّذِينَ بِنَارِ عَمْرٍو حُرِّقُوا ... أَمْ أَيْنَ أَسْعَدُ فِيكُمُ الْمُسْتَرْضَعُ

وقال أيضاً :

وَأَخْزَاكُمْ عَمْرٌو كَمَا قَدْ خَزِيتُمُ ... وَأَدْرَكَ عَمَّارًا شَقِيُّ الْبَرَاجِمِ

وقال الطِّرِمَّاحُ :

وَدَارِمٌ قَدْ قَذَفْنَا مِنْهُمُ مِائَةً ... فى جاحِمِ النَّارِ إِذْ يَنْزُونَ بِالْخَدَدِ(١)

يَنْزُونَ بِالْمُشْتَوَى مِنْهَا وَيُوقِدُهَا ... عَمْرٌو وَلَوْلَا شُحُومُ الْقَوْمِ لَمْ تَقِدِ

ولذلك عُيِّرَتْ بنو تميم بحب الطعام ، يعنى لطمع البُرْجُمِيِّ فى الأكل ، قال يزيد بن عمرو بن الصَّعِق أحد بنى عمرو بن كلاب :

أَلَا أَبْلِغْ لَدَيْكَ بَنِي تَمِيمٍ ... بِآيَةِ مَا يُحِبُّونَ الطَّعَامَا

وقال آخر : (ذكر ابنُ حبيبٍ أن هذا الشعر لأبى مُهَوِّشٍ الفقعسىّ ، وذكر دِعْبِلٌ أنه لأبى المُهَوِّسِ الأَسَدِيِّ) :

إِذَا مَا مَاتَ مَيْتٌ مِنْ تَمِيمٍ ... فَسَرَّكَ أَنْ يَعِيشَ فَجِئْ بِزَادِ

بِخُبْزٍ أَوْ بِتَمْرٍ أَوْ بِلَحْمٍ ... أَوِ الشَّيْءِ الْمُلَفَّفِ فى الْبِجَادِ

تَرَاهُ يُنَقِّبُ الْبَطْحَاءَ حَوْلًا ... لِيَأْكُلَ رَأْسَ لُقْمَانَ بْنِ عَادِ

وقوله : « لِلْمَرْءِ ذِى الطَّعْمِ » يعنى الراجع إلى عقل ، يقال فلان ليس بذى

---

(١) أصله الخد ، ففك الإدغام للقافية ، وهو كالأخدود : حفرة مستطيلة فى الأرض .

طَعْمٍ ، وفلان ليس بذى نَزَلٍ ، أى ليس بذى عقل ، ولا معرفةٍ ، وإنما يقال هذا طعام ليس له نَزَلٌ إذا لم يكن ذا ريْعٍ ، ومَنْ قال نُزُلٌ فى هذا المعنى فقد أخطأ .

⁂

وقال أعرابى يهجو قوما من طَيِّئٍ :

وَلَمَّا أَنْ رَأَيْتُ بَنِى جُوَيْنٍ   جُلُوساً لَيْسَ بَيْنَهُمُ جَلِيسُ
يَئِسْتُ مِنَ الَّتِى أَقْبَلْتُ أَبْغِى   لَدَيْهِمْ إِنَّنِى رَجُلٌ يَئُوسُ
إِذَا مَا قُلْتُ أَيُّهُمُ لِأَىٍّ   تَشَابَهَتِ المَنَاكِبُ وَالرُّؤُوسُ

قوله : « جلوساً » ليس بينهم جليس ، يقول هؤلاء قوم لا يَنْتَجِعُ الناسُ معروفهم فليس فيهم غيرهم ، وهذا من أقبح الهجاء .

ومن أمثال العرب : « سَمْنُهُمْ فى أَدِيمِهِمْ » ، ومعناه فى مَأدومهم ، وقيل : أديم ومأدوم ، مثل قتيلٍ ومقتولٍ ، وتقول الحكماء : من كَثُرَ خيره كثر زائره .

وقال المُهَلَّبُ بن أبى صُفْرة لبنيه : يا بَنِىَّ إذا غدا عليكم الرجل وراحَ مُسَلِّماً ، فكفى بذلك تقاضيا .

وقال الآخر :

أَرُوحُ لِتَسْلِيمٍ عَلَيْكَ وَأَغْتَدِى   وَحَسْبُكَ بِالتَّسْلِيمِ مِنِّى تَقَاضِيا
كَفَى بِطِلَابِ المَرْءِ مَا لَا يَنَالُهُ   عَنَاءً وَبِالْيَأْسِ المُصَرِّحِ نَاهِيا

(وربما قال أبو العباس : هو مُصَرَّحٌ بكسر الراء . قال أبو الحسن : والكسر أجود) .

⁂

ومن أحسن المدح قول زُهَيْرٍ :

قَدْ جَعَلَ الطَّالِبُونَ الْخَيْرَ فى هَرِمٍ … وَالسَّائِلُونَ إِلَى أَبْوَابِهِ طُرُقَا

وقال رُؤْبَةُ : (ليس لرؤبة ، وهو لابن أبى نُخَيْلَةَ[1]) :

* إِنَّ النَّدَى حَيْثُ تَرَى الضِّغَاطا *

وقال آخر :

يَزْدَحِمُ الناس عَلَى بَابِهِ … وَالْمَشْرَبُ الْعَذْبُ كَثِيرُ الزِّحَامِ

وقال أَشْجَعُ فى محمد بن منصور :

عَلَى بَابِ ابْنِ مَنْصُورٍ … عَلَامَاتٌ مِنَ الْبَذْلِ

جَمَاعَاتٌ وَحَسْبُ الْبَا … بِ نُبْلاً كَثْرَةُ الأَهْلِ

وقوله : * تَشَابَهَتِ الْمَنَاكِبُ وَالرُّؤُوسُ * إنما ضرب به مَثَلاً للأخلاق والأفعال : أى ليس فيهم مُفَضَّلٌ ، ويقال إن الأَضْبَطَ[2] بن قُرَيْعِ بنِ عَوْفِ ابن كَعْبِ بن سَعْدِ بن زَيْدِ مَنَاةَ بن تَمِيم آذَتْهُ عشيرتُهُ من بنى سَعْدٍ فخرج عنهم فَجَعَلَ لا يُجَاوِرُ قومًا إلا آذَوْهُ فقال : « أَيْنَمَا أَذْهَبْ أَلْقَ سَعْدًا » ، أى أَفِرُّ من الأذى إلى مثله .

---

(١) قال الشيخ المرصفى : الصواب « لأبى نخيلة » وهو اسمه لا كنيته ، شاعر راجز من مخضرمى الدولتين . (٢) شاعر جاهلى .

باب

قال أبو العباس قال أبو إدريس الخَوْلانِيُّ : المَساجِدُ مَجالِسُ الْكِرَامِ .
وقيل للأحْنف بن قَيْسٍ أحد بنى مُرَّة بن عُبَيْدِ بن الحارثِ بن كَعْبِ
ابن سَعْدٍ : أىُّ المجالس أطْيَبُ ؟ فقال : ما سافر فيه البصر ، واتَّدَعَ
فيه البَدَنُ .

اتَّدَعَ : افتعل من التَّوْديعِ[1] ، والأصل اوْتَدَعَ فتَقْلِبُ الواو ياء لانكسار
ما قبلها ، وهذا القول مذهب أهل الحجاز يقولون ايتزر[2] ياتَزِرُ ، وهو
رجل مُوتَزِرٌ ، والأجود أن تقلب ما كان أصله الواو والياء فى باب افْتَعَلَ
تاء وتُدْغِمَهَا فى التاء من افْتَعَلَ ، فتقول اتَّدَعَ يَتَّدِعُ وهو مُتَّدِعٌ ، ومُتَّزِرٌ ،
ومُتَّعِدٌ من الوَعْدِ ، ومُتَّئِسٌ من اليأس ، تكون الياء كالواو لأنها إن أُظْهِرَتْ
انقلبت على حركة ما قبلها فصارت كالواو ، وتكونانِ واوين عند الضمة نحو
مُوعِدٍ ومُوتَعِدٍ ومُوئِسٍ ومُوتَئِسٍ ، وياءين للكسرة ، والواو قد تُقْلَبُ إلى
التاء ولا تاء بعدها نحو تُراثٍ ، من وَرِثْتُ ، وتُجاهِ من الوَجْهِ ، وتُكَأةٍ[3]
وَإنما ذلك كَرَاهيَة الضمة فى الواو وأقربُ حروف الزوائد والبَدَلِ منها التاء
فقُلِبَتْ إليها ، وقد تُقْلَبُ للبدل فى غير ضم ، نحو هذا أتْقى من هذا

---

(١) يريد الوداعة .

(٢) قال الشيخ المرصفى : هذا خطأ صراح . فإن العرب أجمع إنما تبدل من مهموز الفاء الماضى والأمر فقط لاجتماع الهمزتين فى أوليهما فالصواب أن يمثل من المثال فيقول : ايتعد ياتعد فهو موتعد وايتسر ياتسر فهو موتسر .

(٣) أصلها وكأة على وزن همزة .

وضربته حتى أَتْـكَأْتُهُ(١) فلما كانت بعدها تاء افتعل كان الوجهُ القلبَ ليقع الإدغام ، وقد فسرنا هذا على غاية الاستقصاء فى الكتاب المُقْتَضَبِ .

*

وقيل للمُهَلَّبِ بن أبى صُفْرَةَ : ماخَيْرُ المجالس ؟ فقال : ما بَعُدَ فيه مَدَى الطَّرْفِ ، وكَثُرَتْ فيه فائدةُ الجليس .

ويروى عن لُقْمان الحكيم أنه قال لابنه : يا بُنَيَّ إذا أتيتَ مجلسَ قومٍ فارْمِهِمْ بسَهْمِ الإسلام ، ثم اجلس ، فإن أفاضوا فى ذكر الله فَأَجِلْ سَهْمَكَ مع سِهامهم ، وإن أفاضوا فى غيره فَخَلِّهِمْ وانْهَضْ .

قوله : فارمهم بسهم الإسلام يعنى السَّلام ، وقوله فَأَجِلْ سهمك مع سهامهم ، يعنى أَدْخُلْ معهم فى أمرهم ، فضَرَبَهُ مَثَلاً من دخول الرجل فى قِداحِ المَيْسَرِ .

وقال وهْبُ بن عبد منافِ بن زُهْرَةَ جَدّ رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم لِأُمّهِ :

وَإذا أَتَيْتَ جَمَاعَةً فى مَجْلِسٍ فَاُخْـتَرْ مَجَالِسَهُمْ وَلَمَّا تَقْعُدِ
وَدَعِ الغُوَاةَ الجَاهِلِينَ وَجَهْلَهُمْ وَإلَى الَّذِينَ يُذَكِّرُونَكَ فَاعْمِدِ

وقال ابْن عباس رحمه اللّٰه : لِجَليسِى علىَّ ثلاثٌ أن أَرْمِيَهُ بِطَرْفى إذا أقبل ، وأُوَسِّعَ له إذا جلس ، وأُصْغِيَ إليه إذا حَدَّثَ .

---

(١) أى ألقيته على هيئة المتكئ ، أو على جانبه الأيسر .

وكان القَعْقَاعُ بن شَوْرٍ أحد بنى عمرو بن شَيْبان بن ذُهْل بن ثَعْلَبَة ابن عُكابَةَ بن صَعْب بن علىّ بن بَكْرِ بن وائِلٍ إذا جالسه جَلِيسٌ فعَرَّفَهُ بالقَصْدِ إليه جَعَلَ له نصيباً فى ماله ، وأعانَهُ على عَدُوِّهِ ، وَشَفَعَ له فى حاجته وغدا إليه بعد المجالسة شاكراً له ، حتى شُهِرَ بذلك ، وفيه يقول القائل :

وَكُنْتُ جَلِيسَ قَعْقَاعِ بن شَوْرٍ ... وَلاَ يَشْقَى بِقَعْقَاعٍ جَلِيسُ
ضَحُوكُ السِّنِّ إنْ أَمَرُوا بِخَيْرٍ ... وَعِنْدَ السُّوءِ مِطْرَاقٌ عَبُوسُ

وحدثنى التَّوَّزِىُّ أن رجلا جالَسَ قوما من بنى مَخْزُوم بن يَقَظَةَ بن مُرَّةَ ابن كَعْب بن لُؤَىِّ بن غالب بن فِهْرِ بن مالِكِ بن النَّضْرِ بن كِنانَةَ ، فأساءوا عِشْرَتَهُ ، وَسَعَوْا به إلى معاوية ، فقال :

شَقِيتُ بِكُمْ وَكُنْتُ لَكُمْ جَلِيساً ... فَلَسْتُ جَلِيسَ قَعْقَاعِ بْنِ شَوْرِ
وَمِنْ جَهْلٍ أَبُو جَهْلٍ أَخُوكُمْ ... غَزَا بَدْرًا بِمِجْمَرَةٍ وَتَوْرِ (١)

نَسَبَهُ إلى التَّوْضِيعِ (٢) كقول عُتْبَةَ بن رَبِيعَةَ بن عَبْدِ شمس بن عبد مَناف لِحَكيم بْنِ حِزام (٣) لما بلغه قول أبى جَهْل بن هشام : أُنْتِفَخَ وَاللهِ سَحْرُهُ وَنَحْرُهُ ، سَيَعْلَمُ مُصَفِّرُ اُسْتِهِ مَنِ أُنْتِفَخَ سَحْرُهُ اليومَ .

⁂

وقال رجل من بنى مَخْزوم للأحوص بن محمد بن عبد الله بن عاصم ابن ثابت بن أبى الأَفْلَحِ الأنصارِىِّ لِيُؤْذِيَهُ أَتعرِفُ الذى يقول :

---

(١) التور : إناء يبل فيه نحو العود والمسك . (٢) أى التخنث .
(٣) هو ابن عم خديجة أم المؤمنين .

ذَهَبَتْ قُرَيْشٌ بِالْمَكَارِمِ كُلِّهَا   وَاللُّؤْمُ تَحْتَ عَمَائِمِ الْأَنْصَارِ

فقال الأَحْوَصُ : لا أدرى ، ولكِنِّى أعرِفُ الذى يقول :

النَّاسُ كَنَّوْهُ أَبَا حَكَمٍ   وَاللهُ كَنَّاهُ أَبَا جَهْلِ

أَبْقَتْ رِيَاسَتُهُ لِأُسْرَتِهِ   لُؤْمَ الْفُرُوعِ وَدِقَّةَ الْأَصْلِ

وهذا الشعر لِحسان بن ثابت ، والبيت الذى أنشده المخزومى للأخطَلِ ، وكان يَزِيدُ بن معاوية عَتَبَ على قوم من لأنصار ، فأَمَرَ كَعْبَ ابْنَ جُعَيْلٍ التَّغْلَبِيَّ بهجائهم ، فقال له كَعْبٌ : أَأَهْجُو الأنصار ؟ أرادِّى أنت إلى الكُفْرِ بعد الإسلام ؟ ولكنى أَدُلُّكَ على غلام من الحَىِّ نَصْرَانِيٍّ كأَنَّ لسانَهُ لسانُ ثَوْرٍ : يعنى الأَخْطَلَ ، قال فلما قال هذا البيت دخلَ النُّعْمانُ ابن بَشِيرِ بن سَعْدٍ الأنصارىُّ على معاوية فَحَسَرَ عمامته عن رأسه ، ثم قال : يا معاوية ، أَتَرَى لُؤْمًا ؟ فقال : ما أرى إلا كرَمًا ، فقال النعمان :

مُعَاوِىَ إِنْ لَا تُعْطِنَا الْحَقَّ تَعْتَرِفْ   لِحَىِّ الْأَزْدِ مَسْدُولًا عَلَيْهَا الْعَمَائِمُ[(١)]

أَيَشْتِمُنَا عَبْدُ الْأَرَاقِمِ ضَلَّةً   فَمَاذَا الَّذِى تُجْدِى عَلَيْكَ الْأَرَاقِمُ

فَمَالِىَ ثَأْرٌ دُونَ قَطْعِ لِسَانِهِ   فَدُونَكَ مَنْ تُرْضِيهِ عَنْهُ الدَّرَاهِمُ

وكان الأحنف بن قيس يقول : لا تزال العرب عربًا ما لَبِسَت العمائمَ ، وتقَلَّدَتِ السيوف ، ولم تَعْدُدِ الحِلْمَ ذُلًّا ، ولا التَّوَاهُبَ فيما بينها ضَعَةً .

وقالوا فى تأويل قوله : « مَا لَبِسَت الْعَمَائِمَ » يقول : ماحافظت على زِيِّهَا ، وقوله : « وتقلدت السيوف » يريد الامتناع من الضَّيْمِ ، وقوله : « ولم تعدد

---

(١) يريد شيوخ الأزد .

الحلم ذلا » يقول: ما عرَفَتْ موضع الحلم، وتأويل ذلك: أن الرجل إذا أغْضَى للسلطان، أو أغْضَى عن الجواب وهو مأسورٌ، لم يُقلْ حَلُمَ، وإنما يقال حَلُمَ إذا تَرَكَ أن يقول الشيء لصاحبه مُنْتَصِرًا، ولا يخاف عاقبة يَكْرَهُهَا، فهذا الحلم المَحْضُ، فإذا لم يفعل ذلك ورأى أن تَرْكَهُ الحِلْمَ ذُلٌّ فهو خطأ وسَفَهٌ، وقوله: « ولم تر التواهب بينها ضَعَةً » نحوٌ من هذا وهو أن يَهَبَ الرجلُ من حقه مالا يُسْتَكْرَهُ عليه، وكان يقال: « أَحْيُوا المعروف باماتته » وتأويل ذلك: أن الرجل إذا امْتَنَّ بمعروفه كَدَّرَهُ، وقيل: « المِنَّةُ تَهْدِمُ الصَّنِيعة ».

وكان يقال: كتمان المعروف من المُنْعَمِ عليه كفرٌ وذكره من المُنْعِمِ تكدير له.

وقال قَيْسُ بن عاصم: يا بني تميم، اصْحَبُوا مَنْ يذكر إحسانكم إليه، ويَنْسَى أيادِيَهُ إليكم.

باب

قال أبو العباس: قال عبد المَلِكِ بن مَرْوان لأُسَيْلِمَ بن الأحْنف الأسَدِيِّ ما أحسنُ ما مُدِحْتَ به؟ فاستعفاه فأبى أن يُعْفِيَهُ وهو معه على سريره، فلما أبى إلا أن يُخْبِرَهُ، قال قول القائل:

أَلاَ أيُّها الرَّكْبُ المُخِبُّونَ(١) هَلْ لَكُمْ ... بِسَيِّدِ أَهْلِ الشَّام تَحْبُوا(٢) وَتَرْجِعُوا
مِنَ النَّفَرِ الْبِيضِ الَّذِينَ إِذَا اعْتَزَوْا ... وَهَابَ الرِّجَالُ حَلْقَةَ الْبَاب قَعْقَعُوا(٣)
إِذَا النَّفَرُ السُّودُ الْيَمَانُونَ نَمْنَمُوا ... لَهُ حَوْكَ بُرْدَيْهِ أَجَادُوا وَأَوْسَعُوا
جَلاَ الْمِسْكُ وَالحَمَّامُ وَالْبِيضُ كَالدُّمَى ... وَفَرْقُ المَدَارَى رَأْسَهُ فَهْوَ أَنْزَعُ(٤)

فقال له عبد الملك: ما قال أخو الأَوْسِ أحسنُ مما قيل لك: (قال أبو الحسن هو أبو قَيْسِ بن الأَسْلَتِ):

قَدْ حَصَّتِ الْبَيْضَةُ رَأْسِى فَمَا ... أَطْعَمُ نَوْمًا غَيْرَ تَهْجَاعِ

⁂

وحُدِّثْتُ أن كُثَيِّرًا كان يقول: لَوَدِدْتُ أنى كنتُ سبقتُ الأَسْوَدَ، أو العبدَ الأسودَ، إلى هذين البيتين، يعنى نُصَيْبًا فى قوله:

مِنَ النَّفَرِ الْبِيضِ الَّذِينَ إِذَا انْتَجَوْا ... أَقَرَّتْ لِنَجْوَاهُمْ لُؤَىُّ بْنُ غَالِبِ

---

(١) المخبون: الذين تخب بهم دوابهم، من الخبب وهو سرعة العدو.
(٢) من الحباء وهو العطاء. (٣) من القعقعة: وهى الصوت، والمراد أنهم لايتهيبون لقاء الناس
(٤) من النزع بالتحريك: وهو انحسار الشعر من أعلا الجبين.

يُحَيَّوْنَ بَسَّامِينَ طَوْرًا وَتَارَةً   يُحَيَّوْنَ عَبَّاسِينَ شُوسَ الحَوَاجِبِ (١)

والمختار من الشِّعْرِ الأولُ قوله :

مِنَ النَّفَرِ الْبِيضِ الَّذِينَ إِذَا اعْتَزَوْا   وَهَابَ الرِّجَالُ حَلْقَةَ الْبَابِ قَعْقَعُوا

يخبر بجلالتهم ومعرفتهم بأقدارهم ، وثقتهم بأن مثلهم لا يُرَدُّ ، وقد قال جرير للتَّيْم خلاف هذا وهو قوله :

قَوْمٌ إِذَا احْتَضَرَ الْمُلُوكَ وُفُودُهُمْ   نُتِفَتْ شَوَارِبُهُمْ عَلَى الْأَبْوَابِ

وحُدِّثْتُ أن جريراً كان يقول : وَدِدْتُ أن هذا البيت من شعر هذا العبد كَانَ لى بكذا وكذا بيتاً من شعرى ، يعنى قول نُصَيْبٍ :

بِزَيْنَبَ أَلْمِمْ قَبْلَ أَنْ يَرْحَلَ الرَّكْبُ   وَقُلْ إِنْ تَمَلِّينَا فَمَا مَلَّكِ الْقَلْبُ

وأما قول نُصَيْبٍ :

أَهِيمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِيتُ وَإِنْ أَمُتْ   أُوَكِّلْ بِدَعْدٍ مَنْ يَهِيمُ بِهَا بَعْدِى

فلم تَجِدِ الرُّوَاةُ ولا مَنْ يفهم جواهر الكلام له مَذْهباً حَسَناً ، وقد ذكر عبد الملك ذلك لجُلَسائِهِ فكلٌّ عابَهُ ، فقال عبد الملك : فلو كَانَ إليكم كيف كنتم قائلين ؟ فقال رجل منهم كنت أقول :

أَهِيمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِيتُ وَإِنْ أَمُتْ   فَوَا حَزَنَا مَنْ ذَا يَهِيمُ بِهَا بَعْدِى

فقال عبد الملك : مَا قلتَ والله أَسْوَأُ مما قاله ، فقيل له : فكيف كنتَ قائلاً فى ذلك يا أمير المؤمنين ؟ فقال كنتُ أقول :

أَهِيمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِيتُ فَإِنْ أَمُتْ   فَلَا صَلَحَتْ دَعْدٌ لِذِى خُلَّةٍ بَعْدِى

فقالوا أنت والله أشعَرُ الثلاثة يا أمير المؤمنين .

---

(١) المراد شوس العيون ، والشوس : جمع أشوس ، وهو من ينظر بمؤخر عينه ميلا رأسه تيها أو تغيظا .

وقد فُضِّلَ نُصَيْبٌ على الفَرَزْدَق فى مَوْقِفِهِ عند سليمان بن عبد الملك ، وذلك أنهما حَضَرَا ، فقال سليمانُ للفرزدق : أَنْشِدْنى ، وإنما أراد أن يُنْشِدَهُ مَدْحاً له فأنشده :

وَرَكْبٍ كَأَنَّ الرِّيحَ تَطْلُبُ عِنْدَهُمْ ... لَهَا تِرَةً[1] مِنْ جَذْبِهَا بِالْعَصَائِبِ[2]

سَرَوْا يَخْبِطُونَ الرِّيحَ وَهِىَ تَلُفُّهُمْ ... إِلَى شُعَبِ الْأَكْوَارِ[3] ذَاتِ الْحَقَائِبِ[4]

إِذَا آنَسُوا نَاراً يَقُولُونَ لَيْتَهَا ... وَقَدْ خَصِرَتْ أَيْدِيهِمُ نَارُ غَالِبِ[5]

فأعرض سليمان كالمُغْضَبِ ، فقال نصيب : يا أمير المؤمنين ، ألا أُنْشِدُكَ فى رَوِيِّها ما لعله لا يَتَّضِعُ عنها ، فقال هاتِ فأنشده :

أَقُولُ لِرَكْبٍ صَادِرِينَ لَقِيتُهُمْ ... قِفَا ذَاتِ أَوْشَالٍ[6] وَمَوْلَاكَ[7] قَارِبُ[8]

قِفُوا خَبِّرُونِى عَنْ سُلَيْمَانَ إِنَّنِى ... لِمَعْرُوفِهِ مِنْ أَهْلِ وَدَّانَ[9] طَالِبُ

فَعَاجُوا[10] فَأَثْنَوْا بِالَّذِى أَنْتَ أَهْلُهُ ... وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ

وهذا فى باب المدح حسن ومتجاوِزٌ ومُبْتَدَعٌ لم يُسْبَقْ إليه ، على أن الشاعر وهو أخو هَمْدَانَ قد قال فى عَصْرِهِ فى غير المدح :

---

(١) الترة : الثأر . (٢) هى العمائم . (٣) الأكوار : الرحال ، مفردها كور بالضم . (٤) هى هنا حقائب الزاد .
(٥) من الخصر بالتحريك : وهو البرد. (٦) يريد خاف بقعة ذات مياه ، والأوشال : جمع وشل بالتحريك وهو ماء يتحلب من جبل أو صخر . (٧) يريد نفسه . (٨) أى طالب الماء .
(٩) قرية قريبة من الجحفة. (١٠) عطفوا إبلهم عليه .

يَمُرُّونَ بِالدَّهْنا خِفافًا عِيابُهُمْ   وَيَخْرُجْنَ مِنْ دارِينَ بُجْرَ الْحَقائِبِ
عَلَى حِينِ أَلْهَى النَّاسَ جُلُّ أُمورِهِمْ   فَنَدْلاً زُرَيْقُ الْمالَ نَدْلَ الثَّعالِبِ

وليس شِعْرُ نُصَيْبٍ هذا الذى ذكرناه فى المدح بأجود من قول الفرزدق فى الفخر ، وإنما يُفاضَلُ بين الشيئين إذا تناسبا .

وقد قال سليمان للفرزدق حين أنشده نصيب : كيف تَراهُ ، قال : هو أشعر أهل جِلْدتهِ ، فقام الفرزدق وهو يقول :

وَخَيْرُ الشِّعْرِ أَشْرَفُهُ رِجالاً   وَشَرُّ الشِّعْرِ ما قالَ الْعَبِيدُ

ثم نرجع إلى تفسير الشعر ، قوله : * يَمُرُّونَ بِالدَّهْنا خِفافًا عِيابُهُمْ * يعنى قومًا تِجاراً ، وقد قالوا إنما ذَكَرَ لُصُوصاً ، والأول أثْبَتُ ، وذلك أن دارين سُوقٌ من أسواق العرب ، وقوله : « بُجْرَ الْحَقائِبِ » يقول عِظام ويقال للرجل إذا انْدَلَقَتْ سُرَّتُهُ فَنَتَأَتْ متقدمة رجل أَبْجَرُ ، ويقال لها البُجْرَةُ والبَجْرَةُ ، وفُعْلَةٌ وَفَعْلَةٌ تقعان فى الشىء ، يقال قُلْفَةٌ وقَلَفَةٌ وصُلْعَةٌ وصَلَعَةٌ ، ومثل هذا كثير ، وقوله : « على حين ألهى الناس » إن شئتَ خفضتَ حين وإن شئت نصبته ، أما الخفض فلأنه مخفوض ، وهو اسم منصرف ، وأما الفتح فلإضافتك إياه إلى شىء غير مُعْرَبٍ فبنيته على الفتح ، لأن المضاف والمضاف إليه اسم واحد فبنيته من أجل ذلك ، ولو كان الذى أضفته إليه معربا لم يكن إلا مخفوضاً ، وما كان سوى ذلك فهو لحن ، تقول : جئتك على حينِ زيد وَجِئْتُكَ فى حينِ إِمْرَةِ عَبْدِ المَلِكِ ، وكذا قولُ النابغة :

عَلَى حِينِ عاتَبْتُ المَشِيبَ عَلَى الصِّبا   وَقُلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ وَالشَّيْبُ وازِعُ

إن شئت فتحت حين ، وإن شئت خفضت ، لأنه مضاف إلى فعل غير متمكن ، وكذلك قولهم يَوْمَئِذٍ، تقول عجبت من يوم عبد الله لا يكون غيره، فإذا أضفتَهُ إلى إذٍ ، فإن شئت فتحتَ على ما ذكرتُ لك فى حين ، وإن شئت خفضتَ لِمَا كان يستحقه اليومُ من التمكُّنِ قبل الإضافة ، تقرأ إن شئتَ « من عذاب يَوْمَئذ » وإن شئت « من عذاب يَوْمَئِذٍ » على ما وصفتُ لك ، ومن خفض بالإضافة قال : سِيرَ بزيدٍ يَوْمُئِذٍ ، فأعربته فى موضع الرفع ، كما فعلتَ به فى الخفض ، ومن قال مِنْ خِزْىِ يَوْمَئِذٍ فبناه قال سِيرَ بزيدٍ يَوْمَئِذٍ ، يكون على حالة واحدة لأنه مبنىّ ، كما تقول دُفِعَ إلى زيد خمسةَ عشرَ دِرْهماً ، وكما قال اللهُ عز وجل : « عليها تِسْعَةَ عشرَ » وأما قوله : ✲ فنَدْلاً زُرَيْقُ المالَ نَدْلَ الثعالب ✲ فزُرَيْقٌ قبيلة ، وقوله نَدْلاً مصدر يقول انْدُلِى نَدْلاً يا زُرَيْقُ المالَ ، والنَّدْلُ أن تجذِبَهُ جَذْبًا ، يقال : نَدَلَ الرجلُ الدَّلْوَ نَدْلاً إذا كان يجذِبُها مملوءة من البئر ، فنصب نَدْلاً بفعل مضمر وهو انْدُلِى ، وهذا فى الأمر ، تقول ضَرْباً زيداً ، وشَتْماً عبدَ الله ، لأن الأمر لا يكون إلا بفعل ، فكان الفعلُ فيه أقوى ، فلذلك أضمرته ، ودل المصدر على الفعل المضمر ، ولو كان خبراً لم يجز فيه الإضمارُ ، لأن الخبر يكون بالفعل وغيره ، والأمر لا يكون إلا بالفعل ، قال الله عز وجل : « فإذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ » فكان فى موضع اضْرِبوا ، حتى كأن القائل قال : فاضْربوا ، ألا تَرَى أنه ذكر بعده الفعل مَحْضاً فى قوله « حتى إذا أثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوَثَاقَ » ولو نوَّنَ مُنَوِّنٌ فى غير القرآن

لَنَصَبَ الرقاب ، وكذلك كل موضع هو بالفعل أوْلَى ، وقوله : ندل الثعالب يريد سرعةَ الثعالب ، يقال فى المَثَلِ : « أكْسَبُ من ثَعْلَبٍ » ، وأما قول نُصَيْبٍ * وَلَوْ سَكَتُوا أثنَتْ عَلَيْكَ الحَقَائِبُ * فإنما يريد أنهم يرجعون مملوءةً حقائبهم من رِفْدِهِ ، فقد أثْنَتْ عليه الحقائب قبل أن يقولوا ، فأمّا قول الْأَعْشَى :

وَإِنَّ عِتَاقَ الْعِيسِ سَوْفَ يَزُورُكُمْ ثَنَاءٌ عَلَى أَعْجَازِهِنَّ مُعَلَّقُ

فإنما أراد المدح الذى يُحْدَيْنَ به ، والحادى من ورائها ، كما أن الهادى أمامها ، وأما قول أبى وَجْزَةَ :

رَاحَتْ بِسِتِّينَ وَسْقاً فِى حَقِيبَتِهَا مَا حُمِّلَتْ حِمْلَهَا الْأَدْنَى وَلَا السَّدَدَا

فإنما أراد ما يوجب ستين وَسْقاً ، لا أن الناقة حَمَلَتْ ستين وَسْقاً . وكان من حديث ذلك أن أبا وَجْزَةَ السُّلَمِىَّ المعروف بالسَّعْدِىِّ ، لنزوله فيهم ، ومحالفته إياهم ، كان شَخَصَ إلى المدينة يريد آل الزُّبَيْرِ ، وشَخَصَ أبو زيد الأسلمىُّ يريد إبراهيمَ بن هشام بن إسمعيل بن هشام بن المُغيرة بن عبد الله بن عُمَرَ بن مَخْزُومٍ وهو والى المدينة ، فاصْطَحَبا ، فقال أبو وجزة : هَلُمَّ فَلْنَشْتَرِكْ فيما نُصيبه ، فقال أبو زيد الأسلمىُّ كَلَّا أنا أَمْدَحُ الملوك ، وأنت تمدح السُّوَقَ[1] ، فلما دخلا المدينة صار أبو زيد إلى إبراهيم بن هشام فأنشده :

* يَا ابْنَ هِشَامٍ يَا أَخَا الْكِرَامِ *

فقال إبراهيم ، وإنما أنا أخوهم ، وكأنّى لَسْتُ منهم ، ثم أَمَرَ به فَضُرِبَ

---

(١) بفتح الواو : جمع السوقة بضم السين ممدودة ، وهى من الناس من لم يكن ذا سلطان .

بالسياط ، وامْتَدَحَ أبو وَجْزَةَ آلَ الزُّبَيْرِ فكتبوا إليه بستين وَسْقاً من تمر وقالوا هى لك عندنا فى كل سنةٍ ، فانْصرَفا ، فقال أبو زيد :

مَدحْتُ عُرُوقاً لِلنَّدَى مَصَّتِ الثَّرَى حَدِيثاً فَلَمْ تَهْمُمْ بِأَنْ تَترَعْرَعَا
نَقَائِذَ بُؤْسٍ ذَاقَتِ الفَقْرَ وَالْغِنَى وَحَلَبَتِ الْأَيَّامَ وَالدَّهْرَ أَضْرُعَا
سَقَاهَا ذَوُو الْأَرْحَامِ سَجْلاً عَلَى الظَّمَا وَقَدْ كَرَبَتْ أَعْنَاقُهَا أَنْ تَقَطَّعَا
بِفَضْلِ سِجَالٍ لَوْ سَقَوْا مَنْ مَشَى بِهَا عَلَى الْأَرْضِ أَرْوَاهُمْ جَمِيعاً وَأَشْبَعَا
فَضَمَّتْ بِأَيْدِيهَا عَلَى فَضْلِ مَائِهَا مِنَ الرِّىِّ لَمَّا أَوْشَكَتْ أَنْ تَضَلَّعَا
وَزَهَّدَهَا أَنْ تَفْعَلَ الْخَيْرَ فى الْغِنَى مُقَاسَاتُهَا مِنْ قَبْلِهِ الْفَقْرَ جُوَّعَا

وقال أبو وجزة :

رَاحَتْ رَوَاحاً قَلوصِى وَهْىَ حَامِدَةٌ آلَ الزُّبَيْرِ وَلَمْ تَعْدِلْ بِهِمْ أَحَداً
رَاحَتْ بِسِتِّينَ وَسْقاً فى حَقِيبَتِهَا مَا حُمِّلَتْ حَمْلَهَا الْأَدْنَى وَلاَ السُّدُدَا
مَا إِنْ رَأَيْتُ قَلُوصاً قَبْلَهَا حَمَلَتْ سِتِّينَ وَسْقاً وَلاَ جَابَتْ بِهِ بَلَدَا
ذَاكَ الْقِرَى لاَ قِرَى قَوْمٍ رَأَيْتُهُمُ يَقْرُونَ ضَيْفَهُمُ الْمَلْوِيَّةَ الْجُدُدَا

أما قول أبى زيد لإبراهيم : « مدحتُ عروقاً للندى مصت الثرى حديثاً » فإنما عَنَى أن إبراهيم وأخاه محمداً ، إنما تَطَعَّمَا بالعيش ، ودخلا فى النِّعمة ، وخرجا من حدّ السُّوقِ إلى حدّ الملوك حديثاً ، وذلك بهشام بن عبد الملك لأنهما كانا خالَيْهِ ، فإنما وَلاَّهُمَا عن خُمُولٍ ، وقوله : فلم تهمم بأن تترعرعا ، فإنما

هذا مَثَلٌ : يقال فلان يَهْتَزُّ للنَّدَى ، ويرتاح لفعل الخير ، كما قال مُتَمِّمُ ابن نُوَيْرَةَ :

تَرَاهُ كَنَصْلِ السَّيْفِ يَهْتَزُّ لِلنَّدَى … إذا لم تَجِدْ عند امْرِئِ السَّوْءِ مَطْمَعَا

وتأويل ذلك أنه يتحرك تَحَرُّكَ سُرُورٍ لفعل الخير .

قال أبو العباس وأنشدنى التَّوَّزِىُّ لأبى رباطٍ يقول لابنه :

رَأَيْتُ رِبَاطًا حِينَ تَمَّ شَبَابُهُ … وَوَلَّى شَبَابِى لَيْسَ فى بِرِّهِ عَتْبُ
إذا كَانَ أَوْلَادُ الرِّجَالِ مَرَارَةً … فَأَنْتَ الْحَلَالُ الْحُلْوُ وَالْبَارِدُ الْعَذْبُ
لَنَا جَانِبٌ مِنْهُ أَنِيقٌ وَجَانِبٌ … شَدِيدٌ عَلَى الْأَعْدَاءِ مَرْكَبُهُ صَعْبُ (١)
وَتَأْخُذُهُ عِنْدَ الْمَكَارِمِ هِزَّةٌ … كما اهْتَزَّ تحت البَارِحِ الْغُصْنُ الرَّطْبُ

***

قال وحدثنى على بن عبد الله قال حدثنى العُتْبِىُّ قال أشْرَفَ عمر بن هُبَيْرَةَ الفَزَارِىُّ من قصره يومًا فإذا هو بأعرابى يُرْقِصُ جَمَلَهُ الآلُ (٢) فقال لحاجبه إن أرادنى هذا فَأَوْصِلْهُ إلَىَّ ، فلما دنا الأعرابىُّ سأله ، فقال قصدتُ الأمير فَأَدْخَلَهُ إليه ، فلما مَثَلَ بين يديه قال له عمر : ما خَطْبُكَ ؟ فقال الأعرابى :

أَصْلَحَكَ اللهُ قَلَّ ما بِيَدِى … فَمَا أُطِيقُ الْعِيَالَ إذْ كَثُرُوا
أَلَحَّ دَهْرٌ أَنْحَى بِكَلْكَلِهِ … فَأَرْسَلُونِى إلَيْكَ وَانْتَظَرُوا
رَجَوْكَ لِلدَّهْرِ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ … غَيْثَ سَحَابٍ إنْ خَانَهُمْ مَطَرُ

---

(١) وفى رواية أخرى :
لنا جانب منه دميث وجانب … إذا رامه الأعداء ممتنع صعب

(٢) الآل : ماتراه فى الضحى كالماء بين السماء والأرض .

قال فأخذتْ عمرَ الأرْيَحِيّةُ فجعَل يَهتزّ فى مجلسه ، ثم قال : أرسلوك إلىَّ وانتظروا ؟ إذًا والله لا تجلسُ حتى ترجِعَ إليهم غانمًا ، فأمَرَ له بألف دينار وردَّهُ على بعيره .

قال أبو العباس : وحدثنى أبو إسحٰق إسمٰعيل بن إسحٰق القاضى أن الخبر لِمَعْنِ بن زائدة وصح ذلك عندى .

وقوله : نقائذ بؤس ، واحدتها نَقِيذَةٌ . وتأويله أنهم أُنْقِذُوا من بُؤْسٍ ، يقال للرجل والمرأة ذلك على لفظ واحد ، تقول هذا نَقيذةُ بُؤْسٍ تقع الهاء للمبالغة لأن أصله كالمصدر ، كقولك زيد مَكْرُمَةٌ لأهله ، وزيد كريمةُ قومه ، أى يَحُلُّ مَحَلَّ العقدة الكريمة ، والخَصْلة الكريمة .

وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكْرَمَ جرير بن عبد الله البَجَلِيَّ لما وَرَدَ عليه فبسط له رِداءه ، وعمَّمَه بيده ، وقال : إذا أتاكم كَرِيمةُ قومٍ فأكْرِموهُ . هكذا روى فُصَحاء أصحاب الحديث .

وقد قال صلى الله عليه وسلم قبل وُروده عليه : يَطْلُعُ عليكم من هذا الفجّ خَيْرُ ذى يَمَنٍ عليه مَسْحةُ مُلْكٍ .

وقال صَخْرُ بن عمرو بن الشَّريد يعنى معاويةَ أخاه وكان قتله هاشم ودُرَيْدٌ ابنا حَرْمَلَةَ المُرِّيّانِ من غطفان فقيل لصخر اهْجُهُمْ ، فقال : ما بينى وبينهم أَقْذَعُ من الهجاء ، ولو لم أُمْسِكْ عن هجائهم إلا صَوْنًا لنفسى عن الخَنَا لفعلت ، ثم قال :

وَعَاذِلَةٍ هَبَّتْ بِلَيْلٍ تَلومُنِى   أَلَا لَا تَلومِينِى كَفَى اللَّوْمَ مَا بِيَا

تقولُ ألا تهجُو فوارسَ هاشمٍ ... ومالِىَ إذ أهجُوهمُ ثمَّ ماليا
أبى الشتمَ أنّى قد أصابُوا كريمتى ... وأنْ ليس إهداء الخنا من شماليا
(إذا ذُكِرَ الإخوانُ رقرقتُ عَبْرةً ... وحَيَّيْتُ رَسْمًا عِنْدَ لِيَّةَ ثاويا
إذا ما امرُؤٌ أهدى لميْتٍ تحيّةً ... فحيّاكَ ربُّ العرْشِ عنّى مُعاويا
وهوّنَ وَجْدِى أنّنى لم أقلْ له ... كذبْتَ ولَمْ أبخلْ عليْهِ بماليا

قال الأخفش وأنشدنى الأحْوَلُ : * ومالِىَ أنْ أهجُوهمُ ثُمَّ ماليا) * وتقول العرب للرجل راويةٌ ونسّابةٌ فتزيد الهاء للمبالغة ، وكذلك علاّمةٌ ، وقد تلزمُ الهاءُ فى الاسم فتقع للمذكر والمؤنث على لفظ واحد ، نحو رَبْعةٍ ويَفعةٍ وصرورةٍ[1] وهذا كثير لا تُنْزَعُ الهاء منه ، فأما راوية وعلامة ونسّابة فحذف الهاء جائز فيه ، ولا يبلغُ فى المبالغة ما تبلغُهُ الهاء ، وقوله :

* وحلبتِ الأيّامَ والدّهرَ أضرُعا * فإنه مَثَلٌ يقال للرجل المُجرِّبِ للأمور فلان قد حَلَبَ الدّهرَ أشطرَهُ أى قد قاسى الشِّدّةَ والرّخاء وتصرّفَ فى الفقر والغنى ، كما قال القائل :

قدْ عِشتُ فى النّاسِ أطوارًا على طُرُقٍ ... شتّى وقاسيْتُ فيها اللِّينَ والفَظَعا
كُلاًّ بلوْتُ فلا النّعْماءُ تُبْطِرُنى ... ولا تخشّعتُ من لأوائها جزَعا
لا يَملأُ الهوْلُ صدْرى قبلَ موْقِعِهِ ... ولا أضيقُ بهِ ذرْعًا إذا وقعا

ومعنى قوله : أشطُرَهُ ، فإنما يريد خُلوفَهُ يقال : حَلَبْتُها شطْرًا بعد شطْرٍ ، وأصل هذا من التّنصُّفِ لأن كل خِلْفٍ عديلٌ لصاحبه ، وللشّطْر وجهان

---

(١) هو الذى لم يحج أو لم يتزوج ، وأصلها من الصر وهو الحبس والمنع .

فى كلام العرب فأحدها النصف كما ذكرنا ، من ذلك قولهم شاطَرْتُكَ مالى ، والوجه الآخر القَصْدُ ، يقال خُذْ شَطْرَ زيدٍ : أى قصده ، قال الله عز وجل : « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » أى قصده « وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » قال أبو العباس ، وأنشدنى التَّوَّزِىُّ عن أبى عُبيدة قولَ الشاعر :

إنَّ الْعَسِيرَ بِهَا دَاءٌ مُخَامِرُهَا   فَشَطْرَهَا نَظَرُ الْعَيْنَيْنِ مَحْسُور

يريد ناحيتها وقصدها ، والعَسِير التى تَعْسِرُ بِذَنَبِها إذا حَمَلَتْ : أى تُشِيلُهُ وترفعه ، ومنه سمى الذَّنَبُ عَوْسَرًا ، أى تضرب بذنبها ، ومعنى ذلك أنه ظهر من جَهْدِهَا وسُوءِ حالها ما أطِيلَ معه النظر إليها حتى تَحْسِرَ العينانِ ، والحَسِير : المُعْيِى ، وفى القرآن « يَنْقَلِبْ إليكَ البصرُ خاسِئًا وهو حَسِيرٌ » وقوله : * سَقَاهَا ذَوُو الْأَرْحَامِ سَجْلاً عَلَى الظَّمَا * فالسَّجْلُ فى الأصل الدَّلْوُ ، وإنما ضربه مَثَلاً لِما فاضَ عليها من نَدَى أقاربها ، فقال : للدلو ، وهى مؤنثة سَجْلٌ وذَنُوبٌ ، وهما مُذَكَّران ، والغَرْبُ مذكر وهو الدلو العظيمة ، ويقال فلان يُساجِلُ فلانا : أى يُخْرِجُ من الشرف مثل ما يُخْرِجُ الآخر ، وأصل المُساجلة أن يَسْتَقِيَ ساقيان ، فيُخْرِجَ كلٌّ واحدٍ منهما فى سَجْلِهِ مثلَ ما يُخْرِجُ الآخرُ ، فأيُّهما نَكَلَ فقد غُلِبَ ، فضربته العرب مثلا للمفاخرة والمساماة ، وبَيَّنَ ذلك الفَضْلُ بن العباس بن عُتْبَةَ بن أبى لَهَبٍ فى قوله :

مَنْ يُسَاجِلْنِي يُسَاجِلْ مَاجِدًا   يَمْلَأُ الدَّلْوَ إِلَى عَقْدِ الْكَرَبْ

ويقال إن الفرَزْدَق مَرَّ بالفضْل وهو يَسْتَقِى ، ويُنْشِدُ هذا الشعر فَسَرا الفرزدقُ

ثيابه عنده ، ثم قال : أنا أساجلكَ ، ثِقَةً منه بنَسَبه ، فقيل له : هذا الفضْلُ أبن العباس بن عتبة بن أبي لهب فردّ الفرزدق ثيابه عليه ، ثم قال : ما يُساجلك إلا مَنْ عضّ بأيْرِ أبيه ! يقال سَرَا ثوبَهُ ونَضَا ثوبه فى معنى واحد : إذا نزعه ، ويقال : سَرَى عليه الهمّ إذا أتى ليلا ، وأنشد :

سَرَى هَمِّى وَهَمُّ المَرْءِ يَسْرِى ⁂ (وَغَارَ النَّجْمُ إلَّا قِيدَ فِتْرِ

البيت لعُرْوَةَ بن أُذَيْنَةَ اللَّيْثِيِّ شيخ مالك بن أنسٍ) ، وسَرَى هَمُّهُ إذا ذهب عنه :

والمواضخةُ مثل المُساجلة ، قال العَجَّاجُ :

⁂ تُوَاضِخُ التَّقْرِيبَ قِلْوًا مِخْلَجًا ⁂ أى تُخْرِجُ من العَدْوِ مثل ما يُخْرِجُ ، قال اللّٰه عز وجل على مَخْرَجِ كلام العرب وأمثالهم : « فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ » وأصل الذنوب الدَّلْوُ كما ذكرتُ لك .

وقال عَلْقَمَةُ بن عَبَدَةَ للحارث بن أبي شَمِرٍ الغَسَّانِيِّ : (قال أبو الحسن غير أبي العباس يقول شِمْرٌ وبعضهم يقول شَمْرٌ) وكان أخوه أسيرا عنده ، وهو شَأْسُ بن عَبَدَةَ أَسَرَهُ فى وقعة عين أُباغ[(١)] (قال أبو الحسن غيره يقول إباغَ) فى الوقعة التى كانت بينه وبين المُنْذِرِ بن ماء السَّماء فى كلمةٍ له مَدَحَهُ فيها :

وَفى كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ ⁂ فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ

فقال المَلِكُ : نعم وَأَذْنِبَةٌ .

---

(١) اسم واد وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام ، وفيه يقول الحماسى .

بعين أباغ قاسمنا المنايا ⁂ فكان قسيمها خير القسيم

وقوله : وقد كَرَبَتْ أعناقها أن تقطّما ، يقول سُقِيَتْ هذا السَّجْلَ وقد دَنَتْ أعناقها من أن تقَطَّعَ عطشا ، وَكَرَبَ فى معنى المُقاربةِ ، يقال كاد يفعلُ ذلك ، وجَعَلَ يفعلُ ذلك ، وكَرَبَ يفعلُ ذلك ، أى دنا من ذلك ، ويقال : جاء زيد والخيلُ كارِبَتُهُ ، أى قد دَنَتْ منه وقَرُبَتْ ، فأما أَخَذَ يفعلُ ، وجَعَلَ يفعلُ ، فمعناهما أنه قد صار يفعل ، ولا تقع بعد واحدة منهما أنْ فأما كاد وكرب فأنْ لا تُستَعْمَلُ بعد واحدة منهما إلا أن يُضْطَرَّ شاعرٌ ، قال الله عز وجل : « إذا أَخرَجَ يدَهُ لمْ يَكَدْ يَرَاهَا » أى لم يَقْرُبْ من رؤيتها ، وإيضاحه لم يَرَها ولم يَكَدْ ، وكذلك : « يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ » ، وكذلك : « كَادَ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ » بغيرِ أنْ ، ومن أمثال العرب : كادَ النَّعامُ يطيرِ ، وكاد العَرُوسُ يكون أميرًا ، وكاد المُنْتَعِلُ يكون راكِبًا ، وقد اضْطُرَّ الشاعرُ فأَدْخَلَ أن بعد كاد ، كما أدخلها هذا بعد كَرَبَ ، فقال : ﴿ وَقَدْ كَرَبَتْ أَعْنَاقُهَا أَنْ تَقَطَّمَا ﴾

وقال رُؤْبَةُ : ﴿ قَدْ كَادَ مِنْ طُولِ الْبِلَى أَنْ يَمْصَحَا[1] ﴾ فكاد بمنزلة كَرَبَ فى الإعمال والمعنى ، قال الشاعر :

أَغِثْنِى غِيَاثًا يَا سُلَيْمَانُ إِنَّنِى ... سَبَقْتُ إِلَيْكَ المَوْتَ وَالمَوْتُ كَارِبِى

خَشْيَةَ جَوْرٍ مِنْ أَمِيرٍ مُسَلَّطٍ ... وَرَهْطِى وَمَا عَادَاكَ مِثْلُ الْأَقَارِبِ

وقوله لمّا أَوْشَكَتْ أَنْ تَضَلَّعَا يقول لما قارَبَتْ ذلك ، والوَشِيكُ[2] القريب من الشيء ، والسريع إليه ، يقال يُوشِكُ فلانٌ أن يفعل كذا وكذا ، والماضى

---

(١) يمصح : يدرس ، ومصحت الدار تمصح مصوحا : درست وبليت .
(٢) هذا من وشك — بالضم — بمعنى سرع ، وليس من أوشك .

منه أوْشَكَ ، ووقعتْ بأنْ وهو أجود ، وبغير أنْ كما كان ذلك فى لَعلَّ ، تقول لعلَّ زيداً يقوم فهذه الجَيِّدَةُ ، قال الله عزّ وجل : « لَعَلَّ السَّاعَةَ تَـكُونُ قَرِيباً ، ولَعَلَّهُ يتذَكَّرُ أوْ يَخْشَى ، وَلَعلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذٰلِكَ أمْراً » وقال مُتَمِّمُ بن نُوَيْرَةَ :

لَعَلَّكَ يَوْمًا أنْ تُلِمَّ مُلِمَّةٌ … عَلَيْكَ مِنَ اللَّائِى يَدَعْنَكَ أجْدَعَا

وعَسَى الأجودُ فيها أن تُسْتَعْمَلَ بأنْ ، كقولك عسى زيد أن يقوم ، كما قال الله عزّ وجل « فَعَسَى اللهُ أنْ يأتِيَ بالفَتْحِ » وقال جَلَّ ثناؤه « عَسَى اللهُ أن يتوبَ عليهم » ويجوز طَرْحُ أنْ وليس بالوجه الجيد ، قال هُدْبَةُ :

عَسَى الْكَرْبُ الَّذِى أمْسَيْتَ فِيهِ … يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ

وقال آخر[١] :

عَسَى اللهُ يُغْنِى عَنْ بِلَادِ ابنِ قَادِرٍ[٢] … بِمُنْهَمِرٍ جَوْنِ الرَّبَابِ سَكُوبِ

وحروف المُقَارَبَة لها باب قد ذكرناها فيه على مقاييسها فى الكتاب المُقْتَضَبِ بغاية الاستقصاء ، وقوله : أن تَضَلَّعَا ، معناه أن تمتلئ ، وأصله أن الطعام والشراب يَبْلُغانِ الأَضْلاعَ فيَكُظَّانِها[٣] ، كذلك قال الأصمعى فى قولهم : أكَلَ حتى تَضَلَّعَ ، وأما قول أبى وَجْزَة راحتْ بسِتِّينَ وَسْقًا فالوَسْقُ خمسة أقْفِزَةٍ بمُلْجَمِ[٤] البَصْرَةِ ، وفى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم « ليس فيما دونَ خَمْسَةِ أوْسُقٍ صَدَقَةٌ » ، فما كان أقل من خمسة وعشرين قفيزا بالقَفِيزِ الذى

---

(١) هو سماعة بن أشول .

(٢) كذا أنشده الجوهرى ، وغلطه ابن برى ، والصواب عنده « بلاد ابن قارب » وبعضهم رواه « تلاد ابن قارب » والتلاد : المال الموروث .

(٣) من الكظة وهى الامتلاء . (٤) ملجم على وزن مكرم : مكيال لأهل البصرة .

وصفنا وهو نصف القفيز البَغْدَادىّ فى أرض الصدقة فَلاَ صدقة فيه ، وإنما أراد أنه أَخَذَ الكتابَ بهذه الأوْسُقِ ، فلذلك قال :

مَا إنْ رَأَيْتُ قَلُوصاً قَبْلَهَا حَمَلَتْ ‏ ‏ ‏ سِتِّينَ وَسْقاً وَلاَ جَابَتْ بِهِ بَلَدَا

وأما قوله : ✽ يقْرُونَ ضَيْفَهُمُ المَلْوِيَّةَ الجُدُدَا ✽ فإنما أراد السياط ، وجمع جَديدٍ جُدُدٌ ، وكذلك باب فَعِيل الذى هو اسم ، أو مضارع للاسم ، نحو قَضِيبٍ وقُضُبٍ ، ورَغِيفٍ ورُغُفٍ ، وكذلك سَرِيرٌ وسُرُرٌ ، وجَديدٌ وجُدُدٌ ، لأنه يجْرِى مَجْرَى الأسماء ، وجَرِيرٌ وجُرُرٌ فما كان من المضاعف جاز فيه خاصةً أن تُبْدَلَ من ضمته فتحةٌ لأَنّ التضعيف مُسْتَثْقَلٌ ، والفتحة أَخَفُّ من الضمة ، فيجوز أن يُمالَ إليها استخفافاً ، فيقال : جُدَدٌ وسُرَرٌ ، ولا يجوز هذا فى مثل قَضِيبٍ لأنه ليس بمضاعَفٍ ، وقد قرأ بعضُ القُرَّاء : « عَلَى سُرَرٍ مَوْضونَةٍ » ، ويقال للسوط : الأَصْبَحِىُّ يُنْسَبُ إلى ذى أَصْبَحَ الحِمْيَرِىِّ ، وكان أوّلَ من اتخذ هذه السِّياطَ التى يُعاقِبُ بها السلطانُ ، ويقال له العِرْفاصُ والقَطِيعُ ، وقال الشَّمَّاخ : ✽ تَـكادُ تَطِيرُ مَنْ رَأَى القَطِيعِ ✽ وقال الصَّلَتانُ[١] العَبْدِىُّ :

أَرَى أُمَّةً شَهَرَتْ سَيْفَهَا ‏ ‏ ‏ وَقَدْ زِيدَ فى سَوْطِهَا الأَصْبَحِىُّ

وقال الراعى[٢] :

أَخَذُوا العَرِيفَ فَقَطَّعُوا حَيْزُومَهُ[٣] ‏ ‏ ‏ بِالأَصْبَحِيَّةِ قَائِماً مَغْـلُولاَ

وقال الراجز : ✽ حَتَّى تَرَدَّى طَرَفُ العِرْفاصِ ✽ وقوله: وَلاَجَابَتْ به بَلَدَا ،

---

(١) لقب قثم بن خبية . (٢) يشكو إلى عبد الملك جور السعاة . (٣) الحيزوم : الصدر .

يقول ولا قطعتَ به ، يقال : جُبْتُ البلاد ، قال اللّٰه عزّ وجل : « وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ(١) » ويقال رجل جوّابٌ جوّالٌ ، وأنشدنى علىُّ ابن عبد اللّٰه قال أنشدنى القَحْذَمِىُّ :

مَا مَنْ أَتَتْ مِنْ دُونِ مَوْلِدِهِ … خَمْسُونَ بِالمَعْذُورِ بِالْجَهْلِ

فَإِذَا مَضَتْ خَمْسُونَ عَنْ رَجُلٍ … تَرَكَ الصِّبَا وَمَشَى عَلَى رِسْلِ

وأمَرَ مُصْعَبُ بن الزُّبَيْرِ رجلا من بنى أسَدِ بن خُزَيْمَةَ بقتل مُرَّةَ بن مُحْكَانَ السَّعْدِىِّ ، فقال مُرَّةُ فى ذلك :

بَنِى أَسَدٍ إِنْ تَقْتُلُونِى تُحَارِبُوا … تَمِيماً إِذَا الحَرْبُ العَوَانُ اشْمَعَلَّتِ

وَلَسْتُ وَإِنْ كَانَتْ إِلَىَّ حَبِيبَةً … بِبَاكٍ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا مَا تَوَلَّتِ

قوله : إذا الحرب العوان فهى التى تكون بعد حَرْبٍ قد كانت قبلها ، وكذلك أصل العوان فى المرأة إنما هى التى قد تزوجت ، ثم عاودتْ فخرجتْ عن حدِّ البِكْرِ ، وقول اللّٰه عز وجل فى كتابه العزيز : « لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ » هو تمام الكلام ، ثم استأنف فقال : « عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ » والفارِضُ هاهنا المسنَّة ، والبِكْرُ الصغيرة ، ويقال لَهاةٌ فارِضٌ : أى واسعة ، وفَرْضُ القوْسِ موضع مَعْقِدِ الْوَتَرِ ، وكل حَزٍّ فَرْضٌ ، والفُرْضَةُ مُتطَرَّقٌ إلى النَّهْرِ . قال الراجز : * لَهَا زِجَاجٌ وَلَهَاةٌ فَارِضُ * وقوله اشْمَعَلَّتْ : إنما هو ثارتْ فأسرعتْ ، قال الشَّمَّاخُ :

رُبَّ ابْنِ عَمٍّ لِسُلَيْمَى مُشْمَعِلْ … أَرْوَعَ فِى السَّفَرِ وَفِى الحَىِّ غَزِلْ

* طَبَّاخِ سَاعَاتِ الْكَرَى زَادَ الْكَسِلْ *

---

(١) قال الفراء : خرقوه فاتخذوا منه بيوتا ، من الجوب وهو الخرق والثقب.

وقوله * ولَسْتُ وإن كانتْ إلىّ حبيبة بباكٍ على الدنيا * إنما هو على التقديم والتأخير ، أراد ولست بباكٍ على الدنيا ، وإن كانت إلىّ حبيبةً ، ولولا هذا التقدير لم يجز أن يُضمِرَ قبل الذِّكْرِ ، ومثله :

إنْ تلقَ يوْمًا على عِلاّتِهِ هرِمًا   تلْقَ السَّماحةَ منْهُ والنَّدى خُلقا

وكذلك قول حسَّان بن ثابت :

قَدْ ثَكِلَتْ أُمُّهُ مَنْ كُنْتَ وَاحِدَهُ   أَوْ كَانَ مُنْتَشِبًا فى بُرْثُنِ الْأَسَدِ

يقول من كنت واحده قد ثكِلتْ أمُّهُ ، وكذلك قوله :

شَرَّ يوْمَيْهَا وَأَخْزَاهُ لَهَا   رَكِبَتْ هِنْدٌ بِحِدْجٍ جَمَلا

يقول ركبت هند بِحِدْجٍ جملاً فى شرِّ يوْمَيْها ، وقال رجل من مُزَيْنَةَ :

خَلِيلَيَّ بِالبَوْبَاةِ عُوجَا فَلَا أَرَى   بِهَا مَنْزِلًا إلَّا جَدِيبَ الْمُقيَّدِ

نَذُقْ بَرْدَ نَجْدٍ بَعْدَ مَا لَعِبَتْ بِنَا   تِهامَـــةُ فى حَمَّامِهَا الْمُتَوَقِّدِ

قوله : بالبوباة ، فهى المُتَّسَعُ من الأرض ، وبعضهم يقول هى المَوْماةُ بعينها قلبت الميم باء لأنهما من الشَّفَةِ ، ومثلُ ذلك كثير يقولون ما اُسْمُكَ وبا اُسْمِكَ ويقولون ضَرْبَةُ لازِمٍ ولازِبٍ ، ويقولون هذا ظَامِى وظَابِى يعنون السِّلْفَ (قال أبو الحسن الجيِّدُ سِلْفٌ ، وما قال ليس بممتنع) ويقولون زُكْبَةُ سَوْء وزُكْمَةُ سَوْء : أى وَلَدُ سَوْء ، ويقولون عَجْمُ الذَّنَبِ ، وعَجْبُ الذَّنَبِ ، ويقولون رجل أخْرَمُ وأخْرَبُ وهذا كثير ، وقال عُمَرُ بن أبى رَبيعة :

عُوجا نُحَيِّ الطَّلَلَ المُحْوِلاَ(١)   والرَّبْعَ مِنْ أسْماء وَالمَنْزِلاَ

(١) الذى أتى عليه الحول .

بِجَانِبِ الْبَوْبَاةِ لَمْ يَعْدُهُ   تَقَادُمُ الْعَهْدِ بِأَنْ يُؤْهَلَا

وقوله : إلا جَديبَ المُقيَّدِ ، يقال : بلد جَدْبٌ وجَديبٌ ، وخَصْبٌ وخَصيبٌ، والأصل فى النعت خَصيبٌ ومُخْصِبٌ ، وجَديبٌ ومُجْدِبٌ ، والخَصْبُ والجَدْبُ إنما هما ماحلٌّ فيه ، وقيل : خَصيبٌ وأنت تريد مُخْصِبٌ ، وجَدِيبٌ وأنت تريد مُجْدِبٌ ، كقولك عذاب أليمٌ وأنت تريد مُؤْلِمٌ ، قال ذو الرمة :

وَنَرْفَعُ مِنْ صُدُورِ شَمَرْدَلَاتٍ   يَصُكُّ وُجُوهَهَا وَهَجٌ أَلِيمُ

ويقال رجل سَميع : أى مُسْمِعٌ ، قال عَمْرُو بن مَعْديكرب :

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِى السَّمِيعُ   يُؤَرِّقُنِى وَأَصْحَابِى هُجُوعُ

وأما قوله : المُقَيَّدُ ، فهو موضع التقييد ، وكل مَصْدَرٍ زيدتِ الميمُ فى أوله إذا جاوزْتَ الفعل من ذوات الثلاثة ، فهو على وزن المَفْعول ، وكذلك إذا أردتَ اسم الزمان ، واسم المكان ، تقول أَدْخَلتُ زيداً مُدْخَلاً كريماً ، وسَرَّحْتُهُ مُسَرَّحًا حَسَنًا ، واستخرجتُ الشيء مُسْتَخْرَجًا ، قال جرير :

أَلَمْ تَعْلَمْ مُسَرَّحِيَ الْقَوَافِى   فَلَا عِيًّا بِهِنَّ وَلَا اجْتِلَابَا

أى تَسْرِيحِي ، وقال عز وجل : « وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِى مُنْزَلاً مُبارَكاً » ويقال قمتُ مَقاما ، وأَقمتُ مُقامًا ، وقال عز وجل : « إِنَّهَا ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقامًا » أى موضع إقامة ، وقال الشاعر (حُمَيْدُ بن ثَوْرٍ الهِلالِىّ :

تَطُولُ الْقِصَارَ وَالطِّوَالُ يَطُلْنَهَا   فَمَنْ يَرَهَا لا يَنْسَهَا ما تَكَلَّمَا)

وَمَا هِىَ إِلَّا فِى إِزَارٍ وَعِلْقَةٍ   مُغَارَ ابْنِ هَمَّامٍ عَلَى حَىِّ خَثْعَمَا

يريد زمنَ إغارةِ ابن هَمّامٍ ، وأما قوله : نَذُقْ بَرْدَ نَجْدٍ ، فذاك لأن نجْدًا مرتفعةٌ وتهامةُ غَوْرٌ منخفض ، فنَجْدٌ باردة .

❊

ويروى عن الأَصْمَعِيّ أنه قال : هَجَمَ علىّ شهرُ رمضان وأنا بمكة ، فخرجتُ إلى الطائف لِأَصُومَ بها هَرَبًا من حَرّ مكة ، فلقينى أعرابى فقلت له : أين تريد ؟ فقال : أريد هذا البلدَ المبارك لأصوم هذا الشهر المبارك فيه ، فقلت له : أما تخاف الحرّ ؟ فقال : من الحرّ أفِرُّ .

وهذا الكلام نظير كلام الرَّبيع بن خُثَيْمٍ ، فإن رجلا قال له — وقد صَلَّى ليلةً حتى أصبح — أَتْعَبْتَ نفسك ، فقال : راحتَها أطلبُ ، إنَّ أَفْرَهَ العَبيد(١) أَكْيَسُهُمْ .

ونظير هذا الكلام قولُ رَوْحِ بن حاتم بن قَبِيصةَ بن المُهَلَّبِ — ونظر إليه رجل واقفاً بباب المنصور فى الشمس — فقال : قد طال وُقوفك فى الشمس ؟ فقال رَوْحٌ : ليطول وقوفى فى الظل .

ومثله من الشعر قوله : (قال أبو الحسن هو عُرْوَةُ بن الْوَرْدِ العَبْسِيُّ).

تَقُولُ سُلَيْمَى لَوْ أَقَمْتَ بِأَرْضِنَا ... وَلَمْ تَدْرِ أَنِّى لِلْمَقَامِ أُطَوِّفُ
(لَعَلَّ الَّذِى خَوَّفْتِنَا مِنْ وَرَائِنَا ... سَيُدْرِكُهُ مِنْ بَعْدِنَا الْمُتَخَلِّفُ(٢))

ويروى لَسَرّنا ، وقال آخر :

سَأَطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ مِنْكُمْ لتَقْرُبُوا ... وَتَسْكُبُ عَيْنَاىَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا

---

(١) أى أنشطهم ، من الفراهة وهى النشاط ، والفعل من باب كرم . (٢) رواية الديوان :

أرى أم حسان الغداة تلومنى ... تخوفنى لأعدء ، والنفس أخوف
لعل الذى خوّفتنا من أمامنا ... يصادفه فى أهله المتخلف

وهذا معنى كثير حسن جميل ، وقال حبيبُ بن أوْسٍ الطائىُّ :

أآلِفَةَ النَّحِيبِ كَمِ افْتِرَاقٍ   أَجَدَّ فكانَ داعيةَ اجْتِماعِ
وليْسَتْ فرْحةُ الأَوْبَاتِ إلاَّ   لِمَوْقُوفٍ على تَرَحِ الْوَدَاعِ

وقال رجل واُعْتلَّ فى غُرْبةٍ فتذكَّر أهله :

لَوْ أَنَّ سَلْمَى أَبْصرَتْ تَخَدُّدِى   وَدِقَّةً فى عَظْمِ سَاقِى وَيَدِى
وَبُعْدَ أَهْلِى وَجَفَاءَ عُوَّدِى   عَضَّتْ مِنَ الْوَجْدِ بِأَطْرَافِ الْيَدِ

قوله : أبصرت تخدُّدى ، يريد ما حَدَثَ فى جسمه من النُّحول ، وأصل الخَدِّ ما شققتَهُ فى الأرض ، قال الشَّمَّاخُ :

فَقُلْتُ لَهُمْ خُدُّوا لَهُ بِرِمَاحِكُمْ   بِطَامِسَةِ الْأَعْلَامِ خَفَّاقَةِ الآلِ

ويقال للشيخ : قد تَخَدَّدَ ، يراد قد تَشَنَّجَ جِلْدُهُ ، وقال اللهُ عزَّ وجل : « قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ » ، وقيل فى التفسير : هؤلاء قوم خَدُّوا أخاديدَ فى الأرض ، وأشعلوا فيها نيرانًا لَحرَّقوا بها المؤمنين ، وقوله : عَضَّتْ من الْوَجْدِ بأطراف اليد ، فإن الحزين ، والمَغيظ ، والنادِمَ ، والمُتأسِّف يَعضُّ أطراف أصابعه جزَعًا ، قال اللهُ عز وجل : « عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ » وفى مثل ما ذكرنا من تَخَدُّدِ لحم الشيخ ، يقول القائل :

(ذَهَبَ الشَّبابُ فَلاَ شَبابَ جُمَانَا[1]   وَكأَنَّ ما قَدْ كَانَ لَمْ يَكُ كَانَا
وَطَوَيْتُ كَفِّى يَا جُمَانُ عَلَى الْعَصَا   وَكَفَى جُمَانَ بِطَيِّهَا حَدَثَانَا)
يَا مَنْ لِشَيْخٍ قَدْ تَخَدَّدَ لَحْمُهُ   أَفْنَى ثَلاثَ عَمَائِمٍ أَلْوَانَا

(١) مرخم : جمانة .

(ألوانا صفة لثلاث على المعنى كأنه قال مختلفاتٍ) :

سَوْداء حالِكةً وَسَحْق مُفوَّف   وَأجدَّ لوْنًا بعْدَ ذاكَ هِجَانَا
(صَحِبَ الزَّمانَ على اخْتِلافِ فُنُونِهِ   فأرَاهُ مِنْـــهُ كَرَاهَةً وَهوَانَا
قَصَرَ اللَّيَالِي خَطْوَهُ فتَدَانَى   وَحَنَوْنَ قَائِمَ صُلْبِهِ فتَحَانَى
وَالمَوْتُ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ   وَكَأنَّمَا يُعْنَى بِذاكَ سِـــوَانَا

قوله : أفنى ثلاثَ عمائم ألوانا ، يعنى أن شعره كان أسود ، ثم حَدَثَ فيه شيب مع السواد ، فذلك قوله : مُفوَّفٌ ، والتفْويفُ : التنقيش ، وإنما أخذ من الفُوف ، وهى النكتة البيضاء التى تَحْدُثُ فى أظفار الأحْداثِ ، وسميت بذلك لشَبَهِها بشجرة ، يقال لها الفُوفَةُ(١) وجمعها فُوفٌ ، والسَّحْقُ : الخَلَقُ ، يقال عنده : سَحْقُ ثوبٍ(٢) ، وجَرْدُ ثوْبٍ ، وسَمَلُ ثوبٍ ، وقوله أَجَدَّ : أى اسْتَجَدَّ لونا ، والهجان الأبيضُ ، وهى العمامة الثالثة ، يعنى حيث شَمِلَهُ الشيب.

---

(١) قال الشيخ المرصفى : كيف تشبه النكتة البيضاء بشجرة ؟ على أن اللغة لا تعرف شجرة اسمها الفوفة ، وقد فسرها الجوهرى قال : هى الحبة البيضاء فى باطن النواة التى تنبت منها النخلة .

(٢) من إضافة الصفة للموصوف .

باب

قال أبو العباس : من أمثال العرب : لم يَذْهَبْ من مالك ما وعَظَك . يقول إذا ذهب من مالك شيء فحذَّرك أن يحُلَّ بك مثلُه فتأديبه إياك عِوضٌ من ذهابه .

ومن أمثالهم : رُبَّ عَجلة تهبُ رَيْثا . وتأويله أن الرجل يَعْملُ العمل فلا يُحْكِمُهُ للاستعجال به فيحتاج إلى أن يعود فينقضه ثم يستأنف ، والرَّيْثُ الإبْطاء ، وراثَ عليه أمْرُهُ إذا تأخر .

ومن أمثال العرب : عَشٍّ ولا تغْترّ . وأصل ذلك أن يَمُرَّ صاحبُ الإبل بالأرض المُكْلِئَةِ ، فيقول : أدعُ أنْ أُعَشِّيَ إبلى منها حتى أرِدَ على أخرى ، ولا يدْرى ما الذى يَرِدُ عليه ، وقريب منه قولهم : أن ترِدَ الماء بماءٍ أكْيَسُ . وتأويله أن يَمُرَّ الرجل بالماء فلا يحْمِلَ منه اتِّكالاً على ماء آخر يصير إليه ، فيقال له : أن تحْمِلَ معكَ ماء أحْزَمُ لك ، فإن أصبتَ ماء آخر لم يضرك ، فإن لم تحْمِلْ خفقتَ من الماء عَطِبْتَ .

ومن أمثالهم : قد أحْزِمُ لو أعْزِمُ ، يقول : أعْرِفُ وجه الحَزْمِ فإن عَزَمْتُ فأمضيتُ الرأى فأنا حازمٌ ، وإن تركت الصواب وأنا أراه وضيَّعْتُ العَزْمَ لم ينفعنى حَزْمى ، ومثله قول النابغة الجَعْدِي :

أبَى لِى البَلاءُ وأنِّى امْرُؤٌ ... إذا ما تبيَّنْتُ لمْ أرْتَبِ

وقال أعرابى يمدح سَوَّارَ بن عبد الله :

وَأَوْقَفُ عِنْدَ الأَمْرِ مَا لَمْ يَضِحْ لَهُ ... وَأَمْضَى إذا ما شَكَّ مَنْ كانَ مَاضِيَا

فالذى يُحْمَدُ إمضاء ما تبين رُشْدُهُ ، فأما الإقدام على الغَرَرِ (١) ورُكوب الأمر على الخَطَرِ ، فليس بمحمود عند ذوى الألباب ، وقد يتحسَّنُ بمثله الفُتَّاكُ ، كما قال (هو سَعْدُ بن ناشِبٍ المازِنىُّ عن الرِّياشِىِّ وغيره) :

عَلَيْكُمْ بدَارِى فَاهْدِمُوهَا فإنَّهَا ... تُرَاثُ كَرِيمٍ لا يَخَافُ العَوَاقِبَا

إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَــيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ ... وَأَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِ العَوَاقِبِ جَانِبَا

وَلَمْ يَسْتَشِرْ فِى رَأْيِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ ... وَلَمْ يَرْضَ إِلَّا قَائِمَ السَّيْفِ صَاحِبَا

فهذا شأن الفُتَّاكِ ، وقال الآخر :

غُلَامٌ إذَا مَا هَمَّ بِالْفَتْكِ لَمْ يُبَلْ ... أَلَامَتْ قَلِيلاً أَمْ كَثِيراً عَوَاذِلُهْ

وقال آخر :

وَمَا العَجْزُ إلَّا أنْ تُشَاوِرَ عَاجِزاً ... وَمَا الحَزْمُ إلَّا أَنْ تَهُمَّ فَتَفْعَلَا

فأما قول علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : مَنْ أَكْثَرَ الفِكْرَةَ فى العَوَاقِبِ لم يَشْجُعْ ، فتأويله أنه من فَكَّرَ فى ظفر قِرْنِهِ به ، وعُلُوِّهِ عليه ، لم يُقْدِمْ ، وإنما كان الحَزْمُ عند علىٍّ رضى الله عنه أن يَحْظُرَ أمر الدين ثم لا يُفَكِّرَ فى الموت ، وقد قيل له : أَتقتل أهل الشام بالغداة ، وتَظْهَر بالعَشِىِّ فى إزارٍ ورِداء ؟ فقال : أبا الموتِ أُخَوَّفُ ؟ والله ما أبالى أسَقَطْتُ على الموت ، أم سَقَطَ الموتُ علىَّ .

---

(١) هو التغرير بالنفس ، وتعريضها للهلاك .

وقال للحسن ابنِهِ : لا تَبْدَأْ بدعاء إلى مُبارَزَةٍ ، فإن دُعيتَ إليها فأجِبْ، فإنَّ طالبها باغ والباغى مَصْرُوع .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يَلْتَفُّ فى كِسائِهِ وينام ناحية المسجد ، فلما وَرَدَ المَرْزُبانُ عليه (كذا وقعت الرواية المرزُبان ، والصواب الهُرْمُزَان ، وكان صاحب تُسْتَرَ) جعلوا يسألون عنه ، فيقال : مَرَّ هاهنا آنِفاً ، فيَصْغُرُ فى قلب المَرْزُبان إذ رآه كبعض السُّوقِ ، حتى اُنتهى إليه ، وهو نائم فى ناحية المسجد ، فقال المَرْزُبان : هذا والله المُلْكُ الهنىء . يقول لا يحتاج إلى أحْرَاسٍ ولا عُدَدٍ ، فلما جلس عمر اُمتلأ قلبُ العِلْج منه هَيْبةً لما رأى عنده من الجِدِّ والاجتهاد ، وأُلْبِسَ من هَيْبةِ التقوى .

⁂

وقال الكَلْبي : قال لى خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كُرْزٍ القَسْرِيُّ : ماتعَدُّون السُّودَد ؟ فقلتُ : أما فى الجاهلية فالرِّياسة، وأما فى الإسلام فالولاية، وخَيْرٌ من ذا وذاك التَّقْوى ، فقال لى : صَدَقْتَ كان أبى يقول: لم يُدْرِكِ الأولُ الشَّرَفَ إلا بالفعل ، ولا يدركه الآخِرُ إلا بما أدركَ به الأولُ ، قال فقلتُ : صدقَ أبوكَ ، ساد الأَحْنفُ بحلمه ، وساد مالك بن مِسْمَعٍ بمحبة العَشيرة له ، وساد قُتَيْبَةُ بدَهائه ، وساد المُهَلَّبُ بجميع هذه الخِلال ، فقال لى : صدقتَ ، كان أبى يقول : خيرُ الناسِ للناس خيرهم لنفسه ، وذلك أنه إذا كان كذلك اُتَّقَى على نفسه من السَّرَق لئلا يُقْطَعَ ، ومن القتل لئلا يُقادَ ، ومن الزنا لئلا يُحَدَّ ، فَسَلِمَ الناس منه بإتقائه على نفسه .

قال أبو العباس : وكان عبد اللّٰه بن يزيد أبو خالد من عقلاء الرجال ، قال له عبد الملك يومًا : ما مالُكَ ؟ فقال : شيئان لا عَيْلَةَ علىَّ معهما ، الرضا عن اللّٰه ، والغِنى عن الناس . فلما نهضَ من بين يديه قيل له : هلاَّ خَبَّرْتَه بمقدار مالِكَ ؟ فقال : لم يَعْدُ أن يكون قليلا فيَحْقِرَنى ، أو كثيراً فيَحْسُدَنى .

وقال رسول الله صلى اللّٰه عليه وسلم : مَنْ سَرَّهُ أن يكون أعزَّ الناسِ فَلْيَتَّقِ اللّٰه ، ومن سَرَّهُ أن يكون أغْنَى الناسِ فلْيَكُنْ بما فى يد الله أوْثقَ منه بما فى يده ، ومَنْ سَرَّهُ أن يكون أقْوَى الناسِ فليتوكل على اللّٰه .

وقال علىّ بن أبى طالب رضى اللّٰه عنه : مَنْ سَرَّهُ الغِنى بلا مال ، والعِزُّ بلا سُلْطانٍ ، والكثرة بلاعشيرةٍ ، فلْيَخْرُجْ من ذُلِّ معصية الله إلى عِزِّ طاعته ، فإنه واجد ذلك كله .

وخَطَبَ رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ذاتَ يوم فحَمِدَ اللّٰه بما هو أهْلُهُ ثم أقْبَلَ على الناس ، فقال : أيها الناس إن لكم معالِمَ فانْتَهُوا إلى معالِمِكُمْ ، وإن لكم نِهايةً فانتهوا إلى نهايتكم ، فإن العبد بين مَخافتَيْنِ : أجَلٌ قد مضى لا يَدْرِى ما اللّٰه فاعِلٌ فيه ، وأجَلٌ باقٍ لا يَدْرِى ما اللّٰهُ قاضٍ فيه ، فَلْيَأْخُذِ العبدُ من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشّبيبة قبل الكِبَرِ ، ومن الحياة قبل المماتِ ، فوالذى نفسُ محمد بيَدِهِ ما بعد الموت من مُسْتَعْتَبٍ ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجَنَّةُ أو النارُ .

وقال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم أمرنى ربى بتسع : الإخلاصُ فى السِّرِّ والعَلانيةِ ، والعَدْلُ فى الغضب والرِّضا ، والقَصْدُ فى الفقر والغنى ،

وأن أعْفُوَ عمن ظلمنى ، وأصِلَ من قَطَعَنى ، وأُعْطِيَ مَنْ حَرَمَنى ، وأن يكون نُطْقِى ذكراً ، وصَمْتِى فِكْرًا ، ونَظَرِى عِبْرَةً .

***

وحُدِّثْتُ أنه الْتَقَى حَكِيمانِ ، فقال أحدهما للآخر إنى لَأُحِبُّكَ فى اللّٰه ، فقال له الآخر : لو علمتَ منى ما أعْلَمُهُ من نفسى لأَبْغَضْتَنِى فى اللّٰه ، فقال له صاحبه لو عَلِمْتُ منك ما تَعْلَمُهُ من نَفْسِك ، لكان لى فيما أعْلَمُهُ من نفسى شُغْلٌ .

وكان مالِكُ بن دِينارٍ يقول : جاهدوا أهْواءكُمْ كما تُجاهدون أعْداءكم .

وكان يقول : ما أَشَدَّ فطامَ الكبير .

وقيل لعمر بن عبد العزيز : أىُّ الجهادِ أفضلُ ؟ فقال : جهادُكَ هواكَ .

وكان الحسن يقول : حادِثوا هذه القلوبَ ، فإنها سريعة الدُّثور ، واقْدَعُوا هذه الأنْفُسَ ، فإنها طُلَعةٌ ، وإنكم إلاَّ تقدَعوها تنْزِعْ بكم إلى شرِّ غاية .

قوله : حادثوا مَثَلٌ ، ومعناه اجْلُوا واشْحَذُوا ، تقول العرب : حادَثَ فلانٌ سَيْفَهُ إذا جلاه وشَحَذَهُ ، وقال زَيْدُ الْخَيْلِ :

وَقَدْ عَلِمَتْ سَلَامَةُ أَنَّ سَيْفِى كَرِيهٌ كُلَّمَا دُعِيَتْ نَزَالِ
أُحادِثُهُ بِصَقْلٍ كُلَّ يَوْمٍ وَأَعْجُمُهُ بِهَامَاتِ الرِّجَالِ

قوله أَعْجُمُهُ بهامَاتِ الرِّجالِ : أى أَعَضُّهُ ، يقال عَجَمَهُ إذا عضَّهُ ، والدُّثور الدُّروسُ ، يقال : دَثَرَ الرَّبْعُ إذا انْمحى ، ومعناه تعهَّدُوها بالفِكْرِ والذِّكْرِ : وقوله : فإنها طُلَعَةٌ ، يقول كثيرة التَّشَوُّف والتَّنَزِّى إلى ما ليس لها ، وأنشد الأَصْمَعِيُّ :

وَلاَ تَمَلَّيتِ مِنْ مَالٍ وَلاَ عُمُرٍ   إلاَّ بِمَا سَاءَ نَفْسَ الحَاسِدِ الطُّلَعَهْ

(الرواية الصحيحة بكسر التاء لا غير لأنه يخاطب أُمرأة تقدم ذكرها فى الشعر يدعو عليها) قال ويقال للجارية إذا كانت تُبْرِزُ وجهها لِتُرِىَ حُسْنَها ثم تُخْفيه لتُوهِمَ الحَيَاء : خُبَأَةٌ طُلَعَةٌ .

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يقول : أيها الناس إنما خُلِقْتُمْ للأَبَدِ ولكنكم تُنْقَلون من دارٍ إلى دارٍ ، ويروى عن المَسِيحِ صلواتُ اللهِ عليه وسلامه أنه كان يقول : إن احتجتم إلى النَّاس فكلُوا قَصْدًا وامْشوا جانبًا .

ولَمَّا أُحْتُضِرَ قَيْسُ بن عاصِمٍ قال لِبنيه : يا بَنِيَّ أُحفظوا عنى ثلاثًا ، فلا أَحَدَ أَنْصَحُ لكم منى ، إذا أنا مِتُّ فَسَوِّدوا كِبارَكم ، ولا تُسَوِّدوا صِغارَكم ، فيُحَقرَ الناسُ كبارَكم ، وتَهونوا عليهم ، وعَلَيْكُمْ بِحِفْظِ المالِ فإنه مَنْبَهَةٌ للكريم ، ويُسْتَغْنَى به عن اللئيم ، وإياكم والمَسْأَلة فإنها أَخِرُ كَسْبِ الرجل (أَخِرُ بقصر الهمزة لا غير ، ومن رواه بالمد أخطأ ، ومعنى أَخِرُ أَدْنَى وأَرْذَلُ) .

باب

قال أبو العباس : أُنْشِدْتُ لرجل من الأَعْراب يرْثى رجلا منهم :

فَلَوْ كَانَ شَيْخاً قدْ لَبِسْنَا شَبَابَهُ ... وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَعْدُ أَنْ طَرَّ شَارِبُهْ

وَقَاكَ الرَّدَى مَنْ وَدَّ أَنَّ ابْنَ عَمِّهِ ... يُرَى مُقْتِرًا أَوْ أَنَّهُ ذَلَّ جَانِبُهْ

وقال الآخر : (حَسَّانُ بن ثابتٍ) لامرأته :

فَإِمَّا هَلَكْتُ فَلاَ تَنْكِحِى ... ظَلُومَ الْعَشِيرَةِ حَسَّادَهَا

يَرَى مَجْدَهُ ثَلْبَ أَعْرَاضِهَا ... لَدَيْهِ وَيُبْغِضُ مَنْ سَادَهَا

وقال آخر : (قال أبو الحسن هو ليزيدَ بن حَبْناء أو لصَخْرِ بن حَبْناء : يقوله لأخيه) :

لَحَا اللهُ أَكْبَانَا زِنَادًا وَشَرَّنَا ... وَأَيْسَرَنَا عَنْ عِرْضِ وَالِدِهِ ذَبَّا

رَأَيْتُكَ لَمَّا نِلْتَ مَالاً وَمَسَّنَا ... زَمَانٌ تَرَى فى حَدِّ أَنْيَابِهِ شَغْبَا

جَعَلْتَ لَنَا ذَنْبًا لِتَمْنَعَ نَائِلاً ... فَأَمْسِكْ وَلاَ تَجْعَلْ غِنَاكَ لَنَا ذَنْبَا

قوله : أكبانا زناداً ، الزِّنادُ التى تُقْدَحُ بها النار ، ويقال ، أَوْرَى القادِحُ إذا خرجتْ له النارُ ، وأَكْبَى إذا أَخْفَقَ منها ، هذا أصله يُضْرَبُ للرجل الذى يَنْبَعِثُ الخيرُ على يديه ، ويُضْرَبُ الإكْباء للذى يمتنعُ الخيرُ على يديه ، قال الأعشى :

وَزَنْدُكَ خَيْرُ زِنَادِ المُلُو ... كِ صَادَفَ مِنْهُنَّ مَرْخٌ عَفَارَا

وَلَوْ بِتَّ تَقْدَحُ فى ظُلْمَةٍ ... صَفَاةً بِنَبْعٍ لأَوْرَيْتَ نَارَا

والمَرْخُ والعَفار شجر تُسْرِعُ فيه النار ، ومن أمثالهم : فى كُلِّ شَجَرٍ نارٌ ، واسْتَمْجَدَ المَرْخُ والعَفارُ ، واسْتَمْجَدَ : اسْتَكْثَرَ ، يقال : أَمْجَدْتُهُ سبًّا ، وَأَمْجَدْتُهُ ذمًّا ، إذا أكثرتَ من ذلك ، ومن أمثالهم : أَرْخِ يديك واسْتَرْخِ ، إنَّ الزِّنادَ من مَرْخ . ويقال : رجل ذو شَغْبٍ إذا كان يَشْغَبُ على خصمه ، ضربه مَثَلاً للزمان الذى يَهُرُّ على أربابه ، أى يَمَسُّهُمْ بالفقر والجَدْبِ . وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب :

رَأَيْتُ فُضَيْلاً كَانَ شَيْئاً مُلَفَّفاً ... فَكَشَّفَهُ التَّمْحِيصُ حَتَّى بَدَا لِيَا
أَأَنْتَ أَخِى مَالَمْ تَكُنْ لِى حَاجَةٌ ... فَإِنْ عَرَضَتْ أَيْقَنْتُ أَنْ لاَ أَخَا لِيَا
فَلاَ زَادَ مَا بَيْنِى وَبَيْنَكَ بَعْدَمَا ... بَلَوْتُكَ فى الْحَاجَاتِ إلاَّ تَمَادِيَا
فَلَسْتُ بِرَاءٍ عَيْبَ ذِى الْوُدِّ كُلَّهُ ... وَلاَ بَعْضَ مَا فِيهِ إِذَا كُنْتُ رَاضِيَا
فَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ ... وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِى الْمَسَاوِيَا
كِلاَنَا غَنِىٌّ عَنْ أَخِيهِ حَيَاتَهُ ... وَنَحْنُ إِذَا مُتْنَا أَشَدُّ تَغَانِيَا

قوله : كان شيئاً ملففاً يقول : كان أمراً مُغَطًّى ، والتمحيص الاختبار ، يقال : أدخلتُ الذَّهَبَ فى النار فَمَحَّصْتُهُ : أى خرج عنه ما لم يكن منه ، وخَلَصَ الذهبُ ، قال الله عزّ وجل : « وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ » ويقال : مُحِّصَ فلانٌ من ذنوبه ، وقوله :

* أَأَنْتَ أَخِى مَالَمْ تَكُنْ لِى حَاجَةٌ * تقرير وليس باستفهام ، ولكنّ معناه إنى قد بَلَوْتُكَ تُظْهِرُ الإخاء فإذا بدت الحاجة لم أَرَ من إخائك شيئاً قال الله عزّ وجل : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ »

إنما هو توبيخ وليس باستفهام ، وهو جل وعزّ العالِمُ بأنّ عيسى لم يَقُلْهُ ، وقد ذكرنا التقرير الواقع بلفظ الاستفهام فى موضعه من الكتاب المُقْتضب مُسْتَقْصًى ، ونذكر منه جملة فى هذا الكتاب إن شاء ٱللّٰه تعالى .

⁂

وقال علىّ بن أبى طالب رضى ٱللّٰه عنه : ثلاثةٌ لا يُعْرَفون إلا فى ثلاثٍ ، لا يُعْرَفُ الشُّجاعُ إلا فى الحَرْبِ ، ولا الحَليمُ إلا عند الغَضَبِ ، ولا الصَّديقُ إلا عند الحاجة .

وقال عبد ٱللّٰه بن معاوية أيضاً (ذكر دِعْبِلٌ فى أخبار الشُّعَراء له أن هذا الشعر لعبد الله بن الزَّبِيرِ الأَسَدِىّ) :

أَنَّى يَكُونُ أَخًا أَوْ ذَا مُحافَظَةٍ ... مَنْ كُنْتَ فى غَيْبِهِ مُسْتَشْعِرًا وجلاَ
إذَا تَغَيَّبَ لَمْ تَبْرَحْ تَظُنُّ بِهِ ... سُوءًا وَتَسْأَلُ عَمَّا قالَ أَوْ فَعلاَ

وقال آخر :

سَأَشْكُرُ عَمْراً ما تَراخَتْ مَنِيَّتِى ... أَيادِىَ لَمْ تُمْنَنْ وَإِنْ هِىَ جَلَّتِ
فَتًى غَيْرُ مَحْجُوبِ الْغِنَى عَنْ صَدِيقِهِ ... وَلاَ مُظْهِرُ الشَّكْوَى إذَا النَّعْلُ زَلَّتِ
رَأَى خَلَّتِى مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مَكانُها ... فَكانَتْ قَذَى عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجَلَّتِ

وتمثل علىٌّ بن أبى طالب رضى ٱللّٰه عنه فى طَلْحَة بن عُبَيْد الله رضى ٱللّٰه عنه :

فَتًى كانَ يُدْنِيهِ الْغِنَى مِنْ صَدِيقِهِ ... إذَا مَا هُوَ ٱسْتَغْنَى وَيُبْعِدُهُ الفَقْرُ
فَتًى لاَ يَعُدُّ المَالَ رَبًّا وَلاَ تُرَى ... بِهِ جَفْوَةٌ إِنْ نَالَ مَالاً وَلاَ كِبْرُ

فَتًى كَانَ يُعْطِي السَّيْفَ فى الرَّوْعِ حَقَّهُ ... إذا ثَوَّبَ الدَّاعِي وَتَشْقَى بِهِ الجُزُرُ
وَهَوَّنَ وَجْدِى أَنَّنِي سَوْفَ أَغْتَدِى ... عَلَى إِثْرِهِ يَوْمًا وَإِنْ نَفَّسَ العُمْرُ

(قال أبو الحسن: بعضهم يقول هو للأُبَيْرِدِ الرِّياحِيِّ، وبعد البيت الثالث:

فَلَا يُبْعِدَنْكَ اللهُ إِمَّا تَرَكْتَنَا ... حَمِيداً وَأَوْدَى بَعْدَكَ المَجْدُ وَالفَخْرُ)

⁂

قال أبو العباس: حدثني التَّوَّزِيُّ قال: حدثني محمد بن عبّاد بن حبيب ابن المُهَلَّبِ أحْسِبُهُ عن أبيه. قال: لما انقضى يوم الجَمَلِ، خرج عليٌّ بن أبي طالبٍ رضى الله عنه فى ليلة ذلك اليوم ومعه قَنْبَرٌ وفى يده مَشْعَلَةٌ من نار يَتَصَفَّحُ القَتْلَى حتى وقف على رجلٍ، قال التَّوَّزِيُّ فقلتُ: أهو طَلْحَةُ؟ قال نعم، فلما وقف عليه قال: أَعْزِزْ عَلَيَّ أبا محمدٍ أَنْ أراكَ مُعَفَّرًا تحت نُجُوم السماء وفى بطون الأَوْدِيَة، شَفَيْتُ نفسى وقتلتُ مَعْشَرِى، إلى الله أَشْكُو عُجَرِى وبُجَرِى.

قوله مُعَفَّرًا: أى مُلْصَقَ الوجهِ بالتراب، ويقال للتراب العَفَرُ والعَفْرُ، يقال ما مَشَى عَلَى عَفَرِ التراب مِثْلُ فلانٍ. وقوله إلى الله أشكو عُجَرِى وبُجَرِى يقول ما أُسِرُّ من أمرى، قال الأصمعى: وهو قولٌ سائرٌ فى أمثال العرب: لَقِيَ فلانٌ فلانًا فَأَبَثَّهُ عُجَرَهُ وبُجَرَهُ.

وقال النَّمِرُ بن تَوْلَبٍ: (كل نَمِرٍ فى العرب كالنَّمِرِ بن قاسِطٍ وغيره مكسور النون مجزوم الميم إلا النَّمِرَ بن تَوْلَبٍ عن ابن دُرَيْدٍ، قال أبو حاتم يقال النَّمْرُ بفتح النون وتسكين الميم ولا يقال النَّمِرُ):

تَدَارَكَ مَا قبلَ الشَّبَابِ وَبَعْدَهُ ... حَـوَادِثُ أَيَّامٍ تَمُرُّ وَأَغْفَلُ

يَسُرُّ الْفَتَى طُولُ السَّلَامَةِ وَالْبَقَا ... فَكَيْفَ يَرَى طُولَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ

يَرُدُّ الْفَـتَى بَعْدَ اعْتِدَالٍ وَصِحَّةٍ ... يَنُوءُ إِذَا رَامَ الْقِيَامَ وَيُحْمَلُ

قصر البقاء ضرورة ، وللشاعر إذا اضْطُرَّ أن يَقْصُرَ الممدود ، وليس له أن يَمُدَّ المقصور ، وذلك أن الممدود قبل آخره ألف زائدة ، فإذا احتاج حذَفَها لأنها ألف زائدة ، فإذا حذفَها ردَّ الشىء إلى أصله ، فلو مدَّ المقصور لكان زائداً فى الشىء ما ليس منه ، قال الشاعر ، وهو يَزيدُ بن عمرو بن الصَّعِق :

فَرَغْتُمْ لِتَمْرِينِ السِّيَاطِ وَأَنْتُمُ ... يُشَنُّ عَلَيْكُمْ بِالْفِنَا كُلُّ مَرْبَعِ

فقصر الفِناء ، وهو ممدود . وقال الطِّرِمَّاحُ :

وَأَخْرَجَ أُمُّهُ لِسَوَاسِ سَلْمَى ... لِمَعْفُورِ الضَّرَا ضَرِمِ الْجَنِينِ

قوله وأخْرَجَ : يعنى رَماداً ، والأَخْرَجُ الذى فى لونه سواد وبياض ، يقال نَعامةٌ خَرْجاء ، وقوله لسواس سلمى ، فإنَّ أَجَأً وسَلْمَى جبلا طَيِّئٍ ، وسَواسُ سَلْمَى الموضع الذى بِحَضْرَةِ سَلْمَى ، يقال هذا من سُوس فُلانٍ ، ومن تُوس فلانٍ : أى من طَبْعِه ، وأُمُّهُ يعنى الشجرةَ التى هى أصله ، وقوله لمعفور الضَّرَا فالضَّراء ما واراك من شجرٍ خاصَّةً ، والخَمَرُ ما واراك من شىء ، والمعفور ما سقط من النار من الزَّنْدِ ، وقوله ضرم الجنين يقول مُشْتَعِلٌ ، والجنين ما لم يَظْهَرْ بَعْدُ ، يقال لِلْقَبْرِ جَنَنٌ ، والجَنينُ الذى فى بطن أمه ، والمِجَنُّ التُّرْسُ لأنه يَسْتُرُكَ ، والمجنون المُغَطَّى العقلِ ، ويسمى الجِنُّ جِنّاً لاختفائهم ، وتُسَمَّى الدُّرُوعُ : الْجُنَنُ لأنها تستر من كان فيها وقَصَرَ الضَّراء وهو ممدود ، ومثل هذا كثير

فى الشعر جدًّا، وقوله : ينوء إذا رام القيام ، يقول يَنْهَضُ فى تثاقُلٍ ، قال أَللهُ عزَّ وجل : « مَا إنَّ مَفاتِحَهُ لتنُوءِ بِالْعُصْبَةِ » ، والمعنى أن العُصْبَة تَنُوء بالمفاتيح ، ولشرح هذا موضع آخر ، وقال آخر : (لعَمْرِو بن قَمِيئَة) :

عَلَى الرَّاحَتَيْنِ مَرَّةً وَعَلَى الْعَصَا ... أَنُوءُ ثَلاثًا بَعْدَهُنَّ قِيَامِى

ويُرْوَى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : كَفَى بالسَّلامَةِ داء ، وقال حُمَيْدُ بن ثَوْرٍ الهِلالِىُّ :

أَرَى بَصَرِى قَدْ رَابَنِى بَعْدَ صِحَّةٍ ... وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَصِحَّ وَتَسْلَمَا

وَلاَ يَلْبَثُ العَصْرَانِ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ ... إِذَا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكَا مَا تَيَمَّمَا

وقال أبو حَيَّةَ النُّمَيْرِى :

أَلاَ حَيَّ مِنْ أَجْلِ الحَبِيبِ المَغَانِيَا ... لَبِسْنَ الْبِلَى مِمَّا لَبِسْنَ اللّيالِيَا

إِذَا مَا تَقَاضَى المَرْءَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ ... تَقَاضَاهُ شَيْءٌ لاَ يَمَلُّ التَّقَاضِيَا

وقال بعض شعراء الجاهلية :

كَانَتْ قَنَاتِى لاَ تَلِينُ لِغَامِزٍ ... فَأَلاَنَهَا الْإِصْبَاحُ وَالْإِمْسَاءُ

وَدَعَوْتُ رَبِّى فى السَّلاَمَةِ جَاهِدًا ... لِيُصِحَّنِى فَإِذَا السَّلاَمَةُ دَاءُ

وقال عَنْتَرَةُ بن شَدَّادٍ :

فَمَا أَوْهَى مِرَاسُ الْحَرْبِ رُكْنِى ... وَلٰكِنْ مَا تَقَادَمَ مِنْ زَمَانِى

ومن أمثال العرب إذا طال عمر الرجل أن يقولوا : لقد أَكَلَ عليه الدَّهْرُ وشَرِبَ ، إنما يريدون أنه أَكَلَ هو وشرب دَهْرًا طويلاً ، قال الجَعْدِىُّ :

(كَمْ رَأَيْنَا مِنْ أُنَاسٍ هَلَكُوا) ... أَكَلَ الدَّهْرُ عَلَيْهِم وَشَرِبْ

والعرب تقول : نهارُكَ صائم ، وليلك قائم : أى أنت قائم فى هذا وصائم فى ذاك ، كما قال الله عزّ وجل : « بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ » والمعنى والله أعلم بل مَكْرُكُمْ فى الليل والنهار ، وقالَ جرير :

لَقَدْ لُمْتِنَا يا أمَّ غَيْلانَ فى السُّرَى ‏ ‏ وَنِمْتِ وَما لَيْلُ المَطِىِّ بِنائِمِ

وقال الفَرَزْدَقُ :

تُبَكِّى عَلَى المَنْتُوفِ بَكْرُ بْنُ وَائِلٍ ‏ ‏ وَتَنْهَى عَنِ ابْنَىْ مِسْمَعٍ مَنْ بَكاهُما

غُلامَانِ شَبَّا فى الحُرُوبِ وَأَدْرَكا ‏ ‏ كِرَامَ المَسَاعِى قَبْلَ وَصْلِ لِحَاهُمَا

وابنا مِسْمَعٍ كَانَ قتلهما معاوية بن يزيد بن المُهَلَّبِ مع عَدِىِّ بن أَرْطاةَ لما أتاه خبر قتل أبيه ، وكان ابنا مسمع ممن خالف على يزيد بن المهلب ، والمَنْتُوف كان مَوْلًى لبنى قَيْسِ بن ثَعْلَبَةَ بن عُكابة ، وابنا مِسْمَعٍ من بنى قَيْسِ ابن ثعلبة ، وكان المنتوف كالخليفة ليزيد بن المهلب ، وفى ذلك يقول جَرير :

وَالأَزْدُ قدْ جَعَلُوا المَنْتُوفَ قائِدَهُمْ ‏ ‏ فَقَتَّلَتْهُمْ جُنُودُ اللهِ وَانْتُتِفُوا

وتمام شعر الفرزدق :

ولو قُتِلا مِنْ جِذْمِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ (١) ‏ ‏ لَكَانَ عَلَى النَّاعِى شَدِيدًا بُكَاهُمَا

وَلَوْ كَانَ حَيًّا مَالِكٌ وَابْنُ مَالِكٍ ‏ ‏ إِذًا أَوْقَدَا نَارَيْنِ يَعْلُو سَنَاهُمَا

السَّنا : ضوء النار ، وهو مقصور ، قال الله عز وجل : « يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصارِ » والسَّناء من الشرف ممدود ، قال حسَّانُ بن ثابتٍ :

وَإِنَّكَ خَيْرُ عُثْمانَ بْنِ عَمْرٍو ‏ ‏ وَأَسْناهَا إِذا ذُكِرَ السَّناءُ

---

(١) الجذم بالكسر : الأصل ، وهذه الرواية تنفى نسبهما عن بكر بن وائل ، ورواية الديوان :

ولو أصبحا من غير بكر بن وائل ‏ ‏ لكان على الجانى ثقيلا دماهما

والبكاء يمد ويُقْصَرُ ، فَمَنْ مَدَّ فإنما جعله كسائر الأصواتِ ، ولا يكون المصدر فى معنى الصوت مَضموم الأول إلا ممدودا ، لأنه يكون على فُعالٍ ، وَقَلَّمَا يكون المصدر على فُعَلٍ ، وقد جاء فى حروف نحو الهُدَى والسُّرَى وما أشبهه وهو يسير ، فأما الممدود فنحو : العُوَاء ، والُدعاء ، والرُّغاء ، والثُّغاء ، فكذلك البُكاء ، و نظيره من الصحيح الصُّراخُ والنُّباحُ ، ومن قَصَرَ فإنما جعل البكاء كالحُزْن ، وقد قال حَسَّانُ فَقَصَرَ وَمَدَّ :

بَكَتْ عَيْنِى وحُقَّ لَهَا بُكاهَا ... وَمَا يُغْنِى الْبُكاءُ وَلاَ الْعَوِيلُ

وقال جرير :

قالُوا نَصِيبَكَ مِنْ أَجْرٍ فَقُلْتُ لَهُمْ ... كَيْفَ الْعزاءُ وَقَدْ فارَقْتُ أَشْبالِى

هٰــذَا سَوادَةُ يَجْلُو مُقْلَتَىْ لَحِمٍ ... بَازٍ يُصَرْصِرُ فَوْقَ المَرْقَبِ الْعالِى

فارَقْتُهُ حِينَ غَضَّ الدَّهْرُ مِنْ بَصَرِى ... وَحِينَ صِرْتُ كَعَظْمِ الرِّمَّةِ الْبالِى

(نصيبَكَ بالنصب لاغير لأنه مفعول باضمار فعل ، تقديره احْفَظْ نصيبَكَ ، أو أُحْرُزْ نصيبك) قوله : يجلو مقلتى لَحِم ، شَبَّهَ مُقْلتيْه بِمُقْلَتَىِ البازى ، ويقال طائر لَحِمٌ من هذا ، وقوله يُصَرْصِرُ : يعنى يُصَوِّتُ ، يقال : صَرْصَرَ البازى ، والصَّقْرُ ، وما كان مِنْ سِباع الطير ، ويقال : صَرْصَرَ العُصْفورُ وأحْسِبُهُ مستعارًا لأن الأصل فيه أن يستعمل فى الجوارح من الطير ، قال جرير :

☆ بازٍ يُصَرْصِرُ بِالسَّهْبَىِّ [1] قَطًا جُونَا ☆

وقال آخر : ☆ كَمَا صَرْصَرَ الْعُصْفُورُ فى الرُّطَبِ الثَّعْدِ ☆

---

(١) السهبى بفتح السين : بلد من أعلا بلاد تميم .

وأنشدنى عُمارةُ : باز يُصَعْصِعُ وهو أصح (قال أبو الحسن يُصَعْصِعُ وهو الصواب ، ولكن هكذا وقع فى كتابه ويُصَرْصِرُ لا يتعدّى) وقوله كعظم الرِّمَّةِ : فهى البالية الذاهبة ، والرّميمُ : مشتق من الرِّمّةِ ، وإنما هو فَعيلٌ وفِعْلَةٌ وليس بجمع له واحد .

⁂

ومما كَفرت به الفقهاء الحَجّاجَ بن يوسف قولهُ ، والناس يَطوفون بقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومِنْبَرِهِ ، وإن شئت قلت يُطيفون ، قال أبو زيد تقول العرب : طُفْتُ وَأَطفتُ به ، وَدُرْتُ وأدَرْتُ به ، ويقال : حَدَقَ وَأَحْدَقَ . قال الأَخْطَلُ :

المُنْعِمُونَ بَنُو حَرْبٍ وَقَدْ حَدَقَتْ ... بِيَ المَنِيَّةُ وَاسْتَبْطَأْتُ أَنْصَارِى

إنما يَطوفونَ بأعْوادٍ ورِمَّةٍ(١) .

ومن أمثال العرب : «لَوْلاَ أن تُضيِّعَ الفِتيانُ الذِّمَّةَ لَخبّرتُها بما تجِدُ الإبلُ فى الرِّمَّةِ» يقول : لولا أن تدعَ الأَحْداثُ التّمسُّكَ بالوفاء ، والرِّعايةَ للحُرْمةِ لأعلمتها أن الإبل تتناول العظم البالى وهو أقل الأشياء فتجدُ له لذّةً .

ومثل بيت جريرٍ الأخير قول أبى الشّغْبِ يرثى ابنه شَغْبًا :

قَدْ كَانَ شَغْبٌ لَوَانَّ اللهَ عَمَّـرَهُ ... عِزًّا تُزَادُ بِهِ فِى عِـزِّهَا مُضَرُ

لَيْتَ الجِبَالَ تَداعَتْ قبلَ مَصْرَعِهِ ... دَكًّا فَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَحْجَارِهَا حَجَرُ

فَارَقْتُ شَغْبًا وَقَدْ قَوَّسْتُ مِنْ كِبَرٍ ... بِئْسَ الخَلِيقَانِ طُولُ الحُزْنِ وَالكِبَرُ(٢)

---

(١) هذه كلمة الحجاج ، وما قبلها استطراد من المؤلف .

(٢) ويروى : لبئست الخلتان الثكل والكبر .

قوله قوّست يقول انحنيتُ كالقوس ، قال امرُؤُ القيْس :

أراهنّ لا يُحْبِبْنَ مَنْ قلّ مالهُ ... ولا مَنْ رأيْنَ الشيْبَ فيهِ وَقوّسا

وقال سليمان بن قتّة : يرثى الحسين بن علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهما :

مَرَرْتُ على أبْيات آلِ مُحمّدٍ ... فلمْ أرها كعهْدِها يوْمَ حُلّتِ

فلا يُبْعِدِ اللهُ الدّيارَ وأهْلَها ... وإنْ أصْبحتْ منْ أهْلِها قدْ تخلّتِ

وإنّ قتيلَ الطفّ(١) منْ آلِ هاشِمٍ ... أذلّ رقابَ المُسْلِمينَ فذلّتِ

وكانُوا رجاءً ثمّ صارُوا رزِيّةً ... فقدْ عظُمتْ تلْكَ الرّزايا وجلّتِ

وعِنْدَ غنِيٍّ(٢) قطْرةٌ منْ دِمائنا ... سنَجْزيهمُ يوْمًا بها حيْثُ حلّتِ

إذا افْتقرتْ قيْسٌ جبرْنا فقيرَها ... وتقْتُلُنا قيْسٌ إذا النّعْلُ زلّتِ

وسليمان بن قتّة : رجل من بنى تَيْم بن مُرّةَ بن كَعْب بن لُؤَىّ ، وكان منقطعاً إلى بنى هاشمٍ .

وقال الفرزْدقُ يرثى ابْنيْهِ :

بِفِى الشّامِتينَ التّرْبُ أنْ كانَ مسّنى ... رزِيّةُ شِبْلَىْ مُخْدِرٍ(٣) فى الضّراغِمِ

وما أحــــدٌ كانَ المنايا وراءهُ ... ولَوْ عاشَ أيّامًا طِوالاً بسالِمِ

أرى كلّ حىّ ما تزالُ طليعةٌ ... عليْهِ المنايا منْ ثنايا المخارِمِ

يُذكّرُني ابنَىّ السّماكانِ(٤) موْهِنًا(٥) ... إذا ارْتفعا فوْقَ النّجُومِ العواتِمِ

---

(١) الطف : أرض بضاحية الكوفة .

(٢) اسم قبيلة . (٣) مخدر : لزم خدره : أى عرينه .

(٤) السماكان : كوكبان أحدهما اسمه الرامح والآخر اسمه الأعزل .

(٥) الموهن والوهن : اسم لنصف الليل .

وَقَدْ رُزِئَ الْأَقْوَامُ قَبْلِي بَنِيهِمُ ... وَإِخْوَانَهُمْ فَاقْنَىْ حَيَاءَ الْكَرَائِمِ
وَمَاتَ أَبِي وَالْمُنْذِرَانِ كِلَاهُمَا ... وَعَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ شِهَابُ الْأَرَاقِمِ
وَقَدْ كَانَ مَاتَ الْأَقْرَعَانِ وَحَاجِبٌ ... وَعَمْرٌو أَبُو عَمْرٍو وَقَيْسُ بْنُ عَاصِمِ
وَقَدْ مَاتَ بِسْطَامُ بْنُ قَيْسِ بْنِ خَالِدٍ ... وَمَاتَ أَبُو غَسَّانَ شَيْخُ اللَّهَازِمِ
وَقَدْ مَاتَ خَيْرَاهُمْ فَلَمْ يُهْلِكَاهُمُ ... عَشِيَّةَ بَانَا رَهْطِ كَعْبٍ وَحَاتِمِ
فَمَا ابْنَاكِ إِلَّا مِنْ بَنِي النَّاسِ فَاصْبِرِي ... فَلَنْ يَرْجِعَ الْمَوْتَى حَنِينُ الْمَآتِمِ

وأنشدنى التَّوَّزِىُّ عن أبى زيد خَنِينُ المآتم بالخاء معجمة (الخَنين : بالخاء صوت من الخيشوم) قوله ما تزال طليعة يريد طالِعةً ، والثَّنايا جمع ثَنِيَّةٍ ، وهى الطَّرِيق فى الجبل ، من ذلك (الشعر لسُحَيْم بن وَثِيلٍ الرِّياحِىِّ) :

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَايَا ... مَتَى أَضَعِ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِى

والمَخارِمُ : جمع مَخْرِمٍ ، وهو مُنْقَطَعُ أنف الجبل ، وقوله : فوق النجوم العَوَاتِمِ ، يعنى المتأخرة ، يقال فلان يأتينا ولا يُعَتِّمُ : أى لا يتأخر ، وعَتَمَةٌ اسم للوقت ، فلذلك سميت الصلاةُ بذلك الوقتِ ، وكل صلاة مضافةٌ إلى وقتها تقول صلاةُ الغَداةِ ، وصلاةُ الظهرِ ، وصلاةُ العصرِ . وأما قولك الصلاةُ الأولى فالأولى نعت لها إذ كانت أوَّلَ ما صُلِّىَ ، وقيل أوَّلَ ما أُظْهِرَ ، وقوله : فاقْنَىْ حَياء الكرائم يقول فالزَمِى ، وأصل القِنْيَةِ المالُ اللازمُ ، تقول اقْتَنَى فلانٌ مالاً إذا اتَّخذَ أصل مالٍ ، وقيل فى قول الله عز وجل : « وأنه هو أغْنَى وأقْنَى » أى جعلَ لهم أصل مال ، وأنشد أبو عبيدة (الشعر لأبى المُثَلَّم الهُذَلِىِّ يرثى صَخْرًا) :

لَوْ كَانَ لِلدَّهْرِ عِزٌّ يَطْمَئِنُّ بِهِ[١] لَكَانَ لِلدَّهْرِ صَخْرٌ مَالَ قُنْيَانِ

والكَرائم جمع كَرِيمة ، والاسم من فعيلةٍ والنعتُ يجمعان على فَعائِلَ ، فالاسم نحو : صَحيفةٍ وصحائفَ ، وسَفينةٍ وسَفائنَ ، والنعت نحو : عَقيلةٍ وعَقائلَ ، وكَريمةٍ وكَرائمَ . وقوله ومات أبى ، يريد التأسى بالأشراف ، وأبوه غالِبُ بن صَعْصَعَةَ بن ناجيةَ بن عِقال بن محمد بن سُفْيان بن مُجاشعٍ ، وكان أبوه شريفاً وأجداده إلى حيث انتهَوْا ، ولكل واحد منهم قصة يطول الكتاب بذكرها ، والمُنْذران : المُنْذِرُ بن المنذر بن ماء السَّماء اللَّخْميُّ يريد الابن والأب ، وعمرو بن كلثوم التَّغْلبيُّ قاتل عمرو بن هند وكان أحَدَ أشراف العرب وفُتَّاكِهِمْ وشعرائهم ، والأراقِمُ : قبيلة من بنى تَغْلِبَ بنتِ وائل من بنى جُشَمَ بن بَكْرٍ . وزعم أهل العلم أنهم إنما سُمُّوا الأراقم لأن عُيونهم شُبِّهَتْ بعيون الحَيَّاتِ ، والأراقم واحدها أرْقَمْ ، فكانوا معروفين بهذا ، قال الفرزدق يَرُدُّ على جَرير فى هجائه له وللأخْطَلِ :

إنَّ الأَراقِمَ لَنْ يَنالَ قَدِيمَهَا كَلْبٌ عَوَى مُتَهَتِّمُ الأَسْنَانِ

وجعله شِهاباً لهم لنوره وبهائه وضيائه ، تقول العرب إنما فلانٌ نَجْمُ أهلِهِ ، وكذلك قالت الخَنْساء * كَأَنَّهُ عَلَمٌ فى رَأْسِهِ نَارُ * والأقْرعان : الأقْرَعُ ابن حابسٍ وابنه الأقْرَعُ من بنى مُجاشِعِ بن دارِمٍ ، وكان الأقْرَعُ فى صدر الإسلام سَيِّدَ خِنْدِفَ ، وكان مَحَلُّهُ فيها مَحَلَّ عُيَيْنَةَ بن حِصْنٍ فى قَيْسٍ . وحاجِبُ بن زُرارَةَ بن عُدَسَ سَيِّدُ بنى تَميم فى الجاهلية غير مُدافَعٍ ، وعمرو

(١) الرواية : لوكان للدهر مال عند متلده .

أبو عمرو ، يريد عمرو بن عُدَسَ وكان شريفاً ، وكان ابنه عمرو شريفاً ، قتل يوم جبَلَةَ قتلته بنو عامر بن صعْصَعَة ، وقتلوا لقيطَ بن زُرارَةَ ، وكان الذى وَلِىَ قتله عُمارة الوَهّاب العَبْسى ، وينسب إلى بنى عامر ، لأن بنى عَبْسٍ كانوا فيهم مع قَيْسِ بن زُهَيْرٍ ، وعُمارةُ هذا هو الذى كان يقال له دالِقٌ ، وقتله شِرْحافٌ الضَّبِّىُّ ، ولذلك يقول الفرزدق :

وَهُنَّ بِشِرْحافٍ تَدارَكْنَ دَالِقاً عُمارَةَ عَبْسٍ بَعْدَمَا جَنَحَ الْعَصْرُ

وزعم أبو عبيدة : أن فاطمة بنت الخُرْشُبِ الأنْمارِيَّةَ ، أُرِيَتْ فى منامها قائلا يقول : أعشرة هُدَرَةٌ أحبُّ إليكِ أم ثلاثةٌ كعشرة (هدرة بالدال غير معجمة ، قال أبو الحسن : هم السُّقّاط من الناس) : فلم تقل شيئاً ، فعاد لها الليلة الثانية فلم تَقُلْ شيئاً ، ثم قصَّتْ ذلك على زوجها فقال إن عاد لك الثالثة فقولى ثلاثة كعشرة ، وزَوْجُها زيادُ بن عبد الله بن ناشِبٍ العبسى ، فلما عاد لها قالت ثلاثة كعشرة ، فولدتهم كلهم غايَةً ، وَلَدَتْ رَبيعَ الْحُفّاظِ ، وعُمارةَ الوَهّاب ، وأَنَسَ الفَوارِسِ ، وهى إحدى المُنْجِباتِ من العرب ، وَأَسَرُوا حاجباً فذلك حيث يقول جرير يُعَيِّرُ الفرزدق ويُعْلِمُهُ فخر قَيْسٍ عليه :

تُحَضِّضُ يَاابْنَ الْقَيْنِ قَيْساً لِيَجْعَلُوا لِقَوْمِكَ يَوْماً مِثْلَ يَوْمِ الْأَرَاقِمِ
كَأَنَّكَ لَمْ تَشْهَدْ لَقِيطاً وَحَاجِباً وَعَمْرَو بْنَ عَمْرٍو إِذْ دَعَوْا يالَ دَارِمِ
وَلَمْ تَشْهَدِ الجَوْنَيْنِ وَالشِّعْبَ ذَا الصَّفَا وَشَدَّاتِ قَيْسٍ يَوْمَ دَيْرِ الْجَمَاجِمِ (١)

الجَوْنَانِ : معاويةُ وحسّانُ ابنا الجَوْنِ الكِنْدِيّانِ أُسِرا فى ذلك اليوم ، فقُتِلَ

(١) هو دير بظاهر الكوفة ، أضيف إلى الجماجم وهى الأقداح من الخشب لأنها كانت تعمل فيه .

حسان ، وفُودِىَ معاويةُ بسبب يطول ذكره ، والشِّعْبُ : شِعْبُ جَبَلَةَ ، وقوله : وشدات قيس يوم دير الجماجم ، هذا فى الإسلام ، يعنى وَقْعَةَ الحجّاج ابن يوسف بن الحَكَم بن أبى عَقيلٍ الثَّقَفِىِّ بعبد الرحمن بن محمد الأَشْعث ابن قَيْس بن مَعْدِيكَرِبَ الكِنْدِىِّ بدير الجماجم ، وَقوله : وقد مات بِسْطام ابن قيس بن خالد ، يعنى الشَّيْبانِىَّ ، وهو فارس بَكْر بن وائل ، وابن سيدها ، وقتل بالحَسَنِ ، وهو جَبَلٌ (كذا وقعت الرواية بالحسن وهو جبل بالجيم ، والصحيح حَبْلٌ بالحاء ، قال ابن سراج رحمه الله تعالى : الحَسَنُ والحُسَيْنُ حَبْلا رَمْلٍ) قتله عاصم بن خَليفة الضَّبِّىُّ ، وكان عاصِمٌ أسلم فى أيام عثمان رحمه الله ، فكان يقف ببابه فيستأذن عليه ، فيقول عاصم بن خليفة الضبى قاتِلُ بِسْطام ابن قَيْسٍ بالباب (قال أبو الحسن الوجه عندى فى بِسطام أن لا ينصرف لأنه أعجمى) وكَانَ سببُ قتله إياه أن بِسْطامًا أغارَ على بنى ضَبَّةَ ، وكَانَ معه حازٍ[١] (قال أبو الحسن حازٍ بالزاى زاجرٌ) يحْزوله ، فقال له بِسْطامٌ إنى سمعت قائلا يقول :

* أُلدَّلْوُ تأْتِى الغَرَبَ[٢] المزَلَّهْ[٣] * فقال الحازى فهلاَّ قُلْتَ :

* ثُمَّ تعودُ بادِنًا مُبْتَلَّهْ * قال ما قلت فاكْتَسَحَ إبلَهُمْ فتنادَوْا واتَّبعوهُ فنظرتْ أم عاصم إليه ، وهو يَقَعُ[٤] حديدةً له ، أى يحُدُّها ، والمِيقعةُ المِطْرقةُ ، فقالت له : ما تَصْنَعُ بهذه ؟ وكَانَ عاصم مَنْقوصا[٥] ، فقال لها : أقتل بها

---

(١) اسمه نقيذ بالتصغير . (٢) الغرب : الماء الذى يقطر من الدلو بين البئر والحوض .
(٣) المزلة : بفتح الزاى وكسرها موضع الزلل ، يريد أن الأمر يأتى على غير وجهه .
(٤) يقع الحديدة يحدها ، وكذلك وقع السيف والمدية . (٥) ضعيف الرأى والعقل .

بِسْطامَ بن قيسٍ فَنَهرَتْهُ ، وقالت : إسْتُ أُمِّكَ أَضْيَقُ من ذاك ! فنظر إلى فَرَسٍ لِعَمِّهِ مُوثَقةٍ إلى شجرة فاعْرَوْراها ، أى ركبها عُرْيًا ، ثم أقبل بها الريحَ ، فنظر بسطام إلى الخيل قد لحِقَتْهُ ، فجعل يَطْعنُ الإبل فى أعجازها فصاحت به بنو ضَبَّةَ يا بسطام ما هذا السَّفَهُ ؟ دَعْها إمَّا لنا وإمَّا لك ، وانْحطَّ عليه عاصِمٌ فطعَنَهُ فرمى به على الألاءةِ ، وهى شجرة ليست بعظيمة ، وكان بسطام نَصْرانيًّا ، وكان مَقْتَلُهُ بعد مَبْعَثِ النبى صلى اللّٰه عليه وسلم ، فأراد أخوه الرجوع إلى القوم ، فصاح به بسطامٌ أنا حَنيفٌ إن رَجَعْتَ ، فنى ذلك يقول ابن عَنَمة الضَّبِّيُّ ، وكان فى بنى شيبان :

لِأُمِّ الأرضِ وَيْلٌ ما أَجَنَّتْ ...

خَرَّ عَلَى الألَاءةِ لَمْ يُوَسَّدْ ... كَأَنَّ جَبِينَهُ سَيْفٌ صَقِيلُ

ولما قُتِلَ بسطام لم يَبْقَ فى بَكْرِ بن وائلٍ بيتٌ إلا هُجِمَ ، أى هُدِمَ ، وقوله : ومات أبو غَسَّان شيخ اللهازم . يعنى مالك بن مِسْمَع بن شَيْبان بن شهاب أَحَدَ بنى قَيْسِ بن ثَعْلَبَةَ ، وإليه تُنْسَبُ المَسامِعةُ ، وكان سيد بَكْرِ بن وائلٍ فى الإسلام ، وهو الذى قال لعُبَيْدِ الله بن زياد بن ظَبْيان أحد بنى تَيْمِ اللَّاتِ ابن ثَعْلَبَةَ ، وكان حين حَدَثَ أَمْرُ مسعود بن عمرو المَعْنِيِّ من الأَزْدِ فلم يُعْلِمْهُ به ، فقال له عبيد الله ، وهو أحد فُتَّاكِ العرب ، وهو قاتل مُصْعَبِ ابن الزبير ، أيكونُ مثل هذا الحَدَثِ ولا تُعْلِمُنى به ؟ لهَمَمْتُ أن أُضْرِمَ دارك عليك ناراً ، فقال له مالك : أُسكتْ أبا مَطَرٍ ، فواللّٰهِ إنْ فى كِنانتى سهمٌ أنا أَوْثَقُ به منى بك ، فقال له عبيد اللّٰه : أَوَ أنا فى كِنانَتِكَ ؟ فواللّٰه لو قعدتُ فيها لطُلْتُها ، ولو قمتُ فيها لَخَرَقْتُها ، فقال له مالك ـ وأعجبه ما سمع

منه ـ : أَكْثَرَ اللّٰهُ فى العشيرة مِثْلَكَ ! قال : لقد سألتَ ربك شَطَطًا ! وفى مالك بن مِسْمَعٍ يقال :

إِذَا مَا خَشِينَا مِنْ أَمِيرٍ ظُلَامَةً   دَعَوْنَا أَبَا غَسَّانَ يَوْمًا فَعَسْكَرَا

قوله : وقد مات خيراهم ، تثنيةٌ كقولك مات أَحْمَرَاهُمْ ، ولم يَخْرُجْ مَخْرَجَ النعتِ ، ألا تَرَى أنك تقول هذا أَحْمَرُ القوم ، إذا أردتَ هذا الأَحْمَر الذى للقوم ، فإذا أردتَ الذى يَفْضُلُهُمْ فى باب الحمرة ، قلتَ هذا أَشَدُّهُمْ حمرةً ، ولم تقل هذا أحمرهُم ، وكذلك خيراهم ، وإنما أردتَ هذا خيرُهم ثم ثَنَّيْتَ ، أى هذا الخير الذى هو فيهم ، وقوله : عَشِيَّةَ بانا ، مردود على قوله خيراهم ، وقوله: رَهْطِ كعب وحاتم ، إنما خفضتَ رهطا لأنه بدل من هم التى أَضفْتَ إليها الخيرين ، والتقدير وقد مات خيْرَا رهطا كعبٍ وحاتِمٍ ، فلم يُهْلِكاهم عشيةَ بانا ، فأما كَعْبٌ فهو كعب بن مَامَةَ الإيادىُّ ، وكان أحدَ أجواد العرب الذى آثَرَ على نفسه ، وكان مسافرًا ورفيقُهُ رجل من النَّمِرِ بن قاسِطٍ فقَلَّ عليهما الماء فتَصَافناهُ ، والتَّصافُنُ : أن يُطْرَحَ فى الإناء حَجَرٌ (هذا الحجر الذى يُقْسَمُ به الماء يقال له : المَقْلَةُ بفتح الميم [1]) ثم يُصَبَّ فيه من الماء ما يَغْمُرُهُ لئلا يَتَغابنوا وكذلك كل شىء وُقِفَ عَلَى كَيْلِهِ أو وزْنِهِ ، والأصل ما ذكرنا ، فجعل النَّمَرِىُّ يشرب نصيبه ، فإذا أَخَذَ كعبٌ نصيبه قال اسْقِ أخاك النَّمَرِىَّ ، فيُؤْثِرُهُ حتى جَهِدَ كعبٌ ، ورُفِعتْ له أعلام الماء ، فقيل له : رِدْ كَعْبُ ، ولا وُرودَ به ، فمات عطشًا ، ففى ذلك يقول أبو دُوادٍ الإيادِىُّ :

---

(١) وتسمى أيضا حصاة القسم .

أَوْفَى عَلَى المَاءِ كَعْبٌ ثُمَّ قِيلَ لَهُ رِدْ كَعْبُ إِنَّكَ وَرَّادٌ فَمَا وَرَدَا

فَضُرِبَ به المثلُ ، فقال جرير فى كلمتِهِ التى مدَحَ فيها عُمَرَ بن عبد العزيز :

يَعُودُ الفَضْلُ مِنْكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَتَفْرُجُ عَنْهُمُ الْكُرَبَ الشِّدَادَا
وَقَدْ أَمَّنْتَ وَحْشَهُمُ بِرِفْقٍ وَيُعْيِي النَّاسَ وَحْشُكَ أَنْ تُصَادَا
وَتَبْنِي المَجْــدَ يَا عُمَرُ بْنَ لَيْلَى وَتَــكْفِي المُمْحِلَ السَّنَةَ الجَمَادَا
وَتَدْعُــو اللّٰهَ مُجْتَهِدًا لِيَرْضَى وَتَذْكُرُ فِى رَعِيَّتِكَ المَعَادَا
وَمَا كَعْبُ بْنُ مَامَةَ وَابْنُ سُعْدَى بِأَجْوَدَ مِنْكَ يَا عُمَرُ الجَوَادَا
تَعَوَّدْ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ إِنِّى رَأَيْتُ المَرْءَ يَلْزَمُ مَا اسْتَعَادَا

هذا كعب بن مامة الذى ذكرناه ، وأما ابن سُعْدَى فهو أَوْسُ بن حارِثَةَ ابن لَأْمٍ الطائىُّ ، وكان سيدا مُقدَّمًا ، فوَفَدَ هو وحاتمُ بن عبد اللّٰه الطائىُّ على عَمْرِو بن هند ، وأبوه المُنْذِرُ بن المنذر بن ماء السماء فدعا أَوْسًا فقال له : أأنت أفضلُ أم حاتمٌ ؟ فقال : أَبَيْتَ اللعْنَ لو ملكنى حاتم وولدى ولُحمتى لوَهبنا فى غداةٍ واحدةٍ ، ثُمَّ دعا حاتمًا فقال له : أنت أفضلُ أم أوسٌ ؟ فقال: أَبَيْتَ اللَّعْنَ إنما ذُكِرْتُ بأوسٍ ، ولَأَحَدُ وَلَدِهِ أفضلُ منى .

٭

وكَانَ النُّعْمانُ بن المُنْذِرِ دعا بحُلَّة وعنده وُفُودُ العربِ من كلِّ حىٍّ فقال احْضُروا فى غد فانى مُلْبِسٌ هذه الحُلَّةَ أَكْرَمَكُمْ ، فحضر القوم جميعاً إلا أوساً ، فقيل له : لمَ تخلَّفْتَ ؟ فقال إن كان المراد غيرى فأجملُ الأشياء أن لا أكون حاضرًا ، وإن كنتُ أنا المراد فسأُطْلَبُ ويُعْرَفُ مكانى ، فلما

جلس النعمان لم يرَ أوسا ، فقال : اذهبوا إلى أوس ، فقولوا له احْضُرْ آمِنًا مما خِفْتَ ، فحضر فأُلْبِسَ الحلة ، فحسده قوم من أهله فقالوا للحُطَيْئة : اُهْجُهُ ولك ثلثمائة ناقة ، فقال الحطيئة كيفَ أهجو رجلاً لا أرى فى بيتى أثاثا ولا مالاً إلا من عنده ، ثم قال :

كَيْفَ الهِجاءُ وَما تَنْفَكُّ صالِحَةٌ ... مِنْ آلِ لأْمٍ بِظَهْرِ الغَيْبِ تَأْتِينِى

فقال لهم بِشْرُ بن أبى خازِم أحدُ بنى أسَد بن خُزَيْمة : أنا أهجوه لكم، فأخذ الإبل وفعل ، فأغار أوس على الإبل فاكْتَسَحَها ، فجعل لا يستجير حيًّا إلا قال : قد أجَرْتُكَ إلا من أوس ، وكان فى هجائه إياه قد ذكر أُمَّهُ فأُتِىَ به فدَخَل أوْسٌ على أمِّه فقال : قد أُتينا ببِشْرٍ الهاجى لك ولى ، فما تَرَيْنَ فيه : فقالت له : أوَ تُطيعُنى فيه ؟ قال : نعم ، قالت أرى أن تَرُدَّ عليه ماله ، وتعفُوَ عنه ، وتَحْبُوَهُ ، وأفعلُ مثل ذلك ، فإنه لا يَغْسِلُ هجاءَهُ إلا مَدْحُهُ ، فخرج إليه فقال : إن أمى سُعْدَى التى كنتَ تهجوها قد أمرتْ فيك بكذا وكذا ، فقال : لا جَرَمَ والله ، لا مَدَحْتُ أحداً حتى أموتَ غيْرَكَ ، ففيه يقول :

إلَى أَوْسِ بْنِ حارِثَةَ بْنِ لأْمٍ ... لِيَقْضِىَ حاجَتِى فِيمَنْ قَضاها

وَما وَطِئَ الثَّرَى مِثْلُ ابْنِ سُعْدَى ... وَلا لَبِسَ النِّعالَ وَلا احْتَذاها

⁂

وأما حاتِمٌ الذى ذكره الفَرَزْدَقُ فهو حاتم بن عبد الله الطائىُّ جوادُ العرب ، وقد كان الفرزدق صافَنَ رجلاً من بنى العَنْبَرِ بن عمرو بن تميم

إداوةٌ[1] فى وقتٍ فرامَهُ الْعَنْبَرِىُّ وسامه أن يُؤْثِرهُ ، وكانَ الفرزدق جَواداً فلم تَطِبْ نفسُه عن نفسه ، فقال الفرزدق :

فَلَمَّا تَصافَنَّا الْإِدَاوَةَ أَجْهَشَتْ إِلَىَّ غُضُونُ الْعَنْبَرِىِّ الْجُرَاضِمِ
فَجَاءَ بِجُلْمُودٍ لَهُ مِثْلِ رَأْسِهِ لِيَشْرَبَ مَاءَ الْقَوْمِ بَيْنَ الصَّرَائِمِ
عَلَى سَاعَةٍ لَوْ أَنَّ فِى الْقَوْمِ حَاتِمًا عَلَى جُودِهِ ضَنَّتْ بِهِ نَفْسُ حَاتِمِ

قوله : أَجْهَشَتْ فهو التَّسَرُّعُ وما تراه فى فَحْواه من مُقاربة الشىء ، يقال أَجْهَشَ بالبكاء ، والغُضون : التكسر فى الجلد ، والجُراضم الأحمر الممتلئ ، وقوله ليشرب ماء القوم بين الصرائم ، فهى جمع صَرِيمةٍ وهى الرملة التى تنقطع من مُعْظَم الرمل ، وقوله صَرِيمةٌ يريد مصرومةً ، والصَّرْمُ : القطع ، وأنشد الأَصْمَعِىُّ :

فَبَاتَ يَقُولُ أَصْبِحْ لَيْلُ حَتَّى تَجَلَّى عَنْ صَرِيمَتِهِ الظَّلَامُ

يعنى ثَوْرًا وصَرِيمته رَمْلته التى هو فيها ، وقال المفسرون فى قول الله عز وجل « فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ » قولين ، قال قوم : كالليل المُظْلِمِ ، وقال قوم : كالنهار المضىء : أى بيضاء لاشىء فيها ، فهو من الأضداد ، ويقال لَكَ سَوادُ الأرض وبياضُها ، أى عامرها وغامرُها ، فهذا ما يُحْتَجُّ به لأصحاب القول الأخير ، ويحتج لأصحاب القول الأوّل فى السواد بقول الله عز وجل : « فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى » وإنما سُمِّىَ السواد سوادًا لعمارتِهِ ، وكل خُضْرةٍ عند العرب سَوادٌ ، ويروى :

(١) الاداوة : اناء صغير من جلد يتخذ للماء . وجمه أداوى ، كمطايا ، على غير قياس .

عَلَى سَاعَةٍ لَوْ أَنَّ فى القَوْمِ حَاتِماً   عَلَى جُودِهِ مَاجَادَ بِالْمَاءِ حَاتِمِ

جَعل حاتِم تبييناً للماء فى جوده ، وهو الذى يسميه البصريون البدل ، أراد على جود حاتِمٍ .

باب

قال أبو العباس : كان يقال: إذا رَغِبْتَ فى المكارم فاجْتَنِبِ المحارمَ .

وكان يقال : أَنْعمُ الناس عيشاً مَنْ عاش غيره فى عيشه .

وقيل فى المثل السائر: من كان فى وَطَنٍ فَلْيُوَطِّنْ غيره وطنه ، لِيَرْتَعَ فى وَطَنِ غيره فى غربته .

قال: وأُنتبه معاوية من رَقْدةٍ له ، فَأَنْبَهَ عمرو بن العاص ، فقال له عمرو : ما بقى من لَذَّتِكَ يا أمير المؤمنين ؟ قال : عَيْنٌ خَرَّارَةٌ[١] فى أرض خَوَّارة[٢] ، وعينٌ ساهرةٌ لعين نائمةٍ ، فما بقى من لذتك يا أبا عبد الله ؟ قال : أن أَبِيتَ مُعَرِّساً بعَقيلةٍ من عَقائل العرب ، ثم نَبَّها وَرْدان[٣] ، فقال له معاوية : مابقى من لذتك ؟ فقال : الإِفضالُ على الإخوان ، فقال له معاوية : اسكتْ ، فأنا أحقُّ بها منك ، فقال له : قد أمْكَنَكَ فافْعلْ .

ويروى أن عمرًا لما سُئل قال : أنْ أَسْتَتِمَّ بناء مَدينتى بمصر ، وأنَّ

---

(١) جارية . (٢) سهلة لينة .

(٣) هو مولى عمرو بن العاص واليه ينسب سوق وردان وهو قرية بمصر .

وَرْدانَ لما سُئِلَ قال : أن أَلْقَى كريماً قادرًا فى عَقِبِ إحسانٍ كان منى إليه ، وأن معاوية سئل عن الباقى من لذته فقال : مُحادَثَةُ الرجال .

ويروى عن عبد المَلِكِ أنه قال وقد سئل عن الباقى من لذته فقال : مُحادَثَةُ الإخوان فى الليالى القُمْرِ (١) على الكُثْبانِ العُفْرِ (٢) .

وقال سليمان بن عبد الملك : قد أكلنا الطَّيِّبَ ولَبِسْنا اللَّيِّنَ ، وركبنا الفارِهَ ، وامْتَطَيْنا العذراء ، فلم يَبْقَ من لَذَّتى إلا صَديقٌ أَطْرَحُ بينى وبينه مَئُونَةَ التَّحَفُّظِ .

وقال رجل لرجل من قريش إنى والله ما أَمَلُّ الحديثَ ، قال إنما يُمَلُّ العَتيقُ (٣) .

وقال المُهَلَّبُ بن أبى صُفْرَةَ : العيش كله فى الجليس المُمْتِع .

وقال معاوية : الدنيا بحذافيرها الخَفْضُ والدَّعَةُ .

وقال يزيد بن المهلب : ما يَسُرُّنى أنى كُفيتُ أمْرَ الدنيا كلَّه ، قيل له : ولم أيها الأميرُ ؟ قال : أكْرَهُ عادةَ العجْزِ .

ويروى عن بعض الصالحين أنه قال : لو أنزل الله كتابا أنه مُعَذِّبٌ رجلاً واحداً لخفتُ أن أكونَهُ ، أو أنه راحِمٌ رجلا واحداً لرَجَوْتُ أن أكونه ، ولو علمت أنه مُعَذِّبى لا مَحالَةَ ما ازْدَدْتُ إلاّ اجتهادًا لئلا أرْجِعَ على نفسى بلائمةٍ .

ويروى أن عمر بن عبد العزيز كان يدخل إليه سالم مَوْلَى بنى مَخْزُومٍ ،

---

(١) جمع قمراء . (٢) جمع أعفر ، وهو الرمل الأحمر . (٣) هو القديم وجمعه عتاق .

وقالوا بل زيادٌ وكان عمر أراد شراءه وعتقه ، فأعتقه مَوَاليه ، وكان عمر يسميه أخى فى الله ، فكان إذا دخل وعُمَرُ فى صدر مجلسه تنحَّى عن الصَّدْر ، فيقال له فى ذلك فيقول : إذا دَخَلَ عليك مَنْ لا تَرَى لك عليه فَضْلاً فلا تأخُذْ عليه شَرَفَ المجلس ، وهمَّ السِّراجُ ليلةً بأن يَخْمُدَ فوَثَبَ إليه رجاءُ بنُ حَيْوَة ليُصلِحه فأقسَمَ عليه عمرُ فجلسَ ، ثم قام عمر فأصلحه . فقال له رجاء : أتقوم يا أمير المؤمنين ؟ قال : قمتُ وأنا عمر بن عبد العزيز ، ورجعتُ وأنا عمر ابن عبد العزيز .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : لا ترْفَعونى فَوْق قَدْرى ، فتقولوا فِىَّ ما قالت النصارى فى المَسيح ، فإن الله اتَّخذنى عبداً قبل أن يتَّخذنى رسولاً .

ودخل مَسْلمةُ بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز فى مَرْضَتِهِ التى مات فيها، فقال : ألاَ توصى يا أمير المؤمنين . قال : فِيمَ أُوصِى ؟ فوالله إنْ لى من مالٍ ، فقال : هذه مائة ألف فَمُرْ فيها بما أحْبَبْتَ ، فقال : أوَتقبَلُ ؟ قال : نعم . قال : تُرَدُّ على من أُخِذَتْ منه ظلماً ، فبكى مَسْلَمَةُ ، ثم قال : يرحمك الله ، لقد أَلنْتَ منا قلوبًا قاسية ، وأبقيتَ لنا فى الصالحين ذِكْرًا .

وقيل لعلىّ بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم : إنكَ مِنْ أبَرِّ الناس بأمِّك ، ولَسْنا نراك تأكل مع أُمِّكَ فى صَحْفةٍ ، فقال : أخاف أن تَسْبِقَ يدى إلى ما قد سَبَقَتْ عينُها إليه فأكون قد عَقَقْتُها .

وقيل لعمر بن ذرٍّ - حيث نُظِرَ إلى تعزِّيهِ عن ابنه - : كيف كان برُّهُ بك ؟ فقال : ما مشيت بنهار معه قطُّ إلا مَشَى خلْفى ، ولا بليل إلا مشى أمامى ، ولا رَقِىَ سَطْحاً ، وأنا تحته .

⁂

وقال أبو المخشّ: كانت لى ابنةٌ تجلسُ معى على المائدة فتُبرز كفًّا كأنها طَلْعَةٌ[1] فى ذِراعٍ كأنها جُمَّارةٌ[2] فلا تقع عينُها على أُكلةٍ نفيسة إلا خصّتنى بها، فزوّجتُها، وصار يجلس معى على المائدة ابنٌ لى فيُبرِزُ كفا كأنها كِرْنافةٌ، فى ذِراعٍ كأنها كَرَبَةٌ، فوالله إن تسبقُ عينى إلى لقمةٍ طيّبةٍ إلا سبقتْ يده إليها.

وقال الأصمعى: قيل لأبى المخشّ، أمَا كان لك ابن؟ فقال المخشُّ، وما كان المخشُّ؟ كان والله أشدقَ خُرْطُمانيًّا إذا تكلم سال لُعابُهُ كأنما ينظر من قَلْتَيْنِ[3]، وكأنَّ تَرْقُوَتَهُ بُوانٌ أو خالفةٌ، وكأنَّ مُشاشَ مَنكِبَيْهِ كِرْكِرةُ جَمَلٍ، فقأ اللهُ عَيْنَيَّ هاتين إنْ كنتُ رأيتُ بهما أحسنَ منه قبله ولا بعده.

قوله: بوان أو خالفة، فهما عمودان من عُمُدِ البيت، البوانُ فى مُقدَّمِهِ والخالفةُ فى مُؤَخَّرِهِ، والكِرْنافةُ: طَرَفُ الكَرَبَةِ العريض الذى يتصل بالنخلة كأنه كتِفٌ.

حدثنى بهذا الحديث العباسُ بن الفرج الرِّياشيُّ عن الأَصْمَعِيِّ، وحدثنى عمن حدثه قال: مَرَّ بنا أعرابى يَنْشُدُ ابنا له، فقلنا صِفْهُ، فقال: دُنَيْنِيرٌ، قلنا لم نَرَهُ، فلم نَلْبَثْ أن جاء يَحْمِلُ على عُنُقِهِ، فقلنا: لو سألتَ عن هذا لأرْشَدْناكَ، ما زال مُنذُ اليوم بين أيدينا.

---

(١) هى نور النخل، وهو وعاؤه الذى ينشق عنه.

(٢) هى شحمة النخلة. (٣) مثنى قلت، وهو نقرة مستديرة فى أرض صلبة.

وأنشدنى مُنْشِدٌ وأنشدنى الرِّياشِىُّ أحد البيتين :

نعم ضَجيعُ الْفَــتَى إذا بَرَدَ اللَّيْــلُ سُحَــيْرًا وَقَرْقَفَ الصَّرِدُ
زَيَّنَها اَللّهُ فى الْفُؤادِ كَمَا زُيِّنَ فِى عَــيْنِ وَالِدٍ وَلَدُ

وقالت أُمُّ ثَوابٍ الهِزَّانيةُ من عَنَزَةَ بن أَسَدِ بن رَبيعة بن نِزارٍ تعنى ابنها :

رَبَّيْتُهُ وَهْوَ مِثْلُ الْفَرْخِ أَعْظَمُهُ(١) أُمُّ الطَّعَامِ تَرَى فى رِيشِهِ زَغَبَا
حَتَّى إِذَا آضَ كَالْفُحَّالِ شَذَّبَهُ أَبَّارُهُ وَنَفَى عَنْ مَتْنِهِ الْكَرَبَا
أَنْشَا يُخَرِّقُ أَثْوَابِى وَيَضْرِبُنِى أَبَعْدَ سِتِّينَ عِنْدِى يَبْتَغِى الأَدَبَا
إِنِّى لَأُبْصِرُ فى تَرْجِيــلِ لِمَّتِهِ(٢) وَخَطِّ لِحْيَتِهِ فى وَجْهِــهِ عَجَبَا
قَالَتْ لَهُ عِرْسُهُ يَوْمًا لِتُسْمِعَنِى رِفْقًا فَإِنَّ لَنَا فى أُمِّنَا أَرَبَا
وَلَوْ رَأَتْنِىَ فى نَارٍ مُسَعَّرَةٍ مِنَ الْجَحِيمِ لَزَادَتْ فَوْقَهَا حَطَبَا

قوله أبّاره : فهو الذى يُصْلِحُهُ ، يقال : أَبَرْتُ النخل ، وأَبَرْتُهُ خفيفةً ، إذا لَقَّحْتَهُ .

⁂

ويروى أن مالك بن العَجْلانِ ، أو غيرَه من الأنصار كان يُتْحِفُ أبا جُبَيْلَةَ المَلِكَ(٣) حيث نزل بهم بتمرٍ من نخلةٍ لهم شَرِيفةٍ ، فغاب يوما فقال أبو جُبَيْلَةَ إن مالـكًا كان يُقَوِّتُ علينا جَنَى هذه النخلة فَجُدُّوها ، فجاء مالك وقد جُدَّتْ ، فقال مَنْ سَعَى على عَذْقِ(٤) الْمَلِكِ فَجَدَّهُ فأعلموه أن المَلِكَ أَمَرَ بذلك ، فجاء حتى وقفَ عليه ، فقال :

---

(١) أى أكبر أعضائه . (٢) الترجيل : التسريح ، واللمة : شعر الرأس الذى يلم بالمنكب .
(٣) من ملوك غسان . (٤) العذق : اسم للنخلة عند أهل الحجاز .

جَدَدْتَ جَنَى نَخْلَتِى ظَالِمًا … وكان الثِّمارُ لِمَنْ قَدْ أَبَرْ

فلما دخل النبىُّ صلى الله عليه وسلم المدينةَ أَطْرَفُوه بهذا الحديث، فقال صلى الله عليه وسلم: الثمر لمن أَبَرَ، إلا أن يَشْتَرِطَهُ المشترى.

والفُحَّالُ فَحْلُ النخل[1]، ولا يقال لشىء من الفُحول فُحَّالٌ غيره، وأنشدنى المازنىُّ:

يَطُفْنَ بِفُحَّالٍ كَأَنَّ ضِبَابَهُ … بُطُونُ المَوالِى يَوْمَ عِيدٍ تَغَدَّتِ

وضِبابُهُ: طَلْعُهُ، وآضَ: عاد ورَجَع، وقولها شَذَّبَهُ، تقول: قَطَعَ عنه الكَرَبَ والعَثاكيل[2]، وكلُّ مُشَذَّبٍ مقطوعٌ، ويقال للرجل الطويلِ النحيفِ مُشَذَّبٌ يُشَبَّهُ بالجِذْعِ المحذوف عنه الكَرَبُ، وأصل التَّشْذيب: القَطْعُ، وقال الفَرَزْدَقُ:

عَضَّتْ سُيُوفُ تَمِيمٍ حِينَ أَغْضَبَهَا … رَأْسَ ابْنِ عَجْلَى فَأَضْحَى رَأْسُهُ شَذِبا

أراد عَضَّتْ سيوفُ تميمٍ رأسَ ابنِ عَجْلَى حين أغضبها، وابْنُ عَجْلَى عبد الله ابن خازمٍ السُّلَمِىُّ، وأمه عَجْلَى، وكانت سوداء، وهو أحد غِرْبانِ العرب فى الإسلام.

وسُئِلَ المُهَلَّبُ: من أَشْجَعُ الناس؟ فقال: عَبَّادُ بن حصين، وعمرو ابن عُبَيْدِ الله بن مَعْمَرٍ، والمُغيرةُ بن المُهَلَّبِ، فقيل له: فأين ابن الزُّبَيْرِ، وابن خازمٍ، وعُمَيْرُ بن الحُبابِ. فقال: إنما سُئِلْتُ عن الإِنْسِ ولم أُسْأَلْ عن الجِنِّ.

---

(١) أى الذكر من النخل.

(٢) هى الشماريخ والواحد عثكول على وزن عصفور.

باب

روى شعبة عن واقد بن محمد عن ابن أبي مُلَيْكَةَ عن القاسم بن محمد قال : قالت عائشة رضى اللهُ عنها : مَنْ أرْضَى اللهَ بإسْخاطِ الناسِ كفاهُ اللهُ ما بينه وبين الناس ، ومَنْ أرْضَى الناسَ بإسخاط الله وَكَلَهُ اللهُ إلى الناس ، ومَنْ أصْلَحَ سَرِيرته أصْلَحَ اللهُ علانيته .

ويروى أن الحسن بن زيد لما وَلِىَ المدينة قال لابن هَرْمَةَ : إنى لَسْتُ كَمَنْ باع لك دِينَهُ رَجاء مَدْحِكَ ، أو خوفَ ذَمِّكَ ، قد أفادنى الله بولادة نبيه المَمادِحَ ، وجَنَّبنى المَقابحَ ، وإنَّ من حَقِّهِ علىَّ ألاَّ أُغْضِىَ على تقصير فى حقه ، وأنا أُقْسِمُ بالله لئن أُتيتُ بك سَكْرانَ لأَضْرِبَنَّكَ حَدَّيْنِ : حدًّا لِلْخَمْرِ وحدًّا للسكر ، ولأَزيدَنَّ لموضع حُرْمَتِكَ بى ، فَلْيَكُنْ تَرْكُكَ لها لله تُعَنْ عليه ، ولا تدَعْها للناس فتُوكَلَ إليهم . فنهضَ ابن هَرْمَةَ وهو يقول :

نَهانِى ابنُ الرسولِ عَنِ المُدامِ ... وَأَدَّبَنِى بِآدَابِ الْكِرَامِ
وَقالَ لِىَ اصْطَبِرْ عَنْهَا وَدَعْهَا ... لِخَوْفِ اللهِ لاَ خَوْفِ الْأَنَامِ
وَكَيْفَ تَصَبُّرِى عَنْهَا وَحُبِّى ... لَهَا حُبٌّ تَمَكَّنَ فى عِظامى
أرَى طِيبَ الحَلاَلِ علَىَّ خُبْثًا ... وَطِيبَ النَّفْسِ فى خُبْثِ الحَرَامِ

وقال الحسن لمُطَرِّفِ بن عبد الله بن الشِّخِّيرِ الحَرَشِىِّ : يامُطَرِّفُ ، عِظْ أصحابك فقال مُطَرِّفٌ : إنى أخاف أن أقول ما لا أفْعَلُ ، فقال الحسن : يرحمك الله ،

وَأيُّنا يفعل ما يقول ؟ لَوَدَّ الشيطانُ أنه ظَفِرَ بهذه منكم ، فلم يَأْمُرْ أحدٌ بمعروف ، ولم ينْهَ عن مُنْكرٍ .

وقال مُطَرِّفُ بن عبد الله لابنه : يا عبد الله ، العِلْمُ أفضلُ من العمل ، والحَسَنَةُ بين السيئتين، وشَرُّ السَّيرِ الحَقْحَقَةُ .

قوله : الحسنة بين السيئتين يقول : الحقُّ بين فعل المُقصِّرِ والغالى، ومن كلامهم : خَيْرُ الأمور أوساطُها ، وقوله : وشَرُّ السير الحقحقة ، وهو أن يَسْتَفْرِغَ المسافر جُهْدَ ظهره[1] ، فيقطعَهُ فيُهْلِكَ ظهرَهُ ولا يَبْلُغَ حاجته ، يقال حَقْحَقَ السيرَ إذا فعل ذلك ، وقال الراجز :

☆ وَأُنْبَتَّ فِعلَ السَّائرِ المُحَقْحِقِ ☆

(فِعْلَ بالنصب الروايةُ الصحيحة لأنه مصدر معنى) .

☆☆☆

وحُدِّثْتُ أن الحسن لَقِيَ سابِقَ الحاج ، وقد أسْرَعَ فجعل يُومِئُ إليه بأصبعه فعل الغازلة[2] وهو يقول : خَرْقاءُ وَجَدَتْ صوفاً ، وهذا مَثَلٌ من أمثال العرب يضربونه للرجل الأحمق الذى يجدُ مالا كثيراً فيَعيثُ فيه ، وشَبيهٌ بهذا المثل قوله : عَبْدٌ وخَلاً فى يديه[3] .

ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن هذا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فيه برِفْقٍ ، ولا تُبَغِّضْ إلى نفسك عبادة ربك ، فإن المُنْبَتَّ لا أرْضاً قَطَعَ ، ولا ظَهْراً أَبْقَى .

---

(١) أى مطيته . (٢) أى يشير بالسبابة مع الابهام كما تفعل الغازلة وهى تسحب الفتلة .

(٣) الخلا : هو الرطب من الحشيش ، وهذا المثال يضرب للئيم الذى يجد مالا فيفسد فيه .

قوله : متين ، المتين الشديد ، قال الله عزّ وجل : « وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ » وقوله : فأوغل فيه برفق ، يقول ادخل فيه ، هذا أصل الوُغول ، ويقال مشتقاً من هذا للرجل الذى يأتى شرابَ القومِ من غير أن يُدْعى إليه واغِلٌ ، ومعناهُ أنه وَغلَ فى القوم وليس منهم ، قال امْرُؤُ القَيْسِ :

حَلَّتْ لِيَ الْخَمْرُ وَكُنْتُ امْرَأً　　عَنْ شُرْبِهَا فِي شُغُلٍ شَاغِلِ

فَالْيَوْمَ أُسْقَى غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ(١)　　إِثْماً مِنَ اللهِ وَلاَ وَاغِلِ

والمُنْبَتُّ مثل المُحَقْحِقِ ، واشتقاقه من الانقطاع ، يقال انْبَتَّ فلانٌ من فلان أى انقطع منه ، وبَتَّ الله ما بينهم أى قَطَعَ ، قال محمد بن نُمَيْرٍ :

تَوَاعَـــدَ لِلْبَيْنِ الْخَلِيطُ لِيَنْبَتُّوا　　وَقَالُوا لِراعِي الذَّوْدِ مَوْعِدُكَ السَّبْتُ

وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ إِلَيْهِمْ كَثِيرَةٌ　　وَمَوْعِدُهَا فِي السَّبْتِ لَوْ قَدْ دَنَا الْوَقْتُ

(روى الأخفش البيت الأخير ويروى :

* أَلاَ قَرُبَ الْحَيُّ الْجِمالَ لِيَنْبَتُّوا *)

وحُدِّثْتُ أن ابن السَّمَّاكِ(٢) كان يقول : إذا فعلْتَ الحسنةَ فافْرَحْ بها واسْتَقْلِلْها ، فإنك إذا استقللتها زدتَ عليها ، وإذا فرِحْتَ بها عُدتَ إليها .

ويروى عن أُوَيْسٍ القَرَنِيِّ أنه قال : إنّ حقوق الله لم تَتْرُكْ عند مسلم درهماً .

---

(١) المستحقب : الذى يحمل الشىء فى الحقيبة .

(٢) ناسك فصيح ، تحدثنا عن أدبه فى كتاب « التصوف الاسلامى » .

ودخل يَزِيدُ بن عُمَرَ بن هُبَيْرَةَ على أمير المؤمنين المَنْصور فقال : يا أمير المؤمنين ، تَوَسَّعْ تَوَسُّعاً قُرَشِياً ، ولا تَضِقْ ضيقاً حِجازِياً .

ويروى أنه دَخَل عليه يومًا فقال له المنصورُ حَدِّثْنا ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن سُلْطانَكُمْ حَديثٌ ، وإمارَتَكُمْ جديدةٌ ، فأذيقوا الناسَ حَلاوةَ عَدْلها ، وجَنِّبوهُمْ مَرارةَ جَوْرِها ، فوالله يا أمير المؤمنين لقد مَحَضْتُ لك النَّصيحة .

ثم نَهَضَ فنَهَضَ معه سبعمائة من قيْسٍ فأَتْأَرَهُ المنصور بَصَرَهُ ، ثم قال لا يعِزُّ مُلْكٌ يكون فيه مِثْلُ هذا .

قوله : مَحَضْتُ لك النصيحة يقول أخلصت لك ، وأصل هذا من اللبن ، والمَحْضُ منه الخالص الذى لا يَشوبُهُ شىء ، وأنشد الأَصْمَعِىُّ :

أُمْتَحِضَا وَسَقَيَانِى ضَيْحاً وَقَدْ كَفَيْتُ صَاحِبِىَّ الْمَيْحا

(الميح طلب الشىء هاهنا وهاهنا) ، ويقال حَسَبٌ مَحْضٌ ، وقوله أتأره بصره يقول أتبعه بصره ، وحَدَّدَ إليه النَّظَرَ ، وأنشد الأصمعى (وهو للكُمَيْتِ بن زَيْدٍ) :

مَا زِلْتُ أَرْمُقُهُمْ وَالآلُ يَرْفَعُهُمْ حَتَّى اُسْمَدَرَّ(١) بِطَرْفِ الْعَيْنِ إِتَارِى

⁂

ويروى عن أسماء بن خارجةَ أنه قال : لا أُشاتِمُ رجلا ، ولا أرُدُّ سائلا ، فإنما هو كريم أسُدُّ خَلَّتَهُ ، أو لئيم أشترى عِرْضى منه .

---

(١) الميم زائدة ، وهو من سدر بصره لم يكد يبصر .

ويروى عن الأَحْنف بن قَيْسٍ أنه قال : ما شاتَمْتُ رجلاً مُذْ كنتُ رجلا ، ولا زَحَمتْ رُكْبتاىَ رُكْبَتَيْهِ ، وإذا لم أَصِلْ مُجْتَدِيَّ حتى يَنْتَحَ جَبينُهُ عَرقًا كما يَنْتَحُ الحَميتُ ، فوالله ما وصَلْتُهُ(١) .

قوله : مُجْتَدِيَّ يريد الذى يأتيه يطلب فضله ، يقال اجتداه يَجْتَديه ، وأُعْتفاه يَعْتَفيهِ ، واعتراه يَعْتَريه ، واعْتَرَّهُ يَعْتَرُّه ، ، وعراه يَعْرُوه إذا قصده يَتَعَرَّضُ لنائله . وأصل ذلك مأخوذ من الجَدَى مقصور ، وهو المطر العامُّ النافع ، يقال : أصابَتْنا مَطْرَةٌ كانت جَدًى على الأرض ، فهذا الاسم ، فإذا أردتَ المصدر قلتَ فلان كثير الجَداء ممدود ، كما تقول كثير الغَناء عنك ممدود ، هذا المصدر ، فإذا أردتَ الاسم الذى هو خلاف الفقْر قلت الغِنى بكسر أوله ، وقَصَرْتَ(٢) . قال خُفافُ بن نُدْبَةَ يمدح أبا بكر الصدّيق رضى الله عنه :

لَيْسَ لِشَىْءٍ غَيْرَ تَقْوَى جَدَاءْ ... وَكُلُّ شَىْءٍ عُمْرُهُ لِلْفَنَاءْ
إِنَّ أَبَا بَكْرٍ هُوَ الْغَيْثُ إِذْ ... لَمْ تَشْمَلِ الْأَرْضَ سَحابٌ بِمَاءْ
تَاللهِ لَا يُدْرِكُ أَيَامَــــهُ ... ذُو طُرَّةٍ حافٍ وَلَا ذُو حِذَاءْ
مَنْ يَسْعَ كَىْ يُدْرِكَ أَيَامَهُ ... يَجْتَهِدِ الشَّدَّ بِأَرْضٍ فَضَاءْ

وَهذا من طَرِيف الشعْر لأنه ممدود فهو بالمد الذى فيه من عَروض السَّريع الأولى ، وبيته فى العَروض :

(١) المراد أنه يبادر إلى اجابة سائله فلا يحوجه إلى أن يسيل عرقه من الحياء .

(٢) قال الشيخ المرصفى : هذا خطأ من أبى العباس ، وذلك أن الجداء والغناء عنك ليسا مصدرين لجدا يجدو ، ولا غنى ضد افتقر ، وإنما هما اسمان من أجدى عنك وأغنى عنك فلان إذا ناب عنك وأجزأ عنك .

أَزْمَانَ سَلْمَى لا يَرَى مِثْلَهَا الرَّا ءُونَ فى شَامٍ وَلاَ فى عِرَاقْ

ثم نرجع إلى تأويل قول الأَحْنَفِ، قوله: حتى يَنْتَحَ جَبِينُهُ، فهو مثل الرَّشْحِ. وحدثنى أبو عثمان المازنىُّ فى إسناد له ذَكَرَهُ قال: قال رُؤْبَةُ بن العَجَّاج: خرجتُ مع أبى نزيد سليمان بن عبد الملك، فلما صِرْنا فى الطريق أُهْدِىَ لنا جَنْبٌ من لحم[(١)] عليه كرافِئُ الشحم، وخَرِيطةٌ[(٢)] من كَمْأَة، ووَطْبٌ من لبن، فطبخنا هذا بهذا فما زالت ذِفْرَيَاىَ[(٣)] تَنْتَحَانِ منه إلى أن رجعتُ، وقوله: الحميت، فالحميتُ والزِّقُّ اسمان له، وإذا زُفِّتَ أو كان مَرْبُوبًا فهو الوطب، وإذا لم يكن مربوبًا ولا مُزَفَّتًا فهو سِقاءٌ ونِحْىٌ، والوَطْبُ يكون للبن والسمن، والسِّقاء يكون للبن والماء.

قالت هِنْدُ بنت عُتْبةَ لأبى سُفْيانَ بن حَرْبٍ لما رجع مُسْلِماً من عند النبى صلى الله عليه وسلم إلى مكة فى ليلة الفتح فصاح: يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، ألاَ إِنِّى قد أَسْلَمْتُ فأَسْلِموا، فإِنَّ محمداً قد أتاكم بما لا قِبَلَ لكم به، فأَخذتْ هند رأسه، وقالت: بئس طَلِيعةُ القومِ أنتَ، والله ما خُدِشْتَ خَدْشاً، يا أهل مكة عليكم الحَمِيتَ الدَّسِمَ فاقتلوه.

وأما قول رُؤْبةَ كَرَافِئُ الشحم يريد طبَقات الشحم. وأصل ذلك فى السحاب إذا رَكِبَ بعضُهُ بعضاً، يقال له كِرْفِئٌ والجميع كرافِئُ (قال أبو الحسن الأخفش: واحد الكَرَافِئ كِرْفِئَةٌ، وهاء التأنيث إذا جُمِعَتْ جمع التكسير حُذِفَتْ لأنها زائدة بمنزلة اسم ضُمَّ إلى اسم، وأَحْسِبُ أن أبا العباس لم يَسْمَعِ الواحدَ من هذا فقاسه والعرب تَجْتَرِئُ على حذف هاء التأنيث

(١) أى شق لحم. (٢) هى مثل الكيس وتكون من جلد.
(٣) مثنى ذفرى، وهى العظم الشاخص خلف الأذن.

إذا احتاجت إلى ذلك ، وليس هذا موضع حاجة إذا كانت قد استُعْمِلَتْ الواحدةُ بالهاء ، ونظير هذا قولهم ما فى السماء كِرْفِئَةٌ ، وما فى السماء قُذْعُمِلَةٌ وَقُذْعُمِيلَةٌ ، وما فى السماء طُخْرُبةٌ وطِخْرِبةٌ ، وما فى السماء قِرْطَعْبَةٌ ، وما فى السماء كَنَهْوَرَةٌ ، وهى القطعة من السحاب العظيمة كالجبل وما أشبهه) .

باب

قال أبو العباس : قال حَسَّانُ بن ثابت يهجو مُسافِعَ بن عِياض التَّيْمِيَّ من تَيْمِ بن مُرَّةَ بن كَعْبِ بن لُؤَىٍّ رَهْطِ أبى بكر الصِّدِّيق رضى الله عنه :

لَوْ كُنْتَ مِنْ هاشِمٍ أَوْ مِنْ بَنِى أَسَدٍ ... أَوْ عَبْدِ شَمْسٍ أَوْ اصْحابِ اللِّوا الصِّيدِ
أَوْ مِنْ بَنِى نَوْفَلٍ أَوْ رَهْطِ مُطَّلِبٍ ... لِلَّهِ دَرُّكَ (١) لَمْ تَهْمُمْ بتَهْدِيدِى
أَوْ فِى الذُّؤابَةِ مِنْ قَوْمٍ ذَوِى حَسَبٍ ... لَمْ تُصْبِحِ الْيَوْمَ نِكْساً ثَانِىَ الجِيدِ (٢)
أَوْ مِنْ بَنِى زُهْرَةَ الأَخْيارِ قَدْ عَلِمُوا ... أَوْ مِنْ بَنِى جُمَحَ الْبِيضِ المَناجِيدِ
أَوْ فِى السَّرارَةِ مِنْ تَيْمٍ رَضِيتُ بِهِمْ ... أَوْ مِنْ بَنِى خَلَفِ الْخُضْرِ الْجَلاعِيدِ
يا آلَ تَيْمٍ أَلا تَنْهَوْا سَفِيهَكُمُ ... قَبْلَ الْقِذافِ بِقَوْلٍ كالجَلامِيدِ (٣)
لَوْلا الرَّسُولُ فَإِنِّى لَسْتُ عاصِيَهُ ... حَتَّى يُغَيِّبَنِى فى الرَّمْسِ مَلْحُودِى

---

(١) هى هنا عبارة تهكم . (٢) رواية الديوان : مائل العود .
(٣) الرواية : بأمثال الجلاميد .

وَصَاحِبُ الْغَارِ إِنِّي سَوْفَ أَحْفَظُهُ ⁂ وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ ذِي الْجُودِ

لَقَدْ رَمَيْتُ بِهَا شَنْعَاءَ فَاضِحَةً ⁂ يَظَلُّ مِنْهَا صَحِيحُ الْقَوْمِ كَالْمُودِي

قوله: لو كنتَ من هاشمٍ يريد هاشم بن عَبْدِ مَنَاف بن قُصَيّ بن كِلاب ابن مُرَّةَ بن كَعْب بن لُؤَيّ بن غالب بن فِهْرِ بن مالك بن النَّضْرِ بن كنانة، والنَّضْرُ أبو قُرَيْشٍ، ومن كان من بنى كنانةَ لم يَلِدْهُ النَّضْرُ فليس بقُرَشِيّ. وبنو أسد بن عبد العُزَّى بن قُصَيّ. وعبد شمس بن عبد مَنَاف بن قُصَيّ. وأصحاب اللواء بنو عَبْدِ الدار بن قُصَيّ، واللواء ممدود إذا أردتَ به لواء الأمير، ولكنه احتاج إليه فقَصَرَهُ، وقد بيَّنَّا جواز ذلك، فأما اللِّوَى من الرمل فمقصور، قال امْرُؤُ القَيْسِ:

⁂ بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ[1] ⁂ كذا يرويه الأصمعى وهذه أصح الروايات.

وقوله أو من بنى نوفل فهو نَوْفَلُ بن عبد مَنَافِ بن قُصَيّ. والمُطَّلِبُ الذى ذكره هو ابن عبد مَنَاف بن قُصَيّ، وقوله لم تُصْبِح اليوم نِكْساً، فالنِّكْسُ الدَّنِيءُ المُقَصِّرُ[2] ويقول بعضهم إن أصل ذلك فى السّهام، وذلك أن السَّهْمَ إذا ارْتَدَعَ[3] أو نالته آفة نُكِسَ فى الكِنانة[4] ليُعْرَفَ من غيره قال الحُطَيْئَةُ:

---

(١) فى نسخة الشيخ المرصفى: وحومل، وبنى على ذلك أن رواية الأصمعى بالواو لا بالفاء، وتعليله أن «بين» إنما تضاف لمتعدد، ثم قال انه رأى العطف بالفاء مع بين فى كثير من شعر العرب. (٢) يريد المقصر عن النجدة والكرم.

(٣) أى أصاب الهدف وانكسر عوده. (٤) أى جعل أعلاه أسفله.

قَدْ نَاضَلُوكَ فَأَبْدَوْا مِنْ كِنَانَتِهِمْ ... مَجْدًا تَلِيدًا وَنَبْلاً غَـيْرَ أَنْكَاسِ

قوله : مجداً تليداً قالوا نواصى الفرسان[1] الذين كان يُمَنُّ عليهم ، وقوله ثَانِىَ الجِيدِ قد مرّ تفسيره فى قول الله عز وجل : « ثَانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عن سَبيلِ اللهِ » وقوله أو من بنى زُهْرَةَ ، فهو زُهْرَةُ بن كِلاب بن مُرَّةَ . ويُرْوَى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : خُلِقْتُ من خير حَيَّيْنِ مِنْ هاشِمٍ وزُهْرَةَ . وبنو جُمَح بن عمرو بن هُصَيْصِ بن كعب بن لُؤَىٍّ .

وقوله : المناجيد مَفاعيل من النَّجْدة والواحد مِنْجادٌ ، وإنما يقال ذلك فى تكثير الفعل كما تقول رجلٌ مِطْعانٌ بالرُّمْحِ ومِطْعامٌ للطعام ، وقوله : أو فى السرارة من تَيْمٍ رضيتُ بهم ، يقول فى الصَّميم منهم والمَوْضِعِ المَرْضِىِّ ، وأصل ذلك فى التُّرْبَةِ ، تقول العرب: إذا غَرَسْتَ فاغْرِسْ فى سَرارةِ الوادى، ويقال فلانٌ فى سِرِّ قومه ، والسُّرَّةُ مثل ذلك ، قال القُرَشِىُّ :

هَلاَّ سَأَلْتِ عَنِ الَّذِينَ تَبَطَّحُوا ... كَرَمَ الْبِطَاحِ وَخَـيْرَ سُرَّةِ وَادِ
وَعَنِ الَّذِينَ أَبَوْا فَلَمْ يُسْتَكْرَهُوا ... أَنْ يَنْزِلُوا الْوَجَاتِ مِنْ أَجْيَادِ
يُخْبِرْكِ أَهْلُ الْعِلْـمِ أَنَّ بُيُوتَنَا ... مِنْهَا بِخَيْرِ مَضَارِبِ الْأَوْتَادِ

وقوله : أو من بنى خَلَفِ الخُضْرِ ، فإنه حَذَفَ التنوين لا لتقاء السا كنين ، وليس بالوَجْه ، وإنما يُحْذَفُ من الحرف لالتقاء السا كنين حروفُ المَدِّ واللين ، وهى الألف المفتوح ما قبلها ، والياء المكسور ما قبلها ، والواو المضموم ما قبلها ، نحو قولك هـذا قفَا الرجلِ ، وقاضى الرجلِ ، ويَغْزُو

(١) أى شعور النواصى .

القومُ ، فأما التنوين فجاز هذا فيه لأنه نون فى اللفظ ، والنون تُدْغَمُ فى الياء والواو ، وتزاد كما تزاد حروفُ المَدِّ واللينِ ، ويُبْدَلُ بعضُها من بعض ، فتقول رأيتُ زَيْدًا فتُبْدِلُ الألف من التنوين ، وتقول فى النسب إلى صَنْعاء[1] وبَهْراء[2] صَنعانِىٌّ وبَهْرانِىٌّ ، فتُبْدِلُ النونَ من ألف التأنيث ، وهذه جُمْلَةٌ وتفسيرها كثير ، فلذلك حُذِفَ ، ومثل هذا من الشعر :

عَمْرُو الَّذِى هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ ... ورجالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجافُ[3]

(صوابه عَمْرُو العُلَى) وقال آخر :

حُمَيْـــــدُ الَّذِى أَمَجٌ دارهُ ... أخو الخَمْرِ ذُو الشَّيْبَةِ الأَصْلَعُ

وقرأ بعض القُرَّاء « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدُ اللَّهُ الصَّمَدُ » وسمعتُ عُمارةَ بن عقيلٍ يَقْرَأُ « وَلاَ اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارَ وَكُلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » ، فقلتُ ما تريد ؟ فقال : سابقٌ النهارَ ، وقوله : أو أُصحاب اللوا ، خَفَّفَ الهمزةَ ، وتُخَفَّفُ إذا كَانَ قبلها ساكنٌ ، فتُطْرَحُ حركتها على الساكن وتُحْذَفُ كقولك مَنَ أبوكَ ، وقوله عز وجل : « الَّذِى يُخْرِجُ الخَبَ فى السموات والأرض » وخَلَفٌ الذى ذكره من بنى جُمَحَ بن عَمْرو بن هُصَيْصِ بن كَعْبِ بن لُؤَىٍّ ، وقوله : الخُضْرِ الجَلاَعيد ، يقال فيه قولان : أحدهما أنه يريد سوادَ جلودهم كما قال الفَضْل بن العَبّاس بن عُتْبة بن أبى لَهَبٍ :

---

(١) قصبة اليمن . (٢) قبيلة باليمن .

(٣) صواب الرواية :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ... قوم بمكة مسـنتين عجاف

وقبله : كانت قريش بيضـة فتفقأت ... فالمح خالصه لعبد مناف

الخالطين فقيرهم بغنيهم ... والظاعنين لرحلة الايلاف

والرائشين وليس يوجد رائش ... والقائلين هلم للأضيـاف

وَأَنَا الْأَخْضَرُ مَنْ يَعْرِفُنِى   أَخْضَرُ الْجِلْدَةِ فى بَيْتِ الْعَرَبْ

فهذا هو القول الأول ، وقال آخرون شبههم فى جُودهم بالبُحور[١] ، وقوله : الجلاعيد، يريد الشِّدادَ الصِّلابَ واحدهم جَلْعَدٌ ، وزاد الياء للحاجة ، وهذا جمعٌ يجىء كثيراً ، وذلك أنه موضع تلزمه الكسرة ، فَتُشْبَعُ فتصير ياء ، يقال فى خاتَمٍ خَواتِيمُ ، وفى دانِقٍ دَوانيقُ ، وفى طَابَقٍ طوابيقُ ، قال الفَرَزْدَقُ :

تَنْفِى يَدَاهَا الْحَصَى فى كُلِّ هاجِرَةٍ   نَفْىَ الدَّرَاهِيمِ تَنْقادُ الصَّيَارِيفِ

وقوله : قبل القذاف يريد المُقاذَفَةَ ، وهذه تكون من اثنين فما فوقهما نحو المُقاتَلَةِ والمُشاتَمَةِ ، فباب فاعَلْتُ إنما هو للاثنين فصاعداً ، نحو قاتَلْتُ وضارَبْتُ ، وقد تكون الألف زائدة[٢] فى فاعَلْتُ فَتُبْنَى للواحد ، كما زيدت الهمزةُ أوَّلاً فى أفْعَلْتُ فتكون للواحد نحو عاقَبْتُ اللِّصَّ ، وعافاه اللهُ ، وطارَقْتُ نَعْلى .

وقوله: وصاحب الغار، يعنى أبابكرٍ رضى اللهُ عنه لمصاحبته النبىَّ صلى اللهُ عليه وسلم فى الغار ، وهذا مشهور لا يحتاج إلى تفسير . وطلحة بن عبيد الله ذوالجود ، نسبه إلى الجود لأنه كان من أجْودِ قُرَيْشٍ ، وحدَّثنى التَّوَّزِىُّ قال : كان يقال لطلحة بن عبيد الله ، طَلْحة الطَّلَحاتِ ، وطَلْحَةُ الْخَيْرِ ، وطَلْحَةُ الجودِ .

وذكر التَّوَّزِىُّ عن الأَصْمَعِىِّ أنه باع ضَيْعَةً له بخمسة عشر ألف درهم فَقَسَمَهَا فى الأَطْباقِ[٣] ، وفى بعض الحديث أنه مَنَعَهُ أن يَخْرُجَ إلى المسجد

---

(١) لما يرى من لون الخضرة فى مياهها .

(٢) أى لا تدل على المشاركة فى الفعل وان دلت على التأكيد .

(٣) أى فى جماعات الناس والمفرد طبق بالتحريك ، وهم أيضا الأجنب ، ففى حديث ابن مسعود فى أشراط الساعة : توصل الأطباق وتقطع الأرحام .

أن لُفِّقَ له بين ثوبين(١) .

وحدثنى العُتْبِىُّ فى إسنادٍ ذَكَرَهُ قال : دعا طَلْحَةُ بن عبيد الله أبا بكر وعمر وعثمان رحمة الله عليهم ، فأَبْطَأَ عنه الغُلامُ بشىء أراده ، فقال طلحةُ يا غلامُ ، فقال الغلامُ : لبَّيْكَ ! فقال طلحة : لا لبَّيْكَ ! فقال أبو بكر : ما يَسُرُّنى أنّى قُلْتُها ، وأنَّ لى الدنيا وما فيها ، وقال عمر : ما يَسُرُّنى أنى قُلْتُها ولى نصف الدنيا ، وقال عثمان : ما يسرنى أنى قلتها وأنَّ لى حُمْرَ النَّعَمِ ، قال : وصَمَتَ عليها أبو محمد ، فلما خرجوا من عنده باع ضَيْعَةً بخمسة عشر ألف دِرْهَمٍ فتصدق بِثَمَنِها .

وقوله : * يَظَلُّ مِنهَا صَحِيحُ الْقَوْمِ كَالْمُودَى * فالمودى فى هذا الموضع الهالك ، وللمودى موضع آخر يكون فيه القوىَّ الجادَّ حدَّثنى بذلك التَّوَّزِىُّ فى كتاب الأضداد ، وأنشدنى .

* مُودُونَ يَحْمُونَ السَّبِيلَ السَّابِلاَ * (المُؤْدِى بالهمز : التامُّ الأَداةِ والسِّلاحِ ، وبغير الهمز الهالكُ) وقال رجل من العرب :

خَلِيلَىَّ عُوجَا بَارَكَ اللهُ فِيكُمَا عَلَى قَبْرِ أُهْبَانٍ سَقَتْهُ الرَّوَاعِدُ
فَذَاكَ الْفَتَى كُلُّ الْفَتَى كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُزَجَّى نَفْنَفٌ مُتَبَاعِدُ
إِذَا نَازَعَ الْقَوْمُ الْأَحَادِيثَ لَمْ يَكُنْ عَيِيًّا وَلاَ عِبْئًا عَلَى مَنْ يُقَاعِدُ

قوله: على قَبْرِ أُهْبَانٍ ، فهذا اسم عَلَمٌ كزيد وعمرو واشتقاقه من وَهَبَ يَهَبُ وهَمَزَ الواوَ لانضمامها كقوله تعالى « وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ » فهو فُعِّلَتْ من الوَقْتِ ، وقد مضى تفسير همز الواو إذا انْضَمَّتْ ، وهو لا ينصرف فى المعرفة

---

(١) أى ضم أحدهما إلى الآخر .

وينصرف فى النكرة ، وكل شيء لاينصرف فصَرْفُهُ فى الشعر جائز لأن أصله كَانَ الصَّرْفَ فلما احتيج إليه رُدَّ إلى أصله ، فهذا قولُ البصريين ، وزعم قوم أن كل شيء لاينصرف فصَرْفُهُ فى الشعر جائز إلا أفعَلَ الذى معه منكَ نحو أفْضَل منك وأ كرمَ منكَ . وزعم الخليل ، وعليه أصحابه ، أن هذا إذا كانت معه منك بمنزلة أحْمَرَ ، لأنه إنما كَمَلَ أنْ يكون نعتاً بمنك ، وأحْمَرُ لا يحتاجُ إليها ، فهو مع منْكَ بمنزلة أحْمَرَ وحْدَهُ ، قال والدليل على أن منك ليست بمانِعَتِهِ من الصرف أنه إذا زال عن بنا. أفْعَلَ أنْصَرَفَ نحو قولك مررتُ بخَيْرٍ منك وشَرٍّ منك ، فلوكانت منكَ هى المانِعةَ لَمَنعَتْ هاهنا فهذا قولٌ بَيِّنٌ جدًّا .

وقوله : المُزَجَّى ، فهو الضعيف ، يقال : زَجَّى فلان حاجتى : أى خَفَّف عليه تعْجيلَها ، والمُزْجاةُ من البضائع اليَسيرةُ الخفيفة المَحْمِلِ ، والنَّفْنَفُ وجمعه النَّفانِفُ كُلُّ ما كان بين شيئين عالٍ ومنخفضٍ ، قال ذو الرُّمَّةِ :

(تَرَى قُرْطَهَا فِى وَاضِحِ اللِّيتِ مُشْرِفاً ... عَلَى هَــلَكٍ) فى نَفْنَفٍ يَتَطَوَّحُ

وقوله: ولا عِبْئاً عَلَى من يقاعِدُ، فالعِبْءُ الثِّقْلُ يقال حَمَل عِبْئاً ثقيلاً ، ووَكَّدَهُ بقوله ثقيلاً ، ولو لم يقله لم يحْتَجْ إليه ، وقال آخر يذ كر ابنه :

أَلَا يَا سُمَيَّــةُ شُبِّى الْوَقُودَا ... لَعَلَّ اللَّــيَالِى تُؤَدِّى يَزِيدَا

فَنَفْسِى فِدَاؤُكَ مِنْ غَائِبٍ ... إِذَا ما المَسَارِحُ كَانَتْ جَلِيدَا

كَفَانِى الَّذِى كُنْتُ أَسْعَى لَهُ ... فَصَارَ أَبًا لِى وَصِرْتُ الوَلِيدَا

قوله : شُبِّى يقال شَبَبْتُ النارَ والحربَ إذا أوْقَدْتهما يقال شَبَّ يشُبُّ شَبًّا ،

قال الأَعْشَى :

تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيَانِهَا ... وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى والمُحَلَّقُ

وقوله : إذا ما المسارح كانت جليداً فالمسارحُ الطُّرُقُ التى يسْرَحون فيها ، واحدها مَسْرَحٌ ، والجَلِيدُ يقع من السماء ، وهو نَدًى فيه جُمُودٌ ، فتَبْيَضُّ له الأرض ، وهو دون الثَّلْجِ ، يقال له : الجَلِيدُ والضَّرِيبُ ، والسَّقِيطُ والصَّقِيعُ[(١)] وقالوا فى قوله : ✲ رِجْلاَ عُقَابٍ يَوْمَ دَجْنٍ تُضْرَبُ ✲ أى يصيبها الضَّرِيبُ

وقوله : وكُنتُ الوَلِيدَ فالوليد الصغير وجمعه وِلْدانٌ وهو فى القرآن (قوله عزّ وجل : « يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ » ونظير وَلِيدٍ ووِلْدانٍ ظَلِيمٌ وظِلْمانٌ وقَضِيبٌ وقِضْبانٌ[(٢)] وباب فُعالٍ فِعْلانٌ نحو عِقْبانٍ وذِبَّانٍ وغِرْبانٍ .

وقولهم : أمْرٌ لا يُنادَى وَليدُهُ يقال فيه قولان متقاربان ، فأحدهما أنه لا يُدْعَى له الصِّغارُ ، والوجه الآخر لأصحاب المعانى يقولون ليس فيه وَليدٌ فيُدْعَى ، ونظير ذلك قول النابغة الجَعْدِيّ :

سَبَقْتُ صِيَاحَ فَرَارِيجِهَا ... وَصَوْتَ نَوَاقِيسَ لَمْ تُضْرَبِ

أى لَيْسَتْ ثَمَّ[(٣)] ، ولكنَّ هذا من أوقاتها ، وقالت أخت طَرَفَةَ بن العَبْدِ :

عَدَدْنَا لَهُ سِتًّا وَعِشْرِينَ حِجَّةً ... فَلَمَّا تَوَافَاهَا[(٤)] اسْتَوَى سَيِّدًا ضَخْمَا

---

(١) استعملت العرب من هذه الأسماء أفعالا مبنية للمجهول، فقالوا: جلدت الأرض وضربت وصقعت إذا أصابها ذلك ، وقالوا : أجلد القوم وأضربوا وأصقعوا إذا أصابهم ذلك ، ولم يستعملوا من السقيط فعلا . (٢) بكسر الأول منهما وضمه ، والضم هو المطرد فى فعلان جمع فعيل .

(٣) يريد ليست هناك نواقيس فتضرب . (٤) أى أكملها .

فُجِعْنَا بِهِ لَمَّا رَجَوْنَا إِيَابَهُ ... عَلَى خَيْرِ حالٍ لاَ وَلِيدًا وَلاَ قَحْمَا

الوليد ما ذكرنا ، والقَحْمُ الرجل المتناهى سِنًّا ، ويقال ذلك فى البعير قَحْمٌ وقَحْرٌ ومُقْلَحِمٌ ، ويقال للبعير خاصَّةً قُحارية بوزن قُراسِيَة ، وأنشد الأصْمعِيّ :

رَأَيْنَ قَحْماً شابَ وَاقْلَحماً ... طالَ عليهِ الدَّهرُ فاسْلَهماً

المُسْلَهِمُّ الضامر ، وقال آخر لابنه يرثيه :

وَمِنْ عَجَبٍ أَنْ بِتَّ مُسْتَشْعِرَ الثَّرَى[1] ... وَبِتُّ بِمَا زَوَّدْتَنِى مُتَمَتِّعَا

وَلَوْ أَنَّنِى أَنْصَفْتُكَ الْوُدَّ لَمْ أَبِتْ ... خِلاَفَكَ حَتَّى نَنْطَوِى فى الثَّرَى معَا

وقال إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن حسن يرثى أخاه محمداً :

أَبَا المَنازِلِ يا عُبْرَ[2] الفَوارِسِ مَنْ ... يُفْجَعْ بِمِثْلِكَ فى الدُّنْيا فَقَدْ فُجِعا

اللهُ يَعلَمُ أَنِّى لَوْ خَشِيتُهُمُ ... أَوآنَسَ القَلْبُ مِنْ خَوْفٍ لَهُمْ فَزَعا

لَمْ يَقْتُلُوكَ وَلَمْ أُسْلِمْ أَخِى لَهُمُ ... حَتَّى نَعِيشَ جَمِيعاً أَوْ نَمُوتَ مَعَا

قوله : يا عُبْرَ الفوارس ، يصفه بالقوة منهم وعليهم كما يقال ناقة عُبْرُ الهَواجِرِ وعُبْرُ السُّرَى ، وقوله ٭ أو آنس القلب من خوف لهم فزعا ٭ يقول أَحَسَّ ، وأصل الإِيناس فى العين ، يقال : آنَسْتُ شخصاً : أى أَبْصَرْتُهُ من بُعْدٍ ، وفى كتاب الله عزّ وجل : « آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ نارًا » وقال مُتَمِّم ابن نُوَيْرَةَ (يرثى أخاه) :

وَقالُوا أَتَبْكِى كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ ... لِمَيْتٍ ثَوَى بَيْنَ اللِّوَى فالدَّكادِكِ

---

(١) استشعر الثرى: لبسه كالشعار ، وهو مايلى شعر الجسد من الثياب .

(٢) عبر — مثلث العين — يستوى فيه المذكر والمؤنث والمفرد والجمع ، يقال جمل وناقة وجمال ونوق عبر أسفار: إذا كانت قوية .

فَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّ الأَسَى يَبْعَثُ الأَسَى ذَرُونِى فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مالِكِ

الأَسَى : الحُزْنُ ، وقد مرّ تفسيره وقال على بن عبد الله بن العباس بن عبد المُطَّلِبِ رحمه الله :

أَبِى العَبَّاسُ قَرْمُ بَنِى قُصَىٍّ وَأَخْوَالِى المُلُوكُ بَنُو وَلِيعَهْ
هُمُ مَنَعُوا ذِمارِى يَوْمَ جاءَتْ كَتَائِبُ مُسْرِفٍ وَبَنُو اللَّكِيعَهْ
أَرَادَ بِىَ الَّتِى لا عِزَّ فِيهَا فَحَالَتْ دُونَهُ أَيْدٍ مَنِيعَهْ

قوله : بنو وليعة فهم أخواله من كِنْدَةَ وأُمُّهُ زُرْعَةُ بنت مِشْرَحٍ الكِنْدِيَّةُ ، ثم أَحَدُ بنى وَلِيعةَ ، وقوله : كتائبُ مُسْرِفٍ ، يعنى مسلم بن عُقْبَةَ المُرِّىَّ صاحبَ الحَرَّةِ ، وأهلُ الحجاز يسمونه مسرفاً ، وكان أراد أَهْلَ المدينة جميعاً على أن يبايعوا يَزِيدَ بن معاويةَ على أن كل واحد منهم عَبْدٌ قِنٌّ له إلا علىَّ ابْنَ الحُسَيْنِ ، فقال حُصَيْنُ بن نُمَيْرٍ السَّكُونِىُّ من كِنْدَةَ : ولا يُبايِعُ ابْنُ أختنا علىُّ بن عبد الله إلاَّ على ما يُبايِعُ عليه علىُّ بن الحسين على أنه ابن عَمِّ أمير المؤمنين ، وإلا فالحَرْبُ بيننا ، فأُعْفِىَ علىُّ بن عبد الله ، وقُبِلَ منه ما أراد ، فقال هذا الشِّعْرَ لذلك .

وقوله : بنو اللكيعه ، فهى اللئيمة ، ويقال فى النداء للئيم : يالُكَعُ ، وللأنثى يالَكاعِ ، لأنه موضع معرفة كما يقال يا فُسَقُ ويا خُبَثُ ، فإن لم ترد أن تَعْدِلَهُ عن جهته قلتَ للرجل : يا أَلْكَعُ ، وللأنثى يا لكعاء ، وهذا موضع لاتقع فيه النَّكِرَةُ ، وقد جاء فى الحديث - والأصل ما ذكرتُ لك : - لا تقوم الساعةُ حتى يَلِىَ أمورَ الناس لُكَعُ بن لُكَعٍ . فهذا كناية

عن اللئيم بن اللئيم ، وهذا بمنزلة عمر ينصرف فى النكرة ، ولا ينصرف فى المعرفة ، ولَكاعِ يُبْنَى على الكسر ، وسنشرح باب فَعالِ للمؤنث على وُجوهه الخمسة عند أول ما يَجْرِى من ذكره إن شاء الله ، وقد اُضْطُرَّ الحُطَيْئَةُ فذَكَرَ لَكاعِ فى غير النِّداء ، فقال يهجو امرأته :

أُطَوِّفُ مَا أُطَوِّفُ ثُمَّ آوِى إلَى بَيْتٍ قَعِيدَتُهُ لَكَاعِ

قَعيدةُ البيتِ رَبَّةُ البيت ، وإنما قيل قعيدة لقعودها وملازمتها ، ويقال للفرس قُعْدَةٌ من هذا ، وهو الذى يَرْتبطه صاحبُهُ فلا يُفارقه ، قال الجُعْفِىُّ :

لٰكِنْ قَعِيدَةُ بَيْتِنَا مَجْفُوَّةٌ بَادٍ جَنَاجِنُ صَدْرِهَا وَلَهَا غِنَى

الجَناجِنُ: مايظهر عند الهُزالِ من أطراف ضُلوع الصدر واحدها جِنْجِنٌ .

⁂

وقال هشام أخو ذى الرُّمَّةِ[1] :

تَعَزَّيْتُ عَنْ أَوْفَى بِغَيْلَانَ بَعْدَهُ عَزَاءً وَجَفْنُ الْعَيْنِ بِالْمَاءِ مُتْرَعُ
وَلَمْ تُنْسِنِى أَوْفَى الْمُصِيبَاتُ بَعْدَهُ وَلٰكِنَّ نَكْءَ الْقَرْحِ بِالْقَرْحِ أَوْجَعُ

غَيْلانُ : هو ذو الرُّمَّةِ ، وكان هِشامٌ من عُقلاءِ الرجال .

حدثنى العباس بن الفَرَجِ فى إسناد ذكره يَعْزوه إلى رجل أراد سَفَرًا فقال قال لى هِشامُ بن عُقْبَةَ : إنَّ لكل رُفْقَةٍ كَلْبًا يَشْرَكُهُمْ فى فَضْلَةِ الزادِ

(١) قبل هذين البيتين :

نعى الركب أوفى حين آبت ركابهم لعمرى لقد جاءوا بشر فأوجعوا
نعوا باسق الأخلاق لا يخلفونه تكاد الجبال الصم منه تصدع

ويَهُرُّ دونهم ، فإن قدرتَ ألا تكون كَلْبَ الرُّفْقة فافعلْ ، وإيّاكَ وتأخيرَ الصَّلاةِ عن وقتها ، فإنك مُصلّيها لا محالةَ ، فصلّها وهي تُقْبَلُ منك .

وقال حسّانُ بن ثابت الأنصاريُّ :

تَقُولُ شَعْثاءُ لَوْ صَحَوْتَ عَنِ الْـــكَأْسِ لأَصْبَحْتَ مُثْرِيَ الْعَدَدِ

(هي امرأته وهو اسمها) :

أَهْوَى حَدِيثَ النَّدْمانِ[1] في فَلَقِ الصُّـــبْحِ وَصَــوْتَ الْمُسامِرِ الْغَرِدِ
لاَ أَخْدِشُ الْخَدْشَ بِالْجَلِيسِ وَلاَ يَخْشَى نَدِيمِي إذا انْتَشَيْتُ يَدِي
يَأْبَى لِيَ السَّيْفُ وَاللِّسانُ وَقَوْ مٌ لَمْ يُضامُوا كَلِبْدَةِ الأَسَدِ

لِبْدَةُ الأسد : ما يتطارَقُ[2] مِنْ شعرِهِ بين كَتِفَيْهِ ، ويقال أَسَدٌ ذو لِبْدَةٍ وذو لِبَدٍ .

⁂

وحدثني عُمارةُ قال : مرض جريرٌ مَرْضةً شديدةً ، فعادَتْهُ قَيْسٌ فقال :

نَفْسِي الْفِداءُ لِقَوْمٍ زَيَّنُوا حَسَبِي وَإِنْ مَرِضْتُ فَهُمْ أَهْلِي وَعُوّادِي
لَوْ خِفْتُ لَيْثاً أَبا شِبْلَيْنِ ذا لِبَدٍ ما أَسْلَمُونِي لِلَيْثِ الْغابَةِ الْعادِي
إنْ تَجْرِ طَيْرٌ بِأَمْرٍ فِيــهِ عافِيَةٌ أَوْ بِالرَّحِيلِ فَقَدْ أَحْسَنْتُمُ زادِي

وقال عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت بن المُنْذِرِ بن حَرامٍ ، وهو يُهاجِي عبد الرحمن بن الحَكَمِ بن أبي العاصي بن أُمَيَّةَ بن عبد شَمْسٍ :

---

(١) الندمان : بفتح النون هو النديم وجمعه ندامى وندام . (٢) يتراكب بعضه فوق بعض .

فَأَمَّا قَوْلُكَ الْخُلَفَاءُ مِنَّا … فَهُمْ مَنَعُوا وَرِيدَكَ مِنْ وِدَاجِ[١]
وَلَوْلَاهُمْ لَكُنْتَ كَحُوتِ بَحْرٍ … هَوَى فِي مُظْلِمِ الْغَمَرَاتِ دَاجِي
وَكُنْتَ أَذَلَّ مِنْ وَتِدٍ بِقَاعٍ … يُشَجِّجُ رَأْسَهُ بِالْفِهْرِ[٢] وَاجِي[٣]

فكتب مُعاويةُ إلى مَرْوانَ أن يُؤَدِّبَهُما وكانا قد تقاذَفا ، فضَرَبَ عبدَ الرحمن ابن حسان ثمانين ، وضَرَبَ أخاه عشرين ، فقيل لعبد الرحمن بن حسان : قد أمْكَنَكَ فى مَرْوانَ ما تريد ، فَأَشِدْ بذكره ، وارْفَعْهُ إلى مُعاوية ، فقال إذًا والله لا أفعلُ وقد حدَّنى كما تُحَدُّ الرجالُ الأحرارُ ، وجعَل أخاه كنصف عبد ، فأوْجَعَهُ بهذا القول .

٭٭٭

ويروى أن عبد الرحمن بن حسَّان لَسَعَهُ زُنْبورٌ فجاء أباه يبكى ، فقال له : مالك ؟ فقال : لسعنى طائر كأنه مُلْتَفٌّ فِى بُرْدَىْ حِبَرَةٍ[٤] . قال : قلتَ والله الشعر[٥] . ويروى أن معلمه عاقب الصِّبْيان على ذَنْبٍ وأراده بالعقوبة ، فقال :

اللهُ يَعْلَمُ أَنِّى كُنْتُ مُنْتَبِذًا … فِى دَارِ حَسَّانَ أَصْطَادُ الْيَعَاسِيبَا

وأعْرَقُ قومٍ كانوا فى الشعر آلُ حَسَّان فإنهم يَعْتَدُّون ستةً فى نَسَقٍ كلُّهم

(١) الوداج مصدر ودجه: أى قطع ودجه ، والمراد أنهم منعوا وريده من القطع . (٢) الحجر

(٣) أصله واجئ بالهمز من الوجء ، وهو الدق والضرب .

(٤) ضرب من ثياب اليمن ذو حمرة تضرب إلى سواد .

(٥) أراد أصل الشعر وهو جودة الخيال .

شاعرٌ ، وهم سَعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المُنْذِر بن حرام ، وبعد هؤلاء فى الوقت آلُ أبى حَفْصة فإنهم أهل بيت كلُّهم شاعرٌ يتوارثونه كابِرًا عن كابِرٍ .

ويروى أن ابنة لابن الرقاع وقف بباب أبيها قوم يسألون عنه ، فقالت: ما تريدون إليه ؟ فقالوا : جئنا لنُهاجيَهُ ، فقالتْ وهى صَبِيَّةٌ :

تَجَمَّعْتُمُ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ وَوِجْهَةٍ   عَلَى وَاحِدٍ لاَ زِلْتُمُ قِرْنَ وَاحِدِ

فهذه بلغت بطبعها على صِغَرِها مَبْلَغَ الْأَعْشَى فى قَلْب هذا المعنى حيث يقول لِهَوْذَةَ بن على :

يَرَى جَمْعَ مَا دُونَ الثَّلاَثِينَ قُصْرَةً   وَيَعْدُو عَلَى جَمْعِ الثَّلاَثِينَ وَاحِدَا

باب

قال أبو العباس قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : عَلِّمُوا أولادكم العَوْمَ والرِّمَايَةَ ، ومُرُوهُمْ فَلْيَثِبُوا على الخيل وَثْبًا ، ورَوُّوهُمْ ما يَجْمُلُ من الشِّعْرِ .

وفى حديث آخر : وَخَيْرُ الخُلُقِ للمرأة المِغْزَلُ .

ويروى عن الشَّعْبِيِّ أنه قال : قال عبد الله بن العباس قال لى أبى : يا بُنَيَّ إنى أرى أمير المؤمنين قد اختَصَّكَ دون مَنْ ترى من المهاجرين والأنصار ، فاحْفَظْ عنى ثلاثًا : لا يُجَرِّبَنَّ عليك كَذِبًا ، ولا تَغْتَبْ عنده مسلمًا ، ولا تُفْشِيَنَّ له سِرًّا ، قال فقلتُ له : يَا أَبَهْ ، كُلٌّ واحدةٍ منها خيرٌ من ألف ، فقال : كلٌّ واحدة منها خيرٌ من عشرة آلاف .

وحدثنى العباس بن الفَرَج فى إسناد ذكره قال : نُظِرَ إلى عمرو ابن العاصى على بَغْلةٍ قد شَمِطَ[1] وَجْهُها هرَمًا فقيل له : أَتَرْكَبُ هذه وأنت على أَكْرَمِ ناخِرةٍ[2] بمصر ؟ فقال لا مَلَلَ عندى لدابتى ما حَمَلَتْ رِجْلِيَّ ، ولا لأمرأتى ما أحْسَنَتْ عِشْرتى ، ولا لصديق ما حَفِظَ سِرِّى ، إن المَلَلَ من كَوَاذب الأَخْلاق .

قوله : على أكرم ناخرة يريد الخيل ، يقال للواحد ناخرٌ ، وقيل : ناخِرَةٌ يراد جماعةٌ كما تقول رجل بَغَّالٌ وحَمَّارٌ ، والجماعة البَغَّالَةُ والحَمَّارَةُ ، وكذلك

---

(١) أى ابيض . (٢) النخير : صوت يمد فى خياشيم الأنف ، والمراد أنه سيد البلاد .

تقول أتتنى عُصْبَةٌ نبيلةٌ ، وقبيلة شَرِيفةٌ ، والواحد نَبيلٌ وشريف .

وشاوَرَ مُعاوية عَمْرًا فى أمر عبد الله بن هاشم بن عُتْبَةَ بن مالك بن أبى وَقَّاص ، وكان هاشم بن عُتْبةَ أحدَ فُرْسان علىّ رضى اللهُ عنه (وهو المِرْقالُ) فأُتِىَ بابنه مُعاويةُ ، فشاور عَمْرًا فيه ، فقال : أرى أن تقتله ، فقال له معاوية : إنى لم أرَ فى العفو إلا خيْرًا ، فمضى عمرٌو مُغْضَبًا ، وكتب إليه :

أَمَرْتُكَ أَمْرًا حازِمًا فعصيْتَنِى ... وَكَانَ مِنَ التَّوْفِيقِ قَتْلُ ابْنُ هاشِمِ

أَلَيْسَ أَبُوهُ يَامُعَاوِيَةُ الَّذِى ... أَعَانَ عَلَيْنَا يَوْمَ حَزّ الْغَلَاصِمِ (١)

فَقَتَّلَنَا حَتَّى جرَى مِنْ دِمائِنا ... بِصِفِّينَ أَمْثَالُ الْبُحُورِ الخَضارِمِ

وَهٰذَا ابْنُهُ وَالمرْءُ يُشْبِهُ عِيصَهُ (٢) ... وَيُوشِكُ أَنْ تُلْقَى بِهِ جِدَّ نَادِمِ

فبعث معاوية بأبياته إلى عبد الله بن هاشم ، فكتب إليه عبد الله بن هاشمٍ :

مُعاوِىَ إنَّ المرْءَ عَمْرًا أبَتْ لَهُ ... ضَغِينَةُ خِبٍّ غِشُّها غيْرُ نائِمِ (٣)

يَرَى لَكَ قَتْلِى يا ابْنَ هِنْدٍ وَإنَّما ... تَرَى مايَرَى عَمْرٌو مُلُوكُ الأعَاجِمِ

عَلَى أنَّهُمْ لاَ يَقْتُلُونَ أَسِيرَهُمْ ... إذَا كانَ مِنْــهُ بَيْعَةٌ لِلْمُسالِمِ

فَإنْ تَعْفُ عَنِّى تَعْفُ عَنْ ذِى قَرَابَةٍ ... وَإنْ تَرَ قَتْلِى تَسْتَحِلَّ مَحارِمِى

فَصَفَحَ عنه .

وقال عمرو لعائشة رحمها الله : لوَدِدْتُ أنكِ كنتِ قُتِلْتِ يوم الجَمَلِ ! فقالت : وَلِمَ لا أبالَكَ ؟ فقال : كُنْتِ تَمُوتِينَ بأَجَلِكِ وتدْخُلينَ الجنةَ ، ونَجْعَلُكِ أكبر التشنيع على علىٍّ .

---

(١) جمع الغلصمة وهى رأس الحلقوم . (٢) العيص : الأصل .

(٣) الخب : الخداع الخبيث.

وحدثني العباس بن الفرج الرِّياشِيُّ في إسنادٍ ذكره آخره ابن عباس قال: دخلت على عمرو بن العاص وقد احْتُضِرَ فدخل عليه عبد الله بن عمرٍو فقال له يا عبد الله خُذْ ذلك الصُّنْدوقَ، فقال لا حاجة لي فيه، قال إنه مملوء مالاً، قال: لا حاجة لي به، فقال عمرو: ليته مملوء بَعَرًا! قال فقلت يا أبا عبد الله: إنك كنتَ تقول أشتهي أن أرى عاقِلاً يموت حتى أسألَهُ كيف يجِدُ فكيف تجِدُكَ؟ قال: أجد السماء كأنها مُطْبَقَةٌ على الأرض، وأنا بينهما، وأراني كأنما أتنفَّسُ من خَرْتِ إبْرَةٍ، ثم قال: اللهم خُذْ مني حتى تَرْضَى، ثم رفع يديه، فقال: اللهم أَمَرْتَ فعصَيْنا، ونهيْتَ فركِبْنا، فلا بريءٌ فأعْتذِر ولا قويٌّ فأنتصر، ولكن لا إله إلا اللهُ ثلاثًا، ثم فاظ.

وقد روينا هذا الخبر من غير ناحية الرِّياشِيِّ بأتم من هذا، ولكن اقتصرنا على هذا لثقةِ إسناده.

قوله: من خَرْتِ إبرة، يعني من ثَقْبِ إبرةٍ، يقال للدليل خِرِّيتٌ. وزعم الأصمعي أنه أريد به أنه يهتدي لمثل خَرْتِ الإبرة، وقوله: فاظ، أي مات، يقال: فاظ، وفاد، وفَطَسَ، وفازَ، وفوَّزَ كل ذلك في معنى الموت، ولا يقال فاض بالضاد إلا للاناء، قال رؤبة:

☆ لَا يَدْفِنُونَ مِنْهُمُ مَنْ فَاظَا ☆

وقال ابن جُرَيْجٍ:

☆ أَمَا رَأَيْتَ المَيْتَ حِينَ فَوْظِهِ ☆

ومَنْ قال ذلك للنفْس قال فاضَتْ نَفْسُهُ شبَّهها بالاناء.

وحدثنى أبو عثمان المازنىُّ أَحْسَبُهُ عن أبى زيد قال : كل العرب يقولون فاضَتْ نفسه إلا بَنى ضَبَّةَ فإنهم يقولون فاظَتْ نفسه ، وإنما الكلام الصحيح فاظ بالظاء إذا مات .

❊

وفى الحديث أن امرأة سَلاَّمِ بن أبى الحُقَيْقِ قالت : فاظ ، وإلٰه يهودَ .

وحدثنى مسعود بن بِشْرٍ قال قال زيادٌ : الإمْرَةُ تُذْهِبُ الحَفِيظةَ ، وقد كانت من قوم إلىَّ هَناتٌ جعلتها تحت قَدَمى ، ودَبْرَ أُذُنى ، فلو بلغنى أن أحدكم قد أخذه السِّلُّ من بُغْضِى ماهتَكْتُ له سِترًا ، ولا كَشَفْتُ له قِناعًا ، حتى يُبْدِىَ لى عن صَفْحتِهِ ، فإذا فعل لم أناظِرْهُ .

وسمع زِيادٌ رجلاً يَسُبُّ الزمانَ فقال : لو كان يدرى ما الزمانُ لَضَرَبْتُ عُنُقَهُ ، إن الزمان هو السلطان .

وفى عَهْدِ أَزْدَشِيرَ : وقد قال الأولون مِنّا عَدْلُ السلطان أنفعُ لِلرَّعِيَّة من خِصْبِ الزمان .

وقال المُهَلَّبُ بن أبى صُفْرَةَ لِبَنِيه : إذا وَلِيتُمْ فَلِينُوا للمُحسِنِ واشتدوا على المُرِيب ، فإن الناس للسُّلْطان أَهْيَبُ منهم للقرآن .

وقال عثمان بن عفَّانَ رضى الله عنه : إن الله لَيَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن .

قوله : يَزَعُ أى يَكُفُّ يقال وَزَعَ يَزَعُ إذا كف ، وكان أصله يَزِعُ مثل يَعِدُ فذهبت الواو لوقوعها بين ياء وكسرة واتَّبَعَتْ حروفُ المضارعة

الياء لئلا يختلف الباب ، وهى الهمزة ، والنون ، والتاء ، والياء نحو أَعِدُ ، ونَعِدُ ، وتَعِدُ ، ويَعِدُ ، ولكن انفتحت فى يَزَعُ من أجل العين لأن حروف الحلق إذا كُنَّ فى موضع عين الفعل أو لامِهِ فُتِحْنَ فى الفعل الذى ماضيه فَعَلَ ، وإن وقعت الواو مما هى فيه فاء فى يَفْعَلُ المفتوحة العين فى الأصل صَحَّ الفِعْلُ ، نحو : وَحِلَ يَوْحَلُ ، ووَجِلَ يَوْجَلُ ، ويجوز فى هذه المفتوحة ياحَلُ وياجَلُ وَيِيْحَلُ وَيِيْجَلُ ، وكل هذا كراهية للواو بعد الياء ، تقول وزَعْتُهُ كففته ، وأوزعته حملته على ركوب الشىء وهيأته ، وهو من الله عزَّ وجل توفيق ، ويقال أَوْزَعَكَ الله شكره ، أى وفقك الله لذلك .

⁂

وقال الحسن[1] مرةً : ما حاجة هؤلاء السلاطين إلى الشُّرَطِ؟ فلما وَلِىَ القضاء كَثُرَ عليه الناس فقال : لا بُدَّ للناس من وزَعَةٍ .

وخَطَبَ الحَجَّاجُ بن يوسف ذات يومٍ يوم جمعة ، فلما تَوَسَّطَ كلامَهُ سمع تكبيراً عالياً من ناحية السوق فقطع خطبته التى كان فيها ثم قال : يا أهل العِراق ، ويا أهل الشِّقاقِ ، ويا أهل النفاق ، وسَيِّئِى الأخلاقِ ، يابنى اللَّكِيعة ، وعَبيدَ العَصَا ، وأولادَ الإماء ، إنى لأسْمَعُ تكبيراً ما يُرادُ اللهُ به ، إنما يراد به الشيطانُ ، وإن مَثَلِى ومَثَلَكُمْ قولُ ابن بَرَّاقَةَ الهَمْدَانِىِّ :

وَكُنْتُ إذا قَوْمٌ رَمَوْنِى رَمَيْتُهُمْ ... أَهَلْ أنا فى ذا يالَ هَمْدَانَ ظالِمُ
مَتَى تَجْمَعِ القَلْبَ الذَّكِىَّ وصارِمًا ... وأَنْفًا حَمِيًّا تَجْتَنِبْكَ المَظالِمُ

(١) يريد الحسن بن الحسن البصرى .

ثم نزل فصَلَّى بهم. قوله : يا أهل الشقاق ، فالمشاقَةُ المعاداة ، وأصله أن يَرْكَبَ ما يَشُقُّ عليه ، ويُرْكَبَ منه مثلُ ذلك ، والنفاق : أن يُسِرَّ خلافَ ما يُبْدِى هذا أصله ، وإنما أُخِذَ من النافقاء ، وهو أحد أبواب جحرةِ اليَرْبوع ، وذلك أنه أخفاها ، فإنما يَظْهَرُ من غيره ، ولِجُحْرِهِ أربعةُ أبوابٍ : النافِقاء والراهِطاء والدامَّاء والسابياء وكلُّها ممدودة ، ويقال للسابياء القاصِعاء ، وإنما قيل له السابياء لأنه لا يُنْفِذُهُ فيُبْقِى بينه وبين إنفاذه هَنَةً من الأرض رقيقةً ، وأُخِذَ من سابياء الولد ، وهى الجلدة الرقيقة التى يخرج فيها الولد من بطن أمه . قال الأَخْطَلُ يَضْرِبُ ذلك مَثَلاً ليَرْبوعِ بن حَنْظَلَةَ(١) لأنه سُمِّىَ باليربوع :

تُسَدُّ القاصِعاء عليك حَتَّى تُنَفَّقَ(٢) أو تموتَ بها هُزالا

والعرب تزعم أنه ليس من ضَبٍّ إلا وفى جُحْرِهِ عقربٌ ، فهو لا يأكل ولد العقرب ، وهى لا تضربه ، فهى مُسالِمَةٌ له ، وهو مُسالِمٌ لها ، وأنشد :

وأَخْدَعُ من ضَبٍّ إذا خاف حارشًا(٣) أَعَدَّ له عِنْــدَ الذُّنابة عَقْربا

(كلها بالمد ، ويقال بالقصر ، ويقال أيضا فيها على وزن فُعَلَةٍ نُفَقَةٌ ورُهَطَةٌ ودُمَمَةٌ وقُصَــعَةٌ . وحكى ابن القُوطِيَةِ فى المقصور والممدود له الرُّهَطاء كالراهِطاء ، والنُّفَقاء كالنافقاء ، والقُصَعاء كالقاصِعاء . وحَكَى أيضا زيادةً فقال : العانِقاء جُحْرُ الأرنب واليربوع ، والغابياء أيضا من جِحَرةِ اليَرْبوع ، وأما قول أبى العباس فى السابِياء ، فهو مما قد رُدَّ عليه فيه ، وقد تبعه ابن وَلَّادٍ ، وكلاهما غير مصيب ، وإنما السابياء وعاءٌ فيه ماءٌ صاف

---

(١) جد جرير الأكبر . (٢) أى تخرج من النافقاء .

(٣) الحارش صائد الضباب .

يَخْرُجُ مع الولد ، وهو الفَقْءُ ، وليس يخرج الولد فيه ، وقال الكُمَيْتُ :

وَفَقَأْ فيها الغَيْثُ من سابِيائِهِ[١]
دَوَالِحَ[٢] وافقْنَ النُّجومَ[٣] البَوَاجِسا[٤]

فشَبَّهَ ماء الغيث بماء السابياء ، وإنما الجِلْدَةُ التى يكون فيها الولد الغِرْسُ ، وقد تبع ابنُ القُوطية أبا العباس فى السابياء فى أنه من أسماء جِحَرَةِ اليربوع ، وذلك غلط).

وقوله : بنو اللكيعة يريد اللئيمة ، وقد مَرَّ تفسير هذا فى موضعه ، قال ابن قَيْسِ الرُّقَيَّاتِ يذكر قتل مُصْعَبِ بن الزُّبَيْرِ :

إنَّ الرَّزِيَّةَ يومَ مَسْكِنَ والمُصيبةَ والفَجيعَهْ[٥]
بابن الحَوَارِىِّ الذى[٦] لَمْ يَعْدُهُ أهلُ الوَقيعَهْ
غَدَرَتْ به مُضَرُ العِرا قِ وأَمْكَنَتْ منهُ رَبيعَهْ
فَأَصَبْتِ وِتْرَكِ يارَبيـعَ وكُنْتِ سامعةً مُطيعَهْ
يالَهفَ لو كانَتْ له بالطَّفِّ يومَ الطَّفِّ شِيعَهْ
أو لم يخونوا عَهْدَهُ أهلُ العِراقِ بَنُو اللَّكيعَهْ
لَوَجَدْتُمُوهُ حين يَغْضَبُ لا يُعَرِّجُ بالمَضيعَهْ[٧]

---

(١) فقأ : شقق ، وكذلك تفقأت السحابة : تشققت ونزل منها مطر كثير .

(٢) هى السحائب المثقلات بالماء والمفرد دالحة ، ويقال أيضا سحابة دلوح .

(٣) هى هنا الأنواء . (٤) أى التى ينبجس منها الماء وينفجر .

(٥) اسم موضع بالقرب من بغداد . (٦) الحوارى : هو الناصر ، والمراد هنا الزبير بن العوام.

(٧) الرواية :

لوجدتموه حين يد لج لا يعرس بالمضيعه

والتعريس : النزول فى آخر الليل . والمضيعة : المكان الذى يضيع فيه من ينزل به .

وقوله : عبيد العصا ، يريد أنهم لا ينقادون إلا بالإذلال ، كما قال ابن مُفَرِّغٍ الحِمْيَرِيّ :

وَالعَبْدُ يُقْرَعُ بالعصَا ... والحُرُّ تكفيه المَلامَهْ

وقال جرير يهجو التَّيْمَ :

أَلاَ إنَّمَا تَيْمٌ لعَمْرٍو ومالك ... عَبيدُ العصا لم يَرْجُ عِتْقًا قطينُها

⁂

وخطَبَ النَّاسَ عبدُ الرحمن بن محمد بن الأشعثِ بالمِرْبَدِ عند ظهور أمر الحَجَّاجِ عليه ، فقال : أيها الناس ، إنه لم يبق من عدُوِّكُمْ إلا كما يَبْقَى من ذَنَبِ الوَزَغَةِ تَضْرِبُ به يمينا وشمالا فلا تَلْبَثُ أن تموت . فسمعهُ رجل من بنى قُشَيْرِ بن كَعْبِ بن ربيعةَ بن عامر بن صَعْصَعَةَ فقال : قَبَّحَ اللهُ هـذا ، يأمر أصحابه بقلة الاحتراس من عدوهم ، ويَعِدُهُمُ الغُرُورَ .

ورَوَت الرُّواةُ أن الحَجَّاجَ لما أخَذَ رأسَ ابن الأشعث وَجَّهَ به إلى عبد المَلِكِ بن مَرْوان مع عِرار بن عَمْرو بن شَأْسٍ الأَسَدِيّ ، وكان أسود دميما ، فلما وَرَدَ به عليه جَعَلَ عبدُ الملك لا يسأل عن شيء من أمر الوَقيعة إلاَّ أَنْبَأَهُ به عِرارٌ فى أصح لفظ ، وأشْبَعِ قولٍ ، وَأَجْزَإِ اختصارٍ ، فشفاه من الخبر ومَلأَ أُذُنَهُ صوابًا ، وعبد الملك لا يعرفه ، وقد اقْتَحَمَتْهُ(١) عينه حيث رآه ، فقال عبد الملك متمثلاً :

---

(١) ازدرته .

أَرَادَتْ عِرَاراً بِالْهَوَانِ وَمَنْ يُرِدْ   لَعَمْرِى عِرَاراً بِالْهَوَانِ فَقَدْ ظَلَمْ
وَإِنَّ عِرَاراً إِنْ يَكُنْ غَيْرَ وَاضِحٍ   فَإِنِّى أُحِبُّ الْجَوْنَ ذَا الْمَنْكِبِ الْعَمَمْ

فقال له عِرارٌ: أتعرِفُنى يا أميرَ المؤمنين؟ قال: لا، قال: فأنا والله عِرارٌ! فزاده فى سُرورِهِ، وأَضْعَفَ له الجائزة.

⁂

وكتب صاحبُ اليمن إلى عبد الملكِ بن مَرْوانَ فى وقت محاربته ابنَ الأشْعَث: إنى قد وَجَّهْتُ إلى أميرِ المؤمنين بجارية اشتريتها بمال عظيم ولَمْ يُرَ مِثْلُها قطُّ، فلما دُخِلَ بها عليه رأى وجهاً جميلاً، وخَلْقاً نبيلاً، فألْقَى إليها قضيباً كان فى يده، فنَكَستْ لتأخذه فرأى منها جسْماً بهَرَهُ، فلما هَمَّ بها أعْلَمَهُ الآذِنُ أن رسول الحَجّاج بالباب، فأَذِنَ له ونَحَّى الجاريةَ، فأعطاه كتاباً من عبد الرحمن فيه سطور أربعة يقول فيها:

سائِلْ مُجاوِرَ جَرْمٍ هَلْ جَنَيْتُ لَهَا   حَرْباً تُزَيِّلُ بَيْنَ الْجِيرَةِ الْخُلُطِ
وَهَلْ سَمَوْتُ بِجَرَّارٍ لَهُ لَجَبٌ   جَمِّ الصَّوَاهِلِ بَيْنَ الْجَمِّ وَالْفُرُطِ
وَهَلْ تَرَكْتُ نِسَاءَ الْحَىِّ ضَاحِيَةً   فِى سَاحَةِ الدَّارِ يَسْتَوْقِدْنَ بِالْغُبُطِ

وتحتها (بيت آخر على غيرِ الرَّوِىِّ من الأبيات الأُوَل وهو):

قَتَلَ الْمُلُوكَ وَسَارَ تَحْتَ لِوَائِهِ   شَجَرُ الْعُرَى وَعَرَاعِرُ الأَقْوَامِ

قال فكتب إليه عبد الملك كتابا، وجعل فى طَيِّهِ جوابا لابن الأَشْعث:

مَا بَالُ مَنْ أَسْعَى لِأَجْبُرَ عَظْمَهُ   حِفَاظًا وَيَنْوِى مِنْ سَفَاهَتِهِ كَسْرِى

أظنُّ خطوبَ الدهرِ بيني وبينهم ... ستحملهم مني على مَرْكَبٍ وَعْرِ
وإنّي وإيّاهم كمَنْ نبّهَ القطا ... ولو لم تُنبَّهْ باتتِ الطيرُ لا تَسْرِي
أناةً وحلماً وانتظاراً بهم غداً ... فما أنا بالواني ولا الضَّرَعِ الغُمْرِ

ويُنشِدُ بالفاني، ثم بات يُقلِّبُ كفَّ الجارية ويقول: ما أفدْتُ فائدةً أحبَّ إليّ منك، فتقول: فما بالك يا أمير المؤمنين، وما يمنعك؟ فقال: يمنعني ما قاله الأخطلُ لأني إن خرجتُ منه كنتُ ألأمَ العرب:

قومٌ إذا حاربوا شدُّوا مآزرَهم ... دونَ النساءِ ولو باتتْ بأطهارِ

فما إليكِ سبيلٌ أو يحكُمَ الله بيني وبين عدوّ الرحمن بن الأشعثِ. فلم يقربْها حتى قُتِلَ عبدُ الرحمن.

قوله: فرأى منها جسماً بهرهُ، يقال بهرَ الليلُ إذا سدَّ الأُفقَ بظلمته، وبهرَ القمرُ إذا ملأ الأرض ببهائِهِ، ومن ثَمَّ قيل للقمر الباهرُ، أنشدني المازنيُّ لرجل من بني الحارث بن كعبٍ:

والقمرِ الباهرِ السماءَ لقدْ ... زُرْنا هلالاً بجحفلٍ لجبِ
تسمعُ زجرَ الكماةِ بينهمُ ... قدِّمْ وأخِّرْ وأرحِبِي[1] وهَبِي[2]
من كلِّ هَدَّاءةٍ[3] كعاليةِ الرُّ ... مْحِ[4] أمونٍ[5] وشيظمٍ[6] سَلِبِ[7]

وقال طُفَيلٌ الغَنَويُّ يصفُ كيف تُزجَرُ الخيلُ فجمعَهُ في بيت واحد:

---

(١) أرحبي، من أرحبت الشيء إذا وسعته.
(٢) هبي بفتح الهاء ويقال هاب بكسر الباء، وكلاهما زجر للخيل.
(٣) هي الفرس الضامر ذكرا وأنثى. (٤) عالية الرمح سنانه.
(٥) أمون: وثيقة الخلق. (٦) الشيظم: الشديد من الخيل.
(٧) السلب بكسر اللام: هو الطويل.

وَقِيل اقْدِمِى وَاقْدِمْ وَأَخٍّ وَاخِّرِى   وَهَا وَهَلاَ وَاُضْبُرْ وَقَادِعُهَا هَبِى

(قال أبو الحسن وأَجِّ) ومن زَجْرِ الخيل أيضاً هِقَبْ وهِقَطْ ، وأنشدنى أبو عثمان المازنى :

لَمَّا سَمِعْتُ زَجْرَهُمْ هِقِطِ   عَلِمْتُ أَنَّ فَارِساً مُنْحَطْ

(قال الفراء هِقَطْ بالكسر والفتح ويروى مُخْتَطْ بدل مُنْحَطْ) وقوله : بين الجَمِّ والقُرُط ، هما موضعان بأعيانهما ، وقوله: فى ساحة الدار يَسْتَوْقِدْنَ بالغُبُطِ يقال فيه قولان متقاربان أحدهما أنهنَّ قد يَئِسْنَ من الرحيل فجعلْنَ مَرَاكِبَهُنَّ حطباً ، هذا قول الأصمعى ، وقال غيره بل قد مَنَعَهُنَّ الخوفُ من الاحتطاب ، والغَبِيطُ من مَرَاكب النساء[١] وكذلك الحِدْجُ قال امْرُؤُ القيْسِ :

تَقُولُ وَقَدْ مَالَ الْغَبِيطُ بِنَا مَعاً   عَقَرْتَ بَعِيرِى يا امْرَأَ الْقَيْسِ فَانْزِلِ

فَأَعْلَمَكَ أن الغَبيطَ لها ، والمَحامِلُ إنما أوَّلُ مَنِ اتَّخذها الحَجَّاجُ ففى ذلك يقول الراجز :

أَوَّلُ عَبْدٍ عَمِلَ المَحَامِلا   أَخْزَاهُ رَبِّى عَاجِلاً وَآجِلاَ

وقوله : شجر العُرا ، فالعُرا : نبت بعينه إن ضُمَّ العَيْنُ ، والعَراء ممدودًا وَجْهُ الأرضِ ، قال الله عزّ وجل « لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ » وقال الهُذَلِىُّ :

رَفَعْتُ رِجْلاً مَا أَخَافُ عِثَارَهَا   وَنَبَذْتُ بِالْبَلَدِ الْعَرَاءِ ثِيَابِى

وهذا التفسير والإنْشاد عن أبى عبيدة ، وقوله : دون النساء ولو بانَتْ

---

(١) وهو الرحل يشد عليه الهودج .

بأطهار، معناه أنه يجتنبها فى طُهْرها، وهو الوقت الذى يستقيم له غِشْيانُها فيه، وأهل الحجاز يرَوْنَ الأَقْراء الطُّهْرَ، وأهلُ العراق يرَوْنها الحيضَ، وأهلُ المدينة يجعلون عِدَدَ النساء الأَطهارَ، ويَحْتَجُّونَ بقول الأَعْشَى:

وَفى كُلِّ عامٍ أَنْتَ جاشِمُ غَزْوَةٍ تَشُـدُّ لأَقْصاها عَزِيمَ عَزائِـكَا
مُوَرِّثَةً مالاً وَفى الحَىِّ رِفْعَةً لِما ضاعَ فِيها مِنْ قُرُوءِ نِسائِـكا

وقوله: ولو باتتْ بأطهار، فـ«لو» أصلها فى الكلام أن تدُلَّ على وقوع الشىء لوقوع غيره، تقول لو جئتنى لأَعْطَيْتُكَ، ولو كان زيدٌ هناك لضربْتُهُ، ثم تتَّسِعُ فتصير فى معنى «إنْ» الواقعة لِلجزاء تقول أنتَ لا تُكْرِمُنِى ولوأ كْرمتُكَ، تريد وإنْ أكرمتُك، قال الله عزّ وجل: «وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ» فأما قوله عز وجلّ: «فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ» فإن تأويله عند أهل اللغة لا يُقْبَلُ بِهِ أن يتبرَّأَ وهو مقيم على الكفر ولا يُقْبَلُ إن افْتَدَى به، فـ«لو» فى معنى «إنْ» وإنما مَنَعَ «لَوْ» أن تكون من حروف المُجازاة فتَجْزِمَ كما تجْزِمُ «إنْ» أنَّ حروفَ المجازاة إنما تقع لما لم يقعْ، ويصير الماضى معها فى معنى المستقبل، تقول إن جئتَنى أعْطيْتُكَ، وإن قعدْتَ عنى زُرْتُكَ، فهذا لم يقع وإن كان لفظه لفظ الماضى لِما أحْدثَتْهُ فيه «إنْ» وكذا متى أتيتنى أتيتك «ولَوْ» تقع فى معنى الماضى تقول لو جئتنى أمسِ لصادفْتنى، ولو رَكِبْتَ إلىَّ أمسِ لأَلفيْتنِى، فلذلك خرجَتْ من حروف الجَزاء، فإذا أدخلتَ معها «لا» صارمعناها أن الفعل يمتنع لوجود غيره، فهذا خلافُ ذلك

المعنى ، ولا تقع إلا على الأسماء ، ويقع الخبر محذوفاً لأنه لا يقع فيها الاسم إلا وخبره مدلول عليه ، فاستُغْنِيَ عن ذكره ، لذلك تقول لَوْلاَ عَبْدُ الله لضربتُكَ ، والمعنى في هذا المكان من قرابتك ، أو صَداقتك ، أو نحو ذلك ، فهذا معناها في هذا الموضع ، ولها موضع آخر تكون فيه على غير هذا المعنى ، وهي لَوْلاَ التي تقع في معنى هَلاَّ التي للتَّحْضيض ، ومن ذلك قوله : « لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا » ، أي هَلاَّ ، وقال تعالى : « لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ » فهذه لا يليها إلا الفعل لأنها للأمر والتحضيض مُظْهَرًا أو مُضْمَرًا كما قال : (نُسِبَ لجَرِيرٍ[1] ، وقيل للأشهب بن رُمَيْلَة) :

تَعُدُّونَ عَقْرَ النِّيبِ أَفْضَلَ مَجْدِكُمْ ... بَنِي ضَوْطَرَى لَوْلاَ الْكَمِيَّ الْمُقَنَّعَا

أي هَلاَّ تَعُدُّونَ الكَمِيَّ المقنعا ، ولَوْلاَ الأولى لا يليها إلا الاسم على ما ذكرتُ لك ولا بُدَّ في جوابها من اللام أو معنى اللام تقول لولا زَيْدٌ فعلت ، والمعنى لَفَعَلْتُ ، وزعم سيبويه أن زيداً من حَديث لولا واللامَ والفعلَ حديثٌ مُعلَّقٌ بحديث لولا ، وتأويله أنه للشرط الذي وجب من أجلها وامتنع لحال الاسم بعدها ، و« لَوْ » بغير « لا » لا يليها إلا الفعل مضمراً أو مظهراً لأنها تُشارِكُ حروف الجزاء في ابتداء الفعل وجوابه ، تقول لو جِئْتَني لأعْطَيْتُكَ فهذا ظهور الفعل وإضماره ، قوله عزّ وجل : « قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي » والمعنى والله أعلم لو تملكون أنتم فهذا الذي رفعَ أنتم

---

(١) وهو من قصيدة يهجو بها الفرزدق .

ولما أُضْمِرَ ظهر بعده ما يُفَسِّرُهُ ، ومثلُ ذلك (لَوْ ذَاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْنِى) أراد لَوْ لطَمَتْنِى ذاتُ سِوارٍ ، ومثله (قول المُتَلَمِّسِ) :

وَلَوْ غَيْرُ أَخْوَالِى أَرَادُوا نَقِيصَتِى   جَعَلْتُ لَهُمْ فَوْقَ الْعَرَانِينِ مِيسَما[1]

وكذلك قول جَرير :

لَوْ غَيْرُكُمْ عَلِقَ الزُّبَيْرُ بِحَبْلِهِ   أَدَّى الْجِوَارَ إِلَى بَنِى الْعَوَّامِ

فَنَصَبَ بفعل مضمر يُفَسِّرُهُ ما بعده لأنه للفعل، وهو فى التمثيل: لو عَلِقَ الزبيرُ غيرَكُمْ ، وكذلك كلُّ شىء للفعل نحو : الاستفهام ، والأمر ، والنهى ، وحروفِ الفعل نحو: إذْ وسَوْف (كذا وقع هنا إذ وسوف ولم يذكر سيبويه مع سوف إلاّ قَدْ وهو الصحيح) وهذا مشروح فى الكتاب المُقْتَضَبِ على حقيقة الشرح .

وأما قوله : وعَرَاعِرُ الأقوام ، فمعناه رُءوسُ الأقوام الواحد عُرْعُرَةٌ وعُرْعُرَةُ كُلِّ شىء أعلاه ، ومن ذلك كتاب يَزيد بن المُهَلَّبِ[2] إلى الحجَّاج ابن يوسف[3] : وإن العدُوَّ نزل بعُرْعُرَةِ الجبل ، ونزلنا بالحَضيض ! فقال الحجاج : ليس هذا من كلام يَزيد ، فَمَنْ هناكَ ؟ قيل : يَحْيَى بن يَعْمَرَ[4] ، فكتب إلى يَزيدَ أن يُشْخِصَهُ إليه .

***

وزعم التَّوَّزِىُّ قال : قال الحجاج ليَحْيَى بن يَعْمَرَ يوما أَتَسْمَعُنِى أَلْحَنُ

---

(١) الميسم آلة يكوى بها (٢) والى خراسان .

(٣) يخبره بفتح قلعة نيزك سنة أربع وثمانين .

(٤) يقال إنه أول من نقط المصحف ، وكانت وفاته سنة عشرين ومائة .

قال : الأميرُ أفْصَحُ من ذلك ، قال : فأعاد عليه القول وأقْسَمَ عليه . فقال يحيي : نعم تجعل أنَّ مكان إنَّ ، فقال له : ارْحَلْ عنى ولا تُجاوِرْنى .

قال أبو العباس : هذا على أن يزيد لم تُؤْخَذ عليه زَلّةٌ فى لفظ إلا واحدةٌ ، فانه قال على المِنْبَرِ ، وذَكَرَ عَبْدَ الحميد بن عبد الرحمن بن زَيْدِ ابن الخَطَّاب ،فقال: هذه الضَّبُعَةُ العَرْجاء. فاعْتُدَّتْ عليه لَحْنًا، لأن الأنثى إنما يقال لها الضَّبُعُ ، ويقال للذكر الضِّبْعانُ ، فاذا جُمِعَ قيل ضَبُعان ، وإنما جمع على التأنيث دون التذكير ، والباب على خلاف ذلك ، لأن التأنيث لا زيادة فيه ، وفى التذكير زيادة الألف والنون ، فَثُنّيَ على الأصل ، وأصل التأنيث : أن يكون زائدًا على بناء التذكير لأنه منه يَخْرُجُ ، مثل قائم وقائمة وكريم وكريمة ، فمن حيث قُلْتَ للذكر والأنثى فى التثنية كريمانِ على حذف الزيادة قلت ضَبُعان ، وتقول له ابنان إذا أردتَ له ابنٌ وابنةٌ ، ولا تقول فى الدار رجلان إذا أردتَ رجلاً وامرأةً ، إلا على قول من قال للأنثى رَجُلَةٌ فقد جاء ذلك ، قال الشاعر :

كُلُّ جارٍ ظَلَّ مُغْتَبِطًا ... غَيْرَ جيرانِى بَنِى جَبَلَهْ
خَرَّقُوا جَيْبَ فَتاتِهِمُ ... لَمْ يُبالوا حُرْمَةَ الرَّجُلَهْ

ولا يقال للناقة والجَمَلِ جملانِ ، ولا يقال للبقرة والثَّوْرِ ثَوْرانِ ، لاختلاف الاسمين ، إنما يكون ذلك فيما ذكرنا إلا فى قول من قال للأنثى ثَوْرَةٌ .

قال الشاعر :

جَزَى اللهُ فِيها الأَعْوَرَيْنِ مَلامَةً ... وَعَبْدَةَ ثَفْرَ الثَّوْرَةِ المُتَضاجِمِ

(قال أبو الحسن : المتضاجم المُتَّسِعُ) .

باب

قال أبو العباس قال الراعى :

وَمُرْسِلٍ وَرَسُولٍ غَيرِ مُتَّهَمٍ … وَحاجةٍ غَيْرِ مُزْجاةٍ مِنَ الحَاجِ
طاوَعْتُهُ بَعْدَ ما طالَ النَّجِيُّ بِنَا … وَظَنَّ أَنِّى عَلَيْهِ غَيْرُ مُنْعاجِ
مازالَ يَفْتَحُ أَبْوابًا وَيُغْلِقُهَا … دُونِى وَأَفْتَحُ بَابًا بَعْدَ إِرْتاجِ
حَتَّى أضاءَ سِراجٌ دُونَهُ بَقَرٌ … حُمْرُ الأَنامِلِ عِينٌ طَرْفُها ساجِى(١)
يا نُعْمَهَا لَيْلَةً حَتَّى تَخَوَّنَها … دَاعٍ دَعَا فى فُرُوعِ الصُّبْحِ شَحَّاجِ
لَمَّا دَعَا الدَّعْوَةَ الأُولَى فَأَسْمَعَنِى … أَخَذْتُ بُرْدَىَّ وَاسْتَمْرَرْتُ أَدْرَاجِى

قوله : وحاجة غير مزجاة من الحاج . المُزْجاةُ : اليسيرةُ الخفيفة المَحْمِلِ ، قال الله عز وجل : « وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ » والحاج جمعُ حاجةٍ ، وتقديره فَعَلَةٌ وفَعَلٌ ، كما تقول هامَةٌ وهامٌ وساعةٌ وساعٌ ، قال القُطَامِىُّ :

وَكُنَّا كَالحَرِيقِ أَصابَ غَابًا … فَيَخْبُو ساعَةً وَيَشُبُّ ساعَا

فإذا أردتَ أدْنَى العَدَد قلتَ ساعاتٌ ، فأما قولهم فى جمع حاجةٍ حَوائجُ فليس من كلام العرب على كثرته على ألسنة المُوَلَّدِينَ ولا قياسَ له(٢) ، ويقال

---

(١) رواية الآمدى : حور العيون ملاح طرفها ساجى . وبعده :

يكشفن للهو واللذات عن برد … تكشف البرق عن ذى لجة داجى
كأنما نظرت دونى بأعينها … عين الصريمة أو غزلان فرتاج

وفرتاج بكسر فسكون : اسم ماء لبنى أسد .

(٢) ومع ذلك وردت فى الكلام الفصيح .

في قلبي منك حَوْجاء : أي حاجةٌ ، ولو جُمِعَ على هذا لكان الجمع حَوَاجٍ يافتى ، وأصله حَوَاجِيٌ يافتى ، ولكنْ مثلُ هذا يُخَفَّفُ ، كما تقول في صحراء صحَارٍ يافتى ، وأصله صَحارِيٌ .

وقوله : طاوعته بعد ماطال النَجِيُّ بنا ، يريد المناجاة ، فأخرجه على فَعيلٍ ونظيره من المَصادر : الصَّهيلُ ، والنَّهيقُ ، والشَّحيجُ ، ويقال : شَبَّ الفرسُ شَبيباً ، ولذلك كان النَّجِيُّ يقع على الواحد والجماعة نعتاً ، كما تقول امرأة عَدلٌ ورجل عَدلٌ وقوم عَدلٌ لأنه مصدر ، قال الله عز وجل : « وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا » أي مُناجياً ، وقال للجماعة : « فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا » أي مُتناجين وقوله مُنْعاج : أي منعطف ، تقول عُجْتُ عليه : أي عَرَّجْتُ عليه ، وعِجْتُ إليه أعِيج : أي عَوَّلْتُ عليه ، وقوله بعد إرْتاج : أي بعد إغلاقٍ ، يقال : أرْتَجْتُ الباب إرْتاجا ، أي أغلقْتُهُ إغلاقًا ، ويقال : لِغَلَق الباب الرِّتاجُ ، ويقال للرجل إذا امتنع عليه الكلام أُرْتِجَ عليه .

وقوله : أضاء سِراجٌ دونه بقرٌ ، يعنى نساء ، والعربُ تكنى عن المرأة بالبقرة والنَّعْجة ، قال الله عزّ وجلّ : « إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً » ، وقال الأعشى :

فَرَمَيْتُ غَفْلَةَ عَيْنِهِ عَنْ شَاتِهِ فَأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِهَا وَطِحَالَهَا

وقوله : عِينٌ ، إنما هو جمع عَيْناء وهي الواسعة العَيْنِ ، وتقديره فُعْلٌ ، ولكن كُسِرَت العينُ لتصحَّ الياء ، ونحو ذلك بَيْضاء وبِيضٌ ، وتقديره حَمْراء وحُمْرٌ ، ولو كان من ذوات الواو لكان مضموما على أصل الباب ، لأنه

لا إخْلال فيه تقول : سَوْداء وسُودٌ ، وعَوْراء وعُورٌ ، وقوله : طرفها ساج ولم يقل أطرافها لأن تقديرها تقدير المصدر من طَرَفْتُ طَرْفًا ، قال الله عزّ وجل : « خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ » لأن السَمْعَ فى الأصل مصدر قال جَرير :

إنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا مَرَضٌ قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلانَا

وقوله ساج : أى ساكن ، قال الله عزّ وجل : « وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَا[1] » ، وقال جرير :

وَلَقَدْ رَمَيْنَكَ يَوْمَ رُحْنَ بِأَعْيُنٍ يَقْتُلْنَ مِنْ خَلَلِ السُّتُورِ سَوَاجِ

وقال الراجز :

يَا حَبَّذَا القَمْرَاءُ وَاللَّيْلُ السَّاجْ وَطُرُقٌ مِثْلُ مُلاءِ النَّسَّاجْ

وقوله حتى تخوّنها : أى تَنَقَّصها[2] يقال تخوّنى السَفَرُ : أى تَنَقَّصنى ، والداعى المُؤَذِّنُ ، وقوله : شَحّاج ، إنما هو استعارة فى شدة الصوت وأصله للبغل ، والعرب تستعير من بَعْضٍ لبعْضٍ ، قال العجّاج ينْعَتُ حِماراً :

كَأَنَّ فِي فِيهِ إِذَا مَاشَحَجَا عُوداً دُوَيْنَ اللَّهَوَاتِ مُولَجا

وقال جَرير :

إِنَّ الغُرَابَ بِمَا كَرِهْتُ لَمُولَعٌ بِنَوَى الأَحِبَّةِ دَائِمُ التَّشْحاجِ

وقوله : واسْتَمْرَرْتُ أدْراجى : أى فَرَجَعْتُ من حيث جئتُ، تقول العرب :

---

(١) سجا الليل امتد ظلامه . (٢) قال ذو الرمة .

لا بل هو الشوق من دار تخونها مرا سحاب ومرا بارح ترب

رجع فلان أدْراجَهُ ، ورَجَعَ فى حافرتِهِ ، ورَجعَ عَوْدَهُ على بدْئِهِ ، وإن شئتَ رفعت فقلت رَجعَ عَوْدُهُ على بدْئِهِ ، أما الرفع فعلى قولك : رجع وَعَوْدُهُ على بدئه : أى وهذه حالُهُ . والنصب على وجهين : أحدهما أن يكون مفعولا كقولك رَدَّ عَوْدَهُ على بدئه . والوجه الآخر أن يكون حالاً فى قول سيبويه لأن معناه رجع ناقضاً مجيئَهُ ، ووُضِعَ هذا فى موضعه كما تقول كَلَّمْتُهُ فاهُ إلى فِيَّ : أى مُشافَهَةً ، وبايعته يدًا بيدٍ : أى نَقْدًا ، وقد يجوز أن تقول فُوهُ إلى فِيَّ : أى وهذه حالُهُ ، ومَنْ نَصَبَ فمعناه فى هذه الحال ، فأما بايعته يدًا بيدٍ ، فلا يكون فيه إلا النصب ، لأنك لَسْتَ تريد بايعته ويَدٌ بيدٍ كما كنتَ تريد فى الأول ، وإنما تريد النَّقْدَ ، ولا تُبالى أقريباً كان أم بعيدًا .

⁂

وقال أعرابى :

شَكَوْتُ فقالَتْ كُلَّ هٰذا تبرُّمًا ... بِحُبِّي أَرَاحَ اللهُ قَلْبَكَ مِنْ حُبِّي
فلمَّا كتمْتُ الحُبَّ قالَتْ لَشَدَّمَا ... صَبرْتَ وَمَا هٰذَا بِفِعْلِ شَجِى القَلْبِ
وَأَدْنُو فَتُقْصِينِي فَأَبْعُدُ طَالِبًا ... رِضَاهَا فَتَعْتَدُّ التَّبَاعُدَ مِنْ ذَنْبِي
فَشَكْوَاىَ تُؤْذِيهَا وَصَبْرِي يَسُوءُهَا ... وَتَجْزَعُ مِنْ بُعْدِي وَتَنْفِرُ مِنْ قُرْبِي
فَيَا قَوْمِ هَلْ مِنْ حِيلَةٍ تَعْرِفُونَهَا ... أَشِيرُوا بِهَا وَاسْتَوْجِبُوا الشُّكْرَ مِنْ رَبِّي

قوله : كُلَّ هذا تبرُّمًا ، مردود على كلامه كأنها تقول له أشكَوْتَنى كُلَّ هذا تبرُّمًا ، ولو رَفَعَ كُلاًّ لكان جيِّدًا يكون كُلُّ هذا مبتدأ وتبرُّمٌ خبره ، وشجى مخفف الياء ، ومن شدَّدها ، فقد أخطأ(١) ، والمَثَلُ : وَيْلٌ للشَّجِى من

(١) ومع هذا فقد ورد فى الكلام الفصيح .

الْخَلِيّ ، الياء فى الشَّجى مخففة ، وفى الْخَلِيّ مثقلة ، وقياسه أنك إذا قلت فَعِلَ يَفْعَلُ فعلاً ، فالاسم منه على فَعِلٍ نحو : فَرِقَ يَفْرَقُ فَرَقًا فهو فَرِق ، وحَذِرَ يَحْذَرُ حَذَرًا فهو حَذِرٌ ، وبَطِرَ يَبْطَرُ بَطَرًا ، فهو بَطِرٌ ، فعلى هذا شَجِيَ يَشْجَى شَجًى ، فهو شَجٍ يافتى ، كما تقول هَوِيَ يَهْوَى هَوًى فهو هَوٍ يافتى.

وقوله : فيا قوم هل من حيلة تعرفونها ، موضع تعرفونها خفضٌ لأنه نعت للحيلة وليس بجواب ، ولو كان هاهنا شرط يوجبُ جوابًا لانجزمَ ، تقول ائتنى بدابة أَرْكَبْهَا ، أى بدابةٍ مَرْكوبةٍ ، فإذا أردتَ معنى فإنك إن أتيتنى بدابة رَكِبْتُهَا قلت أَرْكَبْهَا لأنه جواب الأمر ، كما أن الأول جواب الاستفهام ، وفى القرآن : « خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا » . أى مُطَهِّرَةً لهم ، وكذلك : « أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا » أى كائنةً لنا عِيدًا ، وفى الجواب : « فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا » . أى إنْ تُرِكوا خاضُوا ولَعِبوا ، وأما قوله عزّ وجل : « فَذَرْهُمْ فى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ » فإنما هو فَذَرْهُمْ فى هذه الحال لأنهم كانوا يَلعبون ، وكذلك : « وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ » إنما هو ولا تَمْنُنْ مُسْتَكْثِرًا ، فمعنى ذا هل من حيلة معروفة عندكم . وقال أعرابى أَنْشَدَنِيهِ أبو العالية :

أَلاَ تَسْأَلُ المَكِّيَّ ذَا الْعِلْمِ مَا الَّذِى ... يَحِلُّ مِنَ التَّقْبِيلِ فِى رَمَضَانِ

فَقَالَ لِىَ المَكِّىُّ أَمَّا لِزَوْجَةٍ ... فَسَبْعٌ وَأَمَّا خُلَّةٍ فَثَمَانِى

قوله خُلَّةٍ يريد ذاتِ خلة[1] ، ويكون سمّاها بالمصدر كما قالت الخنساء :

---

(١) الخلة : هى الحب العفيف .

* فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ * ويجوز أن تكون نعتَتْها بالمصدر لكثرته منها، ويجوز أن تكون أرادتْ ذاتُ إقْبال وإدْبار، فحذفت المضاف وأقامت المضاف إليه مُقامه، كما قال عز وجل: «وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ» فجائز أن يكون بِرُّ مَنْ آمَنَ بالله، وجائز أن يكون لكنَّ ذا البِرِّ مَنْ آمَنَ بالله، والمعنى يؤول إلى شيء واحد.

وفى هـذا الشعر عيب وهو الذى يسميه النحويون العَطْفَ على عامِلَيْنِ[1]، وذلك أنه عطف خُلَّةً على اللام الخافضة لزوجة، وعطف ثمانياً على سبع، ويلزم[2] مَنْ قال هذا أن يقول مَرَّ عبدُ الله بزيدٍ وعمرٌو خالدٍ ففيه هذا القُبْحُ، وقد قرأ بعضُ القُرَّاء وليس بجائزٍ عندنا «وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ» فجعل آياتٍ فى موضع نصب وخفضها لتاء الجميع فحملها على إنَّ وعطفها بالواو، وعطف اختلافاً على فى[3] ولا أرى ذا فى القرآن جائزا لأنه ليس بموضع ضرورة، وأنشد سيبويه لعَدِيِّ ابن زَيْدٍ العبادىّ (الصحيح أنه لأبى دُواد الإيادِىّ).

أَكُلَّ امْرِئٍ تَحْسَبِينَ امْرَأً وَنَارٍ تَوَقَّدُ بِاللَّيْلِ نَارَا

---

(١) الصواب على معمولى عاملين.

(٢) قال الشيخ المرصفى: لايلزمه ذلك لأنه اشترط أن لايكون فاصل بين العاطف والمعطوف المجرور كما فى البيت، وفى نحو قولهم: فى الدار زيد والحجرة عمرو، ولهذا امتنع عند من جوزه قولك: دخل زيد إلى عمرو وبكر خالد، وإن زيدا فى الدار وعمراً الحجرة، ومثل ذلك مر عبد الله بزيد وعمرو خالد للفصل بين نائب الجار وهو العاطف والمعطوف المجرور.

(٣) أى على مخفوض فى.

فعطف على أمرئٍ ، وعلى المنصوب الأول (قال أبو الحسن وفيه عيب آخر أنّ أمّا ليستْ من العطف فى شىء ، وقد أجْرَى خُلّةً بعدها مُجْراها بعد حروف العطف حَمْلاً على المعنى فكأنه قال لزوجة كذا ولخُلّة كذا) وقوله أمّا لزوجة فهذه مفتوحة ، وهى التى تحتاج إلى جزاء ، ومعناها إذا قُلْتَ أمّا زيدٌ فمنطلِقٌ مَهْمَا يكُنْ من شىء فزيد مُنطلِقٌ ، وكذلك « فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ » إنما هى مَهْما يَكُنْ من شىء فلا تقهرِ اليتيم ، وتُكْسَرُ إذا كانت فى معنى أو ويلزمها التكرير ، تقول ضربتُ إمّا زيداً وإمّا عمْراً فمعناه ضربت زيداً أو عمراً ، وكذلك « إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا » وكذلك « إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ . وَإِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا » وإنما كَرَّرْتها لأنك إذا قلت ضربت زيداً أو عمراً ، أو قلت اُضْرِبْ زيداً أو عمراً فقد ابتدأتَ بذكر الأول ، وليس عند السامع أنك تُرِيدُ غير الأول ، ثم جئتَ بالشك ، أو بالتخيير ، وإذا قلتَ ضربتُ إمّا زيداً وإما عمرًا ، واضْرِبْ إمّا زيداً وإمّا عمرًا ، فقد وَضَعْتَ كلامك بالابتداء على التخيير ، أو على الشك ، وإذا قلت ضربتُ إمّا زيداً ، وإمّا عمراً ، فالأولى وَقعَتْ لبِنْيَةِ الكلام عليها ، والثانية للعطف[1] لأنك تعدِلُ بين الأول والثانى ، فإنما تُكْسَرُ فى هذا الموضع . وزعم سيبويه أنها إن ضُمّتْ إليها « ما » فإن اضطُرّ شاعر فحذف « ما » جازله ذلك لأنه الأصل ، وأنشد فى مِصْداقِ ذلك (هو دُرَيْدُ بن الصِّمَّةِ الجُشَمىُّ) :

لَقَدْ كَذَبَتْكَ نَفْسُكَ فَاكْذِبَنْهَا ‌ ‌ ‌ فَإِنْ جَزَعًا وَإِنْ إِجْمَالَ صَبْرِ

---

(١) قال الشيخ المرصفى : الصواب أنها ليست للعطف لملازمتها العاطف وهو لايدخل على مثله .

ويجوز فى غير هذا الموضع أن تقع إمَّا مكسورةً، ولكن (ما) لا تكون لازمة، ولكن تكون زائدة فى (إنْ) التى هى للجزاء كما تزاد فى سائر الكلام نحو: أينَ تكُنْ أكُنْ، وأينما تكُنْ أكُنْ، وكذلك متى تأتنى آتِكَ، ومتى ما تأتنى آتِكَ، فتقول إنْ تأتنى آتِكَ، وإمَّا تأتنى آتِكَ، تُدغِمُ النون فى الميم لاجتماعهما فى الغُنَّةِ، وسنذكر الادغام فى موضع نُفرِدُهُ به إن شاء الله، كما قال امْرُؤُ القيْسِ:

فَإِمَّا تَرَيْنِى لا أُغمِّضُ ساعةً ... مِنَ اللَّيْلِ إلاَّ أنْ أُكِبَّ فَأنعسَا
فَيا رُبَّ مَكْرُوبٍ كَرَرْتُ وَرَاءهُ ... وَطَاعَنْتُ عَنْهُ الخَيْلَ حَتَّى تَنَفَّسَا

وفى القرآن «فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا»، وقال: «وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا» فأنت فى زيادة (ما) بالخيار فى جميع حروف الجزاء، إلا فى حرفين، فإنَّ (ما) لا بُدَّ منها لِعلَّةٍ نذكرها إذا أفردنا بابًا للجزاء إن شاء الله، والحرفان: حَيْثُما تَكُنْ أكُنْ، كما قال الشاعر:

حَيْثُما تَسْتَقِمْ يُقَدِّرْ لكَ ... اللهُ نجاحًا فى غابِرِ الأزْمانِ

والحرف الثانى (إذْ ما) كما قال العبَّاسُ بن مرداس:

إذْ مَا أتيْتَ عَلَى الرَّسُولِ فقُلْ لهُ ... حقًّا عليْكَ إذا اطْمَأنَّ المَجْلِسُ

لا يكون الجزاء فى حيث وإذ إلاَّ بما. وأنشدنى أبو العالية:

سَلِ المُفتِىَ المكِّىَّ هلْ فى تزاوُرٍ ... وَنَظْرَةِ مُشْتَاقِ الفُؤادِ جُناحُ
فقالَ مَعاذَ اللهِ أنْ يُذْهِبَ التُّقَى ... تلاصُقُ أكبادٍ بِهِنَّ جِراحُ

(وأنشدَ لبعض العرب المُحْدَثين:

تلاصقنا وليس بنا فسوق ... ولم يرد الحرام بنا اللصوق
ولكن التباعد طال حتى ... توقد فى الضلوع له حريق
فلما أن أتيح لنا التلاقى ... تعانقنا كما اعتنق الصديق
وهل حرجا تراه أو حراما ... مشوق ضمه كلف مشوق

وأنشدنى غيره :

وما هجرتك النفس يا مى أنها ... قلتك ولا أن قل منك نصيبها
ولكنهم ياأملح الناس أولعوا ... بقول إذا ماجئت هذا حبيبها

أنها فى موضع نصب ، وكان التقدير لأنها ، فلما حذفت اللام وصل الفعل فعمل ، تقول : جئتك أنك تحب الخير ، فمعناه لأنك ، وكذلك أتيتك أن تأمر لى بشىء : أى لأن ، وتقديره فى النصب أن أن الخفيفة والفعل مصدر نحو أريد أن تقوم يافتى ، أى قيامك ، وأن الثقيلة واسمها وخبرها مصدر ، تقول بلغنى أنك منطلق ، أى انطلاقك ، فاذا قلت جئتك أنك تريد الخير ، فمعناه إرادتك الخير : أى مجيئى لأنك تريد الخير إرادة يافتى ، كما قال الشاعر (هو حاتم الطائى) :

وأغفر عوراء الكريم ادخاره ... وأعرض عن ذم اللئيم تكرما

قوله : ٭ وأغفر عوراء الكريم ادخاره ٭

أى أدخره ادخاراً وأضافه إليه ، كما تقول ادخاراً له ، وكذلك قوله تكرما إنما أراد لتكرم ، فأخرجه مخرج أتكرم تكرما ، وأنشدنى أبو العالية

(قيل إن الشعر لعُرْوَةَ بنِ أُذَيْنَةَ[1]) :

مازِلتُ أبْغِى الحَىَّ أَتْبَعُ ظِلَّهُمْ ... حتى دُفِعْتُ إلى رَبِيبَةِ هَوْدَجِ
قالتْ وَعَيْشِ أبِى وَأَكْبَرِ إخْوَتِى ... لأُنَبِّهَنَّ الحَىَّ إنْ لَمْ تَخْرُجِ
فَخَرَجْتُ خِيفَةَ قَوْلِهَا فَتَبَسَّمَتْ ... فعَلِمْتُ أنَّ يَمِينَهَا لَمْ تَحْرَجِ
فَلَثِمْتُ فاهَا آخِذًا بِقُرُونِهَا ... شُرْبَ النَّزِيفِ بِبَرْدِ ماءِ الحَشْرَجِ

وزاد فيها الجاحِظُ عُمْرُو بن بَحْرٍ :

وتَناوَلَتْ رَأْسِى لِتَعْرِفَ مَسَّهُ ... بِمُخَضَّبِ الأَطْرَافِ غَيْرِ مُشَنَّجِ[2]

تقول العرب : هوْدَجٌ ، وبنو سَعد بن زيد مَناةَ ومَنْ وَلِيَهُمْ يقولون فَوْدَجٌ ، وقوله : فعلمت أن يمينها لم تَحْرَج ، يقول لم تَضِقْ عليها ، يقال: حَرِجَ يَحْرَج إذا دخل فى مَضيق ، والحَرَجَةَ : الشجر الملتفُّ المُتضايقُ مابينه ، قال الله عزَّ وجل : « فَلَا يَكُنْ فى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ » وقال تعالى : « يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرِجًا » وَقُرِئَ حَرَجًا ، فمن قال حَرِجًا أراد التوكيد للضِّيق ، كأنه قال ضَيِّقٌ شديد الضيق ، ومن قال حَرَجًا جعله مصدرا مثل قولك ضُيِّقَ ضيقًا ، وقوله : ببرد ماء الحَشْرَجِ ، فهو الماء الجارى على الحجارة ،

---

(١) قال الشيخ المرصفى : ويروى لعمر بن أبى ربيعة ، ونسبه ابن عساكر فى تاريخه لجميل بن معمر ، وزاد بعد البيت الأول :

فدنوت مختفيا أَلمّ ببيتها ... حتى ولجت إلى خفىّ المولج

قال صاحب البدائع : وهذا المذهب أشبه بمذاهب ابن أبى ربيعة فى التشبيب .

(٢) من التشنج وهو التقبض .

٭

وقال قَيْسُ بن مُعاذٍ أحد بنى عُقَيْلِ بن كَعْب بن رَبيعَةَ بن عامر ابن صَعْصَعَة وهو المجنون ، وحدثنى عبد الصَّمَدِ بن المُعَذَّلِ قال : سمعت الأصْمعِيَّ يُثْبِتُه ويقول لم يكن مجنونا إنما كانت به لُوثَةٌ كلُوثة أبى حَيَّة (النُّمَيْرِى) وهو من أشعَرِ الناسِ ومن شعره :

وَلَمْ أرَ لَيْلَى بعْدَ مَوْقِفِ ساعَةٍ ... بِبَطْنِ مِنًى تَرْمِى جِمارَ المُحَصَّبِ (١)

وَيُبْدِى الحصَا مِنْهَا إذا قَذَفَتْ بِهِ ... مِنَ البُرْدِ أطْرافَ البَنانِ المُخَضَّبِ

فَأَصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الغَداةَ كَناظِرٍ ... مَعَ الصُّبْحِ فى أعْقابِ نَجْمٍ مُغَرِّبِ

ألا إنَّمَا غادَرْتِ يا أُمَّ مالِكٍ ... صَدًى أيْنَما تَذْهَبْ بِهِ الرِّيحُ يَذْهَبِ (٢)

هذا البيت من أعجب ما قيل فى النحافة ، ومما يُسْتَظْرَفُ فى هذا الباب قول عُمَرَ بن أبى رَبيعة :

رَأَتْ رَجُلاً أمَّا إذا الشَّمْسُ عارَضَتْ ... فَيَضْحَى وَأمَّا بِالعَشِىِّ فَيَخْصَرُ

أخا سَفَرٍ جَوَّابَ أرْضٍ تَقاذَفَتْ ... بِهِ فَلَوَاتٌ فَهْوَ أشْعَثُ أغْبَرُ

قَليلاً عَلَى ظَهْرِ المَطِيَّةِ ظِلُّهُ ... سِوَى مَا نَفَى عَنْهُ الرِّداءُ المُحَبَّرُ

ومن هذا الباب قول القائل (هو قَيْسُ بن مُعاذٍ مجنونُ بنى عامرٍ (٣) الذى تقدم ذكره لابن الأبرش (٤)) :

---

(١) المحصب: موضع رمى الجمار فى منى .

(٢) الصدى ، هو الصوت الذى يرده عليك الهواء إذا صحت فى جبل أو مكان مرتفع .

(٣) المشهور أن مجنون بنى عامر اسمه قيس بن الملوح .

(٤) يعنى أن ابن الأبرش هو القائل بأن المجنون هو قيس بن معاذ .

فَأَصْبَحْتُ فِي أَقْصَى الْبُيُوتِ يَعُدْنَنِي بَقِيَّةَ مَا أَبْقَيْنَ نَصْلاً يَمَانِيَا

(بقية بدل من الياء فى يعدننى : بدل الاشتمال

تَجَمَّعْنَ مِنْ شَتَّى ثَلاَثٌ وَأَرْبَعٌ وَوَاحِدَةٌ حَتَّى كَمَلْنَ ثَمَانِيَا)

يَعُدْنَ مَرِيضاً هُنَّ هَيَّجْنَ مَا بِهِ أَلاَ إِنَّمَا بَعْضُ الْعَوَائِدِ دَائِيَا

وفى هذا الباب أشياء كثيرة تأتى فى موضعها إن شاء الله تعالى ، ومن الافراطِ فيه قولُهُ :

فَلَوْ أَنَّ مَا أَبْقَيْتِ مِنِّى مُعَلَّقٌ بِعُودِ ثُمَامٍ مَا تَأَوَّدَ عُودُهَا[1]

(الثُّمام نبت ضعيف واحدته ثُمامةٌ) وهذا متجاوز كقول القائل :

* وَيَمْنَعُهَا مِنْ أَنْ تَطِيرَ زِمَامُهَا * وأحْسَنُ الشِّعْرِ ما قاربَ فيه القائل إذا شبَّه ، وأحسنُ منه ما أصاب به الحقيقة ونبَّهَ فيه بِفِطْنته على مايخفى عن غيره وساقه برصْفٍ قوىٍّ واختصار قريب . قال قيس بن معاذ :

وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الْجُلُوسِ[2] لَعَلَّنِى أُحَدِّثُ عَنْكِ النَّفْسَ فِى السِّرِّ خَالِيَا

وَإِنِّى لَأَسْتَغْشِى وَمَا بِىَ نَعْسَةٌ لَعَلَّ خَيالاً مِنْكِ يَلْقَى خَيَالِيَا

وفى هذا الشعر :

أَشَوْقاً وَلَمَّا تَمْضِ لِى غَيْرُ لَيْلَةٍ رُوَيْدَ الْهَوَى حَتَّى يَغِبَّ لَيَالِيَا

هذا من أجود الكلام وأوضحِهِ معنى .

ويُسْتَحْسَنُ لذى الرُّمَّةِ قوله فى مثل هذا المعنى :

---

(١) للشعراء مذاهب طريفة فى وصف النحول والذبول ، وقد فصلناها تفصيلا فى كتاب مدامع العشاق) .

(٢) رواية الديوان (من بين البيوت) .

أُحِبُّ المَكَانَ القَفْرَ مِنْ أَجْلِ أَنَّنِي ... بِهِ أَتَغَنَّى بِاسْمِهَا غَيْرَ مُعْجِمِ

وأنشدنى ابن عائشة لبعض القُرَشِيِّينَ :

وَقَفُوا ثَلَاثَ مِنًى بِمَنْزِلِ غِبْطَةٍ ... وَهُمُ عَلَى غَرَضٍ هُنَالِكَ مَاهُمُ

مُتَجَاوِرِينَ بِغَيْرِ دَارِ إِقَامَةٍ ... لَوْ قَدْ أَجَدَّ تَفَرُّقٌ لَمْ يَنْدَمُوا[1]

(يعنى طواف الوَداع ، وقوله ثلاث منى أراد أيام النَّفْر[2] وأخرجه على الليالى وقوله لم يَنْدَموا لأنهم يَرْجِعون إلى أوطانهم) :

وَلَهُنَّ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ لُبَانَةٌ ... وَالرُّكْنُ يَعْرِفُهُنَّ لَوْ يَتَكَلَّمُ

لَوْ كَانَ حَيًّا قَبْلَهُنَّ ظَعَائِنًا ... حَيَّا الحَطِيمُ وُجُوهَهُنَّ وَزَمْزَمُ

وَكَأَنَّهُنَّ وَقَدْ صَدَرْنَ لَوَاغِبًا ... بَيْضٌ بِأَفْنِيَةِ المَقَامِ مُرَكَّمُ

اللاغِبُ المُعْيِي ، قال الله عزّ وجل : « وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ » والمُرَكَّمُ الذى بعضه على بعض ، والمرأة تُشَبَّهُ ببيضة النعامة كما تُشَبَّهُ بالدرة ، قال الله عزّ وجل : « كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ » والمكنون المصون ، والمُكَنُّ المستور ، يقال : أَكْنَنْتُ السِّرَّ ، قال الله عزّ وجل : « أَوْ أَكْنَنْتُمْ فى أَنْفُسِكُمْ »

وقال أبو دَهْبَل[3] ، وأكثر الناس يرويه لعبد الرحمن بن حسّان ابن ثابتٍ الأنصارىّ) :

وَهِيَ زَهْرَاءُ مِثْلُ لُؤْلُؤَةِ الغَوَّاصِ مِيزَتْ مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونِ

وقال ابن الرُّقيات :

---

(١) من قولهم : أجد الرجل فى أمره إذا بلغ فيه جده وهو اجتهاده .

(٢) قال الشيخ المرصفى : الصواب أيام التصريق فان اليوم الأول بعد يوم النحر يسمى يوم القرّ ، لأن الناس تقر فيه بمنى ثم يوم النفر الأول ثم يوم النفر الثانى .

(٣) هو وهب بن زمعة من شعراء العصر الأموى .

وَاضِحٌ لَوْنُهَا كَبَيْضَةِ أُدْحِيٍّ ‍ ‍ ‍ لَهَا فِى النِّسَاءِ خَلْقٌ عَمِيمُ

العميم التام ، والأُدْحِىُّ موضع بيض النعامة خاصة ، وشِعْرُ عبد الرحمن هذا شعر مأثور مشهور عنه .

⁂

وروى بعض الرواة أن أبا دَهْبَلٍ الجُمَحِىَّ كان تقيًا وكان جميلاً ، فقفل من الغزْو ذاتَ مرَّةٍ فمرَّ بدِمَشْقَ فدعَتْهُ امْرَأةٌ إلى أن يَقرَأَ لها كتابًا ، وقالَتْ إنَّ صاحِبَتهُ فى هَذَا القصر ،وهى تُحِبُّ أن تَسْمَعَ ما فيه ، فلما دخلتْ به برَزَتْ له امْرأةٌ جَمِيلةٌ ، وقالت له : إنما احْتَلْتُ لك بالكتاب حتى أدْخَلْتُكَ . فقال لها : أما الحَرامُ فلا سبيل إليه ، قالت : فَلَسْتَ تُرادُ حرامًا ، فتزوّجته وأقام عندها دَهْرًا حتى نُعِيَ بالمدينة ، ففى ذلك يقول وقد استأذنها لِيُلِمَّ بأَهْلِهِ ، ثم يعودَ ، فجاء وقد اقْتُسِمَ ميراثُهُ ، فلما همَّ بالعود إليها نُعِيَتْ له ، فهذا ما رُوِىَ من هذا الوجه ، والذى كأنه إجماع الناس أنه لعبد الرحمن ابن حسان ، وهو فى بنت معاوية[1] (بن أبى سُفْيان) :

صَاحِ حَيَّا الإلهُ أهْلاً وَدَاراً ‍ ‍ ‍ عِنْدَ أَصْلِ الْقَنَاةِ مِنْ جَيْرُونِ[2]
عَنْ يَسَارِى إذا دَخَلْتُ مِنَ الْبا ‍ ‍ ‍ بِ وَإنْ كُنْتُ خَارِجًا فَيَمِينِى
فَبِتِلْكَ ارْتُهِنْتُ بِالشَّأْمِ حَتَّى ‍ ‍ ‍ ظَنَّ أَهْلِى مُرَجَّمَاتِ الظُّنُونِ
وَهْىَ زَهْرَاءُ مِثْلُ لُؤْلُؤَةِ الْغَوَّا ‍ ‍ ‍ صِ مِيزَتْ مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونِ

---

(١) اسمها رملة . قال الشيخ المرصفى : وهذا على ما روى كان السبب فى أمر يزيد بن معاوية الأخطل بهجاء الأنصار .

(٢) هو باب دمشق ، أو هو حصن بدمشق بناه رجل من الجبابرة يقال له جيرون .

وَإِذَا مَا نَسَـبْتَهَا لَمْ تَجِدْهَا   فِي سَنَاءٍ مِنَ الْمَكَارِمِ دُونِ
ثُمَّ خَاصَرْتُهَا إِلَى الْقُبَّةِ الْخَضْـ   ـرَاءِ تَمْشِى فِى مَرْمَرٍ مَسْـنُونِ[1]
تَجْعَلُ الْمِسْكَ وَالْيَلَنْجُوجَ[2] وَالنَّـ   ـدَّ صِلَاءً لَهَا عَلَى الْكَانُونِ
قُبَّةٌ مِنْ مَرَاجِـلٍ[3] ضَرَبَتْهَا   عِنْدَ بَرْدِ الشِّتَاءِ فِى قَيْطُونِ

المسنون: المصبوب على استواء، والمَرَاجِلُ: ثياب مِنْ ثياب الْيَمَنِ، قال العجّاج:

* بِشِيَةٍ كَشِيَةِ الْمُمَرْجَلِ *   والقيطون البيت فى جوف بيت.

وقال آخر:

وَأَبْصَرْتُ سُعْدَى بَيْنَ ثَوْبَىْ مَرَاجِلٍ   وَأَثْوَابِ عَصْبٍ مِنْ مُهَلْهَلَةِ الْيَمَنْ

ويروى أن يزيد بن معاوية قال لمعاوية: أما سَمِعْتَ قول عبد الرحمن ابن حسان فى ابنتك؛ قال وما الذى قال؟ قال قال:

وَهْىَ زَهْرَاءُ مِثْلُ لُؤْلُؤَةِ الْغَوَّا   صِ مِيزَتْ مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونِ

قال معاوية صدق، فقال يزيد وقال:

وَإِذَا ما نَسَـبْتَهَا لَمْ تَجِدْهَا   فى سَنَاءٍ مِنَ الْمَكَارِمِ دُونِ

قال معاوية صدق، فقال يزيد إنه قال:

ثُمَّ خَاصَرْتُهَا إِلَى الْقُبَّةِ الْخَضْـ   ـرَاءِ تَمْشِى فِى مَرْمَرٍ مَسْنُونِ

قال معاوية كذب[4]:

---

(١) فى مرمر: أى على مرمر.
(٢) اليلنجوج: هو العود يتبخر به.   (٣) أى قبة عليها صور المراجل.
(٤) ويروى أن معاوية ذكر الأبيات لأبى دهبل فقال: والله يا أمير المؤمنين ماقلت هذا، وإنما قيل على لسانى، فقال معاوية: أما من جهتى فلا خوف عليك، وإنما أكره لك جوار يزيد وأخاف عليك وثباته فإن له سورة الشباب وأنفة الملوك. فهرب أبو دهبل إلى مكة.

باب

قال أبو العباس : حدثنى مسعود بن بِشْر ، قال حدثنى محمد بن حَرْبٍ ، قال أتى عبدُ اللّٰه بن الزُّبَيْرِ بن عبد المُطَّلِبِ رسولَ اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم فكساه حُلّةً وَأَقْعَدَهُ إلى جانبه ، ثم قال إنه ابْنُ أمّى ، وكان أبوه يرْحَمُنى (الزبير أخو عبد اللّٰه بن عبد المطلب شقيقُه) . وأنشدنى مسعود قال أنشدنى طاهرُ بن علىّ بن سُلَيْمَانَ ، قال أنشدنى منصور بن المَهْدِىّ لرجل من بنى ضَبَّةَ بن أُدٍّ يقوله لبنى تميم بنِ مُرّ بن أُدّ :

أَبَنِى تَمِيمٍ إِنَّنِى أنا عَمُّكُمْ لا تُحْرَمُنَّ نَصِيحَةَ الأَعمام
إِنِّى أَرَى سَبَبَ الفَناء وإِنَّمَا سَبَبُ الفَنَاء قَطِيعةُ الأَرْحامِ
فَتَدَارَكُوا بأَبِى وَأُمِّى أَنْتُمُ أَرْحامَكُمْ برواجِحِ الأَحْلام

(كذا أَنْشَدَ أرحامكم ويروى أحسابكم) ، وَيُرْوَى أنه لما أتى عَبْدَ اللّٰه ابنَ الزُّبَيْرِ خبرُ قتلِ مُصْعَب بن الزبير خَطَبَ الناسَ فَحَمِدَ اللّٰه وأَثْنَى عليه ، ثم قال : إنه أتانا خبر قتل المصعب فسُرِرْنا به ، واكْتَأَبنا له ، فاما السُّرورُ فلما قُدِّرَ له من الشهادةِ ، وحِيزَ له من الثواب ، وأما الكَآبَةُ فَلَوْعةٌ يجِدُها الحَمِيمُ عند فِراقِ حَمِيمِهِ ، وإنا واللّٰه ما نموتُ حَبَجًا كَمِيتَةِ آلِ أبى العاصى ، إنما نموتُ واللّٰه قتلاً بالرِّماح ، وقَعْصًا تحت ظِلالِ السُّيوف ، فإن يَهْلِكِ المُصْعَبُ فإن فى آل الزبير منه خَلَفاً .

قوله: حَبِجًا، يقال حَبِجَ بَطْنُهُ: إذا انتفخ، وكذلك حَبِطَ بطنه، والمُقْعَصُ المقتول، واللَّوْعة: الحَرْقة، يقال لاع يلاع لَوْعَةً يا فتى فهو لائعٌ، ويقال لاعٍ يا فتى على القلبِ، وأنشد أبو زيد:

ولا فَرِحٍ بخيرٍ إن أتاهُ ولا جَزِعٍ من الحَدَثانِ لاعِى[1]

⁂

قال: وحدثنى مسعود بن بِشْرٍ فى إسناد ذكره، قال قال زياد لحاجبه: يا عَجْلانُ إنى وَلَّيْتُكَ هذا الباب، وعَزَلْتُكَ عن أربعة، عزلتك عن هذا المنادِى إذا دعا للصلاة فلا سَبيلَ لك عليه، وعن طارقِ اللَّيلِ فشَرٌّ ما جاء به ولو جاء بخيرٍ ما كنتُ من حاجته، وعن رسول صاحب الثغر فإن إبْطاءَ ساعةٍ يُفْسِدُ تدبير سنة، وعن هذا الطبَّاخِ إذا فرَغ من طعامه.

قال وحدثنى مسعود قال قال زياد: يُعْجِبُنى من الرجل إذا سِيمَ[2] خُطَّةَ الضَّيْمِ أن يقول «لا» بِمِلْءِ فِيهِ، وإذا أتَى نادِىَ قومٍ علم أينَ ينبغى لمثله أن يَجْلِسَ فجلَسَ، وإذا ركب دابة حملها على ما تُحِبُّ ولم يَبْعَثْها إلى ما تَكْرَه.

وكُتِبَ إلى جعفر بن يحيي: إن صاحب الطريق[3] قد اشْتَطَّ فيما يطلب من الأموال، فوَقَّعَ جَعْفَرٌ: هذا رجل منقطع عن السلطان وبين ذُؤْبانِ

---

(١) قبل هذا البيت:

وقد ترك الفوارس يوم حِسْى غلاما غير مناع المتاع

والحسى اسم ماء وكان به يوم من أيام العرب.

(٢) من سامه الأمر سوما: كلفه إياه، وفى القرآن (يسومونكم سوء العذاب).

(٣) هو الذى يحفظ مواضع المخافة من اللصوص وقطاع الطريق.

العَرَبِ بحيثُ العَدَدُ والعُدَّةُ ، والقُلُوبُ القاسية والأنوف الْحَمِيَّةُ ، فَلْيُمْدَد من المال بما يَسْتَصْلِحُ به مَنْ معهُ لِيَدْفَعَ به عَدُوَّهُ ، فإن نفقاتِ الحروب يُسْتَظْهَرُ لها ، ولا يُسْتَظْهَرُ عليها(١) .

***

وَأَكْثَرَ الناسُ شَكِيَّةَ عامل فوَقَّعَ إليه فى قِصَّتهم : ياهذا قد كَثُرَ شاكوكَ ، وقَلَّ حامدوكَ(٢) فإمَّا عَدَلْتَ ، وإما اعْتَزَلْتَ .

وزعم الجاحظ قال : قال ثُمامة بن أُشْرَسَ النُّمَيْرِى : ما رأيتُ رجلا أبلغَ من جعفر بن يحيي والمأمونِ .

وقال مُوَيْسُ بنِ عِمرانَ : مارأيتُ رجلا أبْلَغَ من يحْيي بن خالد، وأيوبَ ابن جَعْفَرٍ .

وقال جعفرُ بن يحيي لِكُتَّابِهِ : إنْ قَدَرْتُمْ أن تكون كُتُبُكُمْ كُلُّها تَوْقيعاتٍ فافعلوا .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لوتَكاشَفْتُم ما تَدافَنْتُم ، يقول : لوعَلِمَ بعضُكم سَرِيرةَ بعضٍ لاستثقل تَشْيِيعَهُ وَدَفْنَهُ .

وقال عليه الصلاة والسلام : اُجْتَنِبوا القُعود على الطُرُقات ، إلاَّ أن تَضْمَنوا أربعاً : رَدَّ السَّلام ، وَغَضَّ الأَبْصارِ ، وَإرْشادَ الضالِّ ، وَعَوْنَ الضعيف .

وقالت هِنْدُ بنت عُتْبَةَ : إنما النساء أَغْلاَلٌ ، فليختر الرجلُ غُلاًّ لِيَدِهِ .

---

(١) أى يستعان لها ولا يستعان عليها .

(٢) فى بعض الروايات : وقلَّ شاكروك .

وذكرتْ هند بنت المُهلَّبِ بن أبي صُفْرَةَ النساء فقالت : ما زُيِّنَ بشيء كأدبٍ بارعٍ تحته لُبٌّ ظاهر .

وقالت هند بنت المهلَّبِ بن أبي صُفْرَةَ أيضاً : إذا رأيتم النِعَمَ مُسْتَدِرَّةً فبادروا بالشُكْرِ قبل حُلول الزَّوال .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَفْصِلُوا بين حديثكم بالاستغفار .

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : قيِّدوا النِعَمَ بالشكر ، وقيِّدوا العِلْمَ بالكتاب .

وقال على بن أبي طالب رضوان الله عليه : العجبُ لِمَنْ يهلِكُ والنَّجاةُ معه ، فقيل ما هى يا أمير المؤمنين ؟ قال الاستغفار .

وقال الخليل بن أحمد[1] : كُنْ على مُدارسة مافى قلبك أحْرَصَ منكَ على حفظ مافى كُتُبِكَ .

وقال ابن أحمد ــ يعنى الخليلَ : اجْعَلْ ما فى كُتُبِكَ رأس مال ، وما فى صَدْرِكَ للنفقة .

وقيل لِنَصْرِ بن سَيَّار : إن فلانا لا يكتب ، فقال تلك الزَّمانةُ الخفِيَّةُ .

وقال نصر بن سيار[2] : لولا أن عمر بن هُبَيْرَةَ[3] كان بَدَوِيًّا ما ضَبَطَ أعمال العراق ، وهو لا يكتب .

وفادى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مَنْ رأى فِداءهُ من أَسْرَى بَدْرٍ

(١) هو الامام اللغوى صاحب كتاب العين، ومؤسس علم العروض.

(٢) ولى خراسان لهشام بن عبد الملك . (٣) ولى العراق ليزيد بن عبد الملك .

فَمَنْ لم يكن له فِداء أمَرَهُ أن يُعَلِّمَ عشرة من المسلمين الكتابة ، ففشت الكتابة بالمدينة .

٭

ومن أمثال العرب: خير العلم ماحُوضِرَ به. يقول: ماحُفِظَ فكان للمذاكرة.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تَزالُ أُمَّتى صالحا أمْرُها ما لم تَرَ الْفَىْءَ مَغْنَماً ، والصدقة مَغْرَمًا .

وقال علىُّ بن أبى طالب رضى الله عنه : يأتى على الناس زمان لا يُقَرَّبُ فيه إلا الماحِلُ ، ولا يُظَرَّفُ فيه إلا الفاجِرُ ، ولا يُضَعَّفُ فيه إلا المُنْصِفُ ، يتخذون الْفَىْءَ مَغْنَماً ، والصدقة مَغْرَمًا ، وصِلة الرحمَ منًّا ، والعبادة استطالَةً على الناس ، فعند ذلك يكون سلطانُ النساء ، ومُشاوَرَةُ الإِماء ، وإمارةُ الصبيان : (الماحل : الواشى ، يقال مَحَلَ فلان بفلان: إذا وشَى به ومَكَرَ) .

٭

ويروى عن محمد بن المُنْتَشِرِ بن الأَجْدَعِ الْهَمدانىّ ، قال : دَفَعَ إلىَّ الحجاج أزاد مَرْدَ بن الْهِربذِ وأمرنى أن أستخرج منه وأُغَلِّظَ عليه ، فلما انطلقتُ به قال لى : يا محمد ، إن لك شَرَفًا ودِينًا ، وإنى لا أُعْطى على الْقَسرِ شيئًا فَاسْتَأْدِنى[1] وارفُقْ بى ، قال ففعلتُ فَأَدَّى إلىَّ فى أسبوع خمسمائة ألف ، قال فبلغ ذلك الحجاج فأغضبه ، وانتزعه من يَدَىَّ ، ودفعهُ إلى رجل كان يتولى له العَذابَ ، فَدَقَّ يديه ورجليه ، ولم يُعْطِهِمْ شيئًا ، قال محمد

(١) يريد : اطلب منى الأداء .

ابن المنتشر: فإنى لأمرُّ يوما فى السوق إذا صائحٌ بى: يا محمد! فالتفتُّ فإذا به مُعرَّضًا على حِمارٍ مَدْقوقَ اليدين والرجلين، فَخِفْتُ الحجاج إنْ أتيته، وتذمَّمْتُ منه(١) فَمِلْتُ إليه، فقال لى إنك وَلِيتَ منى ما وَلِيَ هؤلاء فأحْسَنْتَ، وإنهم صنعوا بى ما ترى ولم أُعْطهم شيئًا، وهٰهنا خمسمائة ألف عند فلان فخذها فهى لك، قال: فقلت له: ما كنت لآخذ منك على معروفى أجرًا، ولا لِأَرْزأكَ على هذه الحال شيئًا، قال فأما إذْ أَبَيْتَ فاسمع أُحدِّثْكَ: حدثنى بعضُ أهل دينك عن نبيك صلى الله عليه وسلم أنه قال: إذا رضى الله عن قوم أمْطرَهُمُ المطر فى وقته، وَجعَلَ المالَ فى سُمَحائهم، واستعملَ عليهم خِيارهم، وإذا سَخِطَ عليهم أُستعمل عليهم شِرارهم، وجعل المالَ عند بُخَلائهم، وأمطرهم المطر فى غير حِينِهِ. قال فانصرفت فما وضعتُ ثوبى حتى أتانى رسولُ الحجاج فأمرنى بالمسير إليه فألفيته جالسًا على فُرُشِهِ والسيفُ مُنْتَضًى فى يده، فقال لى: اُدْنُ، فَدَنَوْتُ شيئًا، ثم قال: اُدْنُ، فَدَنَوْتُ شيئًا، ثم صاح الثالثة: اُدْنُ لا أبالك! فقلت: مابى إلى الدُّنُوِّ من حاجة، وفى يد الأمير ما أرى! فأضحكَ اللهُ سِنَّهُ، وَأَغْمَدَ سيفَهُ عنى، فقال لى: اجْلِسْ، ما كان من حديث الخبيث؟ فقلتُ له: أيها الأمير، والله مَاغَشَشْتُكَ مُنْذُ استنصحتنى، ولا كَذَبْتُكَ منذ استَخْبَرْتَنى، ولا خُنْتُكَ منذ ائتمنتنى. ثم حدثته الحديث، فلما صِرْتُ إلى ذكر الرجل الذى المالُ عنده أعْرضَ عنى بوجهِهِ، وأومأ إلىّ بيده، وقال لاتُسَمِّهِ، ثم قال إن للخبيث نفسًا، وقد سمع الأحاديثَ.

---

(١) يعنى أنه استحيا منه.

⁂

ويقال كان الحجاج إذا استغْرَبَ ضَحِكا[١] وَالَى بين الاستغفار، وكان إذا صَعِدَ المِنْبَرَ تلفَّعَ بِمطْرَفِهِ[٢] ثم تكلم رُوَيْدًا فلا يكاد يُسْمَعُ ثم يَتزَيَّد فى الكلام، حتى يُخْرِجَ يده من مِطْرَفِهِ، ويَزْجُرُ الزَّجْرَةَ فَيُفْزِعُ بها أقصى مَنْ فى المسجد، وكان يُطْعِمُ فى كل يوم على ألف مائدة على كل مائدة ثَرِيدٌ وجَنْبٌ من شواء وسَمَكَةٌ طَرِيَّةٌ، ويُطافُ به فى مِحَفَّةٍ على تلك الموائد ليتفقد أمور الناس، وعلى كل مائدة عشرة، ثم يقول: يا أهل الشأم، اكْسِروا الخبز لئلا يُعادَ عليكم، وكان له ساقيان أحدهما يسقى الماء والعسلَ، والآخر يسقى اللبن.

ويروى أن لَيْلَى الأَخْيَلِيَّةَ قدمت عليه فأَنْشَدَتْهُ:

إذا ورَدَ الحَجَّاجُ أرضًا مَريضةً ... تَتَبَّعَ أَقْصَى دائها فشَفاها

شَفاها من الدَّاء العُقام الذى بها ... غُلَامٌ إذا هَزَّ القَناةَ ثَناها

(العقام بالفتح والضم، والضم أفصح) فقال لها لا تقولى: غلام، قولى: هُمَامٌ، ثم قال لها أىُّ نسائى أحبُّ إليك أن أُنْزِلَكِ عندها الليلةَ؟ قالت: ومَنْ نِساؤُكَ أيها الأمير؟ قال أمُّ الجُلاسِ بنت سعيد بن العاصى الأَمَوِيَّةُ، وهِنْدٌ بنت أسماء بن خارجَة الفزارِيَّةُ، وهند بنت المُهَلَّبِ بن أبى صُفْرَةَ العَتَكِيَّةُ، فقالت: القَيْسِيَّةُ[٣] أحبُّ إلىّ. فلما كان الغَدُ دخلْت عليه فقال: يا غلامُ أَعْطِها خمسمائة، فقالت: أيها الأمير، اجعلها أُدْمًا، فقال قائل: إنما أمر لكِ

---

(١) أى إذا بالغ فى الضحك حتى بدت غروب أسنانه.

(٢) المطرف: رداء من خزٍّ. (٣) تريد هند بنت أسماء.

بشاء ، قالت : الأمير أ كرَمُ من ذلك ، فجعلها إبلا إناثا استحياء ، وإنما كان أمرَ لها بشاء أولا . والأُدْمُ : البيض من الإبل وهى أ كرمها .

ويروى عن بعض الفقهاء (هو الشَّعْبِيُّ) قال : دعانى الحجاج فسألنى عن الفَريضةِ المُخَمَّسَةِ(١) وهى أمٌّ وجَدٌّ وأختٌ(٢) فقال لى : ماقال فيها الصِّدِّيق رحمه الله ؟ قلتُ أعْطَى الأمَّ الثلث والجدَّ ما بقى(٣) لأنه كان يراه أبا(٤) ، قال فما قال فيها أمير المؤمنين ؟ يعنى عثمان رحمه الله ، قلت : جعل المال بينهم أثلاثا(٥) قال فما قال فيها ابن مسعود ؟ قال قلتُ أعْطَى الأختَ النصف والأم ثلث ما بقى والجد الثلثين(٦) لأنه كان لا يُفضِّلُ أُمًّا على جدّ ، قال فما قال فيها زيد بن ثابت ؟ قال قلتُ أعْطَى الأم الثلث وجعل ما بقى بين الأخت والجد(٧) للذكر مثل حظ الأنثيين ، لأنه كان يجعل الجدّ كأحد الإخوة إلى الثلاثة ، قال فَزَمَّ بأنفه(٨) ثم قال : فما قال فيها أبو تُرابٍ(٩) ؟ قال قلت أعْطَى الأم الثلث والأخت النصف والجد السدس ، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال : فانه المرْءُ يُرْغَبُ عن قوله(١٠) .

وجلس الحجاج يوما يأكل ومعه جماعة على المائدة منهم محمد بن عُمَيْرِ ابن عُطارِدِ بن حاجِبِ بن زُرارَةَ ، وحَجّارُ بن أَبْجَرَ بن بُجَيْرِ العِجْلِيُّ فأقبل فى وسطِ

---

(١) أى التى اختلف فيها خمسة من الصحابة .

(٢) لأبوين أو لأب . (٣) ولا شىء للأخت ، وهذا مذهب أبى حنيفة .

(٤) فيسقط الإخوة . (٥) فلم يفضل الجد على الأخت .

(٦) فالمسئلة من ستة ، ثلاثة للأخت وسهم للأم وسهمان للجد .

(٧) وهذا مذهب الأئمة الثلاثة . (٨) شمخ وتكبر .

(٩) هى كنية أمير المؤمنين على بن أبى طالب .

(١٠) نقل الشيخ المرصفى فى شرحه أن إمام الحرمين يرى أن رأى علىّ فى مسألة الجد أنقى المذاهب

من الطعام على محمد بن عُمَيْر بن عُطارِد فقال : يا محمد ، أيدعوك قُتَيْبَةُ بن مُسْلِم إلى نُصْرتى يوم رُسْتُقْباذَ(١) فتقول: هذا أمرٌ لا ناقة لى فيه ولا جمل ؟ لا جعلَ الله لك فيه ناقة ولا جملا ، يا حَرَسِىُّ خُذْ بيده وجَرِّدْ سيفك فاضرب عُنُقَهُ ، فنظر إلىَّ حَجَّارُ بن أَبْجَرَ وهو يتبسم فدخلته العَصَبِيَّةُ ، وكَانَ مكانُ حَجَّار من رَبيعة كمكان محمد بن عمير من مُضَرَ ، وأتى الخبَّازُ بفُرْنِيَّةٍ(٢) فقال: اجْعلْها مما يلى محمداً فان اللبن يعجبه ، يا حَرَسِىُّ شِمْ سيفك وَانْصَرِفْ .

وكان محمدٌ شريفاً ، وله يقول الشاعر :

عَلِمَ القبائلُ من مَعَدٍّ وغيْرِها ... أنَّ الجوادَ محمدُ بن عُطارِدِ

وذُكِرَتْ بنو دارمٍ يوما بحضرة عبد المَلِكِ ، فقالوا : قوم لهم حظٌّ ، فقال عبد الملك : أتقولون ذلك وقد مَضَى منهم لَقيطُ بن زُرارةَ ولا عَقِبَ له ، ومَضَى القعقاع بن معبد بن زرارة ولا عقب له ، ومضى محمد بن عُمَيْرِ بن عُطارِد ولا عَقِبَ له ، والله لا تَنْسَى العربُ هؤلاء الثلاثة أبداً .

قوله : شِمْ سيفك ، يقول : اغْمِدْهُ ، ويقال : شِمْتُ السيفَ: إذا سَلَلْتَهُ وهو من الأضداد ، ويقال : شِمْتُ البرقَ إذا نظرتَ من أىِّ ناحية يأتى .

قال الأعشى :

فقلتُ للشَّرْبِ فى دُرْنَى وقد ثَمِلوا ... شِيمُوا وكيفَ يَشيمُ الشارِبُ الثَّمِلُ

وقال الفرَزْدَقُ :

بأيدى رِجالٍ لم يَشِيموا سُيوفَهُمْ ... ولم تَكْثُرِ القَتْلَى بها حين سُلَّت

وهذا البيت طريف عند أصحاب المعانى ، وتأويله لم يَشيموا : لم يَغْمِدُوا ، ولم

---

(١) بلدة بفارس . (٢) هى خبزة تروى لبنا وسكرا وسمنا ثم تشوى .

تكثر القتلى ، أى لم يغمدوا سيوفهم إلا وقد كثرت القتلى حين سُلَّت(١) .

❀

وحدثنى الحسن بن رجاء قال قدِمَ علينا علىُّ بن جَبَلَةَ إلى عَسْكَرِ الحَسَنِ ابن سَهْلٍ والمأمون هناك بانيا(٢) على خديجة بنت الحسن بن سهل المعروفة ببُورانَ ، فقال الحسن ونحن إذ ذاك نُجْرِى على(٣) نَيِّفٍ وسبعين ألف مَلاَّحٍ وكَانَ الحسن بن سهل يَسْهَرُ مع المأمون وكان المأمون يَتَصَبَّحُ فيجلس الحسن للناس إلى وقت انتباهه ، فلما وَرَدَ عَلِىٌّ قلت قد تَرَى شُغْلَ الأمير ، قال إذن لا أضيعَ معك ، قلتُ أجَلْ ، فدخلتُ على الحسن بن سهل فى وقت ظهوره فأعلمته مكانه ، فقال : ألا تَرَى مانحن فيه ؟ قلتُ لَسْتَ بمشغول عن الأمر له ، فقال يُعْطَى عشرةَ آلاف درهمٍ إلى أن نتفرَّغَ له ، فأعلمت ذلك علىَّ بن جَبَلَةَ ، فقال فى كلمة له :

أَعْطَيْتَنى ياولِىَّ الحق مُبْتَدِئًا ... عطِيَّةً كافَأَتْ مَدْحى ولم تَرَنى
ما شِمْتُ بَرْقَكَ حتى نِلْتُ رَيِّقَهُ ... كأَنَّما كُنْتَ بالجَدْوَى تُبادِرُنى

---

(١) يريد أن الواو فى قوله (ولم تكثر القتلى) للحال ، فمعناه لم يغمدوها والقتلى بها لم تكثر ، وإنما يغمدونها بعد أن تكثر القتلى بها .

(٢) من بنى على أهله : دخل بها ، وذلك مجاز ، أصله أن المعرس كان يبنى على أهله خباء .

(٣) نجرى عليهم : نعطيهم .

باب

قال أبو العباس قال المُفَضَّلُ بن المُهَلَّبِ بن أبى صُفْرَةَ (يَصِفُ الشجاعة والنَّجْدَة).

هل الجودُ إلاّ أن نجودَ بأنفُسٍ على كلِّ ماضى الشَّفْرَتَيْنِ قَضيبِ
وما خيرُ عَيْشٍ بعد قتل محمدٍ وبَعْدَ يَزِيدَ والحَرُونِ حبيبِ
ومَنْ هَرَّ أطرافَ القَنا خَشْيَةَ الرَّدى فليس لِمَجْدٍ صالحٍ بكسوبِ
وما هِىَ إلا رَقْدَةٌ تُورِثُ العُلى لِرَهْطِكَ ما حَنَّتْ رَوائمُ نِيبِ

قوله: ومن هرَّ أطراف القنا خشية الردى. يقول مَنْ كَرِهَ. قال عَنْتَرَةُ بن شدّادٍ:

حَلَفْتُ لهم والخيلُ تَرْدَى بنا معاً نفارقُهُمْ حتى يَهِرُّوا العواليا
عَوالِىَ زُرْقًا من رماحِ رُدَيْنَةٍ هَرِيرَ الكلاب يتَّقِينَ الأفاعِيا

والردى: الهلاك، وأكثر مايستعمل فى الموت، يقال رَدِىَ يَرْدَى رَدًى، قال الله عز وجل: «وما يُغْنِى عنه مالُهُ إذا تَرَدَّى» وهو تَفَعَّلَ مِنَ الرَّدَى فى أحد التفسيرين، وقيل إذا تردى فى النار: أى إذا سقط فيها، وقوله الحرُون، فإن حبيب بن المُهَلَّبِ كان ربما انهزم عنه أصحابه فلا يَرِيمُ[1] مكانه، فكان يُلَقَّبُ الحَرونَ[2]، وقوله: وما هى إلا رقدة تورث العلى. فهذا مأخوذ من قول أخيه يزيد بن المهلب، وذلك أنه قال فى يوم العَقْرِ، وهو اليوم الذى قُتِلَ فيه: قَاتَلَ اللهُ ابنَ الأشْعَثِ، ما كان عليه لو غَمَّضَ عينيه

(١) لايبرح. (٢) وهو مستعار من وصف الخيل.

ساعة للموت ، ولم يكن قَتيلَ نَفْسِهِ . وذلك أن ابن الأشعث قام فى الليل ، وهو فى سطح للبول ، فزعموا أنه رَدَّى نفسهُ ، وغير أهل هـذا القول يقولون : بل سقط منه بِسِنَةِ النوم ، وقوله : تورث العلى لرهطك ، فالمعنى تورث العلى رهطَكَ ، وهذه اللام تزاد فى المفعول على معنى زيادتها فى الإضافة ، تقول : هذا ضاربٌ زيداً ، وهذا ضاربٌ لزيدٍ لأنها لاتُغَيِّرُ معنى الإضافة إذا قلت : هذا ضاربُ زيد وضاربٌ له ، وفى القرآن : « وأُمِرْتُ لأنْ أكونَ أول المسلمين » . وكذلك : « إنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيا تَعْبُرُون » .

ويقول النحويون فى قوله تعالى : « قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ » . إنما هو رَدِفَكُمْ ، والنِّيبُ جمع نابٍ وهى المُسِنَّةُ من الإبل ، وتقديرها فُعْلٌ ساكِنَةٌ ، وَأُبْدِلَتْ من الضمة كسرةٌ لِتَصِحَّ الياء ، كما قلتَ فى أبْيَضَ بِيضٌ ، وإنما هو مثل أحمر وحُمْرٍ ، وكذلك أشْيَبُ وشِيبٌ ، فتقدير نابٍ ونيبٍ إذا جاء على فَعَلٍ وفُعْلٍ تقدير أسَدٍ وأُسْدٍ ، ووَثَنٍ ووُثْنٍ ، ونابٌ تقديرها فَعَلٌ ، وإنما انقلبت الياء ألفاً فسكنت ، وإنما تنقلب إذا كانت قبلها فتحة وكانت فى موضع حركة ، والرّوائم قد مضى تفسيرها(١) .

⁂

وأنشدنى الزِّيادِىُّ قال أنشدنى أبو زيد ، قال نَظَرَ شَيخٌ من الأعْراب إلى امرأته تَتَصَنَّعُ وهى عجوز فقال :

---

(١) وهى العاطفات على أولادها ، والمفرد رائم .

عجوزٌ تُرَجِّى أن تكون فتِيَّةً … وقد لَحِبَ الجَنْبَانِ واحْدَوْدَبَ الظَّهْرُ
تَدُسُّ إلى العطَّارِ سلعةَ بيتِها … وهَلْ يُصْلِحُ العطارُ ما أفْسدَ الدَّهْرُ

(قال أبو الحسن وزادنى غير أبى العباس فى شعر هذا الأعرابى :

وما غرَّنى إلاّ خِضابٌ بِكَفِّها … وكُحْلٌ بعينَيْها وأثْوابُها الصُّفْرُ
وجاءوا بها قبل المُحاق[1] بليلة … فكان مُحاقًا كلّه ذلك الشّهْرُ)

قال فقالت له امرأته :

ألم تَرَ أنّ النابَ تُحْلَبُ عُلْبَةً … وَيُتْرَكُ ثِلْبٌ لاضِرابٌ ولا ظَهْرُ

قال ثم استغاثت بالنساء ، وطَلَبَ الرجالَ ، فإذا هم خُلوفٌ[2] فاجتمع النساء عليه فضَرَبْنَهُ ، وقوله : قد لَحِبَ الجنبان ، يقول قلَّ لحمهما ، يقال بعير مَلْحوبٌ وقد لَحِبَ مثل عُرِقَ ، وقوله : تَدُسُّ إلى العطار سلعة بيتها، يريد السويقَ[3] والدقيقَ ، وما أشبه ذلك ، وكل عَرْضٍ[4] فالعرب تقول له سِلْعة ، أنشدنى عُمارةُ بن عَقيلٍ شعرًا يمدح به خالد بن يزيد بن مَزيدٍ الشيبانىَّ وَيذُمُّ تميم ابن خُزَيمةَ بن حازمٍ النهشلىَّ :

أأتْرُكُ إنْ قلَّتْ دَراهِمُ خالدٍ … زِيارَتَهُ إنِّى إذاً لَلَئِيمُ
وَقَدْ يُسْلِعُ المَرْءُ اللَّئيمَ اصْطِناعُهُ … وَيعتَلُّ نَقْدُ المرْءِ وَهْوَ كَرِيمُ

---

(١) المحاق مثلث الميم ، وهو آخر الشهر أو ثلاث ليال من آخره .

(٢) أى غائبون عن الحى .

(٣) طعام يتخذ من الحنطة والشعير .

(٤) هو ما سوى الدراهم والدنانير والجمع عروض ، وقيل : العروض الأمتعة التى لا يدخلها كيل ولا وزن ولا يكون حيوانا ولا عقارا .

(مَنْ رَفَعَ المرء نصب اصطناعه ، ومن نصب المرء رفع اصطناعه ، وأما على تفسير أبى العباس فبنصب اصطناعه لا غير :

فتًى وَاسِطٌ[1] فى أُبنَىْ نِزَارٍ مُحبَّبٌ ... إلَى أُبنَىْ نِزَارٍ فى الخُطُوبِ عَمِيمُ
فَلَيْتَ بِبُرْدَيْهِ لَنَا كَانَ خَالِدٌ ... وَكَانَ لِبَكْرٍ فى الثَّرَاءِ تَمِيمُ
فَيُصْبِحَ فِينَا سَابِقٌ مُتَمَهِّلٌ ... أَغَرُّ وَفى بَكْرٍ أَغَمُّ بَهِيمُ

قوله: وقد يُسْلِعُ المَرْءُ اللئيمَ اصطناعه . أى يُكْثِرُ سِلعتَهُ لاصطناعه ، وقوله: أغم بهيم ، فالغَمَمُ كثرة شعر الوجه والقفا ، قال هُدْبَةُ بن خَشْرمٍ العُذرىُّ :

فَلاَ تَنْكِحِى إنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا ... أَغَمَّ القَفَا وَالْوَجْهُ لَيْسَ بِأَنْزَعَا

والعرب تَكْرَهُ الغَمَمَ، والبهيمُ: الذى لا يَخْلِطُ لونَهُ غيرُهُ من أىِّ لون كان، وقولها: ألم تر أن الناب تحلب علبة، تقول فيها منفعة على حال ، والعُلْبَةُ : إناء لهم من جلود يَحْلُبون فيه ، من ذلك قوله :

لَمْ تَتَقَنَّعْ بِفَضْلِ مِئْزَرِهَا ... دَعْدٌ وَلَمْ تُغْذَ دَعْدُ بِالعُلَبِ

ومن أمثال العرب : قد تُحْلَبُ الضَّجُورُ العُلْبَةَ ، يضربون ذلك للرجل البخيل الذى لا يزال يُنال منه الشىء القليل ، والضجور : الناقة السيئة الخُلُقِ إنما تُحْلَبُ حين تَطْلُعُ عليها الشمس فتطيب نفسها ، والثِّلْبُ الذى قد انتهى فى السنِّ من الأبل ، وقال آخر :

لَمْ أَرَ مِثْلَ الفَقْرِ أَوْضَعَ لِلْفَتَى ... وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الْمَالِ أَرْفَعَ لِلرَّذْلِ
وَلَمْ أَرَ عِزًّا لامْرِئٍ كَعَشِيرَةٍ ... وَلَمْ أَرَ ذُلاً مِثْلَ نَأْىٍ عَنِ الأَصْلِ

---

(١) واسط : شريف .

وَلَمْ أَرَ مِنْ عُدْمٍ أَضَرَّ عَلَى امْرِئٍ إِذَا عَاشَ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ عَدَمِ الْعَقْلِ

وقال آخر :

لَعَمْرِى لَقَوْمُ الْمَرْءِ خَيْرُ بَقِيَّةٍ عَلَيْهِ وَإِنْ عَالَوْا بِهِ كُلَّ مَرْكَبِ
مِنَ الْجَانِبِ الْأَقْصَى وَإِنْ كَانَ ذَا غِنًى جَزِيلٍ وَلَمْ يُخْبِرْكَ مِثْلُ مُجَرِّبِ
(وَإِنْ خَبَّرَتْكَ النَّفْسُ أَنَّكَ قَادِرٌ عَلَى مَا حَوَتْ أَيْدِى الرِّجَالِ فَكَذِّبِ)
إِذَا كُنْتَ فِى قَوْمٍ عِدًا لَسْتَ مِنْهُمُ فَكُلْ مَا عُلِفْتَ مِنْ خَبِيثٍ وَطَيِّبِ

العِدَا الغرباء فى هذا الموضع ، ويقال للأعداء عِدًا ، والعُدَاةُ الأَعْداء لا غير ،

وقال أعرابى من باهِلَةَ :

سَأَعْمِلُ نَصَّ الْعِيسِ حَتَّى يَكُفَّنِى غِنَى الْمَالِ يَوْمًا أَوْ غِنَى الْحَدَثَانِ
فَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ يُرَى لَهَا عَلَى الْمَرْءِ ذِى الْعَلْيَاءِ مَسُّ هَوَانِ
مَتَى يَتَكَلَّمْ يُلْغَ حُكْمُ مَقَالِهِ وَإِنْ لَمْ يَقُلْ قَالُوا عَدِيمُ بَيَانِ
كَأَنَّ الْغِنَى فِى أَهْلِهِ بُورِكَ الْغِنَى بِغَيْرِ لِسَانٍ نَاطِقٌ بِلِسَانِ

ونظير هذا الشعر ما حُدِّثْنا به فى أمر حارِثَةَ بن بَدْرٍ الغُدَانِىِّ، فإنا حُدِّثنا عن حارثة بن بدر ، وكان رَجُلَ بَنِى تَمِيمٍ فى وقته ، وكان قد غلَبَ على زِيادٍ ، وكان الشراب قد غلَبَ عليه ، فقيل لزِيادٍ إن هذا قد غلَبَ عليك وهو مُسْتَهْتَرٌ(١) بالشراب ، فقال زياد : كيف لى باطِّراحِ رجلٍ هو يُسايِرُنى مُنْذُ دخلتُ العِراق لم يَصْكُكْ رِكابِى رِكابُهُ ، ولا تقدَّمَنى فنظرتُ إلى قفاه ، ولا تأخَّرَ عنى فلَوَيْتُ عُنُقِى إليه ، ولا أَخَذَ علىَّ الشمسَ فى شتاءٍ قطُّ ، ولا

---

(١) مستهتر : مولع .

الرَّوْحَ فى صيف قطُّ ، ولا سألته عن علم إلا ظننتُ أنه لم يُحْسِنْ غيره . فلما مات زِيادٌ جفاه عبيدالله ، فقال له حارثة : أيها الأمير ماهذا الجفاء مع معرفتك بالحال عند أبى المغيرة[1] ، فقال له عبيد الله : إن أبا المغيرة كان قد بَرَعَ بُرُوعا لا يلحقه معه عيب ، وأنا حَدَثٌ وإنما أُنْسَبُ إلى مَنْ يَغْلِبُ علىَّ ، وأنت رجل تديم الشراب ، فمتى قَرَّبْتُكَ فظهرتْ رائحةُ الشراب منك لم آمَنْ أن يُظَنَّ بى ، فَدَعِ النَّبيذَ وكُنْ أوَّلَ داخلٍ علىَّ وآخر خارج عنى ، فقال له حارثة : أنا لا أدَعُهُ لمن يملك ضَرِّى ونفْعِي ، أفأدعه للحال عندك ؟ قال فاخْتَرْ من عملى ما شئتَ ، قال تُوَلِّينى رامَ هُرْمُزَ ، فإنها أرض عَذاة[2] وسُرَّقَ فإن بها شرابًا وُصِفَ لى ، فوَلَّاهُ إياهما ، فلما خرج شيَّعَهُ الناس ، فقال أنسُ ابن أبى أُنَيْسٍ :

أَحارِ بْنَ بَدْرٍ قَدْ وَلِيتَ إمارَةً ... فَكُنْ جُرَذاً فيها تَخُونُ وَتَسْرِقُ[3]
وَلاَ تَحْقِرَنْ يَا حارِ شَيْئاً وَجَدْتَهُ ... فَحظُّكَ مِنْ مُلْكِ الْعِرَاقَيْنِ سُرَّقُ
وَباهِ تَميماً بِالْغِنَى إنَّ لِلْغِنَى ... لِسَاناً بِهِ الْمَرْءُ الْهَيُوبَةُ يَنْطِقُ
فَإِنَّ جَمِيعَ النَّاسِ إِمَّا مُكَذِّبٌ ... يَقُولُ بِمَا يَهْوَى وَإِمَّا مُصَدِّقُ
يَقُولُونَ أَقْوالاً وَلاَ يَعْلَمُونَهَا ... وَلَوْ قِيلَ هَاتُوا حَقِّقُوا لَمْ يُحَقِّقُوا

ورثى حارثةُ بن بدرٍ زيادا ، وكان زياد مات[4] بالكوفة ، ودفن بالثَّوِيَّةِ فقال :

صَلَّى الْإِلٰهُ عَلَى قَبْرٍ وَطَهَّرَهُ ... عِنْدَ الثَّوِيَّةِ يَسْفِى فَوْقَهُ الْمُورُ

(١) أبو المغيرة كنية زياد . (٢) عذاة : طيبة التربة .
(٣) الجرذ: هو الذكر من الفأر، أو هو الكبير منه.
(٤) سنة ثلاث وخمسين وهو والى العراق لمعاوية .

زَفَّتْ إليهِ قُرَيْشٌ نَعْشَ سَيِّدِها ... فَثَمَّ كُلُّ التُّقَى وَالْبِرِّ مَقْبُورُ
أَبَا الْمُغِيرَةِ وَالدُّنْيَا مُفَجِّعَةٌ ... وَإِنَّ مَنْ غَرَّتِ الدُّنْيَا لَمَغْرُورُ
قَدْ كَانَ عِنْدَكَ بِالْمَعْرُوفِ مَعْرِفَةٌ ... وَكَانَ عِنْدَكَ لِلنَّكْرَاءِ تَنْكِيرُ
وَكُنْتَ تُغْشَى وَتُعْطِي المَالَ مِنْ سَعَةٍ ... إِنْ كَانَ بَيْتُكَ أَضْحَى وَهْوَ مَهْجُورُ
النَّاسُ بَعْدَكَ قَدْ خَفَّتْ حُلُومُهُمُ ... كَأَنَّمَا نَفَخَتْ فِيهَا الْأَعَاصِيرُ

ونظير هذا قول مُهَلْهِلٍ يرثى أخاه كُلَيْبًا ، وكان كُلَيْبٌ إذا جلس لم يُرْفَعْ بحضرته صوت ، ولم يَسْتَبَّ بِفِنائِهِ اثنان :

ذَهَبَ الْخِيَارُ مِنَ الْمَعَاشِرِ كُلِّهِمْ(١) ... وَاسْتَبَّ بَعْدَكَ يَا كُلَيْبُ الْمَجْلِسُ
وَتَقَاوَلُوا فِى أَمْرِ كُلِّ عَظِيمَةٍ ... لَوْ كُنْتَ حَاضِرَ أَمْرِهِمْ لَمْ يَنْبِسُوا

قول حارثة : الثُّوَيَّةُ ، فهى بناحية الكوفة ، ومن قال الثُّوَيَّة : فهو تصغير الثَّوِيَّةِ ، وكل ياء اتَّصَلَتْ بها ياء أخرى فوقعت مُعْتَلَّةً طَرَفًا فى التصغير فوَلِيَتْها ياء التصغير(٢) فهى محذوفةٌ ، وذلك قولك فى عطاء عُطَىٌّ ، وكان الأصل عُطَيِّيٌ(٣) كما تقول فى سحاب سُحَيِّبٌ ، ولكنها تحذف لاعتلالها ، واجتماع ياءين معها ، وتقول فى تصغير أحْوَى أُحَىٌّ فى قول من قال فى أسْوَدَ أُسَيِّدٌ ، وهو الوجه الجيد ، لأن الياء الساكنة إذا كانت بعدها واو متحركة قلبتْها ياء كقولك أيام والأصل أيْوَامٌ ، وكذلك سيد والأصل

---

(١) رواية أبى تمام : أبنْت أن النار بعدك أوقدت .
(٢) الصواب : فوليت ياء التصغير .
(٣) بثلاث ياءات : الأولى ياء التصغير والثانية ياء العوض من الألف الزائدة والثالثة ياء العوض من لام الكلمة فتحذف الثالثة ويجعل الاعراب على الثانية .

سُيَيْوِدٌ، ومن قال فى تصغير أسود أُسَيْوِدُ ، فهو جائز وليس كالأول ، قال فى تصغير أحْوَى أُحَيْوٍ يا فتى ، فتثبت الياء لأنه ليس فيها ما يمنعها من اجتماع اليا آت ، ومن قال أسَيْوِدُ ، فإنما أظهر الواو لأنها كانت فى التكبير متحركةً ، ولا تقول فى عجوز إلا عُجَيِّزٌ لأنها سا كنة ، وإنما يجوز هذا على بُعْدٍ إذا كانت الواو فى موضع العين من الفعل ، أو ملحقة بالعين نحو واو جَدْوَلٍ ، وإنما استجازوا إظهارها فى التصغير للتشبيه بالجمع لأن ما جاوز الثلاثة فتصغيره على مثال جمعه ، ألا تراهم يقولون فى الجمع أَساود وَجَداول ، فهذا على التشبيه بهذا ، فإن كانت الواو فى موضع اللام كانت منقلبة على كل حال ، تقول فى غَزْوةٍ غُزَيَّةٌ ، وفى عُرْوةٍ عُرَيَّةٌ ، فهذا شرح صالح فى هذا الموضع ، وهو مُستقصًى فى الكتاب المقتضب .

وقوله : يسفى فوْقه المور ، فمعناه أن الريح تَسْفيه ، وجعل الفعل للمُور وهو التراب ، وتقول سَقاكَ الله الغَيْثَ ، ثم يجوز أن تجعل الفعل للغيث ، فتقول : سَقاكَ الغيثُ يا فتى ، وقال عَلْقَمةُ بن عَبَدَةَ :

سَقاكَ يَمَانٍ ذُو حَبِيٍّ وَعارِضٌ تَرُوحُ بِهِ جُنْحَ الْعَشِيِّ جَنُوبُ

وقوله : زفت إليه قريش نعش سيدها ، يقال : زَفَفْتُ السَّريرَ ، وزَفَفْتُ العَرُوسَ ، وحدثنى أبو عثمان المازنى قال حدثنى الزِّيادىّ قال سمعت قوما من العرب يقولون : أزْفَفْتُ العروس وهى لغة ، وقوله : نَعْشَ سيدها يريد موضعه من النَّسَبِ لأنه نَسَبَهُ إلى أبى سُفْيانَ(١) ، وكان رئيس قريش قبل

---

(١) أى أن سيادته إنما كانت من انتسابه لأبى سفيان .

مَبْعَثِ النبي صلى الله عليه وسلم وله يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلُّ الصَّيْدِ فى بطْنِ الفرا . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يَفْرُشُ فِراشاً فى بيته فى وقت خلافته فلا يَجْلِسُ عليه إلا العبَّاسُ بن عبد المطَّلِبِ وأبو سفيان بن حَرْبٍ ، ويقول : هذا عَمُّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وهذا شيخ قريش . وكان حَرْبُ بن أُمَيَّةَ رئيسَ قريش يوم الفِجَار ، فكان آلُ حَرْبٍ إذا ركبوا فى قومهم من بنى أُمَيَّةَ قُدِّمُوا فى المواكِبِ ، وأُخْلِيَتْ لهم صُدور المجالس ، إلاَّ رَهْطَ عثمان رضى الله عنه ، فإن التقديم لهم فى الإسلام بعثمان . وكان أبو سفيان صاحبَ العِير يوم بَدْرٍ ، وصاحبَ الجيش يوم أُحُدٍ ، وفى يوم الخَنْدَقِ ، وإليه كانت تَنْظُرُ قريش فى يوم فتح مكة ، وجَعَلَ له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مَنْ دَخَلَ فى داره فهو آمِنٌ فى حديث مشهور . وقوله : كأنما نَفَخَتْ فيها الأعاصير ، هذا مَثَلٌ ، وإنما يراد خفة الحُلُوم . والإِعْصارُ فيما ذكر أبو عبيدة: ريح تَهُبُّ بشدة فيما بين السماء والأرض ومن أمثال العرب : إن كُنْتَ رِيحاً فقد لاقيتَ إعصارًا ، يُضْرَبُ للرجل يكون جَلْدًا فيُصادِفُ مَنْ هو أجلَدُ منه . قال الله عزّ وجل : « فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ » .

وقول رسولِ الله صلى الله عليه وسلم : كُلُّ الصَّيْدِ فى بَطْنِ الفرا ، يعنى الحمارَ الوحشيَّ . وذلك أن أجلَّ شيء يصيدُه الصائدُ الحمارُ الوحشيُّ ، فإذا ظَفِرَ به ، فكأنه قد ظفر بجملة الصيد ، والعرب تختلف فيه فبعضهم يَهْمِزُهُ فيقول هذا فَرَأٌ كما ترى وهو الأكثر ، وبعضهم لا يهمزه ، ومن أمثالهم :

أَنْكَحْنا الفَرا فَسَنَرى : أى زوَّجْنا مَنْ لا خير فيه فسنعلم كيف العاقبةُ ، وجَمْعُهُ فى القولين جميعاً فِراءٌ كما ترى ، ونظيره : جَمَلٌ ، وجِمالٌ ، وجَبَلٌ ، وجِبالٌ . قال الشاعر :

بِضَرْبٍ كآذانِ الفِراءِ فُضُولُهُ ... وطَعْنٍ كإيزاغِ المَخاضِ تبورُها

الايزاغُ : دَفْعُ الناقة ببولها ، يقال : أوْزَغَتْ به إيزاغاً ، وأزْغَلَتْ به إزْغالاً ، وذلك حين تَلْقَحُ ، فعند ذلك يقال لها : خَلِفَةٌ ، وللجميع المَخاضُ وقد مرّ هذا ، والبَوْرُ: أن تُعْرَضَ على الفحل لِيُعْلَمَ أهى حامل أم حائل ؟ وقال ضابئُ ابن الحارث البُرْجُمِيُّ (من السجن) :

وَمَنْ يَكُ أمْسَى بِالمَدِينَةِ رَحْلُهُ ... فَإِنِّى وَقَيَّارًا بِهَا لَغَرِيبُ
وَمَا عَاجِلاتُ الطَّيْرِ تُدْنِى مِنَ الْفَتَى ... نَجاحًا وَلاَ عَنْ رَيْثِهِنَّ يَخِيبُ
وَرُبَّ أُمُورٍ لاَ تَضِيرُكَ ضَيْرَةً ... وَلِلْقَلْبِ مِنْ مَخْشَاتِهِنَّ وَجِيبُ
وَلاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يُوَطِّنُ نَفْسَهُ ... عَلَى نَائِبَاتِ الدَّهْرِ حِينَ تَنُوبُ

قوله: فإنى وقياراً بها لغريب ، أراد فإنى لغريب بها وقياراً ، ولو رفع لكان جيداً ، تقول إن زيداً منطلقٌ وَعَمْراً وَعَمْرٌو ، فمن قال عمراً فإنما رَدَّهُ على زيد ، ومن قال عمرو فله وجهان من الاعراب : أحدهما جيد ، والآخر جائز ، فأما الجيد فأن تَحْمِلَ عمراً على الموضع ، لأنك إذا قلت إن زيداً منطلق فمعناه زيد منطلق فرَدَدْتَهُ على الموضع ، ومثل هذا لَسْتُ بقائم ولا قاعداً ، والباء زائدةٌ ، لأن المعنى لستُ قائما ولا قاعداً ، ويقرأ على وجهين « إنَّ اللهَ برِىءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ » وَرَسُولَهُ والوجه الآخر أن يكون معطوفاً

على المضمر فى الخبر ، فإن قلت إن زيداً منطلق هو وعمرو حَسُنَ العطف لأن المضمر المرفوع إنما يَحْسُنُ العطف عليه إذا أُكِّدْتَهُ ، كما قال الله تعالى: « اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا . وَاسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ » وإنما قَبُحَ العطفُ عليه بغيرِ تأكيد لأنه لا يخلو من أن يكون مُسْتَكِنًّا فى الفعل بغير علامة ، أو فى الاسم الذى يَجْرِى مَجْرَى الفعل ، نحو إن زيدا ذَهَبَ وإن زَيدا ذاهِبٌ فلا علامة له ، أو تكونَ له علامةٌ يتغير لها الفعل عما كان عليه نحو ضَرَبْتُ ، سَكَّنْتَ الباء التى هى لام الفعل من أجل الضمير لأن الفعل والفاعل لا يَنْفَكُّ أحدُهما عن صاحبه فهما كالشىء الواحد[1] ، ولكنَّ المنصوبَ يَجوزُ العطفُ عليه ، ويَحْسُن بلا تأكيد ، لأنه لا يُغَيِّرُ الفعل إذْ كان الفعل قد يقع ولا مفعول فيه ، نحو ضَرَبْتُكَ وزيداً ، فأما قول الله عز وجل : « لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا » ، فإنما يَحْسُنُ بغير توكيد لأن (لا) صارت عوضاً والشاعر إذا احتاج أجراه بلا توكيد لاحتمال الشعر مالا يَحْسُنُ فى الكلام ، قال عمر بن أبى رَبيعة :

قُلْتُ إذْ أَقْبَلَتْ وَزُهْرٌ[2] تهادَى ... كَنِعاجِ المَلَا تَعَسَّفْنَ رَمْلَا

وقال جرير :

وَرَجا الأُخَيْطِلُ مِنْ سَفاهَةِ رَأْيِهِ ... مَا لَمْ يَكُنْ وَأَبٌ[3] لَهُ لِيَنالَا

---

(١) قال الشيخ المرصفى : يريد أن الضمير المتصل المرفوع إنما قبح العطف عليه لأنه كالجزء من الكلمة لا ينفك عنها فلو عطف عليه كان مثل العطف على جزء الكلمة .

(٢) جمع زهراء ، والمذكر أزهر ، والزهراء : المرأة المشرقة البياض .

(٣) عطف «أب» على الضمير المستتر فى (يكن) كما عطف (زهر) على الضمير المستتر فى (أقبلت) .

فهذا كثير . فأما النعت إذا قلتَ إنَّ زيداً يقومُ العاقلَ فأنت مخير إن شئت قلتَ العاقلَ فجعلته نعتاً لزيد ، أو نصبته على المَدْح وهو باضمار أعنى ، وإن شئتَ رفعتَ على أن تُبْدِلَهُ من المضمر فى الفعل ، وإن شئتَ كان على قَطْع وابتداء ، كأنك قلتَ إنَّ زيدا قام ، فقيل مَنْ هو ؟ فقلتَ : العاقلُ ، كما قال الله عزّ وجل : « قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِكُمُ النَّارُ » أى هو النارُ والآية تُقْرَا على وجهين على ما فسَّرْنا : « قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ » وعَلَّامَ الغيوب .

وقوله : * وَمَا عَاجِلَاتُ الطَّيْرِ تُدْنِى مِنْ الْفَتَى نَجَاحًا * يقول إذا لم تَعْجَلْ له طَيْرٌ سانِحَةٌ فليس ذلك بمُبْعِدٍ خيرا عنه ، ولا إذا أَبْطَأَتْ خابَ ، فعاجلُها لا يأتيه بخير ، وآجلُها لا يَدْفَعُهُ عنه ، إنما له ما قُدِّرَ له ، والعرب تَزْجُرُ على السَّانِحِ (١) وتَتَبَرَّكُ به ، وتَكْرَهُ البارِحَ وتَتَشاءم به ، والسانِحُ : ما أراكَ مَياسِرَهُ فأَمْكَنَ الصائدَ ، والبارِحُ : ما أراكَ مَيامِنَهُ فلم يُمْكِنِ الصائدَ إلا أن يَنْحَرِفَ له ، وقد قال الشاعر :

لَا يَعْلَمُ الْمَرْءُ لَيْلاً مَا يُصَبِّحُهُ ... إِلَّا كَوَاذِبَ مِمَّا يُخْبِرُ الْفَالُ
وَالْفَالُ وَالزَّجْرُ وَالْكُهَّانُ كُلُّهُمُ ... مُضَلَّلُونَ وَدُونَ الْغَيْبِ أَقْفَالُ

وقوله :

وَرُبَّ أُمُورٍ لَا تَضِيرُكَ ضَيْرَةً ... وَلِلْقَلْبِ مِنْ مَخْشَاتِهِنَّ (٢) وَجِيبُ (٣)

فإن العرب تقول ضارَهُ يَضِيرُهُ ضَيْرَةً ، ولا ضَيْرَ عليه ، وضَرَّهُ يَضُرُّهُ ، ولا

---

(١) فعل زجر يتعدى بنفسه ، فتعديته بعلى خروج على الأصل .

(٢) المخشاة مصدر خشى . (٣) الوجيب : خفقان القلب واضطرابه .

ضَرَرَ عليه ، ويقال : أصابه ضُرٌّ ، وأصابه ضَرٌّ بمعنى ، والضَّرُّ مصدر ، والضُّرُّ[1] اسم ، وقد يكون الضُّرُّ من المرض ، والضَّرُّ عامًّا ، وهذا معنى حَسَنٌ[2] ، وقد قال أحد المُحْدَثِينَ ، وهو إسماعيل بن القاسم أبو العَتاهِيَةِ :

وَقَدْ يَهْلِكُ الْإِنْسَانُ مِنْ بَابِ أَمْنِهِ ... وَيَنْجُو بِإِذْنِ اللهِ مِنْ حَيْثُ يَحْذَرُ

وقال الله عزّ وجل: «فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا»

وقال رجل لمعاوية : واللهِ لقد بايَعْتُكَ وأنا كارِهٌ ، فقال معاوية : قد جعَلَ اللهُ فى الكُرْهِ خيرًا كثيرًا .

وقوله :

وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يُوَطِّنُ نَفْسَهُ ... عَلَى نَائِبَاتِ الدَّهْرِ حِينَ تَنُوبُ

نظيره قولُ كُثَيِّر :

أَقُولُ لَهَا[3] يَا عَزَّ كُلُّ مُصِيبَةٍ ... إِذَا وُطِّنَتْ يَوْمًا لَهَا النَّفْسُ ذَلَّتِ

وكان عبد الملك بن مَرْوانَ يقول : لو كان قال هذا البيْتَ فى صِفَةِ الحَرْبِ لكان أشْعَرَ الناس .

وحكى عن بعض الصالحين أنّ ابنًا له مات فلم يُرَ بِهِ جَزَعٌ ، فقيل له فى ذلك ، فقال : هذا أمر كنا نتوَقَّعُهُ ، فلما وَقَعَ لم نُنْكِرْهُ .

---

(١) أوهما لغتان ، كما قيل شهد بالفتح وشهد بالضم .

(٢) يريد معنى البيت . (٣) الرواية : فقلت لها .

باب

قال أبو العباس: وجَّهَ علىُّ بن أبى طالب رضى الله عنه جَرِيرَ بن عبدالله البَجَلِيَّ إلى معاوية رحمه الله يأخُذُهُ بالبَيْعةِ له، فقال له: إنَّ حَوْلى مَنْ تَرَى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار، ولـكنّى اخْتَرْتُكَ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكَ: خَيْرُ ذى يَمَنٍ، ائْتِ مُعاوية فَخُذْهُ بالبَيْعة، فقال جَرِيرٌ: والله يا أمير المؤمنين ما أدَّخِرُكَ من نُصْرتى شيئاً، وما أطْمَعُ لك فى مُعاوية، فقال علىٌّ رضى الله عنه: إنما قَصْدى حُجَّةٌ أُقيمها عليه، فلما أتاه جَرِيرٌ دافَعَهُ مُعاويةُ، فقال له جَرِيرٌ: إنَّ المُنافِقَ لا يُصَلِّى حتى لا يَجِدَ من الصلاة بُدًّا، ولا أحْسَبُكَ تُبايِعُ حتى لا تَجِدَ من البيْعةِ بُدًّا! فقال له معاوية إنها ليست بخَدْعَةِ الصَّبِىِّ عن اللَّبَنِ(١) إنه أمْرٌ له ما بعده، فأبْلِعْنِى رِيقى، فناظَرَ عَمْرًا فطالت المناظرة بينهما وألَحَّ عليه جَرِير، فقال له معاوية: ألقاكَ بالفَصْلِ فى أوّلِ مَجْلِسٍ إن شاء الله تعالى، ثم كتب لعمرو بمصر طُعمةً(٢)، وكَتَبَ عليه: ولا يَنْقُضُ شَرْطٌ طاعةً(٣)، فقال عمرو يا غلامُ اكْتُبْ: ولا تَنْقُضُ طاعةٌ شَرْطًا(٤)، فلما اجتمع له أمْرُهُ رَفَعَ عَقيرتَهُ(٥) يُنْشِدُ لِيُسْمِعَ جَرِيرًا:

(١) أى منعه عن اللبن بشىء يتلهى به. (٢) يريد أنه ولاه مصر.
(٣) معنى ذلك أنه إذا أراد معاوية أن يرجع عن إعطائه مصر لم يكن لعمرو أن يرجع عن طاعته
(٤) يريد بذلك منعه من أن يغدر به.
(٥) العقيرة: الصوت، ويقال ان الأصل فيها أن رجلا عقرت رجله فوضع العقيرة على الصحيحة وبكى عليها بأعلى صوته، فقيل لـكل من رفع صوته رفع عقيرته.

تَطَاوَلَ لَيْلِي وَاعْتَرَتْنِي وَساوِسِي ... لِآتٍ أَتَى بِالتُّرَّهَاتِ[1] الْبَسَابِسِ[2]

أَتَانِي جَرِيرٌ وَالْحَوَادِثُ جَمَّةٌ ... بِتِلْكَ الَّتِي فِيهَا اجْتِدَاعُ الْمَعَاطِسِ

أُكَايِدُهُ وَالسَّيْفُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ... وَلَسْتُ لِأَثْوَابِ الدَّنِيِّ بِلَابِسِ

إِنِ الشَّأْمُ أَعْطَتْ طَاعَةً يَمَنِيَّةً ... تَوَاصَفَهَا أَشْيَاخُهَا فِي الْمَجَالِسِ

فَإِنْ يَفْعَلُوا أَصْدِمْ عَلِيًّا بِجَبْهَةٍ ... تَفُتُّ عَلَيْهِ كُلَّ رَطْبٍ وَيَابِسِ

(الجَبْهَةُ جماعة الخيل)

وَإِنِّي لَأَرْجُو خَيْرَ مَا نَالَ نَائِلٌ ... وَمَا أَنَا مِنْ مُلْكِ الْعِرَاقِ بِيَائِسِ

وكتب إلى عليٍّ رضى الله عنه: بسم الله الرحمن الرحيم مِن مُعاوية بن صَخْرٍ إلى علىّ بن أبى طالب، أما بعد: فلَعَمْرِى لوْ بايعكَ القومُ الذين بايعوكَ وأنت برىء من دم عثمان كنتَ كأبى بكرٍ وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين، ولكن أغْرَيْتَ بعثمان المهاجرين، وخذَّلْتَ عنه الأنصارَ، فأطاعك الجاهلُ وقوِىَ بك الضعيفُ، وقد أبى أهلُ الشأم إلاّ قتالكَ حتى تدْفعَ إليهم قَتلةَ عثمان، فإن فعلتَ كانت شُورَى بين المسلمين، ولعَمْرِى ما حُجَّتُكَ علَىَّ كحُجَّتِك على طَلْحَةَ والزُّبَيْر. لأنهما بايعاكَ ولم أبايعْكَ، وما حُجَّتُكَ على أهل الشأم كحُجَّتِكَ على أهل البصرة لأن أهل البصرة أطاعوكَ ولم يُطِعْكَ أهلُ الشأم. وأما شَرَفُكَ فى الإسلام، وقرابَتُكَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضعكَ من قريش فلَسْتُ أدْفَعُهُ. ثم كتَبَ إليه فى آخر الكتاب بشعر كَعْبِ بن جُعَيْلٍ، وهو:

---

(١) التُّرَّهات: الأباطيل. (٢) البسابس القفار، وهو يصف الأباطيل بالاتساع.

أَرَى الشَّأْمَ تَكْرَهُ مُلْكَ العِرَاقِ ... وَأَهْلَ العِرَاقِ لَهُمْ كَارِهِينَا
وَكُلاً لِصَاحِبِهِ مُبْغِضًا ... يَرَى كُلُّ مَا كَانَ مِنْ ذَاكَ دِينَا
إِذَا مَا رَمَوْنَا رَمَيْنَاهُمُ ... وَدِنَّاهُمُ مِثْلَ ما يُقْرِضُونَا
فَقَالُوا عَلِيٌّ إِمَامٌ لَنَا ... فَقُلْنَا رَضِينَا ابْنَ هِنْدٍ رَضِينَا
وَقَالُوا نَرَى أَنْ تَدِينُوا لَهُ ... فَقُلْنَا أَلَا لَا نَرَى أَنْ نَدِينَا
وَمِنْ دُونِ ذَلِكَ خَرْطُ القَتَادِ ... وَضَرْبٌ وَطَعْنٌ يُقِرُّ العُيُونَا

وأحسن الروايتين : يَفُضُّ الشؤونَا ، وفى آخر هذا الشعر ذمٌّ لعلىِّ بن أبى طالب رضى الله عنه أمْسَكْنا عن ذكره .

قوله : ولكِنَّكَ أغْرَيْت بعثمان المهاجرين ، فهو من الإِغْرَاء وهو التحضيض عليه ، يقال أغْرَيْتُهُ به ، وآسَدْتُهُ عليه ، وآسَدْتُ الكلبَ على الصيد أُوسِدُهُ إيساداً ، ومن قال أشْليْتُ الكلب فى معنى أغْرَيْتُ فقد أخطأ ، إنما أشْلَيْتُهُ دعوتُهُ إلىَّ ، وآسَدْتُه أغْرَيْتُهُ ، وقول ابن جُعَيْلٍ : وأهلَ العراق لهم كارهينا ، محمول على أرى ، ومن قال وأهلُ العراق لهم كارهونا فالرفع من وجهين : أحدهما قطعٌ وابتداء ، ثم عطفَ جملة عَلَى جملة بالواو ، ولم يحمله على أرى ، ولكن كقولك كان زيدٌ منطلقاً وعمرٌو منطلقٌ الساعةَ ، خَبَّرْتَ بخبر بعد خبر ، والوجه الآخر أن تكون الواو وما بعدها حالا ، فيكون معناها إذ ، كما تقول رأيت زيداً قائماً وعمرو منطلق تريد إذْ عَمْرو منطلق ، وهذه الآية تُحْمَلُ على هذا المعنى ، وهو قول الله عزّ وجل : « يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ » ، والمعنى والله أعلم : إذ طائفةٌ فى هذه

الحال ، وكذلك قراءة من قرأ : « وَلَوْ أَنَّ مَا فِى ٱلْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ » ، أى والبحْرُ هذه حاله ، ومن قرأ والبحْرَ فعلى أنَّ . وقوله : ودِنَّاهُمُ مثل ما يقرضونا ، يقول جزيناهم ، وقال المفسرون فى قوله عز وجل : « مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ » . قالُوا يومُ الجَزاء والحساب ، ومن أمثال العرب : كما تَدِينُ تُدانُ ، وأنشد أبو عبيدة (الشعر ليَزيدَ بن الصَّعِقِ الكلابِىِّ وله خبر[1]) :

وَاعْلَمْ وَأَيْقِنْ أَنَّ مُلْكَكَ زَائِلٌ ... وَاعْلَمْ بِأَنَّ كَمَا تَدِينُ تُدَانُ

وللدين مواضع منها ما ذكرنا ، ومنها الطاعة ودِينُ الإسلام ، من ذلك يقال فلان فى دِين فلانٍ : أى فى طاعته ، ويقال كانت مكة بلدًا لَقاحًا : أى لم يكونوا فى دين مَلِكٍ ، وقال زُهَيْرٌ :

لَئِنْ حَلَلْتَ بِجَوٍّ فى بَنِى أَسَدٍ ... فى دِينِ عَمْرٍو وحالَتْ بَيْنَنا فَدَكُ

فهذا يريد فى طاعة عمرو بن هند ، والدينُ العادةُ ، يقال ما زال هذا دينى ودأْبى وعادتى ودَيْدَنِى وإجْرِيَّاىَ ، قال المُثَقِّبُ العَبْدِىُّ :

تَقُولُ إِذَا دَرَأْتُ لَهَا وَضِينِى ... أَهٰذَا دِينُهُ أَبَدًا وَدِينِى

أَكُلَّ الدَّهْرِ حَلٌّ وَارْتِحَالٌ ... أَمَا تُبْقِى عَلَىَّ وَمَا تَقِينِى

وقال الكُمَيْتُ بن زَيْدٍ :

عَلَى ذَاكَ إِجْرِيَّاىَ[2] وَهِىَ ضَرِيبَتِى ... وَإِنْ أَجْلَبُوا[3] طُرًّا عَلَىَّ وَأَحْلَبُوا[4]

---

(١) المراد أن لهذا البيت قصة طواها المؤلف .

(٢) الإجريا والإجرياء : العادة . (٣) أجلبوا : صاحوا .

(٤) أحلبوا : اجتمعوا وتألبوا ، وهـ ذا البيت من قصيدة طويلة يجد القارئ نقدها وتحليلها فى كتاب (المدائح النبوية) .

وقوله : فقلنا رضينا ابن هند رضينا ، يعنى معاوية بن أبى سُفْيانَ ، وأُمُّهُ هِنْد بنت عُتْبةَ بن رَبيعة بن عَبْدِ شَمْسِ بن عبد مَناف .

وقوله : أن تَدينوا له ، أى أن تطيعوه وتَدْخلوا فى دينه . أى فى طاعته: وقوله : ومن دون ذلك خَرْطُ القَتاد ، فهذا مَثَلٌ من أمثال العرب ، والقَتادُ : شُجَيْرَةٌ شاكة غليظةُ أصولِ الشَّوْكِ ، فلذلك يُضْرَبُ خَرْطهُ مَثلاً فى الأمرِ الشديد ، لأنه غاية الجَهْدِ ، ومن قال يَفُضُّ الشؤونا فيَفُضُّ يُفرِّق ، تقول فَضَضْتُ عليه المالَ ، والشؤون واحدها شَأْنٌ ، وهى مَوَاصِلُ قبائل الرأس ، وذلك أن للرأس أربع قبَائل : أى قِطَعٌ مَشْعوبُ بعضُها إلى بعض ، فموضع شُعَبِها يقال له الشؤون واحدها شَأْنٌ ، وزعم الأصمعى قال يقال إن مَجارى الدموع منها ، فلذلك يقال استَهَلَّتْ شُؤونه ، وأنشد قول أَوْسِ ابن حَجَرٍ :

لا تحْزُنِينِى بالفِرَاقِ فإنَّنِى لا تَسْتَهِلُّ مِنَ الفِرَاقِ شُؤُونِى

وَمَنْ قال يُقِرُّ العيونا ، ففيه قولان . أحدهما للأصمعى وكان يقول لا يجوز غيره ، يقال قَرَّتْ عينُه وأقرَّها اللهُ ، وقال إنما هو بَرَدَتْ مِنَ القُرِّ ، وهو خلاف قولهم سَخِنَتْ عينه وأسخنها الله ، وغيره يقول قَرَّتْ هَدَأَتْ ، وأقرَّها الله أهْدأها اللهُ ، وهذا قول حسن جميل ، والأول أغرب وأطْرَفُ.

فكتب إليه[1] أمير المؤمنين علىٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه جوابَ هذه الرسالة : بسم الله الرحمن الرحيم من على بن أبى طالب إلى مُعاوية

(١) رجع المؤلف إلى الحديث بعد أن انتهى من شرح خطاب معاوية .

ابن صَخْرٍ ، أما بعد : فإنه أتانى منك كتابُ امْرِئٍ ليس له بَصَرٌ يَهْدِيه ، ولا قائدٌ يُرْشِدُهُ ، دعاه الهوى فأجابه ، وقادَهُ فاتَّبعه[1] زَعَمتَ أنك إنما أفْسَدَ عليك بَيْعتى خطيئتى فى عثمان ، ولَعَمْرِى ما كنتُ إلا رجلا من المهاجرين أوْرَدْتُ كما أوردوا ، وأصْدَرْتُ كما أصْدروا ، وما كَانَ اللهُ لِيَجْمَعَهُمْ على ضلال ، ولا لِيَضْرِبَهُمْ بالعَمَى ، وبعد فما أنت وعثمانُ[2] إنما أنْتَ رجل من بنى أُمَيَّةَ ، وبنو عثمان أوْلَى بمطالبة دمه ، فإن زعمتَ أنك أقوى على ذلك ، فادْخُلْ فيما دَخَلَ فيه المسلمون ، ثم حاكِمِ القومَ إلىَّ . وأما تمييزك بينك وبين طَلْحَة والزُّبَيْرِ وأهل الشأم وأهل البَصْرَةِ ، فلعمرى ما الأمْرُ فيما هناكَ إلا سَواءٌ ، لأنها بَيْعةٌ شاملة ، لا يُسْتَثْنَى فيها الخيارُ ، ولا يُستأْنَفُ فيها النَّظَرُ ، وأما شرفى فى الإسلام ، وقرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وموضعى من قُرَيْشٍ ، فلعمرى لو اسْتَطَعْتَ دَفْعَهُ لدفعتَهُ .

ثم دعا النَّجاشِىَّ[3] أحد بنى الحارث بن كعب فقال له : إن ابن جُعَيْلٍ شاعرُ أهل الشأم ، وأنت شاعِرُ أهل العراق ، فأجِبِ الرجلَ ، فقال : يا أميـــر المؤمنين أسْمِعْنِى قوله ، قال : إذاً أُسْمِعَكَ شِعْرَ شاعِرٍ ، فقال النجاشى يجيبه :

دَعَا يَا مُعَاوِىَ مَا لَنْ يَكُونَا ... فَقَدْ حَقَّقَ اللهُ مَا تَحْذَرُونَا
أَتَاكُمْ عَلِىٌّ بِأَهْلِ الْعِرَاقِ ... وَأَهْلِ الْحِجَازِ فَمَا تَصْنَعُونَا

وبعد هذا ما نُمْسِك عنه .

---

(١) الرواية : وقاده الضلال فاتبعه . (٢) سيتكلم المؤلف عن وجه الرفع فى عثمان .
(٣) اسمه : قيس بن عمرو .

قوله : ليس له بَصَرٌ يهديه ، فمعناه يقوده ، والهادى : هو الذى يتقدمُ فيَدُلُّ ، والحادى : الذى يتأخر فيسوق ، والعُنُقُ يُسَمَّى الهادِىَ لتقدمه ، قال الأعشى :

إِذَا كَانَ هَادِى الْفَتَى فى الْبِلاَ ... دِ صَدْرَ الْقَنَاةِ أَطَاعَ الْأَمِيرَا

يصف أنه قد عَمِى فإنما تهْديه عصًا ، ألا تراه يقول :

وَهَابَ الْمِثَارَ إِذَا مَا مَشَى ... وَخَالَ السُّهُولَةَ وَعْثًا وَعُورَا

وقال القُطامِى :

إِنِّى وَإِنْ كَانَ قَوْمِى لَيْسَ بَيْنَهُمُ ... وَبَيْنَ قَوْمِكَ إِلَّا ضَرْبَةُ الْهَادِى

وقال أيضاً :

قَرَّبْنَ يَقْصُرْنَ مِنْ بُزْلٍ مُخَيَّسَةٍ ... وَمِنْ عِرَابٍ بَعِيدَاتٍ مِنَ الْحَادِى

وقوله : ولا قائدٌ يُرْشِدُهُ ، قد أبان به الأولَ ، وقوله : دعاه الهَوى ، فالهوى من هَوِيتُ مقصور ، وتقديره فَعَلٌ ، فانقلبت الياء ألفاً ، فلذلك كان مقصورًا ، وإنما كان كذلك لأنك تقول هوِىَ يهْوَى ، كما تقول فرِقَ يفْرَقُ وهُوَ هوٍ ، كما تقول هُوَ فَرِقٌ كما ترى ، وكان المصدر على فَعَلٍ بمنزلة الفَرَقِ والحذَرِ والبَطَرِ ، لأن الوزن واحد فى الفعل واسم الفاعل ، فأما الهَواء من الجوّ فممدود ، يدُلُّكَ على ذلك جمعه إذا قلت أهْوِيَةٌ ، لأن أفْعِلَةً إنما تكون جمع : فَعالٍ وفِعالٍ وفَعولٍ وفَعيلٍ ، كما تقول قَذَالٌ وَأَقْذِلَةٌ وحِمار وأحْمِرَةٌ فهَواء كذلك ، والمقصور جمعه أهْواء فاعلم ، لأنه على فَعَلٍ وجمع فَعَلٍ أفعالٌ ، كما تقول : جَمَل وأجْمالٌ وقَتَبٌ وأقْتاب ، قال

الله عز وجل : « وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » ، وقوله هذا هَوَاءٌ يا فتى فى صفة الرجل إنما هو ذمٌّ ، يقول لا قَلْبَ له ، قال الله عز وجل : « وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ » أى خالية ، وقال زُهَيْرٌ :

كَأَنَّ الرَّحْلَ مِنْهَا فَوْقَ صَعْلٍ ... مِنَ الظِّلْمَانِ جُؤْجُؤُهُ هَوَاءُ

وهذا من هَوَاء الجَوِّ . قال الهُذَلِيُّ :

هَوَاءٌ مِثْلُ بَعْلِكِ مُسْتَمِيتٌ ... عَلَى مَا فِي وِعَائِكِ كَالْخَيَالِ

وكل واو مكسورة وقعت أوّلا فهمزها جائز يُنْشَدُ على ما فى إعائِكِ ، ويقال وِسادَةٌ وإِسادَةٌ ، ووِشاحٌ وإِشاحٌ .

وأما قوله : فما أنتَ وعثمانُ ، فالرفع فيه الوجه لأنه عَطَفَ اسما ظاهرا على اسم مضمر منفصل وأجراه مُجْراهُ وليس ههنا فِعْلٌ فَيَحْمِلَ على المفعول ، فكأنه قال : فما أنت وما عثمانُ ، هذا تقديره فى العربية ، ومعناه لَسْتَ منه فى شىء ، قد ذكر سيبويه رحمه الله النصب وجوّزه جوازاً حسناً وجَعَلَهُ مفعولا معه وأضمر كان من أجل الاستفهام ، فتقديره عنده ما كنتَ وفلانًا ، وهذا الشعر كما أَصِفُ لكَ يُنْشَدُ :

وَأَنْتَ امْرُؤٌ من أهل نَجْدٍ وأَهْلُنا ... تَهامٍ وما النَّجْدِيُّ وَالمُتَغَوِّرُ

وكذلك قوله (هو زيادٌ الأعجم(١)) .

تُكَلِّفُنِي سَوِيقَ الْكَرْمِ جَرْمٌ ... وَمَا جَرْمٌ وما ذاكَ السَّوِيقُ(٢)

---

(١) هو زياد بن جابر بن عمرو ، مولى قيس ، وكان ينزل باصطخر فغلبت العجمة على لسانه فلقب بالأعجم . وهو شاعر أموى .

(٢) سويق الكرم : هو الخمر ، وهو يستكثر شربه على قبيلة جرم .

فإن كان الأول مضمراً متصلا كان النصبُ لِئَلاَّ يُحْمَلَ ظاهر على مضمر، تقول مالَكَ وزيداً، وذلك أنه أَضْمَرَ الفِعْلَ، فكأنه قال فى التقدير ومُلابَسَتَكَ زيداً، وفى النحو تقديره مع زيد، وإنما صَلَحَ الإضمار لأن المعنى عليه إذا قلتَ مالَكَ وزيداً، فإنما تنهاه عن ملابسته، إذ لم يجز وزيدٍ[1] وأَضْمَرْتَ لأن حروف الاستفهام للأفعال، فلو كان الفعل ظاهراً لكان على غير إضمار، نحو قولك ما زِلْتُ وعَبْدَ اللّٰه حتى فَعَلَ، لأنه ليس يريد ما زِلْتُ وما زال عبدُ اللّٰه، ولكنه أراد مازلتُ بعبد اللّٰه، فكان المفعول مخفوضا بالباء، فلما زال ما يَخْفِضُهُ وَصَلَ الفعلُ إليه فنصبه، كما قال تعالى « واختار موسى قَوْمَهُ سبعين رجلا » فالواو فى معنى مع، وليست بخافضة، فكان ما بعدها على الموضع، فعلى هذا يُنْشَدُ هذا الشعرُ (هو لِمسكينٍ الدارِمِيِّ[2]).

فَمَا لَكَ والتَلَدُّدَ[3] حَوْلَ نَجْدٍ وقد غَصَّتْ[4] تِهامةُ بالرجال

ولو قلتَ ما شأنُكَ وزيداً، لاختير النصب لأن زيداً لا يلتبس بالشأن، لأن المعطوف على الشىء أبداً فى مِثْلِ حاله، ولو قلت ما شأنُكَ وشأنُ زيد لرفعتَ، لأن الشأن يعطف على الشأن، وهذه الآية تُفَسَّرُ على وجهين من الإعراب: أحدهما هذا، وهو الأجود فيها، وهو قوله عز وجل « فأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ » فالمعنى واللّٰه أعلم مَعَ شركائكم، لأنك تقول

---

(١) لأن عطفه على المضمر المجرور بدون اعادة الجارّ قبيح.

(٢) هو ربيعة بن عامر بن أنيف — بالتصغير — شاعر أموى، ومسكين لقب غلب عليه.

(٣) التلدد: هو التلفت فى حيرة. (٤) ضاقت.

جَمَعْتُ قومى ، وَأَجْمَعْتُ أمرى ، ويجوز أن يكون لَمَّا أَدْخَلَ الشركاءَ مع الأمر حَمَله على مِثْلِ لفظه لأن المعنى يَرْجِعُ إلى شيء واحد ، فيكون كقوله (هو عبد الله بن الزبعْرَى) :

يَالَيْتَ زَوْجَكِ قَدْ غَدَا مُتَقَلِّدًا سَــيْفًا وَرُمْحًا(١)

وقال آخر :

* شَرَّابُ أَلْبَانٍ وَتَمْرٍ وَأَقِطْ *

وهذا بَيِّنٌ .

⁂

ويروى أن عبد الله بن يَزِيدَ بن مُعاوية أتى أخاه خالداً ، فقال : يا أخى لقد هَمَمْتُ اليومَ أن أَفْتُكَ بالوليد بن عبد المَلِكِ ، فقال له خالد : بئس والله ما هَمَمْتَ به فى ابن أمير المؤمنين ، ووَلِيِّ عَهْدِ المسلمين ، فقال : إن خيلى مَرَّتْ به فَعَبِثَ بها وَأَصْغَرَنى ، فقال له خالد : أنا أكفيك ، فدخل خالد على عبد الملك والْوَلِيدُ عنده ، فقال : يا أمير المؤمنين ، الْوَلِيدُ ابن أمير المؤمنين ، ووَلِيُّ عَهْدِ المسلمين ، مَرَّتْ به خيل ابن عمه عبد الله بن يزيد فَعَبِثَ بها وأصغره ، وعبدُ المَلِكِ مُطرِقٌ ، فرفع رأسه ، فقال : « إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » ، فقال خالد : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا(٢) مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا(٣) فِيهَا

(١) أى ومعتقلا رمحا .

(٢) أى أمرناهم بالطاعة وفعل الخير . (٣) أى خالفوا أمر الله وخرجوا عن طاعته .

فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا » ، فقال عبد الملك : أفى عبد ٱللّٰه تُكَلِّمنى ؟ وٱللّٰه لقد دَخَلَ علىّ فما أقام لِسانَهُ لَحنًا ! فقال له خالد : أَفعلى الوليد تُعوِّلُ ؟ فقال عبد الملك : إن كان الْوَليدُ يَلحَنُ فإن أخاه سُلَيْمَانُ ، فقال له خالد : وإن كان عبد ٱللّٰه يلحن فإن أخاه خالد ، فقال له الوليد : اُسْكُتْ يا خالد ، فوٱللّٰه ما تُعَدُّ فى العِيرِ ولا فى النَّفِيرِ ، فقال خالد : اُسْمع يا أمير المؤمنين ، ثم أَقْبَلَ عليه وقال : وَيْحَكَ فَمَنِ العِيرُ والنَّفِيرُ غَيْرِى ؟ جَدِّى أبو سُفْيَان صاحبُ العِير ، وجَدِّى عُتْبَةُ بن رَبيعةَ صاحبُ النَّفِيرِ ، ولكن لو قلتَ : غُنَيْمَاتٌ ، وحُبَيْلَاتٌ ، والطائفُ ، ورَحِمَ ٱللّٰهُ عثمان لقلنا صدقتَ !

أما قوله : فى العِير فهى عِيرُ قُرَيْشٍ الَّتِى أَقْبَلَ بها أبو سفيان من الشأم فَنَهَدَ[1] إليها رسولُ ٱللّٰه صلى ٱللّٰه عليه وسلم وَنَدَبَ إليها المسلمين ، وقال : لَعَلَّ ٱللّٰه يُنَفِّلُكُمُوها ؛ فكانت وَقْعَةُ بَدْرٍ ، وساحَلَ[2] أبو سُفيانَ بالعِير ، فكانت الغنيمةُ ببدر ، كما قال ٱللّٰه عزّ وجل : « وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللّٰهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ » أى غَيْرَ الحَرْبِ ، فلما ظَفِرَ رسولُ ٱللّٰه صلى ٱللّٰه عليه وسلم بأهل بدر ، قال المسلمون : اُنْهَدْ بِنا يارسول ٱللّٰه إلى العير ، فقال العباس رحمه ٱللّٰه : إنما وعَدَكُم ٱللّٰهُ إحْدَى الطائفتين .

وأما النفير فَمَنْ نَفَرَ من قريشٍ لِيَدْفَعَ عن العير فجاءوا فكانت وقعةُ

---

(١) نهد : نهض . (٢) ساحل : أتى بالعير ساحل البحر .

بَدْرٍ، وكان شيخُ القوم عُتْبَةَ بن رَبيعة بن عبد شَمْسٍ، وهو جَدُّ خالد من قِبَلِ جَدَّتِهِ هِنْدٍ أُمِّ معاوية بنت عُتْبَةَ، ومن أمثال العرب :

لَسْتَ فى العِيرِ يَوْمَ يَحْدُونَ بالعِـيرِ ولا فى النَّفيرِ يَوْمَ النَّفيرِ

ثم اتَّسَعَ هذا المَثَلُ حتى صار يقال لِمَنْ لا يَصْلَحُ لخير ولا لشر ولا يُحْفَلُ به : لا فى العِيرِ، ولا فى النفيرِ .

وقوله : غنيمات، وحبيلات يعنى أن رسول ٱللّٰه صلى ٱللّٰه عليه وسلم لما أَطْرَدَ الحَكَمَ بن أبى العاصى بن أُمَيَّةَ (١)، وهو جَدُّ عبد المَلِكِ أبن مَرْوَانَ لَجَأَ إلى الطائف، فكان يَرْعَى غُنَيْمَاتٍ ويأوى إلى حُبَيْلَةٍ، وهى الكَرْمة .

وقوله : رحم ٱللّٰه عثمان : أى لِرَدِّهِ إيَّاهُ، وقولنا أطرده : أى جعله طَرِيداً، وطَرَدَهُ : نَحَّاهُ، كما تقول حَمِدْتُهُ : أى شكرته، وأَحْمَدْتُهُ : أى صادفته محموداً، وكان عثمان رحمه ٱللّٰه اُستأذن رسول ٱللّٰه صلى ٱللّٰه عليه وسلم فى رَدِّهِ متى أَفْضَى الأمرُ إليه، رَوَى ذلك الفقهاء .

---

(١) يروى أنه كان يستخفى ويتسمع أسرار رسول الله إلى أصحابه فيفشيها إلى كبار المشركين ورؤساء المنافقين .

باب

قال أبو العباس : قال رجلٌ من بنى أسَدِ بن خُزَيْمَةَ يمدح يحيي بن حيان أخا النَّخَعِ (١) بن عمرو بن عُلَةَ بن جَلْدِ بن مَذْحِجٍ ، وهو مالكٌ :

ألَا جَعَلَ اللّهُ اليَمانِينَ كُلَّهُمْ فِدًى لِفَتَى الفِتْيانِ يحيَي بن حيَّانَ

ولَوْلَا عُرَيْقٌ فِيَّ مِنْ عصَبِيَّةٍ لَقُلْتُ وألفًا من معَدِّ بن عَدْنان

ولكنَّ نَفْسِى لم تطبْ بعشيرتى وطابَتْ له نفْسى بأبناء قَحْطان

وهذا من التَّعَصُّبِ المُفْرِطِ . وحدثنى شيخ من الأَزْدِ ثقةٌ عن رجل منهم أنه كان يطوف بالبيت ، وهو يدعو لأبيه ، فقيل له : ألا تدعو لأمك ؟ فقال : إنها تَميميَّةٌ .

وسُمِعَ رجلٌ يطوف بالبيت ، وهو يدعو لِأُمِّهِ ، ولا يذكر أباه فعوتِبَ ، فقال : هذه ضَعيفةٌ ، وأبى رجل يحتال لنفسه .

وحدثنى المازنى عمن حدثه قال : رأيت رجلا يطوف بالبيت ، وأُمُّهُ على عُنُقه ، وهو يقول :

أَحْمِلُ أُمّى وهِىَ الحَمَّالَهْ تُرْضِعُنِى الدِّرَّةَ والعُلالَهْ

* ولا يُجازَى وَالدٌ فَعالَهْ *

قوله : الدرة ، فهو اسم ما يدُرُّ من ثَدْيَيْها ، ابتداء كان ذلك ، أو غير ذلك ،

---

(١) لقب تلقب به يوم انتخع عن قومه وبعد عن أرضهم .

والعُلالَةُ لا تكون إلا بَعْدُ ، يقال عَلَّهُ يَعُلُّهُ وَيَعِلُّه علاًّ ، والاسم العُلالَةُ ، وكلُّ شيء كان على فعَلْتُ من المدغم ، فمضارعه إذا كان متعدّيا إلى مفعول يكون على يَفْعُلُ ، نَحْوَ رَدَّهُ يَرُدُّه ، وشَجَّهُ يَشُجُّهُ ، وفَرَّهُ يَفُرُّهُ ، فإذا قلت : فَرَّ يَفِرُّ ، فإنما ذلك لأنه غير مُتَعَدٍّ إلى مفعول ، ولكن تقول : فَرَرْتُ الدابةَ أفُرُّهُ ، وجاء فَعَلَ يَفْعِلُ من المتعدى فى ثلاثة أحرف[١] يقال : عَلَّهُ يَعُلُّه وَيَعِلُّهُ ، وَهَرَّهُ يَهُرُّهُ وَيَهِرُّهُ : إذا كرهه ، ويقال : أَحَبَّهُ يُحِبُّهُ ، وجاء حَبَّهُ يَحِبُّهُ ، ولا يكون فيه يَفْعُلُ ، قال الشاعر :

لَعَمْرُكَ إنَّنِي وطِلابَ مِصْرٍ لَكَالْمُزْدادِ مما حَبَّ بُعْدَا

وقال آخر :

وأُقْسِمُ لولا تَمْرُهُ ما حَبَبْتُهُ وكَانَ عِياضٌ منه أَدْنَى ومُشْرِقُ

وقرأ أبو رجاء العُطَارِدِى[٢] «فَاتَّبِعُونى يَحِبَّكُمُ اللّٰه» فَفَعَلَ فى هذا شيئين أحدهما أنه جاء به من حَبَبْتُ ، والآخر أنه أَدْغَمَ فى موضع الجزم ، وهو مذهب تَمِيمٍ ، وقَيْسٍ ، وأَسَدٍ . وَجَمَاعَةٌ من العرب يقولون : رُدُّ يافتى يدْغِمونَ ، ويُحَرِّكونَ الدال الثانية لالتقاء الساكنين فَيُتْبِعُونَ الضَّمَّةَ الضمةَ ، ومنهم من يفتح لالتقاء الساكنين ، فيقول : رُدَّ ، يافتى ، لأن الفتح أخف الحركات ، ومنهم من يقول رُدِّ يافتى فيَكْسِرُ لأن حق التقاء الساكنين الكسر ، فإذا كان الفعل مكسوراً ففيه وجهان ، تقول : فِرِّ

(١) قال الشيخ المرصفى : يزاد عليه : بث الخبر يبثه ، ونه ينثه ، ونمّ الحديث ينمه ، وبت الحبل يبته ، وشده يشده ، وشج رأسه يشجه .

(٢) اسمه عمران بن عبد الله أو ابن ملحان ـ بكسر فسكون ـ .

يافتى للاتباع وللأصل فى التقاء الساكنين ، وتَفْتَحُ لأن الفتح أخف الحركَات، وإذا كَانَ مفتوحا فالفتح للاتباع، ولأنه أخَفُّ الحركَاتِ، والكسرُ على أصل التقاء الساكنين ، نحو عضَّ يافتى وعَضِّ يافتى ، فإذا لَقِيَتْهُ ألف ولام فالأجود الكسر من أجل ما بعده ، وهى لام المعرفة ، نحو .

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ من نُمَيْرٍ (فلا كَعْباً بلَغْتَ ولا كِلابا)

ومنهم مَنْ يُجْرِيه مُجْرى الأوَّل فتقع لام المعرفة بعد انقضاء الحركَة فى الأوَّل فيقول (هو جَرير) :

ذُمَّ المَنَازِلَ بعدمَنْزِلَةِ اللِّوَى والْعَيْشَ بَعْدَ أولٰئك الأيامِ

ومن كَانَ من شأنه أن يَتْبَعَ أو يَكْسِرَ فعلى ذلك ، ومما جاء فى القرآن على لغة من يكسر قولُهُ عز وجل « وَمَنْ يُشَاقِّ اللّٰهَ فَإنَّ اللّٰهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » وأما أهل الحجاز فيُجْرونه على القياس الأصلى ، فيقولون : أُرْدُدْ واغْضُضْ ، ويقولون : أفرِرْ من زيد واعْضَضْ ، لما سكن الثانى ظهر التضعيف لأنه لا يلتقى ساكنان ، وكل ذلك من قولهم وقول التميميين قياس مُطَّرِدٌ بَيِّنٌ ، وقد شرحناه فى الكتاب المُقْتَضَبِ على حقيقة الشرح .

⁂

وقال الآخر :

إذَا ضَيَّقْتَ أمْرًا ضاقَ جدًّا وَإنْ هوَّنْتَ ماقد عزَّ هانا

فَلا تَهْلِكْ لِشَيْءٍ فاتَ يأسًا فَكَمْ أمْرٍ تَصَعَّبَ ثم لانا

سأصْبِرُ من رَفيقى إنْ جفانى على كُلِّ الأذَى إلا الهَوانا

فَإِنَّ المرْءَ يَجْزَعُ فى خَلاَءٍ ... وَإِنْ حَضرَ الجماعة أَنْ يُهانا

وقال آخر أَحْسِبُهُ من لُصوص بنى سَعْد (قال أبو الحسن هو عُبَيْدُ ابن أَيُّوبَ العَنْبَرىُّ[١]، وأنشد هذا الشعر ثعلب) :

فَإِنّى وَتَرْكِى الإِنْسَ من بعد حُبِّهِمْ ... وَصَبْرِى عَمَّنْ كُنْتُ ما إِنْ أُزَايِلُه

لَكالصَّقْرِ جَلَّى بعد ما صادَ قِنْيَةً ... قديرًا ومَشْوِيًّا عَبيطًا خَرَادِلُه

أهابوا به فازدادَ بُعْدًا وصَدَّهُ ... عن القُرْبِ منهم ضَوْءُ بَرْقٍ ووابِلُه

أَلَمْ تَرَنى صاحَبْتُ صَفْرَاءَ نَبْعَةً ... لها رَبَذِىٌّ لَمْ تُفَلَّلْ معابِلُه

وطال احْتضانى السيفَ حتى كأنما ... يُلاَطُ بِكَشْحِي جَفْنُهُ وَحَمائِلُه

أخو فَلَواتٍ صاحَبَ الجِنَّ وانتحى ... عن الإِنْسِ حتى قد تَقَضَّتْ وسائِلُه

له نَسَبُ الإِنْسِىِّ يُعْرَفُ نَجْرُهُ ... وللجِنِّ منه شَكْلُهُ وشمائِلُه

قوله : وصَبْرِى عَمَّنْ كُنْتُ ما إِنْ أزايله ، إِنْ زائدة ، وهى تُزاد مُغَيِّرةً للإعراب ، وتزاد توكيداً ، وهذا موضع ذلك ، فالموضع الّذى تُغَيِّرُ فيه الإِعراب هو وقوعها بعد ما الحجازية ، تقول ما زيدٌ أخاك ، وما هذا بَشَرًا ، فإِذا أَدْخَلْتَ إِنْ هذه بطل النصب بدخولها ، فقلت : ما إِنْ زيدٌ منطلق ، قال الشاعر (هو فَرْوةُ بن مُسَيْكٍ المُرَادِىُّ) :

وما إِنْ طِبُّنَا جُبْنٌ ولكن ... مَنايانا ودَوْلَةُ آخرينا

فزعم سيبويه أنها مَنَعَتْ (ما) العَمَلَ كما منعت ما إِنَّ الثقيلة أن تنصب ، تقول إن زيداً منطلق ، فإِذا أدخلتَ (ما) صارت من حروف الابتداء ،

---

(١) نسبة إلى العنبر بن عمرو بن تميم .

ووقع بعدها المبتدأ وخبره والأفعال ، نحو إنما زيد أخوك « وإنما يَخْشَى اللّهَ مِنْ عبادِهِ العُلَماءُ » ولولا (ما) لم يقع الفعل بعد إنّ لأن إنَّ بمنزلة الفعل ، ولا يلي فِعْلٌ فِعلاً لأنه لا يَعْمَلُ فيه ، فأما كان يقوم زيدٌ ، وكادَ تَزِيغُ قُلوبُ فَرِيقٍ منهم ، ففي كان وكاد فاعلان مَكْنِيَّان(١) .

و(ما) تُزاد على ضربين، فأحدهما أن يكون دخولها في الكلام كإلغائها، نحو « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللّهِ لِنْتَ لَهُمْ » أي فبرحمة، وكذلك : « مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا». وكذلك : « مَثَلاً مَا بَعُوضَةً » . وَتَدْخُلُ لتغيير اللفظ ، فَتُوجِبُ في الشيء مالولا هي لم يقع، نحو رُبَّمَا يَنْطَلِقُ زيد وَ « رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا » ولولا ما لم تَقَعْ رُبَّ على الأفعال لأنها من عوامل الأسماء ، وكذلك جِئْتُ بعد ما قام زيد، كما قال المَرَّارُ (هو المَرّار(٢) الفقعَسِي) :

أَعَلاَقَةً(٣) امَّ الْوُلَيِّدِ بَعْدَ مَا أَفْنَانُ رَأْسِكَ كالثغام المُخْلِسِ

فلولا (ما) لم يقع بعدها إلا اسم واحد، وكان مخفوضا باضافة بعد إليه، تقول جئتك بَعْدَ زيدٍ .

وقوله : كالصَّقْرِ جَلَّى ، تأويل التَجَلِّي أن يكون يُحِسُّ شَيْئًا فيَتَشَوَّفُ إليه ، فهذا معنى جَلَّى ، قال العجاج :

٭ تجَلِّيَ البازِي إِذا البازي كَسَرْ ٭

أي نَظَرَ ، ويقال تَجَلَّى فلانٌ فلانةَ تَجَلِّيًا ، واجتلاها اجْتِلاءً ، أي نَظَرَ إليها وتأملها ، والأصل واحد .

---

(١) يعبر عنهما بضمير الشأن . (٢) على وزن شداد ، واسمه سعيد بن حبيب .
(٣) الهمزة للانكار، والعلاقه بالفتح: الحب .

وقوله: قَدِيرًا، هو ما يُطْبَخ فى القِدْرِ، يقال قَدِير ومَقْدور كقولك: قَتِيلٌ ومقْتولٌ، وقوله عبيطًا خَرادِلهُ، فالعَبيط الطَرِىُّ[1] يقال لحم عَبيط إذا كان طَرِيًّا، وكذلك دَمٌ عبيطٌ، ويقال اعْتَبَطَ فلانٌ بَكْرَتَهُ إذا نحرَها شابَّةً من غير عِلَّةٍ، وكذلك اعتُبِطَ فلان إذا مات شابا، قال أُمَيَّةُ (بن أبى الصَّلْتِ: الصحيح أنه لرجل من الخوارج عن الأصمعى):

مَنْ لم يَمُتْ عَبْطَةً يَمُتْ هرَمًا ... لِلمَوْتِ كَأْسٌ فالمَرْءُ ذائِقُها

وحدثنى الزِّيادى إبراهيم بن سُفيان بن سليمان بن أبى بكر بن عبد الرحمن بن زِيادٍ، قال تَحَدَّثَ رجل من الأَعْرابِ قال نزلت برجل من طَيِّئٍ، فنَحَرَ لى ناقةً فأكلتُ منها، فلما كان الغد نحر أخرى، فقلتُ: إنَّ عندك من اللحم ما يُغنِى ويَكْفِى، فقال: إنى واللهِ لا أُطْعِمُ ضيفى إلا لحما عَبيطًا، قال وفَعَلَ ذلك فى اليوم الثالث، وفى كل ذلك آكل شيئًا، ويأكل الطائىُّ أَكْلَ جماعةٍ، ثم نُؤْتَى باللبن فَأَشْرَبُ شيئًا، ويَشْرَبُ عامَّةَ الوَطْبِ[2]، فلما كان فى اليوم الثالث ارْتَقَبْتُ غَفْلَتَهُ فاضْطَجَعَ، فلما امتلأ نوما اسْتَقْتُ قَطيعاً من إبلِهِ فَأَقْبَلْتُهُ الفَجَّ[3] فانتبه، واخْتَصَرَ علىَّ الطريقَ حتى وقف لى فى مَضيقٍ منه، فَأَلْقَمَ وَتَرَهُ فُوقَ سَهْمِهِ، ثم نادى بى: لِتَطِبْ نَفْسُكَ عنها! قلت أرنى آيةً، فقال: انظر إلى ذلك الضَّبِّ، فإنى واضِعٌ سَهْمِى فى مَغْرِزِ ذَنَبِهِ، فرماه فَأَنْدَرَ ذَنَبَهُ[4]، فقلتُ:

---

(١) غير النضيج.
(٢) الوطب: سقاء اللبن يتخذ من الجلد.
(٣) الفج: طريق واسع بين جبلين، أو هو كل طريق بعد، والجمع الفجاج.
(٤) أندر ذنبه: أسقطه.

زِدْنى، فقال: انظر إلى أعلى فقارِهِ، فرماه فأَثْبَتَ سهمه فى الموضع، ثم قال لى الثالثةُ واللهُ فى كَبِدِكَ! قال فقلت: شأنَكَ بإبلكَ! فقال: كلاَّ حتى تَسوقها إلى حيثُ كانَتْ، قال: فلما انتهيت بها قال: فَكَّرْتُ فيكَ، فلم أجد لى عندك تِرَةً تُطالبنى بها، وما أَحْسِبُ الذى حملك على أخذ إبلى إلا الحاجةَ، قال: قلتُ هو واللهُ ذاك، قال فاعْمِدْ إلى عشرين من خِيارها فَخُذْها، فقلت إذًا واللهِ لا أفعل حتى تَسْمَعَ مَدْحَكَ، واللهِ ما رأيتُ رجلا أكْرَمَ ضِيافةً، ولا أهْدَى لسبيلٍ، ولا أرْمَى كفًّا، ولا أوْسعَ صدْرًا، ولا أرْغبَ[١] جوْفًا، ولا أكْرَمَ عفوًا منك. قال: فاستحيا فصرَفَ وجهه عنى، ثم قال: انْصَرِفْ بالقَطيع مُبارَكًا لك فيه.

وقوله: خراذله[٢] يعنى قِطَعَهُ، يقال ضَربه ضربا خَرْدَلَهُ، وتأويله قَطَّعَهُ كما قال:

* وَالْضَرْبُ يَمْضِى بيننا خَراذِلاً *

وقوله: أهابوا به، يقول، دعَوْهُ يقال: أيَّهَ بهِ، وأهابَ بهِ: أى ناداه، قال القُرَشِىُّ:

أَهَابَ بِأَحْزَانِ الفُؤَادِ مُهِيبُ   وَمَاتَتْ نُفُوسٌ للهوَى وقُلُوبُ

وقوله: ضَوْءُ برْقٍ ووابله، أراد صَدَّهُ عنهم ضَوْءُ برقٍ ووابِلُهُ، فأضاف الوابل من المطر إلى البرق، وإنما الإضافة إلى الشىء على جهة التضمين،

---

(١) من الرغب بالضم، وهو سعة البطن.

(٢) الأصل: خراذيله، حذفت الياء للتخفيف، والواحدة خردولة على وزن عصفورة، وهى العضو الوافر من اللحم، وخردل اللحم: قطعه قطعا صغيرة.

ولا يضاف الشيء إلى الشيء إلا وهو غيره أو بعضه ، فالذى هو غيره غلامُ زيدٍ ، ودارُ عمرٍو ، والذى هو بعضه ثوبُ خزٍّ ، وخاتمُ حديدٍ ، وإنما أضاف الوابل إلى البرق ، وليس هو له كما قلت : دار زيد على جهة المجاورة ، وأنهما راجعان إلى السحابة ، وقد يضاف ما كان كذا على السَّعَة ، كما قال الشاعر :

حتى أَنَخْتُ قَلُوصى فى دِيارِكُمُ ‏ ‏ بخيرِ مَنْ يَحْتَذِى نَعْلاً وحافيها

فأضاف الحافى إلى النعل ، والتقدير حافٍ منها . وقوله : ألم ترنى صاحَبت صفراء نَبْعَةً ، فالنبْعُ خير الشجر للقِسِىّ ، ويقال إن النبْع والشَّوْحَط والشِّريانَ شجرةٌ واحدة ، ولكنها تختلف أسماؤها وتَكْرُمُ وتَحْسُنُ بمنابتها ، فما كان فى قُلَّةِ الجبل منها فهو النبْعُ ، وما كان فى سَفْحِهِ فهو الشَّوْحَطُ ، وما كان فى الحَضيض فهو الشِّرْيانُ . وقوله لها رَبَذِىٌّ ، يريد وَتَرًا شديد الحركة عند دفع السهم ، يقال رجل رَبِذُ اليد إذا كان يكثر التحريك ليديه والعَبَثَ بهما ، ويوصف به الفرس لكثرة حركة قوائمه ، وكان الأصل رَبِذِيًّا[1] لأنه رَبِذٌ ، ولكن ما كان من فَعِلٍ فنُسِبَ إليه فتح موضع العين منه استثقالاً لاجتماع ياءى النسَبِ وكسرة اللام ، لأن ياءى النسب تكسِرانِ ما تليانِهِ ، فلم يدَعُوا مع ذلك العَيْنَ مكسورةً ، تقول فى النسب إلى النَمِرِ بن قاسِطٍ نَمَرِىٌّ ، وإلى الحَبِطاتِ حَبَطِىٌّ ، وإلى شَقِرَةَ وهو الحرث بن تميم بن مُرٍّ شَقَرِىٌّ ، وفى النسب إلى عَمٍ عَمَوِىٌّ يافتى .

---

(١) لأن الباء مكسورة فى المنسوب اليه .

وقوله : لم تُفَلَّلْ مَعابِلُه ، يريد لم ينكسر حَدُّها من الفُلُول . ويروى أن عُرْوَةَ بن الزُّبَيْرِ سأل عبد المَلِك أن يَرُدَّ عليه سيف أخيه عبد الله بن الزبير فأخرجهُ إليه فى سيوف مُنْتَضاةٍ ، فأخذه عروة من بينها ، فقال له عبد الملك : بِمَ عَرَفْتَهُ ؟ فقال : بما قال النابغةُ :

ولا عَيْبَ فيهم غَيْرَ أَنَّ سُيوفَهم ... بِهِنَّ فُلولٌ من قِراعِ الكتائب

والمِعْبَلَةُ : واحدة المعابل ، وهى سهم خفيف ، قال عَنْتَرَةُ :

وآخَرَ منهم أَجْرَرْتُ رُمْحى[1] ... وفى البَجْلِىِّ مِعْبَلَةٌ وَقِيعُ

باسكان الجيم لاغير[2] (قال أبو الحسن : بَجيلة[3] قبيلة من بنى الهُجَيْمِ من اليَمَنِ) .

---

(١) يريد أجررته رمحى ، وذلك إذا طعنه وترك الرمح فيه يجره .

(٢) أى إسكان الجيم فى البجلى لأنه منسوب إلى بجلة بسكون الجيم فلم تغير فى المنسوب .

(٣) هذا التعليق غير واضح ، لأن بجيلة غير بجلة .

باب

قال أبو العباس : تزوج خالد بن يزيد بن معاوية نساءً هُنَّ شَرَفُ مَنْ هُنَّ منه[1] منهن أُمُّ كُلْثُومٍ بنت عبد الله بن جَعْفَرِ بن أبي طالب ، وآمِنَةُ بنت سعيد بن العاصى بنُ أُمَيَّةَ ، ورَمْلَةُ بنت الزُّبَيْرِ بن العَوَّام بن خُوَيْلِدِ بن أسد ابن عبدَ العُزَّى بن قُصَىّ ، ففى ذلك يقول بعض الشعراء[2] يُحَرِّضُ عليه عبد المَلِكِ :

عَلَيْكَ أميرَ المؤمنين بخالدٍ ففى خالدٍ عما تُحِبُّ صُدودُ
إذا ما نظَرْنا فى مَناكِح خالدٍ عَرَفْنا الذى يَنْوِى وأين يُرِيدُ

فَطَلَّقَ آمنة بنت سعيد فتزوجها الوليد بن عبد الملك ، ففى ذلك يقول خالد :

فَتاةٌ أبوها ذو العِصابة وابنُهُ وعثمانُ ما أكفاؤُها بكثيرِ[3]
فإن تفتلتها والخلافةَ تنقلب بأكْرَمِ عِلْقَىْ مِنْبَرٍ وسَرِيرِ

قوله : أبوها ذو العصابة يعنى سعيد بن العاص بن أُمَيَّةَ ، وذلك أن قومه يذكرون أنه كان إذا اعْتَمَّ لم يَعْتَمَّ قُرَشِىٌّ إعظامًا له ، ويُنْشِدون :

أبو أُحَيْحَةَ مَنْ يَعْتَمَّ عِمَّتَهُ يُضْرَبْ وإن كانَ ذا مالٍ وذا عَدَدِ

ويزعم الزُّبَيْرِيُّون أن هذا البيت باطل موضوع ، وقوله : فان تفتلتها ، يقول تأخذها فُجاءَةً ، ومن ذلك قول الشاعر :

مَنْ يأمَنِ الأيَّامَ بَعْدَ صُبَيْرَةَ القُرَشِىِّ ماتا

---

(١) يريد أنهن شرفن من ينسبن اليه من الآباء والأمهات لما اشتملن عليه من روعة الجمال وكرم العفاف . (٢) هو سعيد بن شداد القرشى . (٣) وفى رواية أخرى :

فتاة أبوها ذو العمامة وابنه أخوها فما أكفاؤها بكثير

سَبَقَتْ مَنِيَّتُهُ المَشيبَ وكان مِيتَتُهُ افْتِلاتا

(صبيرة بالصاد مهملة فى الرواية المشهورة ، وبالضاد معجمةً ، روايةُ عاصم على الشرط[1] وكسر النون لالتقاء الساكنين، ورواية ابن سِراجٍ برفع يأمنُ على الاستفهام) . وفى الحديث أن رجُلاً قال : يا رسول الله إن أُمِّي افتُلِتَتْ ، أى ماتت فُجَاءةً .

۞

ويروى أن آمِنَةَ لَبِثَتْ عند الْوَليدِ ، فلما هَلَكَ عبدُ المَلِكِ سَعَى بها ساعٍ إلى الوليد ، قال أبو العباس : وبلغنى أنها سَعَتْ بها إحدى ضَرّاتها إلى الوليد بأنها لم تَبْكِ على عبد الملك كما بَكَى نظائرها ، فقال لها الوليد فى ذلك ، فقالت : صَدَقَ القائلُ ، أَكُنْتُ قائلةً ؟ ماذا أقول ، ياليْتَهُ كان بَقِى حتى يَقْتُلَ أخاً لى آخر كعمرو بن سعيد ! وفى رَمْلَةَ بنت الزُّبَيْرِ يقول خالدٌ :

تَجُولُ خلاخيلُ النساء ولا أرى ... لِرَمْلَةَ خَلْخالاً يَجُولُ ولا قُلْبا[2]

فلا تُكْثِرُوا فيها المَلامَ فَإنَّنِي ... تَخَيَّرْتُها منهم زُبَيْرِيَّةً قَلْبا[3]

أُحِبُّ بنى الْعَوَّامِ طُرًّا لِحُبِّهَا ... ومن أجْلها أحْبَبْتُ أخْوالَها كَلْبا

وزِيدَ فيها :

فَإنْ تُسْلِمى أُسْلِمْ وإن تَتَنَصَّرِى ... يُعَلِّقْ رجالٌ بين أعينهم صُلْبا

---

(١) أى بجزم الفعل . (٢) القلب بالضم : السوار .

(٣) امرأة قلب بفتح القاف وضمها : خالصة النسب .

فيروى أن عبد الملك ذُكِرَ له هذا البيتُ ، فقال له : ياخالد أتَرْوى هذا البيتَ ؟ فقال يا أمير المؤمنين على قائله لعنة الله !

وذكر العُتْبِيُّ أن الحجّاجَ بن يوسف بن الحكمِ الثقفيّ لما أكْرَهَ عبدَالله بن جعفر على أنْ زَوَّجَهُ ابنته استأجله فى نقلها سنة ، فَفَكَّرَ عبدُالله ابن جعفر فى الانفكاك منه فَالْقِيَ فى رُوعِهِ خالد بن يزيدَ ، فَكَتَبَ إليه يُعلِمُهُ ذلك ، وكان الحجاج تَزَوَّجها بإذن عبد الملك ، فورد على خالد كتابه ليلاً فاستأذن من ساعته على عبد الملك ، فقيل له : أفى هذا الوقت ؟ فقال إنه أمْرٌ لا يُؤَخَّرُ ، فَأُعْلِمَ عبدُ الملك بذلك فَأَذِنَ له ، فلما دخل عليه ، قال له عبد الملك : فِيمَ السُّرَى يا أبا هاشم ؟ قال : أمْرٌ جليلٌ لم آمَنْ أن أؤخره ، فَتَحْدُثَ علىَّ حادِثَةٌ فلا أكونَ قضَيْتُ حق بَيْعَتِكَ ، قال : وماهو ؟ قال : أتعْلَمُ أنه ما كان بين حَيَّيْنِ من العداوة والبَغْضاء ما كان بين آل الزبير وآل أبى سُفْيَان ؟ قال لا ، قال : فَإِنَّ تزويجى إلى آل الزُّبير حَلَّلَ ما كان لهم فى قلبى ، فما أهْلُ بيت أحبُّ إلىَّ منهم ، قال فإن ذلك لَيكُونُ ، قال فكيف أذِنْتَ للحجاج أن يتزوج فى بنى هاشم ، وأنت تَعْلَمُ ما يقولون ، ويقال فيهم ، والحَجَّاجُ من سلطانك بحيث عَلِمْتَ ؟ قال فجَزَاهُ خيْرًا ، وكتب إلى الحجاج بِعَزْمَةٍ أن يطلقها فطلقها ، فغدا الناس عليه يُعَزُّونَهُ عنها ، فكان فيمن أتاه عمرو بن عُتْبَةَ بن أبى سُفْيان فَأَوْقَعَ الحَجَّاجُ بخالد ، فقال : كان الأمر لآبائه فعجَزَ عنه حتى انتُزِعَ منه ، فقال له عمرو ابن عتبة : لا تقلْ ذا أيها الأمير ، فإنَّ لخالد قديما سبقَ إليه ، وحَديثا لم يُغلَبْ

عليه ، ولو طَلَبَ الأمر لطلبه بجَدٍّ وجِدٍّ ، ولكنه عَلِمَ عِلْماً ، فسَلَّمَ العِلْمَ إلى أهله ، فقال الحجاج : يا آل أبى سفيان ، أنتم تحبون أن تحلُمُوا ولا يكون الحِلْمُ إلا عن غضب ، فنحن نُغْضِبُكُمْ فى العاجل ابتغاء مَرْضاتِكم فى الآجِلِ ، ثم قال الحجاج : والله لأتزوَّجَنَّ مَنْ هو أمسُّ به رَحِمًا ، ثم لا يُمْكِنُهُ فيه شىء ، فتزوَّج أم الجُلَاسِ بنت عبد الله بن خالد بن أَسِيدٍ .

أما قوله : ألقى فى رُوعه ، فإن العرب تقول أُلْقِىَ فى رُوعى ، وفى قلبى وفى جخيفِى ، وفى تامورى كذا كذا ، ومعناه كله واحد إلا أن لهذه الأشياء مواضع مختصة، وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم : «إنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فى رُوعى » فالروع والجَخيفُ غير مختلفين ، والعرب تقول : أَذْهَبَ اللهُ قَلْبَهُ ، ولا قلب له . ولا تقول : لا رُوعَ له ، فكأنَّ الرُّوعَ هو متصل بالقلب ، وعنه يكون الفهم خاصة ، ويقال : رأيت قَلْبَ الطائرِ ، ولا يقال : رأيت رُوعَ الطائر ، والتامورُ عند العرب بقية النَّفْسِ عند الموت ، وبعضهم يُفْصِحُ عنه ، فيجعله دم القلب خاصة الذى يبقى للإنسان ما بَقِىَ ، يقال صَغْوُهُ فى تامورِكَ ، وفى قَلْبِك ، وفى رُوعِكَ ، وفى جَخِيفِكَ ، والدَّماء ممدود مِثْلُ التامورِ سواء ، تقول العرب: ليس فى الحيوان أطولُ ذَماء من الضَّبِّ ،وذلك أنه يُذْبَحُ ثم يُطْرَحُ فى النار بعد أن ظُنَّ أنه قد بَرَدَ فربما سَعَى من النار .

❊

وقال رجل لإبراهيم بن أدْهَمَ : عِظْنِى ، فقال : اتَّخِذِ الله صاحِباً وذر الناس جانباً .

قال سعيد بن المُسَيَّبِ : كنت بين القبر والمِنبرِ مُفَكِّرًا ، فسمعت قائلا يقول ولم أره : اللهُمَّ إنى أسألك عملا بارًّا ، و رزقا دارًّا ، وعيشا قارًّا[١] . قال سعيد فلزِمْتُهُنَّ فلم أر إلا خيرا .

وقال الأَصْمَعِيُّ : كان من دعاء أبى المُجِيب : اللهم اجْعَلْ خيرَ عملى ما قارَبَ أجلى .

قال وكان يقول فى دعائه : اللهم لاتَكِلْنا إلى أنفسنا فنَعْجِزَ ، ولا إلى الناس فنَضِيعَ .

قال وحدثنى أبو عثمان المازِنىُّ قال حدثنى أبو زيد قال : وقف علينا أعرابى فى حَلْقة يونس النحوى ، فقال : الحمد لله كما هو أَهْلُهُ ، وأعوذ بالله أن أُذَكِّرَ به وأنساه ، خرجنا من المدينة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثين رجلا ممن أَخْرَجَتْهُ الحاجة ، وَحَمِلَ على المكروه ، لا يُمَرِّضُونَ مَرِيضَهُمْ ، ولا يَدْفِنون ميِّتهم ، ولا ينتقلون من مَنْزِلٍ إلى منزل ، وإن كرهوه ، والله ياقَوْم لقد جُعْتُ حتى أَكَلْتُ النَّوَى المُحْرَقَ ، ولقد مَشَيْتُ حتى انْتَعَلْتُ الدمَ[٢] ، وحتى خرجَ من قدمىَّ بَخَصٌ ولحم كثير ، أفلاَ رَجُلٌ يَرْحَمُ ابن سبيلٍ ، وَفَلَّ طَرِيقٍ ، ونِضْوَ سفرٍ ، فإنه لا قليلَ من الأَجرِ ، ولا غِنَى عن ثواب الله عزَّ وجل ، ولا عَملَ بعد الموتِ ، وهو الذى يقول جَلَّ ثناؤُهُ : « مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا

(١) أى مستقرا لا ينقطع .

(٢) يريد أن دم قدميه لكثرة المشى صار كالنعل .

فَيُضَاعِفَهُ لَهُ » مَلِيٌّ[1] ، وَفِيٌّ ماجدٌ واجِدٌ جوادٌ ، لايَسْتَقْرِضُ من عوَزٍ ، ولـكنه يَبْلو الأَخْيار ، قال : فبلغنى أنه لَمْ يَبْرَحْ حتى أخذ ستين ديناراً .

قوله : بَخَصٌ ، يريد اللحم الّذى يرْكَبُ القَدَمَ ، هذا قول الأصمعى ، وقال غيره : هو لحم يَخْلِطهُ بياض من فساد يَحُلُّ فيه ، ويقال : بَخَصْتُ عينَه بالصاد ، ولا يجوز إلا ذلك ، ويقال بَخَسْتُهُ حَقَّهُ بالسين إذا ظلمته ونَقَصْتَهُ ، كما قال اللّٰه عزّ وجلّ : « وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ » ، وفى المَثَلِ : تَحْسِبُهَا حَمْقَاء وهى باخِسٌ ، ويَدُلُّ على أنه اللحم الّذى قد خالطه الفساد قولُ الراجز : (قال أبو الحسن علىُّ بن سليمان الأخفش الراجز هو أبو شُرَاعَةَ[2]) .

يا قدَمَىَّ لا أرى لى مَخْلَصا   مما أراهُ أو تعُودَا بَخَصا[3]

وقوله فَلٌّ ، فالفَلُّ فى أكثر كلامهم المنهزم الذاهب .

وفى خبر كَعْبِ[4] بن مَعْدَانَ الأشعرى (الأَشْقَرِىُّ بالْقافِ لاغَيْرُ) : إنا آثرنا الحَدَّ على الفَلِّ ، يعنى مجاهدتهم عَبْدَ رَبِّهِ الصَّغير[5] لأنه كان مُقْبِلاً على حربهم وتَرْكَهُمْ قطرِيًّا لأنه كان منهزما .

---

(١) أصله مهموز ، وشددت ياؤه للمزاوجة مع كلمة (وفى) وهو من الملاءة مصدر ملؤ الرجل يملؤ إذا كان غنيا . (٢) اسمه أحمد بن محمد .

(٣) أى : ذواتى بخص .

(٤) يريد حديثه مع الحجاج بن يوسف، وكان قد وجهه المهلب ابن أبى صفرة يبشره بمناهدة الخوارج وفراغه من قتالهم . قال فى حديثه له : كيف أفلتكم قطرى ؟ فقال كعب : كدناه ببعض ما كادنا به فصرنا منه إلى الذى نحب . قال : فهلا اتبعتموه ؟ فقال كان الحد عندنا آثر من الفلّ .

(٥) هذا الوصف للاستخفاف وإنما اسمه عبد ربه الـكبير .

وفى حديث الحجاج بن عِلاطٍ السُّلَمِىِّ ، وكان قد أسلم ولم تعلم قريش بإسلامه ، فاستأذن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يوم خَيْبَرَ فى أن يصير إلى مكة فيأخذ ما كان له من مال ، وكانت له هناك أموال متفرقة ، وهو غريب بينهم إنما هو أَحَدُ بنى سُلَيْمِ بن منصور ، ثم أحد بنى بَهْزٍ ، فَأَذِنَ له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله إنى أحتاج أن أقول ، قال : فَقُلْ ، قال أبو العباس : وهذا كلامٌ حَسَنٌ ومعنًى حَسَنٌ ، يقول أقول على جهة الاحتيال غيرِ الحقِّ ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه من باب الحيلة وليس هو من باب الفساد ، وأكثر مايقال فى هذا المعنى تَقَوَّلَ ، كما قال الله عز وجل : « أم يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ » فصار إلى مكة فقالت قريش : هذا لعمر الله عنده الخبر ، قال : فقولوا ، فقالوا : بلغنا أن القاطع[1] قد خرج إلى أهل خيبر ، فقال الحجاج نعَمْ ، فقتلوا أصحابه قتلا لَمْ يُسْمَعْ بمثله وأخذوه أسيرًا ، وقالوا : نَرَى أن نُكارِمَ به قريشاً ، فندفعهُ إليهم ، فلا تزال لنا هذه اليد فى رِقَابِهِمْ ، وإنما بَادَرْتُ لجمع مالى لعَلِّى أُصيبُ به من فَلِّ محمدٍ وأصحابه قبل أن يَسْبِقَنى إليه التِجارُ ويتصل بهم الحديثُ ، قال : فاجتهدوا فى أَنْ جمعوا إلىَّ مالى أَسْرَعَ جَمْعٍ ، وسُرُّوا أكثر السُّرورِ ، وقالوا بلا رَغْمٍ[2] ، وأتانى العباس وهو كالمرأة الوالِهِ[3] ، فقال : وَيْحَكَ ياحجاج ماتقول قال فقلتُ أكاتِمٌ أنت علىَّ خبرى ؟ فقال : إى واللهِ ! قال فقلتُ : فالبَثْ علىَّ شيئاً حتى يَخِفَّ مَوْضِعى ، قال فسرتُ

---

(١) يصفون رسول الله كذبا بقطع الأرحام .

(٢) أى بلا كره . (٣) الحزينة .

إليه ، فقلت : الخبرُ واللّهِ على خلاف ما قلتُ لهم ، خَلَّفْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم : وقد فتَحَ خيْبَرَ ، وخَلَّفْتُهُ والله مُعْرِساً بابنة مَلِكِهِم ، وما جئتُكَ إلا مُسْلِماً فاطْوِ الخبر ثلاثاً[١] حتى أُعْجِزَ القوم ، ثم أشِعْهُ ، فإنه واللّه الحق ، فقال : العباس[٢] : وَيْحَكَ أحَقٌّ ما تقولُ ؟ قلتُ إى واللّه ! قال : فلما كان بعد ثلاثة تَخَلَّقَ العباسُ ، وأَخَذَ عصاه وخرج يطوف بالبيت ، قال فقالت قريش يا أبا الفضل هذا واللّه التَّجَلُّدُ لِحَرِّ المصيبة ! فقال كَلاَّ ، ومَنْ حَلَفْتُمْ به ! لقد فتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَأعْرَسَ بابنة ملكهم ! فقالوا مَنْ أتاك بهذا الحديث ؟ فقال : الذى أتاكم بخلافه ، ولقد جاءنا مُسْلِماً ، ثم أتت الأخبارُ من النواحى بذلك ، فقالوا : أفْلَتَنا الخبيثُ ، أَوْلَى له[٣] .

وأصل الفَلِّ مأخوذ من فَلَلْتُ الحديدةَ[٤] إذا كسرتَ حَدَّها ، والنِضْوُ: البالى المجهود ، ويقال ناقة نِضْوٌ : إذا جهدَها السيرُ وجمعه أَنْضَاء ، وفلان نِضْوٌ من المرض .

وقوله لايستقرض من عوَزٍ ، فالعَوَزُ : تعذُّرُ المطلوبِ ، يقال أعْوَزَ فلان فهو مُعْوِزٌ إذا لم يجد ، والمَعَاوِزُ فى غير هذا الموضع : الثياب التى تُبْتَذَلُ ليُصانَ بها غيرها .

وقوله : ولكن ليبلو الأخيار ، يقال : الله يَبْلوهم ويبتليهم ويختبرهم

---

(١) أى ثلاث ليال . (٢) ابن عبد المطلب .

(٣) أولى له : كلمة توعد وتهديد ، غلبت فى الدعاء بالشر وقرب الهلاك .

(٤) المراد حديدة السيف .

فى معنى ، وتأويله يمتحنهم ، وهو العالم عز وجل بما يكون كعلمه بما كان ، قال الله جل ثناؤه : « لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً » .

قال وحدثنى أبو عثمان المازنى قال رأيت أبا فرعون العَدَوِىّ ومعه ابنتاه وهو فى سكة العطّارين بالبصرة يقول :

بُنَيَّتَىَّ صَابِرَا أبا كما ... إنَّكُمَا بِعَيْنِ مَنْ يَرَا كما
اللهُ رَبِّى سَيِّدِى مولا كما ... ولو يشاء عَنْهُمُ أَغْنَا كما

وكان أبو فرعون ، وهو من بنى عَدِىِّ الرِّباب بن عبد مَنَاةَ بن أُدٍّ ، وقال اليزيد هو مولاهم ، وكان فصيحاً ، وقَدِمَ قوم من الأَعْراب البصرة من أهله ، فقيل له تعَرَّضْ لمعروفهم ، فقال :

ولَسْتُ بسائلِ الأَعْرَابِ شيئاً ... حَمِدْتُ اللهَ إِذْ لَمْ يأ كلونى

⁂

وروى الأسدى أنه افتقر رجل من الصَّيارفة بِإلْحَاحِ الناسِ فى أخذ أموالهم التى كانت لَدَيْهِ ، وتَعَذُّرِ أمواله التى كانت له عند الناس ، فسأل جماعةً من الجيران أن يسيروا معه إلى رجل من قريش[1] كان موسِرًا من أولاد أجوادهم لِيَسُدَّ من خَلَّتِهِ ، فساروا إليه ، فجلسوا فى الصَّحْنِ ، فخرج إليهم يَخطِرُ بقَضيبٍ فى يده ، حتى ثَنَى وِسَادَةً فجلس عليها ، فذكروا حاجتهم وخَلَّة صاحبهم ، مع قديم نعمته وقريب جِوارِهِ ، فَخَطَرَ بالقضيب ، ثم قال مُتَمَثِّلاً (الشعر لنُصَيْبٍ ، وقيل لـكُثَيِّرٍ ، والأول أثبت) :

---

(١) هو ابن عمران الطلحى .

إذا المالُ لم يوجِبْ عليك عَطاءهُ صَنيعةُ تقْوَى أو صَديقٌ تُوامِقُه[1]
بَخِلْتَ وبعضُ البُخْلِ حَزْمٌ وقوةٌ فلم يَفتلِذْكَ المالَ إلا حقائقُه[2]

ثم أقبل على القوم ، فقال : إنا والله ما نَجْمُدُ عن الحق ، ولا تَتدفّقُ فى الباطل ، وإنّ لنا لَحُقوقاً تَشْغَلُ فُضول أموالنا ، وما كُلُّ مَنْ أفْلَسَ من الصَّيارفة احْتَلْنا لِجَبْرِهِ ، قوموا رحمكم الله ! قال فابْتَدَرَ القومُ الأبوابَ .

قوله : فلم يفتلذك المال ، يقول لم يَقْتَطِعْ منك ، يقال فَلَذَ له من العطاء : أى قَطَعَ له ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بَدْرٍ حين قال الغلامان[3] : فى القوم عُتْبَةُ بن رَبيعة ، وشَيْبَةُ بن رَبيعةَ ، وأبو الحَكَم ابن هشام ، وأُمَيَّةُ بن خَلَف وفلان وفلان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه مكة قد أَلْقَتْ إليكم أفْلاذَ كَبِدِها .

وقال أبو قُحافةَ أعشَى باهِلَةَ يعنى المُنْتَشِرَ بن وَهْبٍ الباهِلِىَّ :

تَكفيه فِلْذَةُ كِبْدٍ إنْ أَلَمَّ بِهَا من الشّواء ويَكْفِى شُرْبَهُ الغُمَرُ

⁂

قال عبد المَلِكِ بن عُمَيْر : استعمل عُتْبَةُ بن أبى سُفيان رجلا من آله على الطائف فظَلَمَ رجُلا من أَزْدِ شَنوءةَ ، فأتى الأزْدِىُّ عُتْبَةَ ، فمَثَلَ بين يديه ، فقال :

أَمَرْتَ مَنْ كان مظلوما ليأتيَكُم فقد أتاكم غريبُ الدارِ مَظْلُومُ

(١) توامقه : تحبه ، من الومق والمقة : أى الحب ، والفعل ومق يمق ، مثل وثق يثق .
(٢) جمع حقيقة ، وهو مايجب عليك دفعه .
(٣) هما غلامان رآهما فريق من أصحاب الرسول فأتوه بهما فسألهما عن حال الأعداء .

ثم ذكر ظُلَامتهُ ، فقال له عتبة : إنى أراك أعرابيا جافيا ، واُللهِ ما أَحْسِبُكَ تَدْرِى كم تصلى فى كل يوم وليلة ! فقال : أرأيتَ إنْ أنبأتُكَ ذلك أتجعل لى عليك مسئلة ؟ قال نعم ، فقال الأعرابى :

إنَّ الصَّلاةَ أَرْبَعٌ وَأَرْبَعُ ثم ثلاثٌ بعدهنَّ أربع

* ثم صَلاةُ الفَجْرِ لاتُضَيَّعُ *

فقال صدقتَ فاسألْ ! فقال : كم فقارُ ظَهْرِكَ ؟ فقال : لا أدرى ! فقال : أَفَتَحْكُمُ بين الناس وأنت تجْهَلُ هذا من نفسك ؟ قال رُدُّوا عليه غُنَيْمَتَهُ .

قوله : فَقار ، إنما هو جمع فَقارة ، ويقال فِقْرَة ، فمن قال فى الواحد فِقْرَةٌ قال فى الجميع فِقَرٌ كقولك كِسْرَةٌ وَكِسَرٌ ، ومن قال للواحدة فقارة ، قال للجميع فَقارٌ ، كقولك دَجاجةٌ ودجاج وحَمامةٌ وحَمَامٌ .

وشهد أعرابى عند معاوية بشىء كرهه ، فقال له معاوية كَذَبْتَ ! فقال الأعرابى الكاذب واُللهِ مُتَزَمِّلٌ فى ثيابك ! فقال معاوية ـ وتبَسَّمَ ـ هذا جزاء مَنْ عَجِلَ .

⁂

قال أبو العباس قرأت على عبد اُللهِ بن محمد المعروف بالتَّوَّزِىِّ عن أبى عُبَيْدَةَ مَعْمَر بن المُثَنَّى التَّيْمِىِّ ، قال : كانت السَّواقطُ تَرِدُ اليَمامةَ فى الأشهر الحُرُمِ لطلب التمر ، فإن وافقتْ ذلك ؛ وإلا أقامت بالبلد إلى أوانه ، ثم تخرج منه فى شهرٍ حَرامٍ ، فكان الرجل منهم إذا قَدِم يأتى رجلا من بنى حَنيفةَ ، وهم أهل اليَمامة ، أعنى بنى حَنيفة بن لُجَيم بن صَعْب بن على بن بَكْر

ابن وائل بن قاسطِ بن هنبِ بن أفصَى بن دُعْمِيّ بن جديلة بن أسدِ بن ربيعة ابن نزارٍ ، فيكتبُ له على سَهمٍ أو غيره : فلان جار فلَان ، والسواقط : مَنْ وَرَدَ اليمامة من غير أهلها ، وقد كان النُّعْمَان بن المُنْذرِ أرادَ أن يُجْلِيَهُمْ منها ، فأجارهم مُرارةُ بن سُلْمِيّ الحَنَفِيّ ، ثم أحد بنى ثَعْلَبَةَ بن الدُّول بن حنيفة فسَوَّغَهُ المَلِكُ ذلك ، فقال أوسُ بن حَجَرٍ يحُضُّ النُّعْمَان عليه :

زَعَمَ ابن سُلْمِيّ مُرارةُ أنه ... مَوْلَى السَّواقِطِ دون آل المُنْذِرِ
مَنَعَ اليَمامة حَزْنَهَا وسُهولها ... من كل ذى تاجٍ كَرِيم المَفْخَرِ

وذكر أبو عبيدة أن رجلا من السواقط من بنى أبى بكر بن كلاب قَدِمَ اليمامة ، ومعه أخ له ، فكتبَ له عُمَيْرُ بن سُلْمِيّ أنه له جار ، وكان أخو هذا الكِلابى جميلاً ، فقال له قَرِينٌ أخو عمير لا تَرِدَنَّ أبياتنا بأخيك هذا ، فرآه بَعْدُ بين أبياتهم ، فقتله .

قال أبو عبيدة ، وأما المَوْلَى(١) فذكَرَ أنّ(٢) قَرِينًا أخا عُمَيْرٍ كان يتحدث إلى امرأة أخى الكلابى فعثَرَ عليه زوجُها فخافه قرينٌ عليها فقتله ، وكان عمير غائبا ، فأتى الكِلابىُّ قبر سُلْمِيّ أبى عمير وقَرِينٍ فاستجار به ، وقال (قال أبو الحسن الأخفش ، قال أبو العباس قَرِينٌ ، ووجدته بخط دَماذَ صاحبِ أبى عبيدة قُرَيْنٌ) :

وإذا اسْتَجَرْتَ من اليمامة فاستجر ... زَيْدَ بن يَرْبوعٍ وآلَ مُجَمِّعِ
وَأتيْتُ سُلْمِيًّا فعُذْتُ بقبره ... وأخو الزمانة عائِذٌ بالأَمْنَعِ

(١) يريد الذى أجاره عمير . (٢) أى حدث الناس بحديث من عنده سترا للحقيقة .

أقَرِينُ إنكَ لو رأيتَ فوارسِي … بعمايَتَيْنِ (١) إلى جوانب ضَلْفَعِ (٢)
حَدَّثْت نَفْسَكَ بالوفاء وَلَمْ تَكُنْ … لِلْغَدْرِ خائنةً مُغِلَّ الإصْبَعِ

فَلَجَأَ قَرِينٌ إلى قَتادةَ بن مَسْلمة بن عُبَيْدِ بن يَرْبوع بن ثَعْلَبَة بن الدُّولِ ابن حنيفة ، فحمل قتادةُ إلى الكلابى دِياتٍ مُضَاعَفةً ، وفعلتْ وُجوهُ بنى حَنيفةَ مثل ذلك فأبى الكِلابىُّ أن يَقْبَلَ ، فلما قَدِمَ عمير قالت له أُمُّهُ وهى أم قرين : لا تَقْتُلْ أخاكَ ، وسُق إلى الكِلابى جميع ماله ، فأبى الكلابىُّ أن يقبل ، وقد لَجَأَ قَرِينٌ إلى خاله السَّمينِ بن عبد اللّٰه فلم يَمْنعْ عميراً منه ، فأخذه عُمَيْرٌ فمضى به حتى قطعَ الوادى فرَبطَهُ إلى نخلة ، وقال للكلابى : أما إذْ أَبَيْتَ إلا قتله فَأَمْهِل حتى أقطعَ الوادى ، وَارْتَحِلْ عن جِوارى فلا خير لك فيه ، فقتله الكلابى ، ففى ذلك يقول عمير :

قَتَلْنَا أخانا للوفاء بجارنا … وكان أبونا قد تُجِيرُ مَقابِرُه

وقالت أم عمير :

تَعُدُّ معاذِرًا لا عُذرَ فيها … وَمَنْ يَقْتُلْ أخاه فقد ألَامَا

قوله : ولم تكن للغدر خائنةً ، ولم يقل خائنا ، فإنما وَضعَ هذا فى موضع المصدر (٣) ، والتقدير ولم تكن ذا خيانة ، وقوله للغدر : أى من أجل الغدر ، وقال المفسرون والنحويون فى قول اللّٰه عزّ وجلّ : « وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ » : أى لشديدٌ من أجل حب الخير ، والخير ههنا المال من قوله تعالى : « إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ » . وقوله لَشَديدٌ : أى لبخيل ، والتقدير واللّٰه

---

(١) اسم مكان . (٢) موضع باليمن .
(٣) وهو الخيانة .

أعلم : إنه لبخيل من أجل حبه للمال ، تقول العرب فلان شديد ومُتَشَدِّدٌ : أى بخيل ، قال طَرَفَةُ :

أرى المَوْتَ يَعْتَامُ الكرامَ وَيَصْطفى ... عقيلةَ مال الفاحِشِ المُتَشَدِّدِ

وَقلَّما يجىء المصدر على فاعِلٍ ، فمما جاء على وزن فاعِلٍ قولهم عُوفِىَ عافيةً ، وَفُلِجَ فالِجًا ، وَقُمْ قائمـا : أى قُمْ قِيامًا ، وكما قال :

* ولا خارِجًا من فِىَّ زُورُ كلام *

أى وَلاَ يَخْرُجُ خروجا ، وقد مضى تفسير هذا .

وَالمُغِلُّ الذى عنده غُلولٌ ، وهو ما يُخْتانُ وَيُحْتَجَنُ ، ويستعمل مستعارًا فى غير المال ، يقال غَلَّ يَغُلُّ كقولِ اللهِ عزَّ وجلَّ : « وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ » . ويقال أَغَلَّ فهو مُغِلٌّ إذا صُودِفَ يَغُلُّ ، أو نُسِبَ إليه ، ومن قرأ : « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ » فتأويله أن يأخذ[1] وَيَسْتَأْثِرَ ، ومن قرأ يُغَلَّ فتأويله على ضربين يكون أن يقال ذلك فيه ، ويكون وهو الذى نختار أن يُخَوَّنَ ، فإن قال قائل كيف يكون التقدير ، وقد قال ما كَانَ لنبيٍّ أَنْ يُغَلَّ فَيُغَلَّ لغيره ، وأنت لاتقول ما كان لزيد أن يقومَ عمرٌو ؟ فالجواب أنه فى التقدير على معنى ما ينبغى لنبيٍّ أن يُخَوَّنَ ، كما قال : « وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ » . ولو قلت ما كان لزيد أن يقومَ عمرٌو إليه لكان جَيِّدًا للراجع إليه ، وكان جيداً على تقديرك ما كان زيدٌ لِيقومَ عمرٌو إليه ، كما قلنا فى الآية . والإِصْبَعُ أفصح ما يقال ، وقد يقال

---

(١) يريد يأخذ من الغنيمة خفية .

أَصْبَعٌ وإِصْبِعٌ وَأُصْبُعٌ ، وموضعها ههنا موضع اليد ، يقال لفلان عليك يَدٌ ولفلان عليك إِصْبَعٌ ، وكلٌّ جَيِّدٌ ، وإنما يَعْنِي ههنا النعمة .

وأما قوله: قتلنا أخانا للوفاء بجارنا ، فيكون على ضربين: أحدهما أن يكون فَخَّمَ نفسه وعظمها ، فذكرها باللفظ الذى يُذْكَرُ الجميع به ، والعرب تفعل هذا ويُعَدُّ كِبْرًا ، ولا ينبغى على حكم الإسلام أن يكون هذا مستعملا إلا عن الله عزَّ وجل لأنه ذو الكِبْرِياء كما قال الله تبارك وتعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ . وَإِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » . وكل صفات الله أعلى الصفاتِ وَأَجَلُّهَا ، فما اسْتُعْمِلَ فى المخلوقين على تلك الألفاظ وإن خالفتْ فى الحكم فحسنٌ جميل ، كقولك فلان عالم ، وفلان قادرٌ ، وفلان رحيم ، وفلان وَدُودٌ ، إلا ما وصفنا قَبْلُ من ذكر التكبُّرِ ، فإنك إذا قلت فلان جبّار أو متكبر كان عليه عيبًا ونقصًا ، وذلك لمخالفة هاتين الصفتين الحق وبُعْدِهما من الصواب ، لأنهما للمُبْدِئِ المُعيدِ الخالقِ البارِئ ، وَلا يليق ذلك بمن تكسره الجَوْعةُ ، وتُطْغِيه الشَّبْعَةُ ، وتَنْقُصُهُ اللَّحْظةُ ، وهو فى كل أموره مُدبَّرٌ . وأمّا القول الآخر فى البيت وهو قتلنا أخانا ، فمعناه أنه له ولمن شايَعَهُ من عَشيرته ، وأما قولها: ومن يقتل أخاه فقد ألاما ، تقول أتى ما يُلامُ عليه ، يقال ألامَ الرجلُ إذا تعرَّضَ لأَنْ يُلامَ .

باب

قال أبو العباس أنشدنى السَّعْدِىُّ أبو مُحَلِّمٍ :

إنّا سألْنا قَوْمَنا فخِيارُهُمْ ... مَنْ كان أفْضَلَهُمْ أبوه الأوَّلُ
أعْطَى الذى أعْطَى أبوه قَبْلَهُ ... وتَبَخَّلَتْ أبناءُ مَنْ يَتَبَخَّلُ

وأنشدنى أيضا :

لَطَلْحَةُ بنُ حَبِيبٍ حين تَسْأَلُهُ ... أنْدَى وأَكْرَمُ من فِنْدِ بن هَطَّالِ
وبيتُ طَلْحَةَ فى عِزٍّ ومَكْرُمَةٍ ... وبيتُ فِنْدٍ إلى رِبْقٍ وأَحْمَالِ[1]
ألا فَتًى من بنى ذُبْيانَ يَحْمِلُنى[2] ... وليس يَحْمِلُنى إلا ابْنُ حَمَّالِ
فقلتُ طَلْحَةُ أَوْلَى مَنْ عَمَدْتُ له ... وجِئت أَمْشِى إليه مَشْىَ مُخْتالِ
مُسْتَيقِنًا أنَّ حَبْلى سوف يُعْلِقُهُ ... فى رأس ذَيَّالةٍ أو رأسِ ذَيَّالِ

قوله: إلى ربق[3] وأحمال ، إنما أراد جمع حَمَلٍ على القياس ، كما تقول فى جميع باب فَعَلٍ جَمَلٌ وأَجْمالٌ ، وصَنَمٌ وأصنامٌ .

وقوله : ألا فتى من بنى ذبيان يحملنى ، يعنى ذُبْيَانَ بن بَغِيضِ بن رَيْثِ ابن غطفانَ بن سَعْدِ بن قَيْسِ بن عَيْلانَ بن مُضَرَ ، وأنشد بعضهم :

* وليس حامِلُنى إلا ابنُ حَمَّالِ *

---

(١) جمع حمل بالتحريك ، وهو الخروف . يريد أن بيت طلحة مملوء من خيل وهى عز لأهلها ، وبيت فند مملوء من الغنم وهى ذل وهوان لأهلها .

(٢) أى يعطيه مايحمله من الدوابّ . (٣) الربق بالكسر : حبل فيه عدة عرى تشد به الصغار من أولاد الغنم والمعز ، والجمع أرباق ورباق .

وهذا لايجوز فى الكلام ، لأنه إذا نُوِّنَ الاسمُ لم يتصل به المضمر ، لأن المضمر لايقوم بنفسه ، فإنما يقع معاقِباً للتنوين ، تقول هذا ضاربٌ زيداً غدًا ، وهذا ضاربُكَ غدًا ، ولا يقع التنوين ههنا ، لأنه لو وقع لانفصل المضمر ، وعلى هذا قول الله تعالى : « إنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ » . وقد رَوَى سيبويه بيتين محمولين على الضرورة ، وكلاهما مصنوع ، وليس أحد من النحويين المُفَتِّشِينَ يُجيزُ مثل هذا فى الضرورة لما ذكرتُ من انفصال الكناية[1] ، والبيتان اللذان رواهما سيبويه :

هُمُ القائِلُونَ الخيرَ والآمِرُونَهُ   إذا ماخَشُوا يوْمًا من الأَمْرِ مُعْظَما[2]

وأنشد :

ولم يَرْتَفِقْ[3] والناسُ مُحْتَضِرُونَهُ   جميعاً وأَيْدِى المُعْتَفِينَ[4] رَوَاهِقُهُ[5]

وإنما جاز أن تُبَيَّنَ الحركةُ إذا وَقَفْتَ فى نون الاثنين والجميع لأنه لايلتبس بالمضمر ، تقول هما رَجُلانِهْ وهم ضاربونَهْ إذا وَقَفْتَ ، لأنه لا يلتبس بالمضمر إذ كان لايقع هذا الموقع ، ولا يجوز أن تقول ضربتُهْ ، وأنت تريد ضَرَبْتُ ، والهاء لبيان الحركة ، لأن المفعول يقع فى هذا الموضع ، فيكون لَبْسًا ، فأما قولهم: ارْمِه واغْزُه ، فَتُلْحِقُ الهاء لبيان الحركة ، فإنما جاز ذلك لِما حَذَفْتَ من أصل الفعل ، ولا يكون فى غير المحذوف .

وقوله : فى رأس ذيالة، يعنى فرساً أنثى ، أو حِصاناً ، والذَّيَّال: الطويل

---

(١) هى علامة المضمر ، وأول من استعملها فى ذلك سيبويه .

(٢) أنشده سيبويه : إذا ماخشوا من محدث الأمر معظما .

(٣) أى لم يتكئ على مرفق يده . (٤) المعتفون طلاب المعروف .

(٥) أى دانية منه .

الذَّنَبِ ، وإنما يُحْمَدُ منه طول شعر الذَّنَبِ ، وَقِصَرُ العَسِيبِ (١) ، وأما الطَّوِيلُ العَسِيبِ فمذموم ، ويقال ذلك لِلثَّوْرِ أيضاً أعنى ذَيَّالاً ، قال امْرُؤُ القَيْسِ :

فَجَالَ الصِّوَارُ (٢) واتَّقَيْنَ بِقَرْهَبٍ (٣) طَوِيلِ القَرَا (٤) والرَّوْقِ (٥) أَخْنَسَ ذَيَّالِ

ويقال أيضاً للرجل ذَيَّالٌ إذا كان يَجُرُّ ذَيْلَهُ اختيالا ، ويقال له : فَضْفَاضٌ فى ذلك المعنى .

⁂

ويروى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال لمؤدِّبه : كيف كانت طاعتى إياك وأنت تُؤَدِّبُنِى ؟ فقال : أَحْسَنَ طاعةٍ . قال : فَأَطِعْنِى الآن كما كنتُ أُطِيعُكَ إِذْ ذاكَ ، خُذْ من شارِبِكَ حتى تَبْدُوَ شَفَتاكَ ، ومن ثوبك حتى تَبْدُوَ عَقِباكَ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فَضْلُ الإزارِ فى النار .

وقال آخر (٦) :

ما لِدَدٍ ما لِدَدٍ مالَهُ يَبْكِى وقَدْ أَنْعَمْتُ مابالَهُ
مالى أَراهُ مُطْرِقًا سامِياً ذا سِنَةٍ يُوعِدُ أَخْوالَهُ
وذاكَ منه خُلُقٌ عادَةٌ أَنْ يَفْعَلَ الأَمْرَ الَّذى قالَهُ
إِنَّ ابْنَ بَيْضاءَ وَتَرْكَ النَّدَى كالعَبْدِ إِذْ قَيَّدَ أَجْمالَهُ

(١) هو مستدق عظم الذنب .
(٢) الصوار بكسر الصاد وضمها : القطيع من بقر الوحش ، والجمع أصورة وصيران .
(٣) هو الثور المسنّ الضخم . (٤) القرا : الظهر
(٥) الروق : القرن . (٦) هو سلمة بن ذهل التيمى .

آلَيْتُ لا أَدْفِنُ قتلاكُمُ   فَدَخِّنُوا المَرْءَ وسِرْبالَهُ
وَالدِّرْعُ لا أَبْغِي بها ثَرْوَةً   كُلُّ امْرِئٍ مُسْتَوْدَعٌ مالَهُ
وَالرُّمْحُ لا أَمْلأُ كَفِّي به   وَاللِّبْدُ لا أَتْبَعُ تَزْوالَهُ

قوله: مالدد، يعنى رجلا، وَدَدٌ فى الأصل هو اللَّهْوُ(١)، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لست من دَدٍ ولا دَدٌ(٢) منى، وقد يكون فى غير هذا الموضع مأخوذا من العادة ، وهذه اللام الخافضة تكون مكسورة مع الظاهر ومفتوحة مع المضمر ، والفتح أصلها ولكن كُسِرَتْ مع الظاهر خوف اللَّبْسِ بلام الخبر، تقول إنَّ هذا لِزَيْد ، فيُعْلَمُ أنه شىء فى ملك زيد ، فإن قلتَ إن هذا لَزَيْدٌ فى الوقف ، عُلِمَ قبل الإِدْراج أنه زَيْدٌ(٣) ، ولو فتحتَ المكسورة لم يُعْلَم المِلْكُ من المعنى الآخر فى الوقف ، وأما المضمر فبَيِّنٌ فيه ، لأن علامة المخفوض غير علامة المرفوع ، تقول إنَّ هذا لَكَ وَإِنَّ هذا لَأَنْتَ .

وقوله : وقد أنعمتُ ما باله ، فما زائدة ، والبالُ ههنا الحال ، وللبال موضع آخر وحقيقته الفِكْرُ ، تقول ما خطر هذا على بالى ، وقوله مطرقا سامياً ، فالسامى الرافع رأسه ، يقال سَما يَسْمو إذا ارتفع ، والمُطْرِقُ : الساكت المُفَكِّرُ المُنَكِّسُ رَأْسَهُ ، فإنما أراد سامِياً بنفسه ، وقوله : ذا سِنَةٍ ، يقول : كأنه لطول إطراقه فى نَعْسَةٍ ، وقوله : كالعبد إذ قَيَّدَ أجماله ،

---

(١) وفيه ثلاث لغات: دد على وزن يد ، وددا ، على وزن عصا ، وددن ، على وزن بدن ، ومن الأخير قول عدى بن زيد :

أيها القلب تعلل بددن   ان همى فى سماع وأذن

(٢) الرواية : ولا الدد منى ، بتعريف الثانى بلام العهد .

(٣) يريد علم أنه مرفوع غير مجرور .

يريد أنه غير مُكترثٍ لِاُكتِساب المَجْدِ والفضل ، وذلك أن العبد الراعى إذَا قيَّدَ أجماله لفَّ رأسهُ ونام حَجْرَةً[1] ، وهذا شبيه بقوله :

* واقعُدْ فإنَّكَ أنتَ الطاعِمُ الكاسى *

وقوله : فدخنوا المرء وسرباله ، يروى أنه طعَنَ فارساً منهم فأخْدَثَ ، فقال : نَظِّفُوهُ فإنى لا أَدْفِنُ القتيلَ منكم إلا طاهرا ، وقوله: والدرع لا أبغى بها ثترة[2] فالثَّتْرةُ : الدرعُ السابغة ، يقول: دِرْعى هذه تكفينى ، وقوله : كل امرئ مُسْتَوْدَعٌ مالَهُ : أى مُسْتَرْهَنٌ بأَجَلِهِ ، وهو كقول الأَعْشَى :

كُنْتَ المُقدَّمَ غيرَ لابِسِ جُنَّةٍ ... بالسَّيْفِ تَضْرِبُ مُعْلِماً أبطالها
وعلِمْتَ أنَّ النفسَ تلْقَى حَتْفَها ... ما كانَ خالقُها الفضيلُ قضى لها

وقوله: الرمح لا أملأ كفى به ، يُتأوَّلُ على وجهين : أحدهما أنّ الرمح لا يملأ كفى وحده ، أنا أقاتل بالسيف وبالرُّمْحِ وبالقوْسِ وغير ذلك . والقول الآخر أنى لا أملأ كفى به ، إنما أخْتَلِسُ به اختلاساً ، كما قال الشاعر :

وَمُدَجَّجٍ سبقَتْ يدَاىَ لهُ ... تحْتَ الغُبارِ بطَعْنةٍ خَلْسِ

وقوله : واللبد لا أتبع تَزْواله ، يقول إن انْحَلَّ الحِزامُ فمال اللبد لم أَمِلْ معه ، أى أنا فارس ثَبْتٌ .

⁂

وقال الفَرَزْدَقُ ، ونزل به ذِئْبٌ فأضافه :

وأطلَسَ عسَّالٍ وما كان صاحِباً ... رَفَعْتُ لنارى مَوْهِناً فأتانى

---

(١) حجرة : ناحية . (٢) فى رواية أخرى : لا أبغى بها ثروة .

فَلمَّا دنا قلتُ اُدْنُ دُونَكَ إنَّنى ... وَإيَّاكَ فى زادِى لَمُشْتَرِكَانِ
فَبِتُّ أَقُدُّ الزادَ بينى وبينه ... على ضَوْءِ نارٍ مَرَّةً ودُخانِ
وقلتُ له لما تَكَشَّرَ ضاحِكا ... وقائمُ سَيْفِى من يَدِى بمَكانِ
تَعَشَّ فَإِنْ عاهَدْتَنى لا تَخُونُنى ... نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَاذِئْبُ يَصْطَحِبانِ
وَأَنْتَ امْرُؤٌ يَاذِئْبُ وَالْغَدْرُ كُنْتُما ... أُخَيَّيْنِ كانا أُرْضِعَا بِلِبانِ
ولو غَيْرَنا نَبَّهْتَ تَلْتَمِسُ القِرى ... رماكَ بِسَهْمٍ أوشَباةِ سِنانِ

قوله : وأطلسَ عسالٍ ، فالأَطْلَسُ الأَغْبَرُ ، وحدثنى مسعود بن بِشْرٍ قال أنشدنى طاهر بن علِى الهاشِمِى قال : سمعت عبد اللّٰه بن طاهر بن الحسين ينشد فى صفة الذئب :

أَطْلَسُ يُخْفِى شَخْصَهُ غُبارُهُ ... بِهَمُ[(١)] بنى مُحارِبٍ مُزْدارُهُ[(٢)]

* فى شِدْقِهِ شَفْرَتُهُ وَنارُهُ *

قوله : يخفى شخصه غباره ، يقول: هو فى لون الغبار ، فليس يُتَبَيَّنُ فيه ، وقوله عَسَّال ، فإنما نسبه إلى مِشْيَتِهِ ، يقال : مَرَّ الذِّئْبُ يَعْسِلُ ، وهو مَشْىٌ خفيف كالهَرْولَةِ ، قال الشاعر (هو ساعِدَةُ) يَصِفُ رمحا :

لَدْنٌ بِهَزِّ الْكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُهُ ... فيه كما عَسَلَ الطريقَ الثَّعْلَبُ

وقال لَبِيدٌ :

---

(١) البهم : واحدتها بهمة ، وهى الصغيرة من أولاد الغنم ، تقال للذكر والأنثى .

(٢) قال الشيخ المرصفى : مزداره اسم فاعل ازداره ، على بناء افتعل من الزيارة . وهذا سهو من الشيخ المرصفى رحمه الله ، والصواب أنها اسم مفعول .

عَسَلَانَ الذئبِ أَمْسَى قَارِبًا　　بَرَدَ اللَّيْـــلُ عليه فَنَسَلْ

قال أبو عبيدة : نَسَلَ فى معنى عَسَلَ ، وقال اللهُ عزَّ وجلَّ : « فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ » . وخفضَ بهذه الواو[1] لأنها فى معنى رُبَّ ، وإنما جاز أن يُخْفَضَ بها لوقوعها فى معنى رب لأنها حرف خفض ، وهى أعنى الواو تكون بدلا من الباء فى القسم لأن مَخْرجها فى مَخْرَج الباء من الشفَةِ ، فإذا قلت : واللهِ لأَفْعَلَنَّ ، فمعناه أُقْسِمُ بِاللهِ لأفعلنَّ ، فإن حذفتها قلت : اللهَ لأفعلن لأن الفعل يقع على الاسم فينصبه ، والمعنى معنى الباء كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ : « وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا » وَصَلَ الفعلُ فَعَمِلَ ، والمعنى معنى مِنْ لأنها للتبعيض ، فقد صارت الواو تَعْمَلُ بلفظها عَمَلَ الباء ، وتكون فى معناها ، وتعمل عمل رب لاجتماعهما فى المعنى للاشتراك فى المَخْرَج .

وقوله : رفعتُ لنارى ، من المقلوب ، إنما أراد رَفَعْتُ له نارى ، والكلام إذا لَمْ يَدْخله لَبْسٌ جاز القلب للاختصار ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ : « وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالعُصْبَةِ أُولِى القُوَّةِ » والعصبةُ تنوء بالمفاتيح : أى تستقل بها فى ثِقَلٍ ، ومن كلام العرب : إن فلانة لتنوء بها عَجِيزَتُها ، والمعنى لتنوء بعجيزتها ، وأنشد أبو عبيدة للأخطلِ :

أَمَّا كُلَيْبُ بنُ يَرْبُوعٍ فليس لها　　عند التفاخُرِ إيرادٌ ولا صَدَرُ

مُخَلَّفُونَ وَيَقْضِى الناسُ أَمْرَهُمُ　　وَهُمْ بِغَيْبٍ وفى عَمْياء ما شَعَرُوا

مِثْلُ القَنَافِذِ هَدَّاجُونَ قد بَلَغَتْ　　نَجْرَانُ أو بَلَغَتْ سَوآتِهِمْ هَجَرُ

فجعل الفعل للبلدتين على السَّعَة .

---

(١) يريد الواو فى قول الفرزدق : وأطلس عسال .

ويروى أن يونس بن حَبيبٍ قال لأبي الحسن الكسائي : كيف تُنْشِدُ بيت الفَرَزْدَقِ ؟ فأنشده :

غَدَاةَ أَحلتْ لابن أَصْرَمَ طَعْنَةٌ ... حُصَيْنٍ عَبيطاتِ السَّدائفِ وَالخَمْرُ(١)

فقال الكسائي لما قال : غداة أحلت لابن أصرم طعنة حصين عبيطات السدائف : تمَّ الكلام، فحَمَلَ الخمر على المعنى ، أراد وحَلَّتْ له الخَمْرُ ، فقال له يونس : ما أحْسَنَ ما قلتَ ! ولكن الفرزدق أنْشَدَنيهِ على القَلْبِ فنصب الطعنةَ ورفع العبيطاتِ والخمر على ما وصفنا من القَلْب ، والذى ذهب إليه الكسائيُّ أحسن فى مَحْضِ العربية ، وإن كان إنشاد الفرزدق جيِّداً .

وقوله : فلما دنا قلتُ أُدنُ دونك ، أمرٌ بعد أمرٍ ، وحَسُنَ ذلك لأن قوله أُدْنُ للتقريب ، وفى قوله : دونك ، أمره بالأكل كما قال جَرير لعَيَّاش ابن الزبرقانِ :

أعَيَّاشُ قد ذاق القُيونُ مَوَاسِمى(٢) ... وأوقَدْتُ نارى فادْنُ دونك فاصْطَلِ

(جمع مِيسَمٍ ، وهو حديدة يَصْنَعُ بها البَيْطارُ)(٣) ، وقوله : على ضوء نارٍ مرة ودخان ، يكون على وجهين أحدهما على ضوءِ نارٍ وعلى دخانٍ : أى على هاتين الحالتين ارتفعت النار أو خَبَتْ ، وجائز أن يَعْطِفَ الدخان على النار ، وإن لم يكن للدخان ضِياء ، ولكن للاشتراك كما قال الشاعر :

---

(١) كان حصين بن أصرم نذر أن لا يأكل لحما ولا يشرب خمرا حتى يقتل ابن الجون الكندى ، والسدائف : جمع سديف وهو السنام . والعبيطات : الطرية ، والمعنى أن الطعنة شفته من أعدائه وأحلته من نذره فأكل الطيبات وشرب الصهباء .

(٢) يريد آثار مواسمى . (٣) هو الذى يعالج الدّوابّ .

يَالَيْتَ زَوْجَكِ قد غدَا مُتَقلِّدًا سَـيفًا وَرُمْحَا

لأن معناهما الْحَمْلُ ، وكما قال :

* شَرَّابُ أَلْبَانٍ وَتَمْرٍ وَأَقِطْ *

فأدْخَلَ التمرَ فى المشروب لاشتراك المأكول والمشروب فى الحُلوقِ ، وهذه الآية تُحْمَلُ على هـذا : « يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُواظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٍ » . وَالشُّوَاظُ : اللَّهَبُ لادخان له ، والنُّحاسُ : الدخان ، وهو معطوف على النار ، وهى مخفوضة بالشواظ لما ذَكَرْتُ لك ، قال النابغةُ الجَعْدِىُّ :

تُضِيءُ كَمِثْلِ سِرَاجِ الذُّبا لِ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ فيه نُحاسَا

أى دخانا .

وقوله : نكن مثل من ياذئب يصطحبان (مَنْ يجوز أن تكون نكرة موصوفة تقديره مثل اُثنين يصطحبان ، وأن تكون بمعنى الذى ويصطحبان صلته) : فَمَنْ تقع للواحد والاُثنين والجميع والمؤنث على لفظ واحد ، فإن شئت حَمَلْتَ خبرها على لفظها فقلتَ : مَنْ فى الدار يُحِبُّكَ ، عَنَيْتَ جميعًا أو اُثنين أو واحدا أو مؤنثا ، وإن شئت حَمَلْتَهُ على المعنى فقلتُ : يُحِبَّانِكَ ، وتُحِبُّكَ إذا عَنَيْتَ امرأة ، ويُحِبُّونَكَ إذا عنيت جميعا ، كل ذلك جائز جيد ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ : « وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لاَيُؤْمِنُ بِهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي » وقال فَحمَلَ على المعنى : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ » . وقرأ أبو عمرو : « وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا » فَحمَلَ الأول على اللفظ والثانى على المعنى ، وفى القرآن :

« بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ » فهذا كله على اللفظ ، ثم قال : « وَلاَ خَوفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ » على المعنى .

وقوله : أو شباة سنان ، فالشَّبا وَالشَّباةُ واحد وهو الحَدُّ .

⁂

ومما يُسْتَحْسَنُ فى وصف الجود والحَثّ على المبادرة به ، وتعريف حمد العاقبة فيه ، قولُ النَّمِرِ بن تَوْلَبٍ العُكْلِيّ أحد بنى عُكْلِ بن عبد مَنَاةَ بن أُدِّ أبن طابِخَةَ بن إلْيَاسِ بن مُضَرَ (قال ابن سراج رحمه الله : من رواه إلْياس فقد أخطأ ، إنما هو ابن اَلْيَأْسِ بوصل الألف وكسر السين والألف واللام للتعريف ، والاسم يَأْسٌ مشتق من يَئِسْتُ) :

أَعاذِلَ إنْ يُصْبِحْ صَدايَ بقَفْرَةٍ بَعيداً نَآنى صاحبي وقَريبي
تَرَىْ أَنَّ ما أَبْقَيْتُ لم أكُ رَبَّهُ وأَنَّ الذى أَنفقْتُ كَانَ نصيبي
وذى إبِلٍ يَسْعَى ويَحْسِبُها له أخى نَصَبٍ فى رَعْيِها ودُؤُوبِ
غَدَتْ وغَدَا رَبٌّ سِوَاه يَقُودُها وبُدِّلَ أحجاراً وجالَ قَليبِ .

قوله : إن يصبح صداى بقفرة ، فالصَّدَى على ستة أوجه : أحدها ما ذكرنا[1] ، وهو ما يبقى من الميت فى قبره ، والصَّدَى الذَّكَرُ من البُوم . قال ابن مُفَرِّغ (اسمه ربيعةُ وسمى مفرّغا لأنه شَرِبَ سِقاءين ففرّغهما) :

وشَرَيْتُ[2] بُرْدًا ليتنى من بَعْدِ بُرْدٍ كنتُ هامَه

---

(١) أى ما أراده الشاعر . (٢) شريت : معناها بعت .

هَتَّافَةً تَدْعو صَـدًى بين المُشَقَّرِ وَاليَمَامَهْ

ويقال فلان هامةُ اليومِ أو غدٍ : أى يموت فى يومه أو فى غدِهِ ، ويقال ذلك للشيخ إذا أَسَنَّ ، والمريضِ إذا طالت عِلَّتُهُ ، والمُحْتَقِرُ لِمُدَّةِ الآجال[1] (رواية عاصِمِ بن أَيُّوبَ رحمه الله برفع المحتقر يرفعه بالابتداء ويُضْمِرُ الخبر، فيكون التقدير والمحتقرُ لمدة الآجال يقال ذلك له ، ورواية ابن سِراج بالخفض على العطفِ) . وفى الحديث أن حِسْلاً أبا حُذَيْفَةَ بن حِسْلِ ابن اليمان قال لشيخٍ آخر تَخَلَّفَ معه فى غَزْوةِ أُحُدٍ : انْهَضْ بنا نَنْصُرْ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنما نحن هامةُ اليومِ أو غدٍ ، وكانا قد أسَنَّا (حِسْلٌ أبو حُذَيْفَةَ : هو حِسْلُ بن جابر ، وهو اليمان أبو حذيفة ابن اليمان ، والشيخ الذى تخلف معه : ثابت بن وَقْشٍ الأنصارىُّ) .

والصَّدَى : حُشْوَةُ الرأس ، يقال لذلك الهامةُ والصَّدَى ، وتأويل ذلك عند العرب فى الجاهلية أن الرجل كان عندهم إذا قُتِلَ فلم يُدْرَكْ بهِ الثَّأْرُ أنه يخرج من رأسه طائر كالبُومة وهى الهامةُ ، والذكر الصَّدَى ، فيصيح على قبره : اسْقونى اسْقونى ! فإن قُتِلَ قاتله كَفَّ ذلك الطائر . قال ذو الإِصْبَعِ العَدْوانىُّ أَحَدُ بنى عَدْوان بن عمرو بن قَيْسِ بن عَيْلَانَ بن مُضَرَ (هو حُرْثانُ بن مُحَرِّثٍ ، سمى بذى الإصبع لأنه كان له إصبع زائدة ، وقيل لأن حية عضته فى إصبعه) :

يا عَمْرُو إلاَّ تَدَعْ شَتْمِي وَمَنْقَصَتِي أَضْرِبْكَ حَيْثُ تَقُولُ الهامةُ اسْقُونى

---

(١) أى الذى لايبالى الموت .

والصَّدَى ما يَرْجِعُ عليك من الصوت إذا كنت بمُتَّسَعٍ من الأرضِ ، أو بقُرْبِ جبل ، كما قال :

إنِّى على كُلِّ إيسارِى ومَعْسُرَتى   أَدْعو حُنَيْفاً كما تُدْعى ابنةُ الجَبَلِ

يعنى الصَّدَى ، وتأويله أنه يجيبنى فى سرعة إجابةِ الصَّدَى ، وقال آخر :

كَأَنِّى إذْ دَعَوْتُ بنى سُلَيْمٍ   دَعَوْتُ بِدَعْوَتى لَهُمُ الجِبالا

والصدأُ مهموز : صَدَأُ الحديد وما أشبهه ، قال النابغة الذُّبْيانى :

سَهِكِينَ[1] مِنْ صَدَإِ الحديد كأَنَّهُمْ   تَحْتَ السَّنَوَّرِ[2] جِنَّةُ البَقَّارِ[3]

وقال الأعْشَى :

فَأَمَّا إذَا رَكِبوا فالوُجو   هُ فى الرَّوْعِ مِن صَدَإِ البَيْضِ حُمّ[4]

والصَّدَى مصدر الصَّدِى ، وهو العطشان ، يقال صَدِىَ يَصْدَى صَدًى ، وهو صَدٍ ، قال طَرَفَةُ :

* ستَعْلَمُ إنْ مِتْنا صَدًى أيُّنا الصَّدِى *

(ويروى صَدَى أيِّنا بخفض أينا على الإضافة ، فَصَدَى على هذه الرواية يرتفع بالابتداء والصَّدِى الخبر) . وقال القُطامى :

فهُنَّ يَنبِذْنَ من قولٍ يُصِبْنَ به   مَواقِعَ الماءِ من ذى الغُلَّةِ الصادى

تأويل قوله : نآنى ، يكون على ضربين ، يكون أبْعَدَنى ، وأحسنُ ذلك أن يقول أنآنى ، وقد رُوِيَتْ هذه اللغة الأخرى ، وليست بالحَسَنةِ ،

---

(١) من السهك — بالتحريك — وهو ريح كريهة من عرق أو صدأ حديد .

(٢) السنور : الدروع . (٣) جنه البقار : موضع برمل عالج تسكنه الجن فيما يزعمون .

(٤) جمع أحمّ ، وهو الأسود .

وإنما جاءت فى حروف : يقال غاضَ الماء وغِضْتُهُ ، وَنَزَحَتِ البئرُ ونَزَحْتُهَا ، وَهبطَ الشئ وَهبَطْتُهُ ، وبنو تميم يقولون : أَهْبَطْتُهُ ، وَأَحْرُفٌ سوى هذه يسيرة ، والوجه فى فَعَلَ أَفْعَلْتُهُ ، نحو دَخَلَ وَأَدْخَلْتُهُ ، ومات وأماتَهُ اللهُ، فهذا الباب المُطَّرِدُ ، ويكون نآنى فى موضع نأى عنى كما قال الله عزَّ وجلَّ : «وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُم يُخْسِرُونَ» أى كالوا لهم أو وزنوا لهم .

وقوله : ودُؤُوبِ ، يقول وَإِلْحَاحٍ عليه ، تقول : دَأَبْتُ على الشيء ، قال الشاعر (هو الراعى) :

دَأَبْتُ إلى أَنْ يَنْبُتَ الظِلُّ بَعْدَ مَا ... تقاصَرَ حتى كَادَ فى الآلِ يَمْصَحُ

وقوله جلَّ ثناؤه : « كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ » يقول : كعادتهم وَسُنَّتِهِمْ ، ومثله الدِّينُ والدَيْدَنُ ، وقد مَرَّ هذا .

وقوله : وَبُدِّلَ أحجارا وجالَ قليبِ ، فالجالُ الناحية ، يقال لكل ناحية من البئرِ والقبرِ وما أشبه ذلك : جالٌ وجُولٌ ، وقال مُهَلْهِلٌ :

كَأَنَّ رِمَاحَهُمْ أشطانُ[1] بئرٍ ... بعيدٍ بَيْنُ جالَيْهَا جَرُورِ[2]

ويقال رجل ليس له جُولٌ : أى ليس له عقل ، وهذا الشعر نظير قول حاتم الطائى :

أَمَاوِىَّ إِنْ يُصْبِحْ صَدَاىَ بِقَفْرَةٍ ... من الأرضِ لاماءٌ لَدَىَّ ولا خَمْرُ

تَرَىْ أَنَّ مَا أَبْقَيْتُ لم أَكُ رَبَّهُ ... وَإِنَّ يَدِى مما بَخِلْتُ به صِفْرُ

---

(١) جمع شطن ، وهو الحبل الشديد الفتل .

(٢) جرور نعت للبئر وهى التى يبعد عمقها حتى يجرّ دلوها على شفيرها .

⁂

وقال الحرث بن حِلِّزَةَ اليَشْكُرِيُّ فى هذا المعنى :

قُلْتُ لِعَمْرٍو حين أَرْسَلْتُهُ   وَقَدْ خبَا من دُوننا عالِجُ
لا تَكْسَعِ الشَّوْلَ بِأَغْبارِها   إنَّكَ لا تدرِى مَنِ النّاتِجُ
وَاصْبُبْ لأَضيافِكَ أَلْبانَها   فَإِنَّ شرَّ اللبنِ الوالِجُ

قوله : لاتكسع الشَّوْل بأغبارها ، فإن العرب كانت تَنْضِحُ على ضُروعها المَاءَ البارِدَ ليكون أسْمَنَ لأولادها التى فى بطونها ، والغُبْرُ: بقية اللبن فى الضَّرْعِ ، فيقول : لا تُبْقِ ذلك اللبنَ لِسِمَنِ الأولاد ، فإنك لاتدرى من يَنْتِجُها فلعلك تموت ، فتكونُ للوارث أو يُغارُ عليها .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : يقول ابن آدم مالى مالى ! ومالَكَ من مالِكَ إلا ما أكلتَ فأفنيْتَ ، أو لبستَ فأبليْتَ ، أو أعطيتَ فأمْضيْتَ .

ويروى عن بعضهم أنه قال : إنى أُحِبُّ البقاء ، وكالبقاء عندى حُسْنُ الثناء ، وأنشد أبو عثمان عمرو بن بحرٍ الجاحِظُ :

فإذا بَلَغْتُم أرْضَكُمْ فتحدَّثوا   ومن الحديث متالفٌ وخُلودُ

وأنشد :

فأثنُوا عَلَيْنا لا أبا لأبيكُمُ   بأفعالنا إنَّ الثناء هُوَ الخُلْدُ

⁂

وقال معاوية لابن الأشعَثِ بن قيسٍ : ما كان جَدُّكَ قيسُ بن

مَعْدِى كَرِبَ أعْطَى الأعْشَى ؟ فقال أعطاه مالاً ، وظَهْرًا ، ورَقِيقاً ، وأشياءَ أُنْسِيتُهَا ، فقال معاوية : لكن ما أعطاكم الأعشى لا يُنْسَى !

وقال عمر بن الخطّاب رضى الله عنه لابنة هَرِمِ بن سِنانٍ المُرِّىّ : ما وَهَبَ أبوكِ لزُهَيْرٍ ؟ فقالت : أعطاه مالاً وأثاثاً أفناه الدهر ! فقال عمر : لكن ما أعطاكموه لا يُفْنِيه الدَّهْرُ .

وقال المفسرون فى قول الله عزّ وجل عن إبراهيم صلوات الله عليه : « واجْعَلْ لِى لِسَانَ صِدْقٍ فى الآخِرِينَ » : أى ثناءً حسناً ، وفى قوله تعالى : « وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فى الآخِرِينَ سَلامٌ عَلَى إبْرَاهِيمَ » : أى يقال له هذا فى الآخرين ، والعرب تحْذِفُ هذا الفعل من قال ويقول استغناءً عنه ، قال الله عزّ وجلّ : « فَأَمَّا الذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ » . أى فيقال لهم ، ومثله : « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى » : أى يقولون ، وكذلك : « وَالمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » .

(حدثنا يَمُوتُ[١] بن المُزَرِّعِ البصرىُّ قال حدثنا رَفِيعُ بن سَلَمَةَ المُنَبَّزُ[٢] بدَماذَ قال : حدثنا أبو عُبَيْدَةَ قال : قال الحَجّاجُ يوما لعمائر[٣] العرب وهم فى مجلسه : ما أحْسِبُ هذا المَزُونِىَّ[٤] يُنَاصِحُنَا فى حَرْبِنَا – يعنى

(١) قال الشيخ المرصفى : هذه الحاشية من وضع من تأخر من رواة الكامل .

(٢) أى الملقب من النبز وهو التلقيب ، وأكثر ما يستعمل فى الذم .

(٣) جمع عمارة بفتح العين وتكسر ، وهى أصغر من القبيلة .

(٤) نسبة إلى المزون ، وهو اسم لأرض عمان .

المُهلَّبَ ـ والرأىُ مشتركٌ ، فقالوا : الرأىُ للأمير أصلحه اللهُ أن يَكْتُبَ إلى ابن الفُجاءة بإطعامه بَعْضَ الأرَضِين ، فإذا هو نَخَعَ بطاعته وأظْهَرَ الدعوة له سَهُلَتِ الحيلةُ فيه ، فقال : وفقكم اللهُ ! وكتب إلى ابن الفُجَاءة ، وأنفذه على يد الغضْبانِ بن القَبَعْثَرَى الشيبانى ـ نسخة الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من الحجاج بن يوسف إلى قَطَرِىٍّ بن الفُجاءة ، سلامٌ عليك ، المُوَحِّدُ اللهُ ، والمُصَلَّى عليه محمدٌ عليه السلام ، أما بعد فإنك كنتَ أعرابيًا بدويًّا تستطعِمُ الكِسْرَةَ ، وتَخِفُّ إلى التَّمْرَة ، ثم خرَجْتَ تحاولُ ما ليس لك بحق ، واعترضتَ على كتاب الله ، ومَرَقْتَ من سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارْجِع عما أنتَ عليه بما زُيِّنَ لك ، وادعنى فقد آن لك » .

فلما أوْصَلَ الغضبانُ الكتاب إلى قَطَرِىّ قال : يا غلام ، ازْبُرْ(١) هذه الصحيفةَ ، فتلا عليه ما فيها فتَنَهَّدَ قطرىٌّ الصُّعَداء ، فقال : يا غضبان ألْفَيْتَنِى محزونا ، وأنشأ يقول :

فيا كَبِدَا من غير جوع ولا ظَمَا ... ويا كَبِدَا من وَجْدِ أُمِّ حكيم
فلو شَهِدَتْنِى يَوْمَ دُولابَ(٢) أبْصَرَتْ ... طِعانَ فَتًى فى الحرب غَيْرِ لئيم
غَداةَ طفَتْ عَلْماءِ(٣) بَكْرُ بنُ وائلٍ ... وعُجْنا صُدورَ الخيلِ نحوَ تميم
وكان بعبد القَيْس أوَّلُ حَدِّها ... وآب حميدُ الأزْدِ غَيْرَ ذَميم

---

(١) أى اقرأ ، وأكثر ما تستعمل فى الكتابة .
(٢) دولاب ـ بفتح الدال وتضم ـ قرية بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ .
(٣) على الماء .

يعنى المُهَلَّبَ . وأمُّ حكيم(١) هذه امرأة من الخوارج قُتِلَتْ بين يديه ، ثم قال : ياغلام ، اُكْتُبْ :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من قَطَرِىّ بن الفُجاءةِ إلى الحجاج ابن يوسف ، سلامٌ على من اتَّبَعَ الهُدَى ، ذكرتَ فى كتابك أنى كنتُ بَدَوِيًا أستطعم الكِسْرَةَ ، وأبْدُرُ إلى التمرة ، وبالله لقد قلتَ زُوراً ، بل الله بَصَّرَنى من دينه ما أعْماكَ عنه ، إذْ أنتَ سائحٌ فى الضلالة ، غَرِقٌ فى غَمراتِ الكُفرِ ، ذكرتَ أن الضرورة طالت بى ، فهلاَّ بَرَزَ لى من حِزْبكَ مَنْ نَالَ الشِبَعَ ، واتَّكأَ فاتَّدَعَ ؟ أمَا واللهِ لئِنْ أبْرَزَ الله صَفْحَتَكَ ، وأظهَرَ لى صُلْعَتَكَ ، لَتُنْكِرَنَّ شِبَعَكَ ، ولَتَعلَمَنَّ أنَّ مُقارعةَ الأبْطال ، ليس كتسطير الأمثال » .

---

(١) كانت من الشجاعة بمكان ، وكانت تحمل على الناس وهى ترتجز :

أحمل رأسا قد سئمت حمله وقد مللت دهنه وغسله

* ألا فتى يحمل عنى ثقله *

باب

قال أبو العباس : قال علىُّ بن أبى طالب رضى الله عنه فى خُطْبة له : أيها الناس ، اتقوا الله الذى إن قلتم سَمِعَ ، وإن أضمرتم عَلِمَ ، وبادِرُوا الموتَ الذى إنْ هرَبتم منه أدركَكم ، وإن أقمتم أخذَكم .

قال : وحدثنى التَّوَّزِىُّ فى إسناد ذكره آخرهُ عبد المَلِكِ بن عُمَيْرٍ اللَّيْثِىُّ ، قال : بينا نحن فى المسجد الجامِعِ بالكوفة ، وأهلُ الكوفة يومئذ ذَوُو حالٍ حَسَنَةٍ ، يَخْرُجُ الرجلُ منهم فى العشرة والعشرين مِنْ مَوَاليه إذْ أتى آتٍ فقال : هذا الحجاج قد قَدِمَ أميراً على العراق ! فإذا به قد دخل المسجد مُعْتَماً بعمامة قد غطّى بها أكثر وجهه ، مُتقلّدًا سيفا[١] ، مُتنكّباً قوسا[٢] ، يَؤُمُّ المِنْبَرَ ، فقام الناس نحوه ، حتى صَعِدَ المنبر ، فمكث ساعة لايتكلم ، فقال الناس بعضهم لبعض : قبَّحَ الله بنى أُمَيَّةَ حيث تَسْتَعْمِلُ مثل هذا على العِراق ! حتى قال عُمَيْرُ بن ضابِئٍ البُرْجُمِىُّ : ألَا أَحْصِبُهُ لكم ؟ فقالوا : أَمْهِلْ حتى نَنْظُرَ ، فلما رأى عيون الناس إليه حَسَرَ اللِّثَامَ عن فِيه ونهض فقال (هو لِسُحَيْمِ بن وَثِيلٍ الرِّياحِىِّ[٣]) :

أَنَا ابْنُ جَلاَ وَطَلاَّعُ الثنايا ... مَتَى أَضَعِ العِمامةَ تَعْرِفُونى

---

(١) تقلد السيف : حمله . (٢) تنكب القوس : حملها على منكبه .

(٣) لاموجب لهذه الكلمة لأن المبرد سينسب البيت إلى سحيم .

ثم قال: ياأهل الكوفة، إنى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها، وإنى لصاحبها، وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى، ثم قال (الشعر لرويشد بن رميض العنبرى):

هذا أوان الشد فاشتدى زيم ... قد لفها الليل بسواق حطم
ليس براعى إبل ولا غنم ... ولا بجزار على ظهر وضم

ثم قال:

قد لفها الليل بعصلبى ... أروع خراج من الدوى
* مهاجر ليس بأعرابى *

وقال:

قد شمرت عن ساقها فشدوا ... وجدت الحرب بكم فجدوا
والقوس فيها وتر عرد ... مثل ذراع البكر أو أشد
* لا بد مما ليس منه بد *

إنى والله ياأهل العراق ما يقعقع لى بالشنان، ولا يغمز جانبى كتغماز التين، ولقد فررت عن ذكاء، وفتشت عن تجربة، وإن أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدنى أمرها عودا، وأصلبها مكسرا، فرماكم بى، لأنكم طال ما أوضعتم فى الفتنة، واضطجعتم فى مراقد الضلال، والله لأحزمنكم حزم السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون، وإنى والله ما أقول إلا وفيت، ولا أهم

إلا أَمْضَيْتُ ، ولا أَخْلُقُ إلا فَرَيْتُ ، وإن أمير المؤمنين أمرنى بإعطائكم أعْطِياتِكُم ، وأن أُوَجِّهَكُم لمحاربة عدوّكم مع المُهَلَّبِ ابن أبى صُفْرَةَ ، وإِنّى أُقْسِمُ بالله لا أَجِدُ رجلاً تَخَلَّفَ بعد أخذ عطائِهِ ثلاثة أيام إلا ضربتُ عُنُقَهُ ! ياغلام اقْرَأ عليهم كتابَ أمير المؤمنين ، فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى مَنْ بالكوفة من المسلمين سلامٌ عليكم » فلم يَقُلْ أحد منهم شيئاً ، فقال الحجاج : اُكْفُفْ ياغلامُ ، ثم أَقْبَلَ على الناس ، فقال : أَسَلَّمَ عليكم أمير المؤمنين ، فلم تَرُدُّوا عليه شيئاً ؟ هذا أَدَبُ ابن أُنَهْيَةَ ، أَمَا وَاللهِ لأُؤَدِّبَنَّكُم غيرَ هذا الأدب أو لتستقيمُنَّ ! اقْرَ ياغلامُ كتاب أمير المؤمنين ، فلما بلغ إلى قوله : « سلامٌ عليكم » لَمْ يَبْقَ فى المسجد أحد إلا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام ! (زعم أبو العباس أن ابن نُهَيْةَ رجلٌ كان على الشُّرْطَةِ بالبَصْرةِ قبل الحجاج) .

ثم نَزَلَ فوَضَعَ للناس أَعْطِيَاتِهِمْ فجعلوا يأخذون حتى أتاه شيخ يَرْعَشُ كِبَرًا ، فقال : أيها الأمير ، إنى من الضَّعْفِ على ما تَرَى ، ولى ابنٌ هو أَقْوَى على الأسْفار منى فتَقَبَّلْهُ بَدَلاً منى ، فقال له الحجاج : نَفْعلُ أيها الشيخ ، فلما وَلَّى قال له قائل : أتدرِى من هذا أيها الأمير ؟ قال : لا ، قال : هذا عُمَيْرُ بن ضابِئٍ البُرْجُمِيُّ الذى يقول أبوه :

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وليتَنى تَرَكتُ على عثمان تَبْكِى حَلائِلُه

ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولاً فَوَطِئَ بطنَهُ فكسر ضِلَعَيْنِ من

أَضْلاَعِهِ ، فقال : رُدُّوهُ ! فلما رُدَّ ، قال له الحجاج : أيها الشيخ هلا بَعَثْتَ إلى أمير المؤمنين عثمانَ بَدَلاً يوم الدار ! إن فى قتلك أيها الشيخ لَصلاحًا للمسلمين ، يا حَرَسِىُّ اُضرِبَنْ عنقه . فجعل الرجل يَضيقُ عليه أمره فيرتحل ، ويأمر وليّه أن يَلْحقَهُ بزاده ، ففى ذلك يقول عبد اللّٰه بن الزَّبِيرِ الْأَسَدِىُّ (الأَسَدِىُّ أَسَدُ خُزَيمةَ ، ولَيْسَ من أَسَدِ قُرَيْشٍ) :

تَجَهَّزْ فإِمَّا أَنْ تَزُورَ ابْنَ ضَابِئٍ عُمَيْرًا وَإِمَّا أَنْ تَزُورَ الْمُهَلَّبا
هما خُطَّتا خَسْفٍ نجاؤكَ منهما رُكوبُكَ حَوْلِيًّا من الثَّلْجِ أَشْهَبا
فَأَضْحَى ولو كانَتْ خُراسانُ دونه رآها مكانَ السُّوقِ أو هِىَ أَقْرَبا

(دونه الهاء عائدة على المهلب ، وأقربا ظرفٌ ، وقيل مفعول ثان) . قوله : أنا ابن جلا ، إنما يريد الْمُنْكَشِفَ الأَمْرِ ، ولم يصرف «جلا» لأنه أراد الفعل[1] فحكى ، والفعل إذا كان فاعله مضمراً أو مظهراً لم يكن إلا حكاية كقولك : تَأَبطَ شرًّا ، وكما قال الشاعر :

كَذَبتُم وَبَيْتِ اللّٰهِ لا تأْخُذُونَها[2] بَنِى شابَ قَرْناها[3] تَصُرُّ[4] وَتَحْلُبُ

وتقول : قرأت « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » لأنك حَكَيْتَ ، وكذلك الابتداء والخبر تقول : قرأتُ « الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » . وقال الشاعر :

وَاللّٰهِ مَا زَيْدٌ بنامَ صاحِبُهْ (ولا مُخالِطِ اللَّيانِ جانِبُهْ)

---

(١) الصواب : أراد الفعل والفاعل . (٢) رواية سيبويه : لا تنكحونها .
(٣) القرنان : الضفيرتان .
(٤) تصر : تربط ضرع الحلوبة بالصرار حين ترسلها إلى المرعى .

وقوله : ٭ أَنَا ابْنُ جَلاَ وَطَلاَّعُ الثَّنَايَا ٭

لسُحَيْمِ بن وَثِيلٍ الرِّيَاحِىِّ ، وإنما قاله الحجاج متمثلا ، وقوله : وطلاعُ الثَّنايا ، الثنايا: جمع ثَنِيَّةٍ ، والثَّنيةُ الطريق فى الجبل ، والطريقُ فى الرمل يقال له الخَلُّ ، وإنما أراد به أنه جَلْدٌ يَطْلُعُ الثَّنايا فى ارتفاعها وصُعوبتها ، كما قال دُرَيْدُ بن الصِّمَّة يعنى أخاه عبد الله :

كَمِيشُ الإزارِ(١) خارجٌ نِصْفُ ساقِهِ بَعِيدٌ من السَّوْآتِ(٢) طَلاَّعُ أَنْجُدِ

والنَّجْدُ : ما ارتفع من الأرض ، وقد مَضى تفسير هذا .

وقوله : إنى لأرى رءوسا قد أينعت ، يريد أَدْرَكَتْ ، يقال أَيْنَعَتِ الثمرةُ إيناعًا وَيَنَعَتْ يَنْعًا وَيُنْعًا ، وَيُقْرَأُ « انْظُرُوا إلى ثمره إذا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ » وَيُنْعِهِ ، كلاهما جائز .

قال أبو عبيدة : هذا الشعر يُخْتَلَفُ فيه فبعضهم ينسبه إلى الأَحْوَصِ وبعضهم ينسبه إلى يزيد بن معاوية (قال أبو الحسن الصحيح أنه ليزيد يصف جارية) وهو :

وَلَهَا بالماطِرُونِ(٣) إذا أَكَلَ النَّمْلُ الذى جَمَعَا
خُرْفَةٌ حتى إذا رَبَعَتْ سَكَنَتْ من جِلَّقٍ بِيَعَا
فى قِبابٍ حَوْلَ دَسْكَرَةٍ حَوْلَهَا الزَّيْتُونُ قد يَنَعَا

---

(١) مشمره ، كناية عن المضاء .

(٢) رواية الأصمعى : صبور على العزّاء — والعزّاء : الشدة .

(٣) اسم موضع بالشام قرب دمشق . وأعرب اعراب الجمع كما كان قبل التسمية .

(قال أبو الحسن : أول هذه الأبيات :

طال هــــذا الهمُّ فاكْتَنَعا وأمَرَّ النومُ فامْتَنَعا

وبعد هذا ما أنشده أبو العباس ، ويروى بالماطرون الرواية المشهورة بفتح النون[١] ويروى بكسرها) .

قال أبو العباس وقوله : هذا أوانُ الشَّدِّ فاشْتَدِّى زِيَمْ[٢] ، يعنى فرساً أو ناقة ، والشعر للحُطَمِ القَيْسِيِّ[٣] . وقوله : قد لَفَّهَا الليلُ بسوَّاقٍ حُطَمْ ، فهو الذى لا يُبْقِى من السير شيئاً ، ويقال رجل حُطَمٌ للذى يأتى على الزاد لشدة أكله ، ويقال للنار التى لا تُبْقِى حُطَمَةٌ ، وقوله : على ظهرِ وَضَمْ فالوَضَمُ : كل ما قُطِعَ عليه اللحم . قال الشاعر (هو عُمَرُ بن أبى رَبيعة) :

وفِتيانِ صِدْقٍ حِسانِ الوُجو هِ لا يَجِدُونَ لِشىء أَلَمْ

مِنْ آلِ المُغيرةِ لا يَشهدو نَ عِنْدَ المجازرِ لَحْمَ الْوَضَمْ

وقوله : قد لَفَّهَا الليلُ بِعَصْلَبِىٍّ : أى شديد ، وَأَرْوَعَ : أى ذَكِىٍّ ، وقوله : خَرَّاجٍ من الدَّوِّىِّ ، يقول خَرَّاج من كل غَمَّاء شديدةٍ : (غَمَّا مقصورٌ رواية عاصم) ، ويقال للصَحْراء دَوِّيَّةٌ ، وهى التى لا تكاد تَنْقَضِى ، وهى منسوبة إلى الدَّوِّ ، والدَّوُّ : صَحْراء مَلْسَاءُ لا عَلَمَ بها ولا أمارةَ ، قال الحُطَيْئَةُ (يصف خيالها وأنَّثَ على معنى المرأة) :

وَأَنَّى اهْتَدَتْ والدَّوُّ بينى وبينها وما خِلْتُ سارى اللَّيْلِ بالدَّوِّ يَهْتَدِى

والداوِيَةُ : المتسعة التى تَسْمَعُ لها دَوِيًّا بالليل ، وإنما ذلك الدَّوِىُّ من

---

(١) مع لزوم الواو . (٢) يريد . يازيم ، فحذف حرف النداء .

(٣) سبقت نسبته إلى رويشد بن رميض .

أَخْفَافَ الإِبل تَنْفَسِحُ أصواتها فيها ، وتقول جَهَلَةُ الأَعْرَابِ: إن ذلك عَزِيفُ الجِنِّ ، وقوله : والقوسُ فيها وَتَرٌ عُرُدٌّ ، فهو الشديد ، ويقال عُرُنْدٌ في هذا المعنى .

وقوله : إني واللهِ ما يُقَعْقَعُ لي بالشِّنَان ، واحدها شَنٌّ ، وهو الجِلْدُ اليابس ، فإذا قُعْقِعَ(١) به نَفَرَتِ الإِبل منه ، فَضَرَبَ ذلك مَثَلاً لنفسه(٢) ، وقال النابغة الذُّبْيَانيُّ :

كأنك من جِمَالِ بني أُقَيْشٍ ... يُقَعْقَعُ بين رجليه بشَنِّ

(أُقَيْشٌ: حَيٌّ من عُكل) وقوله : ولقد فُرِرْتُ(٣) عن ذَكاء ، يعني تمام السن(٤) ، والذَّكاء على ضربين : أحدهما تمام السِنِّ ، والآخر الحِدَّةُ حِدَّةُ القَلْبِ ، فمما جاء في تمام السن قول قَيْسِ بن زُهَيْرٍ : جَرْيُ المذَكِّياتِ(٥) غِلابٌ : (ويروى غلاء) . وقال زُهَيْرٌ :

يُفَضِّلُهُ إذا اجْتَهَدا عليه ... تمامُ السِنِّ منه والذَّكاء

وقوله : فَعَجَمَ عيدانها ، يقول: مَضَغها لينظر أيُّها أَصْلَبُ ، يقال عَجَمْتُ العود: إذا مضغته ، وكذلك في كل شيء ، قال النابغة :

فَظَلَّ يَعْجُمُ أعلى الرَّوْقِ مُنْقَبِضًا ... في حالِكِ اللونِ صَدْقٍ غيرِ ذي أَوَدِ

(١) القعقعة : حكاية أصوات الجلود اليابسة وهي أيضا حكاية أصوات السلاح .

(٢) يعني أنه لا يخدع ولا يروع .

(٣) مستعار من فررت أسنان الدابة: إذا كشفت عن أسنانها لتنظر ماسنها .

(٤) أي بلوغ السن التي ينضج فيها العقل .

(٥) المذكيات الخيل التي أسنت .

والمصدر العَجْمُ، يقال عَجمتُهُ عَجْماً، ويقال لنَوَى كلِّ شيء عَجَمٌ[1] مفتوح ومن أسكن فقد أخطأ، كما قال الأعشى:

(غزَاتُكَ بِالْخَيْلِ أَرْضَ العَدُوِّ) وَجُذْعَانُهَا كَلَقيطِ العَجَمْ

وقوله: طال ما أوضعتم فى الفتنة، الإِيضاعُ: ضَرْبٌ من السَّيْرِ، وقوله:

* فأضْحَى ولو كانت خراسانُ دونه *

يعنى دون السفر[2] رآها مكان السُّوقِ للخوف والطاعة.

⁂

وكان من قصة عمير بن ضابىء أن أباه ضَابِئَ بن الحُرثِ البُرْجُمِىَّ وَجبَ عليه حبس عند عثمان رحمهُ اللهُ وَأَدبٌ، وذلك أنه كان استعار من قوم كلبا فأعاروه إياه، ثم طلبوه منه، وكان فحّاشاً فرمى أُمَّهُمْ به، فقال فى بعض كلامه:

وَأُمَّكُمُ لا تترُكوها وَكَلْبَكُم فإِنَّ عُقوقَ الوالداتِ كَبيرُ

فاضْطَغَنَ على عثمانَ ما فعلَ به، فلما دُعِيَ به ليُؤَدَّبَ شَدَّ سِكِّيناً فى ساقه ليقتل بها عثمان فعُثِرَ عليه فأحْسَنَ أَدَبَهُ، ففى ذلك يقول:

وقائلةٍ إنْ مَاتَ فى السِجْنِ ضابئٌ لَنِعْمَ الْفَتَى تَخْلُو به وتُواصِلُه
وقائلةٍ لَا يَبْعَدَنْ ذلك الْفَتَى وَلَا تَبْعَدَنْ أخلاقه وشمائِلُه
وقائلةٍ لَا يُبْعِدِ اللهُ ضابئاً إِذِ الكَبْشُ لم يوجد له مَنْ يُنازِلُه
وقائلةٍ لا يُبْعِدِ اللهُ ضابئاً إِذِ الخَصْمُ لم يوجد له مَنْ يُقاوِلُه

---

(١) والواحدة عجمة. (٢) أى قريبة من موضع سفره.

فلا تُتْبعيني إنْ هلكتُ ملامةً　　فليس بعارٍ قَتْلُ مَنْ لا أقاتله(١)

هَممتُ ولم أفعلْ وكِدتُ وليتني　　تركتُ على عُثمانَ تبكِي حلائلُه

وما الفَتْكُ ما آمَرْتَ فيه(٢) ولا الذي　　تُخَبِّرُ مَنْ لاَقيتَ أنك فاعِلُه

☆☆☆

قال أبو العباس : وشبيه بقوله ما حُدِّثنا به عن أبي شَجَرَةَ السُّلَمِيّ ، وكان من فُتَّاكِ العرب (أبو شجرة هو عمرو بن عبد العُزّى وأُمُّهُ الخنساء ، وقال الطبرى : اسمه سَلِيمُ بن عبد العزّى) فأتى عُمَرَ بن الخطَّاب رحمه الله يَسْتَحْمِلُهُ(٣) ، فقال له عمر : ومن أنت ؟ فقال : أنا أبو شجرة السلمى ، فقال له عمر : أي عُدَيَّ نَفْسِهِ ، ألَسْتَ القائلَ حيث ارْتَدَدْتَ(٤) :

وَرَوَّيْتُ رُمْحِي من كتيبةِ خالدٍ　　وَإنِّي لأرْجُو بعدها أنْ أُعَمَّرَا

(ويروى أن أُعَمِّرَ بكسر الميم ، ومعناه أن أفعلَ ذلك بكتيبة عُمَرَ) :

وعارَضْتُهَا شَهْبَاء تَخْطِرُ بالقَنا　　تَرَى البَيْضَ في حافاتها والسَّنَوَّرا

ثم انحنى عليه عمر بالدِّرَّةِ فسَعَى إلى ناقته فحلَّ عِقالها وأقبلها حَرَّةَ بني سُلَيْمٍ ، بأحَثِّ السير هربا من الدِّرَّةِ ، وهو يقول :

قد ضَنَّ عنها أبو حَفْصٍ بنائِلِهِ　　وكُلُّ مُخْتَبِطٍ يومًا له وَرَقُ

ما زال يَضْرِبُني حتى خَذِيتُ له　　وحالَ مِنْ دون بعضِ الرَّغْبَةِ الشَّفَقُ(٥)

---

(١) أى من لا أقدر على قتاله .

(٢) أى ماشاورت فيه . (٣) يسأله أن يحمله على ركوبة .

(٤) مع من ارتد من بنى سليم أيام أبى بكر ثم أسلم بعد ذلك .

(٥) الشفق : الخوف .

ثم التفتُ إليها وَهْىَ حانِيــةٌ (١) مِثْلَ الرِّتاجِ إذا ما لَزَّهُ الغَلَقُ (٢)
أقْبلْتُها الخَلَّ (٣) من شَوْرانَ مجتهداً (٤) إنى لأَزْرِى عليها وهى تَنْطَلِقُ

ويروى أنه كان يرمى المسلمين يوم الرِّدَّةِ فلا يُغْنى شيئاً ، فجعل يقول :

ها إنَّ رَمْيِي عَنْهُمُ لمَعْبُول فلا صَرِيحَ اليومَ إلا المَصْقُول

وقوله : وكل مختبط يوما له ورق ، أصل هذا فى الشجرة أن يختبطها الراعى ، وهو أن يضربها حتى يسقط ورقها ، فضرب ذلك مَثَلاً لمن يَطْلُبُ فَضْلَهُ ، وقال زهير :

ولَيْسَ مانعَ ذى قُرْبَى وذى نَسَبٍ يَوْمًا ولا مُعْدِمٍ من خابِطٍ وَرَقَا

(قوله ولا معدمٍ بالخفض عطفه على توهم الباء فى مانع ، ومثله ما أنشده (٥) :

مَشائيمُ لَيْسوا مُصْلِحِينَ عَشيرةً ولا ناعِبٍ إلاَّ بِبَيْنٍ غُرابُها

على تَوَهُّم الباء فى مصلحين ، ومن فى خابط زائدة) وقوله حتى خَذِيتُ له ، يقول خَضَعْتُ له ، وأكثر ما تَسْتَعْمِلُ العامةُ هذه اللفظةَ بالزيادة تقول اسْتَخْذَيْتُ له ، وزعم الأَصْمَعِيُّ أنه شَكَّ فيها ، وأنه أحَبَّ أن يَسْتَثْبِتَ أهِيَ

---

(١) حانية: لاوية عنقها .

(٢) الغلق : اسم لما يغلق به الباب . والرتاج : الباب الكبير ، واللز : الشدّ والإلصاق .

(٣) الخل : الطريق النافذ بين رمال متراكمة ، سمى بذلك لأنه تخلل بين الرمال .

(٤) شوران : جبل مرتفع قرب عقيق المدينة .

(٥) أنشده سيبويه للأحوص اليربوعى ، وهو من أبيات قالها يوم اقتتل بنو يربوع بن حنظلة وبنو دارم ابن مالك فقتل رجل من بنى يربوع فأقسموا لا يريمون مكانهم حتى يثأروا به ، فقالت بنو مالك ما نعرف قاتله فاحلفوا أيمان القسامة نعطكم حقكم فخلف منهم خمسون رجلا إلا واحدا إن الذى قتله عبيد ابن زرعة ، فقام ضرار بن القعقاع وشيبان بن حنظلة فقالا: نحن نكفله ، فلما جن الليل أطلقاه فهرب ثم قالت بنو دارم : هذه الدية فاقبلوها من اخوتكم ولا تكونوا كمن جدع أنفه ، فقال الأحوص :

وليست بيربوع إلى العقل حاجة سوى دنس يسود منها ثيابها إلى آخر ما قال .

مهموزةٌ أم غيرَ مهموزةٍ ، قال : فقلتُ لأعرابى : أتقول استَخْذَيْتُ أم اسْتَخْذَأْتُ ، قال: لا أقولهما ، قلتُ ولِمَ ؟ فقال لأن العرب لاتَسْتَخْذِى[1] وهذا غير مهموز ، واشتقاقه من قولهم : أُذُنٌ خَذْواء وَيَنَمَةٌ خَذْواء : أى مُسْتَرْخِيةٌ[2] : (قال أبو الحسن: اليَنَمَةُ نبت مُسْتَرْخٍ على وجه الأرض تأكله الإبل فتَكْثُرُ عنه ألبانها) . قال الأصمعى: وقلت لأعرابى أتهمِزُ الفارَةَ ؟ قالَ تهْمِزُها الهِرَّةُ ! وقوله : إنى لأَزْرِى عليها، يقول أَسْتَحِثُها ، يقال زَرَى عليه: أى عاب عليه ، وَأَزْرَى به أى قصَّرَ به ، فيقول إنها لمجتهدة ، وإنى لأَزْرِى عليها : أى أعيب عليها لِطَلَبِ النَّجاء والسرعة ، وقال الأَخْطَلُ :

فظَلَّ يُفَدِّيها وظَلَّتْ كأنها عُقابٌ دعاها جُنْحُ لَيْلٍ إلى وكْرِ

وقوله: ها إنَّ رَمْيِي عنهم لمَغبول ، يقول مَخْبولٌ[3] مردودٌ ، والصَّريحُ المَحْضُ الخالص ، يقال ذلك للبن إذا لم يَشُبْهُ ماء ، ويقال عرَبِىٌّ صَرِيحٌ ومَوْلى صَرِيحٌ: أى خالص .

⁂

قال وحدثنى محمد بن إبراهيم الهاشمى فى إسناد ذكره قال : بَلَغَ عمرَ ابن الخطاب رحمه الله أن قومًا يفضلونه على أبى بكر الصِّدِّيقِ رحمه الله ، فوَثَبَ مُغْضَباً حتَّى صَعِدَ المِنْبَرَ فَحَمِدَ الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أيها الناس إنى سأُخْبِرُكُمْ عنى وعن أبى بكر : إنه لما

(١) أى لا تخضع لمن يقهرها . (٢) أى لينة .

(٣) مخبول : ممنوع .

تُوُفِّى رسول الله صلى الله عليه وسلم ارْتَدَّتِ العرب ، وَمَنَعَتْ شاتَها وبعيرها فأَجْمَعَ رأيُنا كلِّنا أصحابَ(١) محمد صلى الله عليه وسلم أنْ قلنا له ياخليفةَ رسولِ الله إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقاتل العرب بالوحْيِ والملائكة يُعِدُّهُ اللهُ بهم، وقد انقطع ذلك اليومَ ، فَالزَمْ بيتك ومسجدك ، فإنه لاطاقةَ لك بقتال العرب ، فقال أبو بكر الصديق : أَوَ كُلُّكُمْ رَأْيُهُ على هذا ؟ فقلنا نعم ! فقال : والله لَأَنْ أَخِرَّ من السماء فَتَخطَفَنِى الطيرُ أَحبُّ إلَىَّ من أن يكون هذا رأيى ! ثم صَعِدَ المِنْبَرَ فحمد الله وَكَبَّرَهُ وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل عَلَى الناس فقال : أيها الناس مَنْ كَانَ يَعْبُدُ محمدا فإن محمدا قد مات ، ومَنْ كان يعبد الله فإن الله حَىٌّ لايموت، أيها الناس أَأَنْ كَثُرَ أعداؤُكم ، وقَلَّ عدَدُكُمْ ، رَكِبَ الشيطانُ منكم هذا المَرْكَبَ ، والله لَيُظْهِرَنَّ اللهُ هذا الدينَ على الأديان كُلِّها ولو كَرِهَ المشركون ، قولُهُ الحَقُّ ، ووَعْدُهُ الصِدْقُ ، بل نَقْذِفُ بالحق على الباطل فيَدْمَغُهُ فإذا هو زاهِقٌ ، وكَمْ من فِئِةٍ قليلةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كثيرةً بإذن الله والله مع الصابرين ، واللهِ أيُّها الناسُ لو أُفْرِدْتُ من جميعكم لجاهدتهم فى الله حق جهاده حتى أُبْلِىَ بنفسى عُذْراً(٢) أو أُقْتَلَ قتلاً . والله أيها الناس لو مَنَعونِى عِقالاً لجاهَدْتُهُمْ عليه ، واسْتَعَنْتُ عليهمُ اللهَ وهو خيْرُ مُعينٍ .

ثم نزل فجاهد فى الله حَقَّ جهادِهِ حتى أَذْعَنَتِ العربُ بالحق .

قوله : كم من فئة فهى الجماعة ، وهى مهموزة وتخفيف الهمز فى هـذا

---

(١) منصوب على الاختصاص وسيشرحه المؤلف .
(٢) أى حتى يبين وجه العذر لأزيل عنى اللوم .

الموضع أن تُقْلَبَ الهمزةُ ياء ، وإن كانت قبلها ضمة وهي مفتوحة قَلَبْتَهَا واواً نحو جُؤَنٍ تقول جُوَنٌ (الجُؤْنَةُ الحُقَّةُ يجعل فيها الحَلْىُ) وقوله : لو منعونى عقالا لجاهدتهم عليه على خلاف ماتتأوله العامة ، ولقولِ العامةِ وَجْهٌ قديجوز فأما الصحيح فإن المُصَدِّقَ[1] إذا أخذ من الصدقة مافيها ولم يأخذ ثمنها قيل أخذ عِقالاً ، وإذا أخَذَ الثمن قيل أخذ نَقْدًا ، قال الشاعر :

أَتَانَا أَبُو الخَطَّابِ يَضْرِبُ طَبْلَهُ ... فَرُدَّ وَلَمْ يَأْخُذْ عِقالاً وَلا نَقْدَا

(كانت الأمراء إذا خرجتْ لأخذ الصدقة تَضْرِبُ الطُّبولَ) والذى تقوله العامة تأويله لو منعونى ما يساوى عقالاً فضْلاً عن غيره وهذا وجه ، والأول هو الصحيح لأنه ليس عليهم عقال يُعْقَلُ به البعير فيَطْلُبَه فيُمْنَعَهُ ، ولكن مجازه فى قول العامة ما ذكرنا . ومن كلام العرب[2] أتانا بجَفْنَةٍ يَقْعُدُ عليها ثلاثةٌ ، أى لو قعد عليها ثلاثة لَصَلَح . وكان ارتدادُ من ارْتَدَّ من العرب أن قالوا : نُقيمُ الصلاةَ ولا نُؤْتِى الزكاةَ ، فمن ذلك قول الحُطَيْئَة .

أَلاَ كُلُّ أَرْماحٍ قِصارٍ أَذِلَّةٍ ... فِدَاءٌ لِأَرْماحٍ نُصِبْنَ عَلَى الغَمْرِ[3]

فَبَاْسْتِ بَنِى عَبْسٍ وَأَسْتَاه طَيِّئٍ ... وَبَاْسْتِ بَنِى دُودَانَ حَاشَا بَنِى نَصْرِ

أَبَوْا غَيْرَ ضَرْبٍ يُجْثِمُ الْهامَ وَقْعُهُ ... وَطَعْنٍ كَأَفْوَاهِ المُزَفَّتَةِ الْحُمْرِ

(المزفتة: المَطْلِيَّةُ بالزِّفْتِ وهو القَطِرانُ، يعنى الإبل، وهو أشبه بكلام العرب ومعناه وقيل الزِّقاقُ)

أَطَعْنَا رَسُولَ اللهِ إِذْ كَانَ بَيْنَنَا ... فَيَا لَهْفَتَا ما بالُ دِينِ أَبِى بَكْرِ

---

(١) الذى يأخذ حقوق الزكاة . (٢) أى ماجاء من مجاز الحذف فى كلامهم .
(٣) الغمر : اسم ماء .

أيُورِثُها بَكْرًا إذا ماتَ بَعْدَه(١) فتِلكَ وَبَيْتِ اللهِ قاصِمَةُ الظَّهْرِ
فَقُومُوا وَلاَ تُعْطُوا اللِّئامَ مَقادَةً وَقُومُوا وَلَوْ كانَ الْقِيامُ عَلَى الْجَمْرِ
فِدًى لِبَنِي نَصْرٍ طَرِيفِي وَتالِدِي عَشِيَّـــةَ ذادُوا بِالرِّماحِ أَبا بَكْرِ

(قوله : ذادوا بالرماح أبا بكر، كَذِبٌ، إنما خرجوا على الإبِلِ فقعقعُوا لها بالشِّنانِ فنفَرَتْ وفرَّتْ) قوله : يجثم الهام وقعه، إنما هو مَثَلٌ، يقال جَثَمَ الطائرُ كما يقال بَرَكَ الجملُ، وربَضَ البعيرُ .

وكان قَيْسُ بن عاصم بن سِنان بن خالد بن مِنْقَرٍ عاملا على صَدَقاتِ بنى سَعْدٍ فقسَمَ ما كان فى يده من أموال الصدقات على بنى مِنْقَرٍ ، وقال :

فَمَنْ مُبْلِغٌ عَنِّى قُرَيْشًا رِسالَةً إذا ما أَتَتْها مُحْكَماتُ الوَدائِعِ
حَبَوْتُ بِما صَدَّقْتُ فى العامِ مِنْقَرًا وأيأسْتُ منها كلَّ أَطْلَسَ طامِعِ

قوله : فأجمع رأينا كلِّنا أصحابَ محمد ، فإنما خفَضَ كُلًّا على أنه توكيد لأسمائهم المضمرة ، والظاهرةُ لا تكون بدلا من المضمر الذى يَعْنِى به المتكلمُ نَفْسَهُ ، أو يَعْنِى به المُخَاطَبَ ، لايجوز أن تقول مررتُ بى زيدٍ لأن هذه الياء لايَشْرَكُهُ فيها شَرِيكٌ فتحتاج إلى التبيين ، وكذلك لايجوز ضربتُكَ زيداً لأن المخاطب منفرد بهذه الكاف ، فأما الهاء نحو مررت به عبد الله ، فيجوز لأنا نحتاج إلى أن يُعرِّفَنا مُبَيِّنًا مَنْ صاحب الهاء ؛ لأنها ليست للذى يخاطبه فلا يُنْكِرُ نفسه ، وإنما يُحدِّثُ به عن غائب فيحتاج

(١) قال الشيخ المرصفى : كأن الحطيئة ظن أن أبا بكر له ولد اسمه بكر وليس كما ظن . قال صاحب البدائع : وليس الأمر كما افترض الشيخ المرصفى رحمه الله ، وإنما هى عبارة تهكم واستهزاء

إلى البيان ، وقوله: أصحابَ محمد اختصاص وينتصب بفعل مضمر، وهو أعنى، ليبين مَنْ هؤلاء الجماعةُ كما يُنْشَدُ :

* نحْنُ بنى ضَبَّةَ أصحابُ الْجَمَلْ *

أراد : نحن أصحاب الجمل ، ثم بَيَّنَ مَنْ هُمْ ، لأن هذا قد كان يقع على مَنْ دون بنى ضَبَّةَ معه ، وعلى من فوقها إلى مُضَرَ ونزار ومَعَدٍّ ومَنْ بعدهم ، وكذلك: نحن العَرَبَ أقْرَى الناسِ لضيف ، ونحن الصَّعاليكَ لاطاقة بنا على المُروءةِ ، ويُخْتَارُ فى هذا الشعر (هو لِعمرِو بن الأَهْتَمِ) :

إنا بنى مِنْقَرٍ قَوْمٌ ذوو حَسَبٍ فينا سَراةُ بنى سَعْدٍ وناديها

وقليل هذا يدل على جميع هذا الباب فافهم .

باب

قال أبو العباس : هذه أشعار اخترناها من أشعار المولّدين حكيمةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ يُحْتَاجُ إليها للتمثُّلِ ، لأنها أشْكَلُ بالدهر[١] ويُسْتَعارُ من ألفاظها فى المخاطبات والخُطَبِ والكُتُبِ . قال عبد الصَّمَدِ بن المُعَذَّلِ[٢] :

تُكَلِّفُنِى إذْلالَ نَفْسِى لِعِزِّها وهانَ عليها أَنْ أُهانَ لِتُكْرَما
تقولُ سَلِ المعروفَ يَحْيَى بنَ أَكْثَمٍ فقلتُ سَلِيهِ رَبَّ يَحْيَى بن أكثما[٣]

(بالثاء مثلثة لاغير ، وكذلك أَكْثَمُ بن صَيْفِيّ ، ويقال إن يَحْيَى بن أَكْثَمَ من ولد أَكْثَمَ بن صَيْفِى) .

وقال بَشَّار بن بُرْدٍ يذكر عُبَيْدَ اللهِ بن قَزْعَةَ ، وهو أبو المُغيرةِ أخو المَلَوِىِّ المتكلم قال ، وقال المازنى : لم أرَ أَعْلَمَ من المَلَوِىِّ بالكلام ، وكان من أصحاب إبراهيم النَّظَّامِ :

خليلىَّ مِنْ كَعْبٍ أعينا أخاكُما على دَهْرِهِ إنَّ الكريمَ مُعِينُ
ولا تَبْخَلا بُخْلَ ابْنِ قَزْعَةَ إنه مَخافَةَ أن يُرْجَى نَداهُ حَزينُ
كأنَّ عُبَيْدَ اللهِ لم يَلْقَ ماجِدًا ولم يَدْرِ أنَّ المَكْرُماتِ تكونُ

---

(١) أى أشبه بحوادثه .

(٢) من شعراء الدولة العباسية ، وكان خبيث اللسان ، روى له الحصرى فى (زهر الآداب) طائفة من الأشعار .

(٣) كان هذا الشاعر يغشى مجلس القاضى يحيى بن أكثم ، وكان يجد أحيانا مشقة ومذلة فى الوصول اليه فانقطع عن زيارته فلامته امرأته فقال هذين البيتين .

فقل لأبي يَحْيَي مَتى تُدْرِكُ العُلَى ... وفى كُلِّ معْرُوفٍ عليك يَمِين
إذا جئتَهُ فى حاجةٍ سَدَّ بابَهُ ... فلم تَلْقهُ إلا وَأَنْتَ كمِينُ

نظيرُ قوله :

* وفى كل معروف عليك يمينُ *

قولُ جرير :

وَلاَ خَيْرَ فى مال عليه أَلِيّةٌ ... ولا فى يمين عُوقِدَتْ بالمآثِمِ

وقال إسماعيل بن القاسم (هو أبو العتاهِيَةِ) :

أَطِعِ اللهَ بِجُهْدِكَ ... عَامِدًا أو دونَ جُهْدِكَ
أَعْطِ مَوْلاَكَ كما تَطْلُبُ من طاعةِ عَبْدِكَ

وقال محمود[1] :

تَعْصِي الإلهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هذا مُحَالٌ فى القِياسِ بَدِيعُ
لو كان حُبُّكَ صادقًا لأَطَعْتَهُ ... إنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطيعُ

وقال أيضاً :

إنى شَكَرْتُ لِظالِمِي ظُلْمِي ... وَغفَرْتُ ذاكَ لَهُ على عِلْمِي
ورأيتُه أَسْدَى إلىَّ يدًا ... لَمَّا أبانَ بِجَهْلِهِ حِلْمِي
رَجعَتْ إساءَتُهُ عليه وَإِحْسَانى فعادَ مُضاعَفَ الجُرْمِ
وَغدَوْتُ ذا أجْرٍ وَمَحْمَدَةٍ ... وغدا بِكَسْبِ الظُّلْمِ وَالإِثْمِ
فكأنما الإِحسانُ كان لهُ ... وأنا المُسِيءُ إليه فى الحُكْمِ

---

(١) محمود بن حسن الوراق ، مات فى عهد المعتصم .

مازال يَظلِمُنِى وَأَرْحَمُهُ حتى بَكَيْتُ له من الظُّلْمِ

أَخَذَ هذا المعنى من قول رجل من قُرَيْشٍ لرجل قال له : إنى مررتُ بقوم من قريش من آل الزُّبَيْرِ أو غيرهم يَشْتِمونَكَ شَتْماً رَحِمْتُكَ منه ، قال أَفَسَمِعْتَنِى أقول إلا خَيْرًا ؟ قال: لا ، قال: إِيَّاهُمْ فَارْحَمْ.

وقال أبو بكر الصِّدِّيقُ رحمه الله لرجل قال له لَأَشْتِمَنَّكَ شَتْماً يَدْخُلُ معك فى قبرك ، قال معكَ والله يَدْخُلُ لا معى ! !

وقال ابن مسعود : إن الرجل ليظلمنى فأَرْحَمُهُ .

وقال رجل للشعبي كلامًا أَقْذَعَ له فيه ، فقال له الشعبي : إن كنتَ صادقا فغفر الله لى ، وإن كنتَ كاذبا فغفر الله لك .

ويروى أنه أتى مسجداً فصادف فيه قوما يغتابونه فأخذ بِعِضادَتَىِ(١) الباب ، ثم قال :

هَنِيئاً مَرِيئاً غيرَ دَاءِ مُخامِرٍ لِعَزَّةَ من أعراضِنا مااستَحَلَّت

وذكر ابن عائشة أن رجلا من أهل الشام قال : دخلتُ المدينة فرأيتُ رجلا راكباً على بغلة لم أر أحسن وجهاً ولا سَمْتاً ولا ثوبا ولا دابة منه ، فمال قلبي إليه ، فسألت عنه فقيل لى : هذا الحسن بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما ، فامتلأ قلبي له بُغضاً ، وحسَدْتُ عَلِيًّا أن يكون له ابن مثله ، فَصِرْتُ إليه ، فقلتُ له : أأنتَ ابن أبى طالب ؟ فقال أنا ابن ابنه ، فقلت فَبِكَ وبأبيك أَسُبُّهما ، فلما انقضى كلامى قال لى : أَحْسِبُكَ غريباً ، قلت : أَجَلْ

(١) هما الخشبتان المنصوبتان عن يمين الداخل وشماله .

قال فَمِلْ بنا ، فإن احتجْتَ إلى منزل أنزلناك ، أو إلى مال آسيْناكَ ، أو إلى حاجة عاوَنَّاكَ . قال فانصرفت عنه ووالله ما على الأرض أحدٌ أحبُّ إليّ منه .

وقال محمود الورَّاقُ :

يا ناظرًا يرْنو بعيْـــنَىْ راقدٍ   ومُشاهِدًا للأمْرِ غـَـيْرَ مُشاهِدِ
منّيْتَ نفْسكَ ضَــلّةً وأبحْتَها   طُرُقَ الرّجاء وهُنَّ غيْرُ قَواصِدِ
تَصِلُ الذُّنُوبَ إلى الذُّنوبِ وترْتجِى   درَكَ الجِـــنانِ بها وفوْزَ العابدِ
ونَسِيتَ أنَّ اللهَ أخْرجَ آدمًا   مِنها إلى الدُّنْيا بذَنْبٍ واحِــدِ

وقال الحَــكَمِىُّ (هو أبو نُواسٍ الحسن بن هانئ وهو منسوب إلى حَــكَمٍ قبيلة من مَذْحِجٍ) للفضْل بن الرّبيع :

مَا مِنْ يدٍ فى النّاسِ واحِدَةٍ   كيَدٍ أبُو العبّاس موْلاهَا
نامَ الكِرامُ على مَضاجعِهِمْ   وسَرَى إلى نفْسِى فأحْــياهَا
قدْ كُنْتُ خِفْتُكَ(١) ثُمّ أمّنَنِى   مِنْ أنْ أخافَكَ خوْفُكَ اللهَ
فعفَوْتَ عنّى عفْوَ مُقْتَدِرٍ   حلّتْ لهُ نِقَمٌ فألْـــغاهَا

وقال عبد الله بن محمد بن أبى عُيَيْنَةَ لذى اليمينَيْنِ(٢) (سمى ذا اليمينين لأنه ضرَبَ إنسانًا فجعله قسمين) :

لمّا رأيْتُكَ قاعِدًا مُستَقْبِلاً   أيْقنْتُ أنّكَ لِلْهُمُومِ قرِينُ
فارْفِضْ بهَا(٣) وتعرَّ مِنْ أثْوابِها   إنْ كانَ عِنْدَكَ لِلْقضاءِ يقِينُ
مالا يكُونُ فلا يكُونُ بحِيلَةٍ   أبدًا ومَا هُوَ كائِنٌ سيَكُونُ

---

(١) يريد : كان خاف أن يذكره بسوء عند الأمين .

(٢) هو طاهر بن الحسين . (٣) أى ارفضها ، والباء زائدة .

يَسْعَى الذَّكِىُّ فلا ينالُ بِسعْيِهِ حَظًّا وَيَحْظَى عاجِزٌ وَمَهِينُ
سيكونُ ما هُوَ كائنٌ فى وَقتِهِ وَأخُو الجهالَةِ مُتْعَبٌ مَحْزُونُ
اللهُ يَعْلَمُ أنَّ فُرْقَةَ بَيْنِنَا فِيما أرَى شَىْءٌ عَلَىَّ يَهُونُ

وقال صالح بن عبد القُدُّوسِ : (صَلَبَهُ عبد المَلِكِ بن مَرْوان[1] على الزَّنْدَقة أعنى صالحا) :

إنْ يَكُنْ ما بِهِ أُصِبْتُ جَلِيلاَ فَذَهابُ العَزَاءِ فِيهِ أجَلُّ
كُلُّ آتٍ لاشكَّ آتٍ وَذُو الجَهْـلِ مُعَنًّى وَالغَمُّ وَالحُزْنُ فَضْلُ

⁂

وأنشد مُنْشِدٌ من الأبيات المنفردة القائمة بأنفسها (لهشام ابن عبد المَلِكِ) :

إذا أنْتَ لمْ تَعْصِ الهَوَى قَادَكَ الهَوَى إلَى بَعْضِ ما فِيهِ عَلَيْكَ مَقالُ

ومنها قول ابن أبى وُهَيْبٍ[2] :

وَإنِّى لأَرْجُو اللهَ حَتَّى كأنَّنِى أرَى بجَمِيلِ الظَّنِّ ما اللهُ صانِعُ

وقال آخر :

وَيَعْرِفُ وَجْهَ الحَزْمِ حَتَّى كأنَّما تُخاطِبُهُ مِنْ كُلِّ أمْرٍ عَواقِبُهْ

وقال أشْجَعُ السُّلَمِىُّ :

---

(١) قال الشيخ المرصفى : هذا غلط بين ، وإنما الذى عاقه ببغداد بعد ماضربه بالسيف نقده نصفين أمير المؤمنين المهدى .

(٢) قال الشيخ المرصفى : صوابه محمد بن وهيب ، وهو القائل فى المعتصم :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحق والقمر

رَأْيٌ سَرَى وَعُيُونُ النَّاسِ رَاقِدَةٌ ... ما أَخَّرَ الحَزْمَ رَأْيٌ قَدَّمَ الحَذَرَا

وقال آخر :

فَلِلَّهِ مِـنِّى جانِبٌ لا أُضِيعُهُ ... وَلِلَّهْوِ مِـنِّى وَالْبَطالَةِ جانِبُ

وقال آخر :

فَلَوْ عابَ نَفْسِي غَيْرُ نَفْسِي لَسُؤْتُهُ ... فَكَيْفَ وَنَفْسِي قَدْ أَتَتْ ما يَعِيبُها

وقال آخر :

يَرَى فَلَتاتِ الرَّأْيِ وَالرَّأْيُ مُقْبِلٌ ... كَأَنَّ لَهُ فى الْيَوْمِ عَيْنًا عَلَى غَدِ

وقال عبد الصَّمَدِ بن المُعَذَّل :

أَمُنُّ عَلَى المُجْتَـدِى(١) ... وَمَا أُتْبِعُ الْمَنَّ مَنْ(٢)

كَأَنْ لَمْ يَزَلْ مَا أَتَى ... وَمَا قَدْ مَضَى لَمْ يَكُنْ

أَرَى النَّاسَ أُحْـدُوثَةً ... فَكُونِى حَدِيثًا حَسَنْ

وقال أيضاً :

زَعَمَتْ عاذِلَـتِى أَنِّى لِمَا ... حَفِظَ الْبُخْلُ مِنَ المَالِ مُضِيعُ

كَلَّفَتْنِى عِذْرَةَ(٣) الْبَاخِلِ إِذْ ... طَرَقَ الطَّارِقُ وَالنَّاسُ هُجُوعُ

لَيْسَ لِى عُذْرٌ وَعِنْدِى بُلْغَةٌ ... إِنَّمَا الْعُذْرُ لِمَنْ لاَ يَسْتَطِيعُ

وقال الحسن بن هانئ الحَكَمِىُّ :

---

(١) المجتدى : طالب المعروف .

(٢) المن الأول: الاحسان ، والمن الثانى: الفخر بالاحسان وهو مذموم .

(٣) العذرة بكسر العين : الاسم من الاعتذار.

إليكَ غدَتْ بي حاجةٌ لمْ أبُحْ بهَا ... أخافُ علَيْهَا شامِتًا فأُدارِى
فأرْخِ علَيْهَا سِتْرَ معْروفِكَ الذى ... سَتَرْتَ بهِ قِدْمًا علىَّ عوارِى (١)

وقال أيضاً :

قَدْ قُلْتُ لِلعبَّاسِ مُعْتذِرًا ... مِنْ ضَعْفِ شُكْرِيهِ ومُعْتَرِفا
أنْتَ امْرُؤٌ جلَّلْتَنِى نِعمًا ... أوْهَتْ قُوَى شُكْرِى فقدْ ضَعُفَا
فإليْكَ بعْدَ اليوْمِ تقْدِمةً ... لاقتْكَ بالتَّصْرِيحِ مُنْكَشِفا
لا تُحْدِثَنَّ إلَىَّ عارِفَةً (٢) ... حتَّى أقُومَ بِشُكْرِ ما سَلَفَا

*

وقال دِعْبلُ (٣) بن علىّ الخُزاعِىُّ :

أحْببْتُ قوْمِى ولمْ أعْدِلْ بحُبِّهِمُ ... قالُوا تعصَّبْتَ جهْلاً قوْلَ ذى بهَتِ
دعْنى أصِلْ رحِمِى إنْ كُنْتَ قاطِعهَا ... لاَ بُدَّ لِلرَّحِمِ الدُّنْيَا مِنَ الصِّلَةِ
فاحْفظْ عشيرتَكَ الأدْنيْنَ إنَّ لهُمْ ... حقًّا يُفرِّقُ بيْنَ الزَّوْجِ والمرْةِ
قوْمِى بنُو مذْحِجٍ والأزْدُ إخْوتُهُمْ ... وآلُ كِنْدَةَ والأحْياءُ مِنْ عُلَةِ
ثُبْتُ الحُلُومِ فإنْ سُلَّتْ حفائِظُهُمْ ... سلُّوا السيُوفَ فأرْدَوْا كُلَّ ذى عنَتِ
لاَ تعْرِضَنَّ بمزْحٍ لامْرِئٍ طبِنٍ (٤) ... مَا راضهُ قلْبُهُ أجْراهُ فى الشفَةِ
فرُبَّ قافِيةٍ بالمزْحِ جارِيَةٍ ... مشْئُومةٍ لمْ يُرِدْ إنْماءَهَا نمَتِ
إنِّى إذا قُلْتُ بيْتًا ماتَ قائِلُهُ ... ومَنْ يُقالُ له والبيتُ لمْ يمُتِ

---

(١) العوار بفتح العين : العيب . (٢) هى المعروف .
(٣) للشاعر دعبل نفسية معقدة ، وقد درست نفسه أعمق الدرس فى كتاب (المدائح النبوية) .
(٤) الطبن بكسر الباء : الفطن الحاذق .

وقال أيضاً :

نَعَوْنِي ولَمَّا يَنْعَنِي غَيْرُ شامِتٍ　　وغيرُ عَدُوٍّ قد أصيبت مقَاتِلُه
يقولون إن ذاقَ الرَّدَى مات شِعْرُهُ　　وَهَيْهَاتَ عُمْرُ الشِّعْرِ طالت طوائِلُه[1]
سَأَقْضِي ببيتٍ يَحْمَدُ الناسُ أَمْرَهُ　　وَيَكْثُرُ من أَهْلِ الرِّوايةِ حامِلُه
يموت رَدِيُّ الشِّعْرِ من قبل أَهْلِهِ　　وَجَيِّدُهُ يَبْقَى وَإِنْ مات قائِلُه

(البيت الأخير ليس لدِعْبِلٍ ، وإنما هو مُضَمَّنٌ) .

⁂

وقال اسماعيل بن القاسم :

يا مَنْ يَعيبُ وعَيْبُهُ مُتَشَعِّبٌ　　كَمْ فيكَ من عَيْبٍ وأنتَ تَعيبُ
لله دَرُّكَ كيفَ أنتَ وغايَةٌ　　يَدْعوكَ رَبُّكَ عندها فتُجيبُ

وقال أيضاً :

يا عليُّ بنَ ثابتٍ بانَ مِنِّي　　صاحبٌ جَلَّ فَقْدُهُ يومَ بِنْتا
يا عليُّ بن ثابت أَيْنَ أَنْتا　　أنْتَ بين القُبورِ حيْثُ دُفِنْتا
قد لَعَمْرِي حَكَيْتَ لي غُصَصَ المَوْ　　تِ وحَرَّكْتَنِي لها وسَكَنْتا

وقال أيضاً :

صاحِبٌ كان لى هَلَكْ　　والسَّبيلُ التى سَلَكْ

(والسبيلُ التى سلك: ابتداء وخبر ، ومن قال غير هذا فقد أخطأ) :

يا عليُّ بنَ ثابتٍ　　غفرَ اللهُ لى ولَكْ

---

(١) أى طالت مدة عمره .

كُلُّ حَيٍّ مُمَلَّكٍ سَوْفَ يَفْنَى وما مَلَكْ

وقال أيضاً :

طَوَتْكَ خُطوبُ دهرِكَ بعد نَشْرٍ كذاكَ خُطوبُه نَشْرًا وطَيًّا
فلو نَشَرَتْ قُواكَ لِيَ المَنايا شَكَوْتُ إليكَ ما صَنَعَتْ إليًّا
بكَيتُكَ يا أُخَيَّ بدمعِ عيني فلم يُغْنِ البُكاءُ عليك شيًا
كَفَى حَزَنًا بدَفْنِكَ ثم إنِّي نَفَضْتُ تُرابَ قبرِكَ عن يدَيًّا
وكانتْ في حياتِكَ لي عِظاتٌ وأنت اليومَ أوعَظُ منكَ حيًّا

وكان إسماعيل بن القاسم لا يكاد يُخلى شعره مما تقدم من الأخبار والآثار فينظم ذلك الكلام المشهور ويتناوله أقربَ مُتَناوَلٍ ويَسْرِقه أخفَى سَرِقَةٍ[1] فقوله : وأنت اليوم أوعظ منك حيا ، إنما أخذه من قول المُوبَذِ لِقُباذَ المَلِكِ حيث مات فانه قال في ذلك الوقت : كان المَلِكُ أمْسِ أنْطقَ منه اليوم ، وهو اليومَ أوعَظُ منه أمس .

وأخذ قوله :

قد لعَمْرِي حَكَيْتَ لي غُصَصَ المو تِ وحرَّكْتَنِي لها وسكنتا

من قول نادبِ الإسْكَنْدَرِ فانه لما مات بكى مَنْ بحضرته فقال نادِبُهُ : حَرَّكَنا بسُكونه .

وقال اسماعيل بن القاسم (وهو أبو العَتاهِيَةِ) :

ياعَجبا للناسِ لَوْ فَكَّرُوا وحاسَبوا أنفسهم أبْصَرُوا

---

(١) تجد تفصيل القول عن زهديات أبي العتاهية في الجزء الأول من كتاب (التصوف الاسلامي)

وعَبَرُوا الدنيا إلى غَيْرِها … فإنما الدنيا لَهُم مَعْبَرُ[1]

(معبر بفتح الميم وكسرها لابن سراج ، وبفتح الميم لاغير رواية عاصم) :

الخَيْرُ مما لَيْسَ يَخْفَى هو الـ … ـمَعروفُ والشَّرُّ هو المُنْكَرُ

وَالمَوْعِدُ الموتُ وما بعده الـ … ـحَشْرُ فذاكَ المَوْعِدُ الأكْبَرُ

لا فَخْرَ إلاَّ فخْرُ أهْلِ التُّقى … غَـداً إذا ضَمَّهُمُ المَحْشَرُ

لَيَعْلَمَنَّ الناسُ أن التُّقَى … والبِرَّ كانا خَيْرَ ما يُذْخَرُ

عَجِبْتُ للإنسانِ في فَخْرِهِ … وهْوَ غدًا في قبره يُقْبَرُ

ما بالُ مَن أوَّلُهُ نُطفَةٌ … وجِيفَـةٌ آخِرُهُ يَفْخَرُ

أصْبَحَ لا يَمْلِكُ تَقْدِيمَ ما … يَرْجو ولا تأخيرَ ما يَحْذَرُ

وأصْبَحَ الأمْرُ إلى غـيره … في كلٍّ ما يُقْضَى وما يُقْدَرُ

أما قوله :

يا عجبا للناس لو فكروا … وحاسبوا أنفسهم أبصروا

فمأخوذ من قولهم : الفِكْرةُ مِرْآةٌ تُرِيكَ حَسَنَكَ من قَبِيحِكَ ، ومن قول لُقْمانَ لابنه : يا بُنَيَّ لا ينبغى لعاقل أن يُخْلِيَ نَفْسَهُ من أربعة أوقات : فوقتٌ منها يناجى فيه ربه ، ووقت يُحاسب فيه نفسه ، ووقتٌ يَكْسِبُ فيه لمعاشه ، ووقتٌ يُخَلِّي فيه بين نفسه وبين لذتها ليستعين بذلك على سائر الأوقات .

وقوله :

وعبروا الدنيا إلى غيرها … فإنما الدنيا لهم مَعْبَرُ

---

(١) المعبر : اسم للشط المهيأ للعبور

مأخوذ من قول الحسن : اجْعَلِ الدنيا كالقَنْطرة تَجوزُ عليها ولا تَعْمُرُها .

وقوله :

الخير مما ليس يخفى هو الـــمعروف والشر هو المنكر

مأخوذ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاصى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عبدَ الله كيفَ بكَ إذا بَقيتَ فى حُثالةٍ من الناس مَرَجَتْ عُهودُهُمْ وأماناتُهُمْ ، وصار الناس هكذا ، وشَبَّكَ بين أصابعه ، فقلتُ مُرْنِى يارسولَ الله ، فقال : خُذْ ما عرَفْتَ ، ودَعْ ما أنْكَرْتَ ، وعليك بخُوَيْصَةِ نفسك ، وإيَّاكَ وعوامَّها .

قوله صلى الله عليه وسلم : فى حُثالةٍ من الناس ، أما الحُثالةُ فهو ما يَبْقى فى الإناء من رَدِىِّ الطعام ، وضرب به مَثَلاً ، وقوله : مَرَجَتْ عُهودُهم ، يقول اختلطت وذهبت بهم كلَّ مَذْهَبٍ ، يقال مَرَجَ الماء إذا سال فلم يكن له مانع ، قال الله عز وجل « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ » .

وقوله :

لَيَعْلَمَنَّ النَّاسُ أَنَّ التُّقى وَالْبِرَّ كانا خَيْرَ ما يُذْخَرُ

مأخوذ مِنْ قَوْلِ أبى هُرَيْرَةَ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إذا حُشِرَ الناسُ فى صَعيدٍ واحد نادى مُنادٍ من قِبَلِ العَرْش : لَيَعْلَمَنَّ أهلُ المَوْقِفِ مَنْ أهلُ الكَرَمِ اليومَ ؟ لِيَقُمِ المُتَّقون ، ثم تلا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم « إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ » .

وقوله :

مَا بَالُ مَنْ أَوَّلُهُ نُطْفَةٌ وَجِيفَةٌ آخِــرُهُ يَفْخَرُ

مأخوذ من قول على بن أبى طالب رضى الله عنه : وما ابْنُ آدمَ والفَخْر ؟ وإنما أوله نُطْفةٌ وآخره جيفةٌ لا يَرْزُقُ نفسه ولا يَدْفعُ حَتْفَهُ .

⁂

وقال ابن أبى عُيَيْنَةَ :

مَا رَاحَ يَوْمٌ عَلَى حَيٍّ وَلَا ابْتَكَرَا إِلَّا رَأَى عِبْرَةً فِيهِ إِنِ اعْتَبَرَا
وَلَا أَتَتْ سَاعَةٌ فِى الدَّهْرِ فَانْصَرَمَتْ حَتَّى تُؤَثِّرَ فِى قَوْمٍ لَهَا أَثَرَا

(فانْصَرَفَتْ أشْبَهُ للمطابقة ، والمشهور انصرمتْ)

إِنَّ اللَّيَالِىَ وَالْأَيَّامَ أَنْفُسَهَا عَنْ غَيْرِ أَنْفُسِهَا لَمْ تَكْتُمِ الْخَبَرَا[1]

فأخذ هذا المعنى حَبيبُ بن أوْسٍ الطائىُّ وجمعه فى ألفاظ يسيرة فقال :

عَمْرِى لَقَدْ نَصَحَ الزَّمانُ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْعَجَائِبِ نَاصِحٌ لا يُشْفِقُ

فزاد بقوله ناصح لا يشفق على قول ابن أبى عُيَيْنَةَ شيئاً طريفاً ، وهكذا يعمل الحاذق بالكلام ، ولو قال قائل : إن أقرب ما أخَذَ منه أبو العَتاهِيةِ :

لَيَعْلَمَنَّ النَّاسُ أَنَّ التُّقَى وَالْبِرَّ كَانَا خَيْرَ مَا يُذْخَرُ

من قول الخليل بن أحمد[2] (قال أبو الحسن : زعم النسابون أنهم لا يعرفون منذ وقت النبى صلى الله عليه وسلم إلى الوقت الذى وُلِدَ فيه أحمدُ أبو الخليل أحداً سُمِّىَ بأحمد غيره) :

وَإِذَا افْتَقَرْتَ إِلَى الذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ ذُخْراً يَكُونُ كَصَالِحِ الْأَعْمَالِ

---

(١) أى ان الأيام لا تزال تحدث الناس بما تظهره من الحوادث .

(٢) الصحيح أن البيت الآتى للأخطل وبعده :

والناس همهم الحياة وما أرى طول الحياة يزيد غير خبال

لكان قد قال قولاً .

وقال العباس بن الفرَج :

أمَلِي مِنْ دُونِهِ أجَلِي ... فَمَتَى أُفْضِي إلَى أمَلِي

⁂

وقال الخليل بن أحمد وكان نظر فى النجوم فأبعَدَ ثم لمْ يرْضَها فقال :

أبْلغَا عَنِّيَ المُنجِّمَ أنِّى ... كافِرٌ بالَّذِى قَضَتْهُ الكَوَاكِبْ

عَالِمٌ أنْ ما يكُونُ وَما كَا ... نَ بحَتْمٍ مِنَ المُهَيْمِنِ وَاجِبْ

وقال محمد بن بَشِيرٍ يعيب المتكلمين أنشدنيه الرِّياشِيُّ :

يَا سائِلِي عَنْ مَقالَةِ الشِّيَعِ ... وَعَنْ صُنُوفِ الأَهْوَاءِ وَالبِدَعِ

دَعْ مَنْ يَقُودُ الكَلامَ نَاحِيَةً ... فَمَا يَقُودُ الكَلامَ ذُو وَرَعِ

كُلُّ أُنَاسٍ بَدِيُّهُمْ حَسَنٌ ... ثُمَّ يَصِيرُونَ بَعْدُ لِلشُّنَعِ

أكْثَرُ ما فِيهِ أنْ يُقالَ لَهُ ... لَمْ يَكُ فى قَوْلِهِ بِمُنْقَطِعِ

وأنشدنى الرياشيُّ لغيره :

قَدْ نَقَّرَ(١) النَّاسُ حَتَّى أحْدَثُوا بِدَعاً ... فى الدِّينِ بِالرَّأْىِ لَمْ تُبْعَثْ بِهَا الرُّسُلُ

حَتَّى اسْتَخَفَّ بِحَقِّ اللهِ أكْثَرُهُمْ ... وَفى الَّذِى حُمِّلُوا مِنْ حَقِّهِ شُغُلُ

وقال محمد بن بشير :

وَيْلٌ لِمَنْ لَمْ يَرْحَمِ اللهُ ... وَمَنْ تَكُونُ النَّارُ مَثْوَاهُ

يَاحَسْرَتَا فى كُلِّ يَوْمٍ مَضَى ... يُذَكِّرُنى المَوْتَ وَأنْسَاهُ

---

(١) من التنقير وهو البحث .

من طال فى الدنيا به عُمْرُهُ   وعاشَ فالموتُ قُصاراهُ
كأنَّهُ قد قيلَ فى مجلسٍ   قد كنتُ آتيهِ وأغشاه
صار البَشِيرِىُّ إلى ربه   يَرْحمُنا اللهُ وَإِيَّاهُ ☼

وقال أيضاً :

أىُّ صفوٍ إلا إلى تـكدير   ونعيمٍ إلاّ إلى تغْيير
وسُرورٍ وَلَذَّةٍ وحُبورٍ   ليس رَهْناً لنا بيومٍ عسير
عَجباًلى ومن رِضاى بدنيا   أنا فيها على شفاً تغْرير
عالمٌ لا أشُكُّ أنِّى إلى اللهِ   إذا مِتُّ أوعذابِ السَّعير
ثم ألهُو ولسْتُ أدْرِى إلى أيِّـهما بعده يَصير مصيرى
أىُّ يوْمٍ علىَّ أفظعُ من يو   مٍ به تُبْرِزُ النُّعاةُ سَريرى
كُلَّما مُرَّ بى على أهل نادٍ   كنتُ حِيناً بهم كثيرَ المُرورِ
قِيلَ مَنْ ذا علَى سَرِيرِ المنايا   قِيـلَ هذا مُحمَّدُ بْنُ بَشِيرِ

⁂

وقال الحَكَمِىُّ أبو نُواسٍ :

أخى ما بالُ قلبكَ ليسَ ينْقَى   كأنَّكَ لا تظُنُّ المَوْتَ حقّاً
ألاَ يا ابْنَ الذِينَ فنُوا وبادُوا   أمَا واللهِ ما ذَهبُوا لِتبْقَى
وَمَا أحدٌ بزادِكَ منكَ أحْظَى   وَمَا أحدٌ بِزادِكَ مِنْكَ أشْقَى
وَلاَ لكَ غيْرَ تقْوَى اللهِ زادٌ   إذا جَعلَتْ إلَى اللَّهوَاتِ ترْقَى

ومما يستحسن من شعره قوله :

لا أذودُ الطَّيْرَ عن شجرٍ قد بَلَوْتُ المُرَّ من ثَمَرِهْ

فمثل هذا لو تقدم لكان فى صدور الأمثال ، وكذلك قوله أيضاً :

فامْضِ لا تَمْنُنْ عَلَيَّ يدًا مَنُّكَ المعْرُوفَ مِنْ كَدَرِهْ

وكان يقول : ذِكْرُ المعروف من المُنْعِمِ إفسادٌ له ، وكتمانه من المُنْعَمِ عليه كُفرٌ له ، وفى هذا الشعر أبيات مختارة ، فمنها :

وَإذَا مَجَّ القَنَا عَلَقًا(١) وَتَرَاءَى المَوْتُ فى صُوَرِهْ

رَاحَ فى ثِنْيَيْ مُفاضَتِهِ(٢) أسَدٌ يَدْمَى شَبَا ظُفُرِهْ

تَتَأَيَّى(٣) الطَّيْرُ غَدْوَتَهُ ثِقَةً بِالشِّبْعِ مِنْ جَزَرِهْ

فاسْلُ عَنْ نَوْءٍ تُؤَمِّلُهُ حَسْبُكَ العَبَّاسُ مِنْ مَطَرِهْ

لاَ تَغَطَّى عَنْهُ مَكْرُمَةٌ بِرُبَا وَادٍ وَلاَ خَمَرِهْ

ذُلِّلَتْ تِلْكَ الفِجَاجُ لَهُ فَهْوَ مُجْتَازٌ عَلَى بَصَرِهْ

وقد عابوا عليه قوله :

كَيْفَ لاَ يُدْنِيكَ مِنْ أَمَلٍ مَنْ رَسُولُ اللهِ مِنْ نَفَرِهْ

وهو لَعَمْرِى كلام مُسْتَهْجَنٌ موضوع فى غير موضعه ، لأن حق رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُضاف إليه ، ولا يضاف إلى غيره ، ولو اتسع متسع فأجراه فى باب الحيلة لخرج على الاحتيال ، ولكنه عسِرٌ موضوع فى غير موضعه ، وباب الاحتيال فيه أن تقول : قد يقول القائل من بنى هاشم لغيره مِنْ أفناء قريش: منا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحقٌّ هذا أنه من القبيلِ

(١) العلق بالتحريك : الدم . (٢) المفاضة : الدرع .
(٣) تتأيى : تقصد وتتعمد .

الذى أنا منه، فقد أضافه إلى نفسه، وكذلك يقول القُرَشِىُّ لسائر العرب ، كما قال حسانُ بن ثابت :

وَمَا زَالَ فى الْإِسْلَامِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ دعائمُ عِزٍّ لا تُرامَ ومَفْخَرُ
بَهَالِيلُ منهم جعفرٌ وابْن امِّهِ علىٌّ ومنهـــم أحمد المُتَخَيَّرُ

فقال منهم كما قال هذا من نفره ، أراد من النفر الّذين العباسُ هذا الممدوح منهم .

وأما قول حسَّان : منهم جعفر وابن أمه على ، ومنهم أحمد المتخير ، فإن العرب إذا كان العطف بالواو قدّمتْ وأخرتْ ، قال الله تبارك وتعالى : « هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُم كَافِرٌ وَمِنْكُم مُؤْمِنٌ » وقال : « يَامَعْشَرَ الجِنِّ وَالْإِنْسِ » وقال : « اُسْجُدِى وَارْكَعِى مَعَ الرَّاكِعِينَ » ولوكان بثمّ أو بالفاء لم يصلح إلا تقديم المقدم ، ثم الّذى يليه واحداً فواحداً .

وأما قوله فى هذا الشعر :

وكريمُ الخال من يَمَنٍ وكريمُ العمّ من مُضَرِه

فاضاف مُضَرَ إليه ، فهو أجود كلامٍ لايمتنعُ منه ممتنع ، قال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه يوم الجمل للأشْتَرِ ، وهو مالك بن الحرث أحَدُ النَّخَعِ بن عمرو بن عُلَةَ بن جَلْدٍ ، وكان على المَيْمَنَةِ : احْمِلْ ، فَحَمَلَ فى أصحابه فَكَشَفَ مَنْ بازائه ، ثم قال لهاشم بن عُتْبَةَ بن مالك أحد بنى زُهْرَةَ ابن كلاب ، وكان على المَيْسَرَةِ : احْمِلْ ، فَحَمَل فى المُضَرِيَّةِ فكَشَفَ مَنْ بإزائه ، فقال علىٌّ رضى الله عنه لأصحابه : كيف رأيتم مُضَرِى ويَمَنِى ! فأضاف القبيلتين إلى نفسه . قال جرير :

إن الذين ابتنوا مجداً ومكرمة ... تلكم قريشي والأنصار أنصاري

❁

ومما يستحسن من أشعار المُحْدَثين قول إسحاق بن خلف البهرانيّ، ونسبه في بني حنيفة لِسباء وقع عليه، يقوله لعلي بن عيسى بن موسى بن طلحة الأشعري المعروف بالقُمّيّ (منسوب إلى قُمَّة[1]، وهي بلدة أو قرية من خُراسان):

وللكُرْدِ منك إذا زُرْتهم ... بكيدك يومٌ كيوم الجمل
وما زال عيسى بن موسى له ... مواهبُ غيرُ النطاف المُكُل[2]
لسَلّ السيوف وشقّ الصفوف ... لنقْضِ التراتِ وضَرْب القُلَل[3]
ولُبْسُ العجاجة والخافقات ... تُريك المنا برءوس الأسل
وقد كشَرتْ عن شبًا نابها ... عروسُ المنيّة بين الشُّعَل
وجاءتْ تهادَى وأبناؤها ... كأنَّ عليهم شُروقَ الطَّفَلْ
خَروسٌ نطوقٌ إذا استُنْطِقَتْ ... جَهولٌ تَطيشُ على مَنْ جَهِل
إذا خُطِبَتْ أخذتْ مَهْرَها ... رءوساً تحادَرُ قبل النفل
ألذُّ إليه من المُسْمِعات ... وحَثّ الكُؤوسة في يوم طَلّ
وشُرْبِ المُدام ومَنْ يشتهيه ... مُعاطٍ له بمِزاج القُبَل
بعثنا النواعج تحت الرحال ... تَسافهُ أشداقُها في الجُدُل
إذا ما حُدِينَ بمدح الأمير ... سبقْنَ لحاظَ المُحِثّ العَجِلْ

(من كسر الميم فهو من حَثّ، ومن ضم الميم جعله من أحَثَّ، يقال حث

---

(١) الصواب: قمّ.

(٢) المكل بضمتين: جمع مكول على وزن صبور، وهي البئر، قل ماؤها أو كثر، فهي من الأضداد

(٣) جمع قله بالضم وهي الرأس.

وأحث على فَعَلَ وعلى أفْعَلَ لغتان) قوله : تريك المَنا ، يريد المنايا ، وهذه كلمة تَخِفُّ على ألسنتهم فيحذفونها ، وزعم الأصمعى أنه سمع العرب تقول : دَرَسَ المَنا ، يريدون المنازل ، وجاء فى التخفيف أعجبُ من هذا : حدثنا بعض أصحابنا عن الأصمعى وذكره سيبويه فى كتابه ولم يذكر قائله ولكنّ الأصمعى قال : كَانَ أَخَوان متجاوران لا يكلم كل واحد منهما صاحبه سائرَ سنته حتى يأتى وقت الرعى ، فيقول أحدهما لصاحبه : ألاتا ، فيقول الآخر بلى فا ، يريد ألا تنهض ؟ فيقول الآخر : بلى فأنهض ، وحكى سيبويه فى هذا الباب :

بِالْخَيْرِ خَيْرَاتٍ[1] وَإِنْ شَرًّا فَا ... وَلاَ أُرِيدُ الشَّرَّ إِلاَّ أَنْ تَا

يريد وإن شرا فشر ، ولا أريد الشر إلا أن تريد (قال ش : قول أبى العباس إلاّ أن تريد وَهَمٌ ، وإنما هو إلا أن تشاء ، ولو كان كما قال أبو العباس كَانت التاء مضمومة) .

⁂

وهذا[2] خلاف ما تستعمله الحكماء ، فإنه يقال : إن اللسان إذا كثرت حركته رقّتْ عَذَبَتُهُ .

وحدثنى أبو عثمان الجاحظ قال : قال لى محمد بن الجَهْمِ : لما كانت أيامُ الزُّطِّ أدْمَنْتُ الفِكْرَ ، وأمسكت عن القول ، فأصابتنى حُبْسَةٌ فى لسانى .

وقال رجل من الأعراب يذكر آخَرَ منهم :

(١) يريد : أجزى بالخير خيرات .

(٢) أى هذا الاختصار فى القول ، وهو يورث حبسة اللسان .

كَأَنَّ فيــهِ لَفَفاً إِذَا نَطَقْ   مِنْ طُولِ تَحْبِيسٍ وَهَمٍّ وَأَرَقْ

وقال رجل لخالد بن صفوان : إنك لتُكثِرُ ، فقال أُكْثِرُ لضربين : أحدهما فيما لا تُغْنِي فيه القلةُ ، والآخر لتمرين اللسان ، فإن حبسه يورث العُقْلَة .

وكان خالد يقول : لا تكون بليغاً حتى تُكَلِّمَ أَمَتَكَ السوداء ، فى الليلة الظَّلْماء ، فِى الحاجة المُهِمَّةِ ، بما تتكلم به فى نادى قومك ، فإنما اللسان عُضْوٌ إذا مَرَّنْتَهُ مَرَنَ ، وإذا أهملته خارَ ، كاليد التى تُخَشِّنُهَا بالممارسةِ ، والبدن الذى تُقَوِّيهِ برفع الحَجَرِ ، وما أشبهه ، والرِّجْلِ إذا عُوِّدَتِ المشى مشت .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لا تزالون أصِحَّاءَ ما نَزَعْتُمْ وَنَزَوْتُمْ . فنزعتم فى القِسِىِّ ، ونزوتم على ظهور الخيل .

وقال بعض الحكماء : لا ينبغى للعاقل أن يُخْلِيَ نفسه من ثلاثٍ فى غير إفراطٍ : الأكلُ ، والمشىُ ، والجماعُ ، فأما الأكل فإن الأَمْعاء تضيق لتركه ، وكان ابن الزبير رحمه الله يُواصلُ فيما ذكروا بين خمس عشرة من يوم وليلة ، ثم يُفْطِرُ على سَمْنٍ وَصَبِرٍ لِيفْتُقَ أمعاه ، قال أبو العباس قال الأول[1] والمشىُ إن لم تتمهده أوْشَكْتَ أن تطلبه فلا تجده ، والجماعُ كالبئرِ إن نُزِحَتْ جَمَّتْ ، وإن تُرِكَتْ تحيَّرَ ماؤها .

وحقّ هذا كله القَصْدُ .

وقوله : ✲ كَأَنَّ عَلَيْهِمْ شُرُوقَ الطَّفَلْ ✲ يريد تألُّق الحديد كأنه شمس طالعة عليهم ، وإن لم تكن شمس ، وأحسنُ من هذا قول سلامة ابن جَنْدَلٍ :

---

(١) وهو بعض الحكماء .

كَأَنَّ النَّعَامَ بَاضَ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ   وَأَعْيُنُهُمْ تَحْتَ الْحَدِيدِ جَوَاحِمُ

(أى مُتَّقِدَةٌ) فهذا التشبيه المصيب، وأما قوله:

* أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْمُسْمِعَاتِ * فقد قال مثله القاسم بن عيسى ابن إدريس أبو دُلَف العِجْلِيّ:

يَوْمَايَ يَوْمٌ فِي أَوَانِسَ كَالدُّمَى   لَهْوِى وَيَوْمٌ فِي قِتَالِ الدَّيْلَمِ

هٰذَا حَلِيفُ غَلَائِلٍ مَكْسُوَّةٍ   مِسْكًا وَصَافِيَةٍ كَنَضْحِ الْعَنْدَمِ

وَلِذَاكَ خَالِصَةُ الدُّرُوعِ وَضُمَّرٌ   يَكْسُونَنَا رَهَجَ الْغُبَارِ الْأَقْتَمِ

وَلِيَوْمِهِنَّ الْفَضْـلُ لَوْلَا لَذَّةٌ   سَبَقَتْ بِطَعْنِ الدَّيْلَمِيِّ الْمُعْلَمِ

وأول هذه القصيدة طريف مستملح وهو:

طَوَاهُ الْهَوَى فَطَوَى مَنْ عَذَلْ   وَحَالَفَ ذَا الصَّبْوَةِ الْمُخْتَبَلْ

وأما قوله * تَسَافَهُ أَشْدَاقُهَا فِي الْجُدُلْ * فتسافه من السفه، وإنما يصفها بالمرح، وأنها تميل كذا مرة، وكذا مرة، كما قال رُؤْبَةُ:

* يَمْشِي العِرَضْنَى فِي الْحَدِيدِ الْمُتْقَنِ * وكما قال الآخر:

إِذَا رَأَى السَّوْطَ مَشَى الْهَيْدَبَى   وَيَتَّقِي الْأَرْضَ بِمُعْجٍ رِقَاقِ

(الهيدبى بالدال مهملة ومعجمة، وقوله: بمعج رقاق، يريد قليلة اللحم) وكما قال الحُطَيْئَةُ:

وَإِنْ آنَسَتْ حِسًّا مِنَ السَّوْطِ عَارَضَتْ   بِيَ الْجَوْرَ حَتَّى تَسْتَقِيمَ ضُحَى الْغَدِ

والجُدُلُ: جمع جَدِيلٍ وهو الزمامُ المجدول كما تقول قتيل ومقتول، وأدنى العدد أجْدِلَةٌ، كقولك قضيب وقُضُبٌ وأقضبةٌ، وكذلك كَثِيبٌ ورغيفٌ

وجَريبٌ ، وفُعلانٌ كفُعُلٍ فى الكثير ، يقال قُضْبانٌ ورُغْفانٌ وجُرْبانٌ ،

ومثل قوله : ☆ تَسافَهُ أَشْداقُها فى الجُدُلْ ☆

قول حبيب بن أوْسٍ الطائىّ :

سَفِيهُ الرُّمْحِ جَاهِلُهُ إِذَا مَا بَدَا فَضْلُ السَّفِيهِ عَلَى الحَلِيمِ

☆

ومما يُسْتحسنُ من شعر إسحٰق هذا قوله فى الحسن بن سَهْلٍ :

بَابُ الْأَمِيرِ عَرَاءٌ مَابِهِ أَحَدٌ إِلَّا امْرُؤٌ وَاضِعٌ كَفًّا عَلَى ذَقَنِ
قَالَتْ وَقَدْ أَمِلَتْ مَا كُنْتُ آمُلُهُ هٰذَا الْأَمِيرُ ابْنُ سَهْلٍ حَاتِمُ الْيَمَنِ
كَفَيْتُكَ النَّاسَ لَا تَلْقَى أَخَا طَلَبٍ بِفِيْءِ دَارِكَ يَسْتَعْدِى عَلَى الزَّمَنِ
إِنَّ الرَّجَاءَ الَّذِى قَدْ كُنْتُ آمُلُهُ وَضَعْتُهُ وَرَجَاءُ النَّاسِ فى كَفَنِ
فى اللّٰهِ مِنْهُ وَجَدْوَى كَفِّهِ خَلَفٌ لَيْسَ السَّدَى وَالنَّدَى فى رَاحَةِ الْحَسَنِ (١)

وإسحق هذا هو الذى يقول فى صفة السيف :

أَلْـــقَ بِجَانِبِ خَصْرِهِ أَمْضَى مِنَ الْأَجَلِ المُتَاحْ
وَكَأَنَّمَا ذَرَّ الْهَبَا ءُ عَلَيْهِ أَنْفَاسُ الرِّيَاحْ

وإسحٰق هذا هو الذى يقول فى مدح العربية :

النَّحْوُ يَبْسُطُ مِنْ لِسَانِ الْأَلْـكَنِ وَالْمَرْءُ تُكْرِمُـــهُ إِذَا لَمْ يَلْحَنِ
وَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ الْعُلُومِ أَجَلَّهَا فَأَجَلُّهَا مِنْهَا مُقِيمُ الْأَلْسُنِ

قال أبو العباس وأحسبه أخذ قوله : ☆ وَالْمَرْءُ تُكْرِمُهُ إِذَا لَمْ يَلْحَنِ ☆

---

(١) السدى : ندى الليل ، والندى : ندى النهار .

من حديث حدَّثناهُ أبو عثمان الخُزاعيُّ عن الأصمعى قال كان يقال : ثلاثة يُحْكَمُ لهم بالنُّبْلِ حتّى يُدْرَى مَنْ هم ، وهم رجلٌ رأيته راكبًا ، أو سمعته يُعْرِبُ ، أو شَمِمْتَ منه طيبًا ، وثلاثة يحكم عليهم بالاستصغار حتى يدرى مَنْ هُمْ ، وهم رجل شَمِمْتَ منه رائحة نبيذٍ فى مَحْفِلٍ أوسمعته فى مِصْرٍ عربىٍّ يتكلم بالفارسية ، أو رجلٌ رأيته على ظهر طريق ينازعُ فى القدرِ .

٭

قال أبو العباس أنشدنى أحد الأمراء لشاعرٍ من أهل الرَّىِّ يُكْنَى أبا يزيد شيئًا يقوله لعبد الله بن طاهر أَحْسَنَ فيه وأصاب الفصَّ(١) ، وقصَدَ بالمدح إلى مَعْدِنه واختاره لأهله :

إشْرَبْ هَنِيئًا عَلَيْكَ التَّاجُ مُرْتَفِقًا(٢) ... فى شاذَمِهْرَ(٣) وَدَعْ غُمْدانَ لِلْيَمَنِ
فَأَنْتَ أَوْلَى بِتاجِ الْمُلْكِ تَلْبَسُهُ ... مِنْ هَوْذَةَ بن عَلِىٍّ وَابْنِ ذِى يَزَنِ

فَأَحْسَنَ الترتيب جدًّا ، وإن كانت الملوك كلها تلبس التاج فى ذلك الدهر ، وإنما ذكر ابْنَ ذى يَزَن لقول أُمَيَّة بن الصَّلْتِ الثَّقَفِىِّ حيث يقول :

إشْرَبْ هَنِيئًا عَلَيْكَ التَّاجُ مُرْتَفِقًا ... فى رَأْسِ غمدانَ دارًا مِنْكَ مِحْلالَا

وقال الأعْشَى فى هَوْذَةَ بن علىّ ، وإن لم يكن هوذةُ مَلِكًا :

مَنْ يَرَ هَوْذَةَ يَسْجُدْ غَيْرَ مُتَّئِبٍ ... إذَا تَعَمَّمَ فَوْقَ التَّاجِ أَوْ وَضَعَا

(١) المراد من الفص لباب المعنى .
(٢) متكئ على مرفقة ، والمرفقة تشبه الوسادة .
(٣) مدينة أو موضع بنيسابور .

لَهُ أَكَالِيلُ بِالْيَاقُوتِ فَصَّلَهَا   صَوَّاغُهَا لَا تَرَى عَيْباً وَلَا طَبَعاً[1]

قال أبو العباس : وحدثنى التَّوَّزِىُّ : قال سمعت أبا عبيدة يقول عن أبى عمرو قال لَمْ يَتَتَوَّجْ مَعَدِّىٌّ قط ، وإنما كانت التيجان لليمن ، فسألته عن هَوْذَةَ بن على الحنفى ، فقال : إنما كانت خَرَزاتٌ تُنْظَم له . قال أبو العباس : وقد كتب رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم إلى هوذة بن علىّ يدعوه كما كتب إلى الملوك ، وكان يُجير لَطيمةَ كِسْرَى فى البرّ بِجَنَبات اليمامة . واللَّطيمةُ : الإبل تَحْمِلُ الطيبَ والبَزّ ، ووفدَ هَوْذَةُ بن علىّ على كِسْرَى بهذا السبب فسأله عن بَنِيهِ فذكر منهم عَدَدًا فقال : أيهم أحبُّ إليك ؟ فقال : الصغيرُ حتى يَكْبَرَ ، والغائبُ حتى يَقْدَمَ ، والمريضُ حتى يَصِحَّ ، فقال له كِسْرَى ما غِذاؤُكَ فى بلدِك ؟ فقال الخُبْزُ ، فقال كِسْرَى لِجُلَسائِهِ هذا عَقْلُ الخُبْزِ ؛ يُفَضِّله على عقول أهل البوادى الذين يَغْتَذونَ اللبن والتمر.

وقد رُوِىَ عن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم أنه قال : لَقَدْ هَمَمْتُ أن لا أقبلَ هَدِيَّةً ، ويروى أن لا أَتَّهِبَ هِبَةً إلا من قُرَشِىٍّ أو أنصارىٍّ أو ثَقَفِىٍّ ، وروى بعضهم أو دَوْسِىٍّ ؛ وذلك أن أعرابيا أهدى إليه هدية فمنَّ بها ، فذكر رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم أهل الأمصار تفضيلا على أهل البوادى .

⁂

وقال عبد اللّٰه بن محمد بن أبى عُيَيْنَةَ يعاتب رجلا من الأشراف :

أَتَيْتُكَ زَائِرًا لِقَضَاءِ حَقٍّ   فَحَالَ السِّتْرُ دُونَكَ وَالْحِجَابُ

---

(١) الطبع بالتحريك : الإثم .

وَعِنْدَكَ مَعْشَرٌ فِيهِمْ أَخٌ لِي ... كَأَنَّ إِخَاءَهُ الآلُ السَّرَاب
وَلَسْتُ بِسَاقِطٍ فِي قِدْرِ قَوْمٍ ... وَإِنْ كَرِهُوا كَمَا يَقَعُ الذُّبَابُ
وَرَائِي مَذْهَبٌ عَنْ كُلِّ نَاءٍ ... بِجَانِبِهِ إِذَا عَزَّ الذَّهَابُ

وقال أيضاً :

كُنَّا مُلُوكاً إِذْ كَانَ أَوَّلُنَا ... لِلْجُودِ وَالْبَأْسِ وَالْعُلَى خُلِقُوا
كَانُوا جِبَالاً عِزًّا يُلَاذُ بِهَا ... وَرَائِحَاتٍ(١) بِالْوَبْلِ تَنْبَعِقُ(٢)
كَانُوا بِهِمْ تُرْسِلُ السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ غِيَاثاً وَيُشْرِقُ الْأُفُقُ
لَا يَرْتُقُ الرَّاتِقُونَ إِنْ فَتَقُوا ... فَتْقاً وَلَا يَفْتُقُونَ مَا رَتَقُوا
لَيْسُوا كَمِعْزَى مَطِيرَةٍ بَقِيَتْ ... فَمَا بِهَا مِنْ سَحَابَةٍ لَثَقُ

(اللَّثَقُ البلل)

وَالضَّعْفُ وَالْجُبْنُ عِنْدَ نَائِبَةٍ ... تَنُوبُهُمْ وَالْحِذَارُ وَالْفَرَقُ
هٰذَا زَمَانٌ بِالنَّاسِ مُنْقَلِبٌ ... ظَهْرًا لِبَطْنٍ جَدِيدُهُ خَلَقُ
الأَسْدُ فِيهِ عَلَى بَرَاثِنِهَا(٣) ... مُسْتَأْخِرَاتٌ تَكَادُ تَمَّزِقُ

وكان سببُ قوله هذا الشعرَ أن إسماعيل بن جعفر بن سليمان بن على ابن عبد الله بن العباس كان له صديقاً ، وكان عبد الله بن محمد بن أبى عُيَيْنَةَ من رؤساء مَنْ أخذ الْبَصْرَةَ للمأمون فى أيام المَخْلوع(٤) ، وكان معاضِدًا لطاهر بن الحسين فى حروبه ، وكان اسماعيل بن جعفر جليل القدر مطاعا فى مَوَاليهِ وأهلِهِ ، وكانت الحال بينهما ألطفَ حال ، فوصله ابن أبى عيينة

(١) جمع رائحة وهى السحابة تمطر بالعشى .
(٢) تنفتح خروقها وتسيل بشدة . (٣) جمع برثن وهو مخلب الأسد .
(٤) المخلوع هو الأمين ، خلعه أهل مكة والمدينة وكثير من عماله وبايعوا المأمون وهو بخراسان .

بذى اليمينين فَوَلاَّهُ البصرة ، وولَّى ابن أبى عيينة اليمامةَ وَالْبَحْرَيْنِ وَغَوْصَ البحرِ ، فلما رجعا إلى البصرة تَنَكَّرَ إسماعيلُ لابن أبى عيينة فهاج بينهما من التباعد على مثال ما كان بينهما من المقاربة ، ثم عُزِلَ ابن أبى عيينة فلم يزل يهجو إسماعيلَ ، وسأل ذا اليمينين عَزْلَهُ فدافعه ، وضَنَّ بالرجل ، فكان يهجو مِنْ أهله مَنْ يُوَاصِلُ إسماعيلَ ، وكان أكبر أهلِهِ قدرًا فى ذلك الوقت يزيدُ بن المُنْجَابِ ، وكان أعور قائم العينِ لم يُطَّلَعْ على عِلَّتِهِ إلا بشعر ابن أبى عيينة ، وكان منهم — وكان سيِّدَ أهل البصرة أجمعين — محمدُ بن عَبَّادِ ابن عباد بن حبيب بن المُهَلَّب ، ومنهم سعيد بن المهلب بن المغيرة بن حرب ابن محمد بن المهلب بن أبى صُفْرَةَ ، وكان قصيراً ، وكان ابن عبَّاد أحْوَلَ ، فذلك حيث يقول ابن أبى عيينة فى هذا الشعر الذى أمْلَيْنَاه :

تَسْتَقْدِمُ النَّعْجتانِ والبَرَقُ(١) ... فى زمنٍ سَرْوُ(٢) أهلِهِ المَلَقُ(٣)

عُورٌ وَحُولٌ وَثَالِثٌ لَهُمُ ... كَأَنَّهُ بَيْنَ أَسْطُرٍ لَحَقُ(٤)

ولهم يقول ولاثنين ظن أنهما معهم وقد مروا به يريدون اسماعيل بن جعفر :

أَلاَ قُلْ لِرَهْطٍ خَمْسَةٍ أَوْ ثَلاثَةٍ ... يُعَدُّونَ مِنْ أَبْنَاءِ آلِ المُهَلَّبِ

عَلَى بَابِ اسْمَاعِيلَ رُوحُوا وَبَكِّرُوا ... دَجَاجَ القُرَى مَبْثُوثَةً حَوْلَ ثَعْلَبِ

وَأَثْنُوا عليه بالجَمِيلِ فَإِنَّهُ ... يُسِرُّ لكم حُبًّا هُوَ الحُبُّ وَاقْلِبِ(٥)

يلِينُ لَكُمْ عِنْدَ اللِّقَاءِ مُوَارِبًا ... وَيَخْلُفُكُمْ مِنْهُ بِنَابٍ وَمِخْلَبِ

---

(١) البرق : الخروف ، والجمع أبراق ، وبرقان — بضم الباء وكسرها — .

(٢) السرو : الشرف . (٣) الملق : زيادة التودد والتضرع .

(٤) اللحق : اسم لما يلحق بالكتاب بعد الفراغ منه ، والجمع ألحاق .

(٥) أى حوّل الكلام عن وجهه ، يريد أن حبه هو البغض .

وَلَوْلَا الَّذِى تُولُونَهُ لَتَكَشَّفَتْ سَرِيرَتُهُ عَنْ بِغْضَةٍ وَتَعَصُّبِ
أَبَعْدَ بَلَائِى عِنْدَهُ إِذْ وَجَدْتُهُ طَرِيحًا كَنَصْلِ الْقِدْحِ (١) لَمَّا يُرَكَّبِ (٢)
بِهِ صَدَأٌ قَدْ عَابَهُ فَجَلَوْتُهُ بِكَفِّى حَتَّى ضَوْءُهُ ضَوْءُ كَوْكَبِ
وَرَكَّبْتُهُ فِى خُوطِ (٣) نَبْعٍ وَرِشْتُهُ (٤) بِقَادِمَتَىْ نَسْرٍ وَمَتْنٍ (٥) مُعَقَّبِ
فَمَا إِنْ أَتَانِى مِنْهُ إِلَّا مُبَوَّأً إِلَىَّ بِنَصْلٍ كَالْحَرِيقِ مُذَرَّبِ
فَفَلَّلْتُ مِنْهُ حَدَّهُ وَتَرَكْتُهُ كَهُدْبَةِ ثَوْبِ الْخَزِّ لَمَّا يُهَدَّبِ (٦)
رَضِيتُمْ بِأَخْلَاقِ الدَّنِىِّ وَعِفْتُمُ خَلَائِقَ مَاضِيكُمْ مِنَ الْعَمِّ وَالْأَبِ

وفى هذا يقول لطاهر بن الحسين :

مَالِى رَأَيْتُكَ تُدْنِى كُلَّ مُنْتَكِثٍ (٧) إِذَا تَغَيَّبَ مُلْتَاثٍ (٨) إِذَا حَضَرَا
إِذَا تَنَسَّمَ رِيحَ الْغَدْرِ قَابَلَهَا حَتَّى إِذَا نَفَخَتْ فِى أَنْفِهِ غَدَرَا
وَمَنْ يَجِىءُ عَلَى التَّقْرِيبِ مِنْكَ لَهُ وَأَنْتَ تَعْرِفُ فِيهِ الْمَيْلَ وَالصَّعَرَا (٩)
أَحَلَّكَ اللَّهُ مِنْ قَحْطَانَ مَنْزِلَةً فِى الرَّأْسِ حَيْثُ أَحَلَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَا
فَلَا تُضِعْ حَقَّ قَحْطَانٍ فَتُغْضِبَهَا وَلَا رَبِيعَةَ كَلَّا لَا وَلَا مُضَرَا
أَعْطِ الرِّجَالَ عَلَى مِقْدَارِ أَنْفُسِهِمْ وَأَوْلِ كُلًّا بِمَا أَوْلَى وَمَا صَبَرَا
وَلَا تَقُولَنَّ إِنِّى لَسْتُ مِنْ أَحَدٍ لَا تَمْحَقِ النَّيِّرَيْنِ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَا (١٠)

---

(١) القدح : العود . (٢) أى لم يركب فيه النصل .
(٣) الخوط : الغصن الناعم .
(٤) راشه : ألزق فيه الريش ليخف جريه . (٥) المتن : هو الوتر .
(٦) يهدب : يقطع . (٧) المنكث هو فى الأصل : البعير الذى كان سمينا فهزل .
(٨) الملتاث المبطئ . (٩) الصعر : الميل عن تكبر .
(١٠) يريد أبويه .

ويقول له فى أخرى :

هُوَ الصَّبْرُ وَالتَّسْلِيمُ لِلّٰهِ وَالرِّضَا ... إِذَا نَزَلَتْ بِى خُطَّةٌ لَا أَشَاؤُهَا
إِذَا نَحْنُ أَبْنَا سَالِمِينَ بِأَنْفُسٍ ... كِرَامٍ رَجَتْ أَمْرًا فَخَابَ رَجَاؤُهَا
فَأَنْفُسُنَا خَيْرُ الْغَنِيمَةِ إِنَّهَا ... تَؤُوبُ وَفِيهَا مَاؤُهَا وَحَيَاؤُهَا
هِىَ الْأَنْفُسُ الْكُبْرُ الَّتِى إِنْ تَقَدَّمَتْ ... أَوِ اسْتَأْخَرَتْ فَالْقَتْلُ بِالسَّيْفِ دَاؤُهَا
سَيَعْلَمُ إِسْمَاعِيلُ أَنَّ عَدَاوَتِى ... لَهُ رِيقُ أَفْعَى لَا يُصَابُ دَوَاؤُهَا

ولما حُمِلَ إسماعيل مُقيَّدًا ، ومعه ابناه أحدهما فى سلسلة مقرونا معه ، وكان الذى تولى ذلك أحمد بن أبى خالد فى قصة كانت لإسماعيل أيامَ الخُضْرَةِ[1] ، فقال ابن أبى عُيَيْنَةَ فى ذلك :

مَرَّ إِسْمَاعِيلُ وَابْنَا ... هُ مَعًا فِى الْأُسَرَاءِ
جَالِسًا فِى مَحْمِلٍ ضَنْـ ... ـكٍ عَلَى غَيْرِ وِطَاءِ
يَتَغَنَّى الْقَيْدُ فِى رِجْـ ... ـلَيْهِ أَلْوَانَ الْغِنَاءِ
بَاكِيًا لَا رَقَأَتْ عَيْـ ... ـنَاهُ مِنْ طُولِ الْبُكَاءِ
يَا عُقَابَ الدَّجْنِ فِى الْأَمْـ ... ـنِ وَفِى الْخَوْفِ ابْنَ مَاءِ[2]

وقد كان تطير عليه بمثل ما نزل به ، فمن ذلك قوله :

لَا تَعْدَمِ الْعَزْلَ يَا أَبَا الْحَسَنِ ... وَلَا هُزَالًا فِى دَوْلَةِ السِّمَنِ
وَلَا انْتِقَالًا مِنْ دَارِ عَافِيَةٍ ... إِلَى دِيَارِ الْبَلَاءِ وَالْفِتَنِ

---

(١) هى الأيام التى أمر المأمون فيها خدمه وقواده وبنى هاشم أن تطرح شعار السواد، وأن تلبس الخضرة فى أقبيتهم وقلانسهم يوم أن جعل علىّ بن موسى ولىّ عهد المسلمين والخليفة من بعده وسماه الرضا من آل محمد فغضب بنو العباس .

(٢) طائر يألف الماء ، جعله مثلا فى الضعف .

وَلا خُرُوجًا إِلَى القِفَارِ مِنَ الْأَرْضِ وَتَرْكَ الْأَحْبَابِ وَالْوَطَنِ(١)

كَمْ رَوْحَةٍ فِيكَ لِي مُهَجَّرَةٍ وَدُلْجَةٍ فِى بَقِيَّةِ الْوَسَنِ

فِى الحَرِّ وَالقُرِّ كَىْ تُوَلَّى عَلَى الْــبَصْرَةِ عَيْنِ الْأَمْصَارِ وَالْمُدُنِ

إِنِّى أُحَاجِيكَ(٢) يَا أَبَا حَسَنٍ مَا صُورَةٌ صُوِّرَتْ فَلَمْ تَكُنِ

وَمَا بَهِىٌّ فِى الْعَيْنِ مَنْظَرُهُ لَوْ وَزَنُوهُ بِالزِّفِّ(٣) لَمْ يَزِنِ

ظَاهِرُهُ رَائِعٌ وَبَاطِنُــهُ مَلْآنُ مِنْ سَوْأَةٍ وَمِنْ دَرَنِ(٤)

وهذا الشعر اعترض له فيه عمرو بن زَعْبَلٍ، مولى بنى مازِنِ بن مالك بن عمرو أبن تميم ، وكان منقطعا إلى إسماعيل وولدِهِ ، وكان لَا يَبْلُغُ ابن أبى عُيَيْنَةَ فى الشعر ولا يدانيه ، ومن أَمْثَلِ شعره وما اعْتَرَضَ له به قوله :

إِنِّى أُحَاجِيكَ مَا حَنِيفٌ عَلَى الْــفِطْرَةِ بَاعَ الرَّبَاحَ بِالْغَبَنِ

وَمَا شُيَيْخٌ مِنْ تَحْتِ سِدْرَتِهِ مُعَلَّقٌ نَعْلَهُ عَلَى الغُصُنِ

وَمَا سُــيُوفٌ حُمْرٌ مُصَقَّلَةٌ قَدْ عُرِّيَتْ مِنْ مَقَابِضِ السَّفَنِ(٥)

وَمَا سِهَامٌ صُــفْرٌ مُجَوَّفَةٌ(٦) تُحْشَى خُيُوطَ الْكَتَّانِ وَالقُطُنِ

وَمَا أَبْنُ مَاءٍ إِنْ يُخْرِجُوهُ إِلَى الْأَرْضِ تَسِلْ نَفْسُــهُ مِنَ الْأُذُنِ

وَمَا عُقَابٌ زَوْرَاءُ تُلْجَمُ مِنْ خَلْفٍ فَتَهْوِى قَصْداً عَلَى سَنَنِ

---

(١) بعد هذا البيت :

أنا الذى إن كفرت نعمته أذاب ما فى جنبيك من عكن

والعكن : أطواء البطن من السمن ، والمفرد عكنة .

(٢) من الأحجية بضم الهمزه وتشديد الياء ، وهى اللغز .

(٣) الزف : صغار ريش النعام . (٤) الدرن : الدنس .

(٥) السفن بالتحريك : جلد خشن غليظ يكون على قوائم السيوف ، وهو يكنى عن الأيور الطبيعية .

(٦) كناية عن الأيور الصناعية .

لَهَا جَنَاحَانِ يَحْفِزَانِ بِهَا نِيطَا إِلَيْهَا بِجِذْوَتَىْ رَسَنِ [1]
يَاذَا الْيَمِينَيْنِ اُضْرِبْ عِلَاوَتَهُ [2] يُدْفَعْ وَمَانِى فِى النَّارِ فِى قَرَنِ

(قيل السفينة وقيل الراية ، وهو أصح لأن جَدَّهُ حَبَسَ رايةَ طاهر بن الحسين ثلاثة أعوام .وقوله «ومانى فى النار فى قرن» مانى اسم علم ، وكان رأسا من رءوس الزنادقة) .

فأجابه إبراهيم السَّوَّاقُ مولى آلِ المُهَلَّبِ ، وكان مُقَدَّمًا فى الشعر بأبيات لا أحفظ أكثرها منها :

قَدْ قِيلَ مَا قِيلَ فِى أَبِى حَسَنٍ فَانْتَحِرُوا فِى تَطَاوُلِ الزَّمَنِ

وهذا السَّوَّاق هو الذى يقول لبِشْرِ بن داود بن يزيد بن حاتم بن قَبيصة ابن المهلب :

سَمَاؤُكَ تُمْطِرُ الذَّهَبَا وَحَرْبُكَ تَلْتَظِى لَهَبَا
وَأَىُّ كَتِيبَةٍ لَاقَتْكَ لَمْ تَسْتَحْسِنَ الهَرَبَا

ومن شعره السائر :

هَبِينِى يَا مُعَذِّبَتِى أَسَأْتُ وَبِالْهِجْرَانِ قَبْلَكُمُ بَدَأْتُ
فَأَيْنَ الْفَضْلُ مِنْكِ فَدَتْكِ نَفْسِى عَلَىَّ إِذَا أَسَأْتِ كَمَا أَسَأْتُ

ولابن أبى عُيَيْنَةَ فى هذا المعنى أشعار كثيرة فى معاتبات ذى اليمينين وهجاء إسماعيل وغيره سنذكرها بعدُ فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

ومن شعره المستحسَن قوله فى عيسى بن سليمان بن على بن عبد الله ابن العباس ، وكان تزوج امرأة منهم يقال لها فاطمةُ بنت عمر بن حفص

---

(١) الرسن: ما كان من الأزمة على أنف البعير .
(٢) العلاوة : الرأس .

هَزَارَمَرْدَ (وقعت الرواية كما فى الأصل وصوابه هَزَاذَمَرْدَ بالزاى والذال معجمة ، ولاخلاف فى الزاى) وهو من ولد قبيصة بن أبى صُفْرَة ، ولم يَلِدْهُ المُهَلَّبُ ، وكان يقال لأبى صُفْرَةَ ظالم بن سَرَّاق :

أَفَاطِمَ قَدْ زُوِّجْتِ عِيسَى فَأَيْقِنِى ... بِذُلٍّ لَدَيْهِ عَاجِلٍ غَيْرِ آجِلِ
فَإِنَّكِ قَدْ زُوِّجْتِ عَنْ غَيْرِ خِبْرَةٍ ... فَتًى مِنْ بَنِى الْعَبَّاسِ لَيْسَ بِعَاقِلِ
فَإِنْ قُلْتِ مِنْ رَهْطِ النَّبِىِّ فَإِنَّهُ ... وَإِنْ كَانَ حُرَّ الأَصْلِ عَبْدُ الشَّمَائِلِ
فَقَدْ ظَفِرَتْ كَفَاهُ مِنْكِ بِطَائِلٍ ... وَمَا ظَفِرَتْ كَفَاكِ مِنْهُ بِطَائِلِ
وَقَدْ قَالَ فِيهِ جَعْفَرٌ وَمُحَمَّدٌ(١) ... أَقَاوِيلَ حَتَّى قَالَهَا كُلُّ قَائِلِ
وَمَا قُلْتُ مَا قَالاَ لِأَنَّكِ أُخْتُنَا ... وَفِى السِّرِّ مِنَّا وَالذُّرَا وَالْكَوَاهِلِ
لَعَمْرِى لَقَدْ أَثْبَتِّهِ فِى نِصَابِهِ(٢) ... بِأَنْ صِرْتِ مِنْهُ فِى مَحَلِّ الْحَلاَئِلِ
إِذَا مَا بَنُو الْعَبَّاسِ يَوْمًا تَبَادَرُوا(٣) ... عُرَا الْمَجْدِ وَابْتَاعُوا كِرَامَ الْفَضَائِلِ
رَأَيْتِ أَبَا الْعَبَّاسِ(٤) يَسْمُو بِنَفْسِهِ ... إِلَى بَيْعِ بَيَّاحَاتِهِ(٥) وَالْمَبَاقِلِ(٦)
يُرَخِّمُ بَيْضَ الْعَامِ تَحْتَ دَجَاجِهِ ... لِيُخْرِجَ بَيْضًا مِنْ فَرَارِيجِ قَابِلِ

---

(١) هما أخوا عيسى بن سليمان ، وقد أكثرا فى وصفه بالبخل .

(٢) أى أنزلته منزلة الرفعة والشرف. (٣) ويروى : تنازعوا .

(٤) كنية عيسى .

(٥) جمع بياحة بتشديد الياء ، وهى شبكة تحبس البياح ــ بكسر الباء، وتخفيف الياء ــ وهو نوع من السمك طوله شبر .

(٦) جمع مبقلة، وهو موضع بيع البقل. وكانت للمهجوّ محابس يحبس فيها البياح ويبيعه، وكانت له ضيعة تعرف ببدالية عيسى يبيع فيها البقول والرياحين ، وهو أول من جمع السماد بالبصرة وباعه ، وفيه يقول ابن أبى عيينة :

رأيت الناس همهم المعالى ... وعيسى همه جمع السماد
ورزق العالمين بكف ربى ... وعيسى رزقه است العباد

قال أبو العباس : وَوَلَدُ عِيسى من فاطمة هذه لَهُمْ شجاعةٌ وَنَجْدَةٌ وشدةُ أبدانٍ ؛ وفاطمة التى ذكرتها هى التى كان يَنْسِبُ بها أبو عُيَيْنَةَ أخو عبد الله ويَكْنِى عنها « بدُنْيا » ، ومن ذلك قوله لها :

دَعَوْتُكِ بِالْقَرَابَةِ وَالْجِوَارِ ... دُعَاءَ مُصَرِّحٍ بَادِى السِّرَارِ
لِأَنِّى عَنْكِ مُشْتَغِلٌ بِنَفْسِى ... وَمُحْتَرِقٌ عَلَيْكِ بِغَيْرِ نَارِ
وَأَنْتِ تَوَقَّرِينَ وَلَيْسَ عِنْدِى ... عَلَى نَارِ الصَّبَابَةِ مِنْ وَقَارِ
فَأَنْتِ لِأَنَّ مَا بِكِ دُونَ مَا بِى ... تُدَارِينَ الْعُيُونَ وَلَا أُدَارِى
وَلَوْ وَاللهِ تَشْتَاقِينَ شَوْقِى ... جَمَحْتِ إِلَىَّ خَالِعَةَ الْعِذَارِ

وقال عبد الله يعاتب ذا اليمينين :

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّى الْأَمِيرَ رِسَالَةً ... مَحْصُورَةً عِنْدِى عَنِ الْإِنْشَادِ(١)
كُلُّ الْمَصَائِبِ قَدْ تَمُرُّ عَلَى الْفَتَى ... فَتَهُونُ غَيْرَ شَمَاتَةِ الْحُسَّادِ
وَأَظُنُّ لِى مِنْهَا لَدَيْكَ خَبِيئَةً ... سَتَكُونُ عِنْدَ الزَّادِ آخِرَ زَادِ
مَالِى أَرَى أَمْرِى لَدَيْكَ كَأَنَّهُ ... مِنْ ثِقْلِهِ طَوْدٌ مِنَ الْأَطْوَادِ
وَأَرَاكَ تُزْجِيهِ وَتُمْضِى غَيْرَهُ ... فِى سَاعَةِ الْإِصْدَارِ وَالْإِيرَادِ
اللهُ يَعْلَمُ مَا أَتَيْتُكَ زَائِرًا ... مِنْ ضِيقِ ذَاتِ يَدٍ وَضِيقِ بِلَادِ
لٰكِنْ أَتَيْتُكَ زَائِرًا لَكَ رَاجِيًا ... بِكَ رُتْبَةَ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ
قَدْ كَانَ لِى بِالْمِصْرِ يَوْمٌ جَامِعٌ(٢) ... لَكَ مُصْلِحٌ فِيهِ لِكُلِّ فَسَادِ

---

(١) يعنى أنها محبوسة فى صدره .

(٢) يريد تذكير طاهر بما كان من دعائه أمراء البصرة ووجوهها لمبايعة المأمون وخلع الأمين .

وَدَعَوْتَ مَنْصُوراً(١) فَأَعْلَنَ بَيْعَةً ... فِى جَمْعِ أَهْلِ المِصْرِ وَالأَجْنَادِ
بَارَتْ مُسَارَعَتِى إِلَيْكَ بِطَاعَتِى ... كُلَّ البَوَارِ وَآذَنَتْ بِكَسَادِ
فِى الأَرْضِ مُنْفَسَحٌ وَرِزْقٌ وَاسِعٌ ... لِى عَنْكَ فِى غَوْرِى وَفِى إِنْجَادِى

وقال أيضاً يعاتبه :

أَيَا ذَا اليَمِينَيْنِ إِنَّ العِتَا ... بَ يُغْرِى صُدُوراً وَيَشْفِى صُدُوراَ
وَكُنْتُ أَرَى أَنَّ تَرْكَ العِتَا ... بِ خَيْرٌ وَأَجْدَرُ أَنْ لاَ يَضِيرَا
إِلَى أَنْ ظَنَنْتُ بِأَنْ قَدْ ظَنَنْتَ ... بِأَنِّى لِنَفْسِى أَرْضَى الحَقِيرَا
فَأَضْمَرَتِ النَّفْسُ فِى وَهْمِهَا ... مِنَ الهَمِّ هَمًّا يَكُدُّ الضَّمِيرَا
وَلاَ بُدَّ لِلْمَاءِ فِى مِرْجَلٍ ... عَلَى النَّارِ مُوقَدَةً أَنْ يَفُورَا
وَمَنْ أُشْرِبَ اليَأْسَ كَانَ الغَنِىَّ ... وَمَنْ أُشْرِبَ الحِرصَ كَانَ الفَقِيرَا
عَلاَمَ وَفِيمَ أَرَى طَاعَتِى ... لَدَيْكَ وَنَصْرِى لَكَ الدَّهْرَ بُورَا
أَلَمْ أَكُ بِالمِصْرِ أَدْعُو البَعِيدَ ... إِلَيْكَ وَأَدْعُو القَرِيبَ العَشِيرَا
أَلَمْ أَكُ أَوَّلَ آتٍ أَتَاكَ ... بِطَاعَةِ مَنْ كَانَ خَلْفِى بَشِيرَا
وَأَلْزَمُ غَرْزَكَ فِى مَأْقِطِ(٢) الْـ ... ـحُرُوبِ عَلَيْهَا مُقِيماً صَبُورَا
* فَفِيمَ تُقَدِّمُ جَفَّالَةً(٣) ... إِلَيْكَ أَمَامِى وَأُدْعَى أَخِيرَا
كَأَنَّكَ لَمْ تَرَ أَنَّ الفَتَى الْـ ... ـحَمِىَّ(٤) إِذَا زَارَ يَوْماً أَمِيرَا
* فَقُدِّمَ مَنْ دُونَهُ قَبْلَهُ ... أَلَسْتَ تَرَاهُ بِسُخْطٍ جَدِيرَا

---

(١) هو ابن المهدى عامل البصرة .

(٢) الغرز: مساك رجل الراكب . والمأقط : المضيق فى الحرب ، والمراد أنه كان يلازمه فى حروبه

(٣) كثير الجفول وهو الإسراع فى الذهاب . (٤) الغيور .

أَلَسْتَ تَرَى أَنَّ سَفَّ التُّرَاب ... بِهِ كَانَ أَكْرَمَ مِنْ أَنْ يَزُورَا
وَلَسْتُ ضَعِيفَ الْهَوَى وَالمَدَى ... أَكُونُ الصَّبَا وَأَكُونُ الدَّبُورَا
وَلَكِنْ شِهَابٌ فَإِنْ تَرْمِ بِي ... مُهِمًّا تَجِدْ كَوْكَبِي مُسْتَنِيرَا
فَهَلْ لَكَ فِى الإِذْنِ لِى رَاضِياً ... فَإِنِّى أَرَى الإِذْنَ غُنْماً كَبِيرَا
وَكَانَ لَكَ اللهُ فِيمَا ابْتَعَثْتَ ... لَهُ مِنْ جِهَادٍ وَنَصْرٍ نَصِيرَا
* وَلَا جَعَلَ اللهُ فِى دَوْلَةٍ ... سَبَقْتَ إِلَيْهَا وَرِيحٍ فُتُورَا
* فَإِنَّ وَرَائِى لِى مَذْهَباً ... بَعِيدًا مِنَ الأَرْضِ قَاعًا وَقُورَا
بِهِ الضَّبُّ تَحْسَبُهُ بِالْفَلَاةِ ... إِذَا خَفَقَ الآلُ فِيهَا بَعِيرَا
وَمَالاً وَمِصْرًا عَلَى أَهْلِهِ ... يَدُ اللهِ مِنْ جَائِرٍ أَنْ يَجُورَا
* وَإِنِّى لَمِنْ خَيْرِ سُكَّانِهِ ... وَأَكْثَرِهِمْ بِنَفِيرِى نَفِيرَا

وقال عبد الله لعلى بن محمد بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وكان دعاه إلى نُصْرَتِهِ حين ظهرت المُبَيِّضَة[1] فلم يُجبهُ فتوعده علىّ ، فقال عبد الله :

أَعَلِيُّ إِنَّكَ جَاهِلٌ مَغْرُورُ ... لَاظُلْمَةٌ لَكَ لَا وَلَا لَكَ نُورُ[2]
أَكَتَبْتَ تُوعِدُنِى إِذِ اسْتَبْطَأْتَنِى ... إِنِّى بِحَرْبِكَ مَا حَيِيتُ جَدِيرُ
فَدَعِ الْوَعِيدَ فَمَا وَعِيدُكَ ضَائِرِى ... أَطَنِينُ أَجْنِحَةِ الْبَعُوضِ يَضِيرُ
وَإِذَا ارْتَحَلْتُ فَإِنَّ نَصْرِى لِلأُلَى ... أَبَوَاهُمُ الْمَهْدِىُّ وَالْمَنْصُورُ
نَبَتَتْ عَلَيْهِ لُحُومُنَا وَدِمَاؤُنَا ... وَعَلَيْهِ قُدِّرَ سَعْيُنَا الْمَشْكُورُ

(١) هم قوم من أعداء الدولة العباسية ، جعلوا شعارهم بيض الثياب يخالفون به شعار بنى العباس من لبس السواد . (٢) لاظلمة له ولا نور : لاضرر فيه ولا نفع .

وقال عبد اللهُ فى قتل داود بن يزيد بن حاتم بن قبيصةَ بن المُهلَّبِ مَنْ قتلَ بأرضِ السِّنْدِ بدم أخيه المُغيرةِ بن يزيدَ :

أَفْنَى تَمِيماً سَعْدَهَا وَرِبَابَهَا بِالسِّـــنْدِ قَتْلُ مُغِيرَةَ بن يَزِيدِ
صَعِقَتْ عَلَيْهِمْ صَعْقَةٌ عَتَكِيَّةٌ(١) جَعَلَتْ لَهُم يَوْمًا كَيَوْمِ ثَمُودِ
ذَاقَتْ تَمِيمٌ عَرْكَتَيْنِ(٢) عَذَابَنَا بِالسِّنْدِ مِنْ عُمَرٍ وَمِنْ دَاوِدِ
قُدْنَا الجِيَادَ مِنَ العِرَاقِ إِلَيْهِمُ مِثْلَ القَطَا مُسْتَنَّةً لِوُرُودِ(٣)
يَحْمِلْنَ مِنْ وَلَدِ المُهَلَّبِ عُصْبَةً خُلِقَتْ قُلُوبُهُمُ قُلُوبَ أُسُودِ

وفى المغيرة يقول فى قصيدة مطولة :

إِذَا كَرَّ فِيهِمْ كَرَّةً أَفْرَجُوا لَهُ فِرَارَ بُغَاثِ الطَّيْرِ صَادَفْنَ أَجْدَلَا(٤)
وَمَا نِيلَ إِلَّا مِنْ بَعِيدٍ بِحَاصِبٍ(٥) مِنْ النَّبْلِ وَالنُّشَّابِ حَتَّى تَجَدَّلَا(٦)
وَإِنِّي لَمُثْنٍ بِالَّذِي كَانَ أَهْــلَهُ أَبُو حَاتِمٍ إِنْ نَابَ دَهْرٌ فَأَعْضَلَا
فَتًى كَانَ يَسْتَحْيِي مِنَ الذَّمِّ أَنْ يَرَى لَهُ مَخْرَجًا يَوْمًا عَلَيْهِ وَمَدْخَلَا
وَكَانَ يَظُنُّ المَوْتَ عَارًا عَلَى الفَتَى يَدَ الدَّهْرِ(٧) إِلَّا أَنْ يُصَابَ فَيُقْتَلَا
مَنِيَّـــةُ أَبْنَاءِ المُهَلَّبِ إِنَّهُمْ يَرَوْنَ بِهَا حَتْمًا كِتَابًا مُعَجَّلَا
وَقَدْ أَطْلَقَ اللهُ اللِّسَانَ بِقَتْلِ مَنْ قَتَلْنَا بِهِ مِنْهُمْ وَمَنَّ وَأَفْضَلَا

---

(١) منسوبة إلى جده الأكبر عتيك على وزن أمير .
(٢) أى مرتين ، تقول : لقيته عركة وعركتين وعركات كما تقول : لقيته مرة ومرتين ومرات ، لا تستعمل إلا ظرفا .
(٣) مستنة : مسرعة . (٤) الأجدل : الصقر .
(٥) الحاصب فى الأصل : ماتناثر من برد وثلج .
(٦) وقع على الجدالة ، وهى الأرض .
(٧) يد الدهر: مدة الدهر.

أَنَاخَ بِهِمْ دَاوُدُ يَصْرِفُ نَابَهُ ... وَيُلْقِي عَلَيْهِمْ كَلْكَلاً ثُمَّ كَلْكَلاَ
يُقَتِّلُهُمْ جُوعًا إِذَا مَا تَحَصَّنُوا ... وَتَقْرِيهِمْ هُوجُ المَجَانِيقِ (١) جَنْدَلاَ

وهذا شعر عجيب من شعره ، وفى هذه القصة يقول :

أَبَتْ (٢) إِلاَّ بُكَاءً وَانْتِحَابًا ... وَذِكْرًا لِلْمُغِيرَةِ وَاكْتِئَابًا
أَلَمْ تَعْلَمْ بِأَنَّ القَتْلَ وِرْدٌ ... لَنَا كَالْمَاءِ حِينَ صَفَا وَطَابَا
وَقُلْتُ لَهَا : قِرِّي وَثِقِي بِقَوْلِي ... كَأَنَّكِ قَدْ قَرَأْتِ بِهِ كِتَابَا
فَقَدْ جَاءَ الكِتَابُ بِهِ فَقُولِي ... أَلاَ لاَ تَعْدَمِ الرَّأْيَ الصَّوَابَا
جَلَبْنَا الخَيْلَ مِنْ بَغْدَادَ شُعْثًا ... عَوَابِسَ تَحْمِلُ الأُسْدَ الغِضَابَا
بِكُلِّ فَتًى أَغَرَّ مُهَلَّبِيٍّ ... تَخَالُ بِضَوْءِ صُورَتِهِ شِهَابَا
وَمِنْ قَحْطَانَ كُلَّ أَخِي حِفَاظٍ ... إِذَا يُدْعَى لِنَائِبَةٍ أَجَابَا
فَمَا بَلَغَتْ قُرَى كَرْمَانَ حَتَّى ... تَخَدَّدَ لَحْمُهَا عَنْهَا فَذَابَا
وَكَانَ لَهُنَّ فِى كَرْمَانَ يَوْمٌ ... أَمَرَّ عَلَى الشُّرَاةِ (٣) بِهَا الشَّرَابَا
وَإِنَّا تَارِكُونَ غَدًا حَدِيثًا ... بِأَرْضِ السِّنْدِ سَعْدًا وَالرَّبَابَا
تُفَاخِرُ بِابْنِ أَحْوَزِهَا (٤) تَمِيمٌ ... لَقَدْ حَانَ المُفَاخِرُ لِي وَخَابَا

وفى مثل هذا البيت الأخير يقول أخوه أبو عُيَيْنَةَ :

أَعَاذِلُ صَهْ لَسْتَ مِنْ شِيمَتِي ... وَإِنْ كُنْتَ لِي نَاصِحًا مُشْفِقَا
* أَرَاكَ تُفَرِّقُنِي (٥) دَائِبًا ... وَمَا يَنْبَغِي لِيَ أَنْ أَفْرَقَا

---

(١) جمع منجنيق ــ بفتح الميم وتكسر ــ وهو آلة ترمى بها الحجارة .
(٢) يريد نفسه . (٣) الشراة : طائفة من الخوارج .
(٤) هو هلال بن أحوز ، وكانت له وقعة بالسند على آل المهلب .
(٥) تخوفنى .

أنَا ابْنُ الَّذِى شَادَ لِى مَنْصِباً ... وَكَانَ السِّمَاكَ إذَا حَلَّقَا(١)

قَرِيعُ الْعِرَاقِ(٢) وَبِطْرِيقُهُمْ ... وَعِـزُّهُمُ الْمُرْتَجَى الْمُتَّقَى

فَمَنْ يَسْتَطِيعُ إِذَا مَاذَهَبْتُ ... أُنْطِقُ فى الْمَجْدِ أَنْ يَنْطِقَا

أَنَا ابْنُ الْمُهَلَّبِ مَا فَوْقَ ذَا ... لِعَالٍ إلَى شَرَفٍ مُرْتَقَى

فَدَعْنِى أُغْلِى ثِيَابَ الصِّبَا ... بِجِدَّتِهَا قَبْلَ أَنْ تَخْلَقَا

قال أبو الحسن : وهذا شعر حَسَنٌ أوله :

أَلَمْ تَنْهَ نَفْسَكَ أَنْ تَعْشَقَا ... وَمَا أَنْتَ وَالْعِشْقُ لَوْلاَ الشَّقَا

أَمِنْ بَعْدِ شُرْبِكَ كَأْسَ النُّهَى ... وَشَمِّكَ رَيْحَانَ أَهْـلِ النَّقَا

عَشِقْتَ فَأَصْبَحْتَ فى الْعَاشِقِيـنَ ... أَشْهَرَ مِنْ فَرَسٍ أَبْلَقَا

ثم قال : * أَعَاذِلُ صَـهْ لَسْتَ مِنْ شِيمَتِى * :

ثم قال بعد قوله : * فَدَعْـنِى أُغْلِى ثِيَابَ الصِّبَا *

« أَدُنْيَاىَ »! مِنْ غَمْرِ بَحْرِ الْهَوَى ... خُذِى بِيَدِى قَبْلَ أَنْ أَغْرَقَا

أَنَا لَكِ عَبْدٌ فَكُونِى كَمَنْ ... إذَا سَرَّهُ عَبْدُهُ أَعْتَـقَا

قال أبو الحسن : قوله أنا لكِ عبدٌ بالألف فهذا إنما يجوز فى الضرورة ، والألف تَثْبُتُ فى الوقف لبيان الحركة فلم يُحْتَجْ إلى الألف(٣) ، ومن أثبتها فى الوصل قاسه على الوقف للضرورة كقوله :

فَإِنْ يَكُ غَثًّا أَوْ سَمِيناً فَإِنَّنِى ... سَأَجْعَلُ عَيْنَيْهِ لِنَفْسِهِ مَقْنَعا(٤)

---

(١) ارتفع . (٢) قريع العراق : سيدها . (٣) يريد لم يحتج اليها فى الوصل .

(٤) مقنع : شاهد عدل .

لأنه إذا وُقِفَ وُقِفَ على الهاء وَحْدَها فأَجْرَى الوصل على الوقف(١)، وأنشدوا قول الأَعْشَى :

فَكَيْفَ أَنَا وَانْتِحَالُ الْقَوَا ... فِي(٢) بَعْدَ المَشِيبِ كَفَى ذَاكَ عَارَا

والرواية الجيدة :

فَكَيْفَ يَكُونُ انْتِحَالُ الْقَوَافِي بَعْدَ الْمَشِيبِ .

سَقَى اللهُ « دُنْيَا » عَلَى نَأْيِهَا ... مِنَ الْقَطْرِ مُنْبَعِقًا(٣) رَيِّقَا(٤)

أَلَمْ أَخْدَعِ النَّاسَ عَنْ حُبِّهَا ... وَقَدْ يَخْدَعُ الْكَيِّسُ الْأَحْمَقَا

بَلَى وَسَبَقْتُهُمُ إِنَّنِي ... أُحِبُّ إِلَى الْمَجْدِ أَنْ أَسْبِقَا

وَيَوْمَ الْجِنَازَةِ إِذْ أَرْسَلَتْ ... عَلَى رِقْبَةٍ أَنْ جِيءُ الْخَنْدَقَا

إِلَى السَّالِّ فَاخْتَرْ لَنَا مَجْلِسًا ... قَرِيبًا وَإِيَّاكَ أَنْ تَخْرُقَا

هذا مما يَغْلَطُ فيه عامة أهل البصرة يقولون: السال بالتخفيف، وإنما هو السالُّ يا هذا! وجمعه سُلَّانٌ، وهو الغالُّ وجمعه غُلَّانٌ، وهو الشَّقُّ الخَفِيُّ في الوادي

فَكُنَّا كَغُصْنَيْنِ مِنْ بَانَةٍ ... رَطِيبَيْنِ حِدْثَانَ مَا أَوْرَقَا

فَقَالَتْ لِتِرْبٍ لَهَا اسْتَنْشِدِيهِ ... مِنْ شِعْرِهِ الْحَسَنِ الْمُنْتَقَى

فَقُلْتُ : أُمِرْتُ بِكِتْمَانِهِ ... وَحُذِّرْتُ إِنْ شَاعَ أَنْ يُسْرَقَا

فَقَالَتْ بِعَيْشِكِ ! قُولِي لَهُ ... تَمَتَّعْ لَعَلَّكَ أَنْ تَنْفَقَا

---

(١) فلم يأت بمدة الهاء في الوصل .

(٢) قال الشيخ المرصفي : الصواب القواف ، بحذف الياء الأخيرة والاجتزاء بالكسرة .

(٣) انبعق المطر وتبعق : انفتح بشدة .

(٤) الريق بتشديد الياء وتخفف : أول كل شيء وأفضله .

قوله « لعلك أن تنفقا » اضطرار وحقه لعلك تَنْفَقُ لأن لَعَلَّ من أخوات إنَّ فأُجْرِيتَ مُجْرَاها ، ومن أتى بأنْ فلمضارَعتها عسى ، كما قال مُتَمِّم بن نُوَيْرَةَ :

لَعَلَّكَ يَوْمًا أنْ تُلِمَّ مُلِمَّةٌ   عليْكَ مِنَ اللاَّئى يدَعْنَكَ أَجْدَعا

وهو كثير .

قال أبو العباس : وزعم أبو مُعاذٍ النُّمَيْرِيُّ أنه كان يَعْتادُ عبدَ الله بنِ محمد ابن أبى عيينة ، ويكثر المُقامَ عنده وكان راويةً لشعره ، وأمُّ ابن أبى عُيَيْنَةَ ابن المهلب يقال لها خَيْرَةُ ، وهى من بنى سَلَمَةِ الخَيْرِ بن قُشَيْرِ بن كَعْب ابن رَبِيعةَ بن عامر بن صَعْصَعَةَ ، فأَبْطَأَتُ عليه أياما فكتب إلىَّ :

تَمادى فى الجَفاءِ أبُو مُعاذٍ   وَرَاوَغَنِى وَلاذَ بِلا مَلاذِ

وَلَوْلا حَقُّ أخْوالِى قُشَيْرٍ   أَتَتْهُ قَصائِدٌ غَيْرُ اللِّذاذِ

كَمَا رَاحَ الهِلالِىُّ بْنُ حَرْبٍ   بِهِ سِمَةٌ[1] عَلَى عُنُقٍ وَحاذِ[2]

يعنى محمد بن حرب بن قَبيصة بن مُخَارِقٍ الهلالىَّ ، وكان من أقعدِ الناس[3] .

ولقبيصة بن المخارق صحبةٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان سار إليه فأكرمه وبَسَطَ له رِدَاءَهُ ، وقال : مرحباً بخالى ! فقال: يا رسول الله ، رَقَّ جِلْدِى ، ودَقَّ عَظْمى ، وَقَلَّ مالى ، وهُنْتُ على أهلى ! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أبْكَيْتَ بما ذكرتَ ملائكةَ السماء .

(١) من الوسم وهو الكى . (٢) الحاذ : الظهر . (٣) أقربهم إلى جده الأكبر .

ومحمدُ بن حَرْبٍ هذا وَلِى شُرْطَةَ البصرة سبع مرات ، وكَانَ على شُرْطةِ جعفر بن سليمان على المدينة ، وكَانَ كثير الأدب غزِيرَهُ ، فَأَغْضَبَ ابنَ أبى عُيَيْنَةَ فى حُكْمٍ جَرَى عليه بحضرة اسحٰق بن عيسى ـ وكان على شرطته إذ ذاك ـ فى ذلك يقول عبد الله بن أبى عيينة :

بِأَخْـوالِى وَأَعْمَامِى أَقَامَتْ ... قُرَيْشٌ مُلْكَهَا وَبِهَا تُهَابُ

مَـتَى مَا أَدْعُ أَخْوالِى لِحَرْبٍ ... وَأَعْمَامِى لِنَائِبَـةٍ أَجابُوا

أَنَا ابْنُ أَبِى عُيَيْنَةَ فَرْعُ قَوْمِى ... وَكَعْبٌ وَالِدِى وَأَبِى كِلابُ

خَلاَ ابْنُ عُكَابَةَ الظَّرِبانِ سَهْلٍ ... لَهُ فَسْوٌ تُصَادُ بِهِ الضِّبَابُ

وَآخَر مِنْ هِلاَلٍ قَدْ تَدَاعَى ... فَصَارَ كَأَنَّهُ الشَّىْءُ الْخَرَابُ

باب

قال أبو العباس : كَانَ ابن شُبْرُمَةَ إذا نزلتْ به نازلةٌ قال : سَحابةٌ ثم تَنْقَشِعُ .

وكَانَ يقال : أربع من كنوز الجنة : كِتْمَانُ المصيبة ، وكتمان الصدقة ، وكِتْمَانُ الفاقةِ ، وكِتمانُ الوَجَعِ .

قال عمر بن الخطاب رحمه الله : لو كان الصَّبْرُ وَالشُّكْرُ بَعِيرَيْنِ ما باليتُ أيَّهما رَكِبْتُ .

وقال العُتْبِىُّ محمد بن عبيد الله يذ كر ابناً له مات :

أَضْحَتْ بِخَدِّى لِلدُّمُوعِ رُسُومُ ... أَسَفاً عَلَيْكَ وَفى الْفُؤَادِ كُلُومُ

وَالصَّبْرُ يُحْمَدُ فى المَصَائِبِ كُلِّهَا ... إلاَّ عَلَيْكَ فَإِنَّهُ مَـذْمُومُ

قال أبو العباس : وأحسب أن حبيباً الطائى[1] سمع هذا فاسْتَرَقَهُ فى بيتين أحدهما قوله فى إدريس بن بَدْرٍ الشامى :

دُمُوعٌ أَجابَتْ دَاعِيَ الْحُزْنِ هُمَّعٌ   تَوَصَّلُ مِنَّا عَنْ قُلُوبٍ تَقَطَّعُ
وَقَدْ كَانَ يُدْعَى لابِسُ الصَّبْرِ حازِمًا   فَأَصْبَحَ يُدْعَى حازِمًا حِينَ يَجْزَعُ

والآخر قوله :

قَالُوا الرَّحِيلَ ! فَمَا شَكَكْتُ بِأَنَّهَا   نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا تُرِيدُ رَحِيلَا
الصَّبْرُ أَجْمَلُ غَيْرَ أَنَّ تَلَدُّدًا   فى الحُبِّ أَحْرَى أَنْ يَكُونَ جَمِيلَا

وقال سابقٌ البَرْبَرِيّ :

وَإِنْ جَاءَ مَا لَا تَسْتَطِيعَانِ دَفْعَهُ   فَلَا تَجْزَعَا مِمَّا قَضَى اللهُ وَاصْبِرَا

وقال آخر أيضاً :

اُصْبِرْ عَلَى الْقَدَرِ الْمَجْلُوبِ وَارْضَ بِهِ   وَإِنْ أَتَاكَ بِمَا لَا تَشْتَهِي الْقَدَرُ
(فَمَا صَفَا لِامْرِئٍ عَيْشٌ يُسَرُّ بِهِ   إِلَّا سَيَتْبَعُ يَوْمًا صَفْوَهُ كَدَرُ)

وكَان خالد بن صَفْوان يدخل على بلال بن أبى بُرْدَةَ يحدّثه فيَلْحَنُ ، فلما كثر ذلك على بلال قال له : أتحدثنى أحاديثَ الخلفاء ، وتَلْحَنُ لَحْنَ السَّقَّاءاتِ ! قال التَّوَّزِيُّ : فكان خالدُ بن صفوان بعد ذلك يأتى المسجد ويتعلم الإعْرابَ وكُفَّ بَصَرُهُ فكان إذا مَرَّ به مَوْكِبُ بلالٍ يقول ما هذا ؟ فيقال له : الأمير ! فيقول خالد   * سَحَابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقَشَّعُ *   فقيل ذلك لبلال، فأجْلَسَ معه مَنْ يأتيه بخبره، ثم مَرَّ به بلال ، فقال خالد كما كان يقول،

---

(١) هو أبو تمام .

فقيل ذلك لبلال ، فأقبَلَ على خالد فقال : لا تَقَشَّعُ والله حتى تُصيبَكَ منها بشُؤبوب بَرَدٍ ! فضربه مِائَتَىْ سوطٍ وقال بعضهم : بل أَمَرَ به فَدِيسَ بطنُهُ.

قوله : بشؤبوب ، مهموز، وهو الدُّفْعَةُ من المطر بشدة، وجمعه شآبيبُ.

قال النابغة يخاطب القبيلة :

وَلاَ تُلاَقِى كما لاَقَتْ بَنُو أَسَدٍ   فَقَدْ أَصَابَتْهُمُ مِنْهَا بِشُؤْبُوبِ

يريد ما نال بنى أسد من غارة النعمان عليهم ، وضرب الشؤبوب مثلا للغارة، والغارةُ تُضْرَبُ لذلك مثلا كما يقال شَنَّ عليهم الغارةَ : أى صبها عليهم ، قال ابن هَرْمَة :

كَمْ بَازِلٍ قَدْ وَجَأْتُ لَبَّتَهَا   بِمُسْتَهِلِّ الشُّؤْبُوبِ أَوْ جَمَلِ

يريد ماوَجَأها به من حديدة ، يقول: لما وَجَأْتُها دفعَتْ بشؤبوب من الدم ، فكأنه قال بِسِنانٍ مُسْتَهِلِّ الشُّؤْبُوبِ ، أو ما أشبه ذلك .

⁂

وكان خالد بن صَفْوانَ أحد مَنْ إذا عَرَضَ له القولُ قال ، فيقال إن سليمان بن علىٍّ سأله عن ابْنَيْه جعفرٍ ومحمدٍ ، فقال : كيف إحْمادُكَ جوارَهما يا أبا صفوان[1] ! فقال :

أَبُو مَالِكٍ جَارٌ لَهَا وَابْنُ بُرْثُنٍ   فَيَالَكَ جَارَىْ ذِلَّةٍ وَصَغَارِ

(ش قوله : أبو مالك ، صوابه أبو نافع، وهو مَوْلًى لعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه) فأَعْرَضَ عنه سليمانُ ، وكان سُليمانُ من أحْلَمِ الناسِ

---

(١) المعنى : هل حمدت جوارهما .

وأكرمِهِم ، وهو فى الوقت الذى أَعْرَضَ فيه عنه والِى البَصْرَةِ وعَمُّ الخليفة المنصورِ ، والشعر الذى تَمثَّلَ به خالد ليزيد بن مُفرِّغ الحِمْيرِىِّ . قال :

سَقَى اللهُ دارًا لِى وأرضًا تركتُها ... إلى جَنْبِ دارَىْ مَعْقِلِ بْنِ يَسارِ

أَبُو مَالِكٍ جارٌ لها وابْنُ بُرْثُنٍ ... فيالَكَ جارَىْ ذِلَّةٍ وصَغارِ

وكَانَ الحسن يقول : لسانُ العاقل من وراء قلبه ، فإن عَرَضَ له القولُ نظر ، فإن كَانَ له أن يقول قال ، وإن كان عليه القولُ أمسَكَ ، ولسانُ الأحمقِ أمامَ قلبه ، فإذا عرض له القول قال ، كان عليه أوْ لَه.

وخالدٌ لم يكن يقول الشعْرَ ، ويُرْوَى أنه وَعدَ الفرَزْدقَ شيئًا فأخره عنه ، وكان خالد أحد البُخلاء ، فمر به الفرزدقُ فهدَّدهُ فأمسك عنه حتى جاز الفرزدقُ ، ثم أقبل على أصحابه فقال : إن هذا قد جعَلَ إحْدَى يَدَيْهِ سَطْحًا ، وملأ الأخرى سَلْحًا ، وقال إن عمرْتُمْ سَطْحِى ، وإلا نَضَحْتُكُمْ بِسَلحى !

وقال إياسُ بن معاوية المُزَنِىُّ أبو واثلةَ ، وكان أحد العقلاء الدُّهاة الفضلاء لخالد : لاينبغى أن نجتمع فى مجلس ، فقال له خالد : وكيف يا أبا واثلة ؟ فقال : لأنك لا تحب أن تسكت ، وأنا لا أحب أن أسمع !

وخاصم إلى إياس رجلٌ رجلا فى دَيْنٍ وهو قاضى البصرة فطَلبَ منه البينةَ ، فلم يأته بمَقْنَعٍ ، فقيل للطالب : استَجِرْ وَكيعَ بن أبى سُودٍ حتى يَشْهَدَ لك ، فإن إياسًا لا يَجْتَرِئُ على رَدِّ شهادته ، ففعل ، فقال وَكيعٌ : واللهِ لأشْهَدَنَّ لك ، فإن ردَّ شهادتى لأُعَمِّمَنَّهُ السيفَ ! فلما طَلَعَ وَكيعٌ فهِمَ إياسٌ عنه فأقْعَدَهُ إلى جانبه ، ثم سأله عن حاجته ، فقال : جئتُ شاهدًا ، فقال له :

يا أبا المُطرِّف أتشهد كما تفعل المَوالى والعجمُ؛ أنت تجلّ عن هذا! فقال إذَن واللهُ لا أشهد، فقيل لوكيع بَعْدُ إنما خدَعَك، فقال: أَوْلَى لابن اللَّخْناء!

وشهد رجلٌ من جلساء الحسن بشهادة عند إياس فرده، فشكا الرجل ذلك إلى الحسن، فأتاه الحسن فقال: يا أبا واثلة لِمَ رَدَدْتَ شهادةَ فلان؟ فقال يا أبا سعيد إن الله تعالى يقول: «مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ» وليس فلان ممن أَرْضَى.

واختلف نصرانى إلى أبي دُلامةَ مَوْلَى بنى أسد يتطبَّبُ لابن له، فوعده إن بَرأَ عَلَى يديه أن يُعْطيه أَلْفَ دِرْهَمٍ، فبرأ ابنه، فقال للمتطبب: إن الدراهم ليست عندى، ولكنْ واللهِ لأُوَصِّلَنَّهَا إليك، ادَّعِ على جارى فلان هذه الدراهم فإنه مُوسِرٌ، وأنا وابنى نشهد لك فليس دون أخذها شىء، فصار النصرانى بالجار إلى ابنِ شُبْرُمَةَ، فسأله البينةَ فطلع عليه أبو دُلامةَ وابْنُهُ ففهم القاضى، فلما جلس بين يديه قال أبو دلامة:

إِنِ النَّاسُ غَطَّوْنِى تَغَطَّيْتُ عَنْهُمُ ... وَإِنْ بَحَثُونِى كَانَ فِيهِمْ مَبَاحِثُ
(وَإِنْ حَفَرُوا بِئْرِى حَفَرْتُ بِئَارَهُمْ ... لِيَعْلَمَ قَوْمٌ كَيْفَ تِلْكَ النَّبَائِثُ)

فقال ابن شبرمة: من ذا الذى يَبْحَثُكَ يا أبا دُلامةَ؟ ثم قال للمدعى: قد عرفتُ شاهدَيْكَ! نَحِّ عن خصمك، ورُحِ العَشِيَّةَ إلىَّ، فراح إليه فَغَرِمها من ماله.

وشهد أبو عُبَيْدَةَ(١) عند عُبَيْدِ اللهِ بن الحسن العَنْبَرِىِّ على شهادة ورجلٌ عدلٌ فقال عبيدُ الله للمُدَّعِى: أما أبو عبيدة فقد عرفته، فزدنى شاهداً، وكان عبيدُ الله أحد الأدباء الفقهاء الصُّلحاء. وزعم ابن عائشة قال عَتَبْتُ عليه مرة

---

(١) معمر بن المثنى.

فى شىء قال فلقينى يدخل من باب المسجد يريد مجلس الحكم ، وأنا أخرج فقلت مُعَرِّضاً به (للبعيث) :

طَمِعْتُ بِلَيْلَى أَنْ تَرِيعَ وَإِنَّمَا ... تُقَطِّعُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ الْمَطَامِعُ

فأنشدنى مُعَرِّضاً تاركاً لما قصدتُ له :

وَبَايَعْتُ لَيْلَى فِى خَلَاءٍ وَلَمْ يَكُنْ ... شُهُودٌ عَلَى لَيْلَى عُدُولٌ مَقَانِعُ

وكان ابن عائشة يَتَحَدَّثُ عنه حديثاً عجيباً ، ثم عُرِفَ مَخْرَجُ ذلك الحديث .

ذكر ابن عائشة ، وحدثنى عنه جماعة لا أحصيهم كَثْرَةً : أن عبيد الله ابن الحسن شهد عنده رجل من بنى نَهْشَل على أمر أَحْسِبُهُ دَيْناً فقال له : أَتَرْوِى قولَ الأسود بن يَعْفُرَ ＊ نَامَ الْخَلِىُّ فَمَا احِسُّ رُقَادِى ＊ فقال له الرجل : لا ! فَرَدَّ شهادتَهُ وقال : لو كان فى هذا خير لَرَوَى شَرَفَ أهلِهِ .

فحدثنى شيخ من الْأَزْدِ حديثاً ظننت أن عبيدالله إياه قَصَدَ ، قال : تقدم رجل إلى سَوَّارِ بن عبد الله — وسَوَّارٌ ابنُ عَمِّ عبيد الله بن الحسن — يدَّعى داراً ، وامرأةٌ تدافِعُهُ وتقول لسوَّار : إنها والله خِطَّةٌ ماوقع فيها كتاب قَطُّ . فأتى المدعِى بشاهدين يعرفهما سَوَّار فشهدا له بالدار ، وجعلت المرأة تنكر إنكارا يَعْضُدُهُ التصديق ، ثم قالت : سَلْ عن الشهود ، فإن الناس يتغيرون ، فَرَدَّ المسألة فَحُمِدَ الشاهدان . فلم يزل يُرَيِّثُ أمورهم ، ويسألُ الجيرانَ فكلٌّ يصدِّقُ المرأةَ ، والشاهدان قد ثبتا ، فشكا ذلك إلى عبيدالله ، فقال له عبيدالله : أنا أحْضُرُ مجلس الحكم معك فآتيك بالجَلِيَّة إن شاء الله تعالى ، فقال للشاهدين ليس للقاضى أن يسألكما كيف شهدتما ولكن أنا أسألكما . قال فقالا : أراد هذا أن يَحُجَّ فأدارنا على حُدُودِ الدار من خارج وقال هذه دارى ، فإن حدث

بى حادث فَلْتُبَعْ ولْتُقْسَمْ على سبيل كذا ، قال : أفعندكما غيرُ هذه الشهادة ؟ قالا: لا ! فقال : الله أكبر ! وكذا لو أدرْتُكما على دار سوّار وقلت لكما مثل هذه المقالة أكنتما تشهدان بها لى ؟ ففَهِمَا أنهما قد اغترّا ، فكان سوار إذا سأل عن عدالة الشاهد يُتْبِـعُ المسألةَ أن يقول : أجائزُ العدالةِ هو ؟ فظننت أن عبيد الله رأى فى الشاهد غفلة فاختبره بهذا وما أشبهه .

وحدثنى أحد أصحابنا أن رجلا من الأَعْراب تقدم إلى سَوّار فى أمر فلم يصادف عنده ما يُحِبُّ فاجتهد فلم يَظْفَرْ بحاجته ، قال فقال الأعرابى وكانت فى يده عصًا :

رَأَيْتُ رُؤْيَا ثُمَّ عَبَّرْتُهَا وَكُنْتُ لِلْأَحْلَامِ عَبَّارا
بِأَنَّنِى اخبِطُ فى لَيْلَتِى كلبًا فكَانَ الْكَلْبُ سَوّارا

ثم انحنى على سوّار بالعصا فضربه حتى مُنِـعَ منه ، قال فما عاقبه سَوّارٌ بشىء

قال : وحُدِّثْتُ أن أعرابيا من بنى العَنْبَرِ سار إلى سَوّار فقال : إن أبى مات وتركنى وأخاً لى وخط خطين فى الأرض ، ثم قال وهَجِيناً وخط خطًّا ناحيةً ، فكيف تقسم المال ؟ فقال أههنا وارثٌ غيركم ؟ قال : لا ، قال : المال بينكم أثلاثا ، فقال لا أحسبُك فَهِمْتَ عنى ! إنه تركنى وأخى وهَجِيناً لنا ، فقال سوّار: المال بينكم أثلاثا ، قال فقال الأعرابى : أيأخذ الهجين كما آخذ ، وكما يأخذ أخى ؟ قال أجل ! فغضب الأعرابى ، قال ثم أقبل على سوّار فقال: تعلَّمْ والله إنك قليلُ الخالات بالدَّهْنا ، فقال سوار إذاً لا يضيرنى ذلك عند الله شيئاً (قيل انه ليس بالدهنا أَمَةٌ ، وإنما كان فيها الحرائر) .

وكان عقيلُ بن عُلَّفَةَ من الغَيْرةِ والأنفةِ على ماليس عليه أحدٌ علمناه

فخطب اليه عبدُ الملك بن مَرْوانَ ابنته على أحد بَنيهِ، وكانت لعَقيلٍ اليه حاجاتٌ فقال : أما إذ كنتَ فاعلا فجَنِّبْنِي هُجَناءكَ(١) . وخطَبَ اليه ابنتَه ابراهيمُ بن هشام بن اسمعيل بن هشام بن الوَليدِ بن المُغيرة، وهو خال هشام بن عبد الملك ووالي المدينة، وكان أبيض شديد البياض فردَّه عَقيلٌ وقال :

رَدَدْتُ صَحِيفةَ القُرَشِيِّ لما أبَتْ أعْرَاقُهُ إلاَّ احْمِرارا

وكانت حَفْصةُ بنت عِمْرانَ بن ابراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله قد مِيتَ عنها فخطبها جماعة من قريش أحدهم عبد الله بن حسن بن حسن بن على ابن أبي طالب، وأحدهم ابراهيم بن هشام، فكان أخوها محمد بن عمران إذا دخل إلى ابراهيم بن هشام أوسع له وأنشده :

وَقَالُوا يَا جَمِيلُ أَتَى أَخُوهَا فَقُلْتُ أَتَى الْحَبِيبُ أَخُو الْحَبِيبِ
احِبُّكَ أَنْ نَزَلْتَ جِبَالَ حِسْمَى وَأَنْ نَاسَبْتَ بَثْنَةَ مِنْ قَرِيبِ

وهذا الشعر لجميل بن عبد الله بن مَعْمَرٍ الْعُذرِيِّ، فأما جَمِيلُ بن معمرٍ الجُمَحِيُّ فلا نَسَبَ بينهُ وبين معمر : أى ليس بينه وبينه أبٌ آخر، وكانت له صُحْبَةٌ، وكان خاصًّا بعمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ويروى عن عبد الرحمن بن عوف أنه قال : أتيت باب عمر بن الخطاب رحمه الله فسمعته يُنْشِدُ بالرُّكبانيَةِ(٢) :

وَكَيْفَ ثَوائِى بِالْمَدِينَةِ بَعْدَمَا قَضَى وَطَرًا مِنْهَا جَمِيلُ بْنُ مَعْمَرِ

فلما استأذنتُ عليه قال لى: أسمعْتَ ماقلتُ؟ فقلتُ نعَمْ! فقال: إنَّا إذا خَلَوْنا قلنا

---

(١) يريد أبناء الإماء . والهجنة فى الناس والخيل انما تكون من قبل الأم، والقرفة من قبل الأب، وذلك الفرق بين الهجين والمقرف . (٢) الركبانية غناء للعرب فيه مدّ وتمطيط .

ما يقول الناس فى بيوتهم (قال ش : وَهِمَ أبو العباس رحمه الله فى هذا وإنما القصة أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو الذى سمع عبد الرحمٰن بن عوف يُنْشِدُ) وكان جَمِيلُ بن معمر الجمحى قتل أخا لأبى خِراش الهُذَلِيِّ يوم فتح مكة وأتاه من ورائه وهو موثَقٌ فضربه ففى ذلك يقول أبو خراش :

فَأُقْسِمُ لَوْ لاقَيْتَهُ غَيْرَ مُوثَقٍ لَآبَكَ بِالعَرْجِ الضِّبَاعُ النَّوَاهِلُ
لَكَانَ جَمِيلٌ أَسْوَأَ النَّاسِ صِرْعَةً وَلٰكِنَّ أَقْرَانَ الظُّهُورِ مَقَاتِلُ
فَلَيْسَ كَعَهْدِ الدَّارِ يَا أُمَّ مَالِكٍ وَلٰكِنْ أَحَاطَتْ بِالرِّقَابِ السَّلَاسِلُ
وَعَادَ الفَتَى كَالْكَهْلِ لَيْسَ بِقَائِلٍ سِوَى الحَقِّ شَيْئاً فَاسْتَرَاحَ العَوَاذِلُ

قوله: أسوأ الناس صرعةً، أى الهيئة التى يُصْرَعُ عليها كما تقول: جلست جِلْسَةً وركبت رِكْبَةً ، وهو حَسَنُ الجِلْسَةِ والرِّكْبَةِ : أى الهيئة التى يَجْلِسُ عليها ويَرْكَبُ عليها، و كذلك القِعْدَةُ والنيمةُ ، وقوله: لآبكَ، أى لعادكَ، وأصل هذا من الإيابِ والرُّجوع ، قال الله تبارك وتعالى « إنَّ إلَيْنَا إيَابَهُمْ » وقال عَبِيدُ ابن الأَبْرَصِ :

وَكُلُّ ذِى غَيْبَةٍ يَئُوبُ (وَغَائِبُ المَوْتِ لَا يَئُوبُ)

وقوله: بالعَرْجِ ، فهو ناحية من مكة به ولد عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفانَ فسمى العَرْجِيَّ، ويقال بل كان له مال بذلك الموضع فكان يقيم فيه (قال ش: هذا وَهْمٌ من أبى العباس رحمه الله ، وأما صوابه فعبد الله بن عمر بن عبد الله ابن عمرو بن عثمان بن عفان رضى الله عنه) . والنَّوَاهلُ فيه قولان : أحدهما العطاشُ ، وليس بشيء ، والآخر الذى قد شَرِبَ شَرْبَةً فلم يَرْوَ فاحتاج إلى أن يَعُلَّ ، كما قال امْرُؤُ القَيْسِ :

إذْهُنَّ أقْسَاطٌ[١] كرِجْلِ الدَّبى[٢] أوْ كَقطًا كاظِمَةَ النَّاهِلِ

وقوله أحاطَتْ بالرقاب السلاسلُ، يقول: جاء الإسلامُ فمنع من الطلب بالأوتار إلا على وجهها ، وكان يقال إن أول من أظهَرَ الجَوْرَ من القضاة فى الحكم بلالُ بن أبى بُرْدَةَ ، وكان أمير البصرة وقاضيها ، وفى ذلك يقول رُؤْبَةُ :

وأَنْتَ يا ابن القاضِيَيْنِ قاضِى (مُعْتَزِمٌ على الطريق ماضى)

وكان بلال يقول : إن الرجلين ليتقدَّمان إلىَّ فأجدُ أحدهما على قلبي أخَفَّ فأقضى له ، ويروى أن بلالا وفد على عمر بن عبد العزيز بخُناصِرَةَ[٣] فَسدِكَ (ش معناه لصق) بسارِيَةٍ من المسجد فجعل يصلّى اليها ويديم الصلاة ، فقال عمر بن عبد العزيز للعلاء بن المُغيرة بن البُنْدار : إنْ يَكُنْ سِرُّ هذا كعَلانِيَتِهِ فهو رجل أهل العراق غيرَ مُدافَعٍ ، فقال العلاء : أنا آتيك بخبره فأتاه وهو يصلى بين المَغرب والعشاء، فقال اشْفَعْ صلاتَكَ فانلى اليك حاجةً ففعل ، فقال له العلاء : قد عرفتَ حالى من أمير المؤمنين ، فان أنا أشَرْتُ بكَ على ولايةِ العِراقِ فما تجعَلُ لى ؟ قال لكَ عُمالتى سنةً ! وكان مبْلَغُها عشرِينَ ألفَ ألف درهم (العُمالة بضم العين : أجرة العامل) قال : فاكتب لى بذلك ، قال فارْقَدَّ (معناه أسْرَعَ) بلالٌ إلى منزله ، فأتى بدواة وصحيفة فكَتَبَ له بذلك ، فأتى العلاء عُمَر بالكتاب فلما رآه كتب إلى عبد الحميد ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وكان والىَ الكوفةِ ، أما بعد : فإن بلالا غرَّنا بالله ، فكدنا نَغترّ فَسبَكْناهُ ، فوجدناه خَبَثا كُلَّهُ والسلام . ويروى أنه كتب إلى عبد الحميد : إذا وَرَدَ عليك كتابى هذا فلا

---

(١) أقساط : قطع . (٢) الدبى : جماعة الجراد .

(٣) بليدة من أعمال حلب .

تَسْتَعِنْ على عملك بأحد من آل أبي موسى . قال أبو العباس وكان بلالٌ داهيةً لقِناً أديباً ، ويقال : إن ذا الرُّمَّة لما أنشده :

سَمِعْتُ النَّاسُ يَنْتَجِعُونَ غَيْثاً   فَقُلْتُ لِصَيْدَحَ انْتَجِعِي بِلاَلاَ
تُنَاخِي عِنْدَ خَيْرِ فَتًى يَمَانٍ   إِذَا النَّكْبَاءُ نَاوَحَتِ الشَّمَالاَ

فلما سمع قوله * فَقُلْتُ لِصَيْدَحَ انْتَجِعِي بِلاَلاَ * قال : ياغلامُ مُرْ لها بقَتٍّ وَنَوًى !! أراد أن ذا الرُّمَّة لايُحْسِنُ المدح، قوله: سمعت الناسُ ينتجعون حكاية ، والمعنى إذا حُقِّقَ إنما هو سمعتُ هذه اللفظة : أى قائلاً يقول «الناسُ ينتجعون غَيْثاً» ومثل هذا قوله :

وَجَدْنَا فِي كِتَابِ بَنِي تَمِيمٍ   أَحَقُّ الخَيْلِ بِالرَّكْضِ المُعَارُ

فمعناه وجدنا هذه اللفظة مكتوبَةً ، فقوله: أحقُّ الخيل ابتداء، والمُعَارُ خبره ، وكذلك الناسُ ابتداء ، وينتجعون خبره ، ومثل هذا فى الكلام قرأتُ الحمدُ لله ربِّ العالمينَ ، إنما حَكَيْتَ ما قرأتَ ، وكذلك قرأتُ على خاتَمِهِ «اللهُ أكبرُ» يا فتى ! فهذا لايجوز سواه .

وقوله : «إذا النكباء ناوحت الشَّمال» فإن الرياح أربع، ونَكْبَاوَاتُها أربعٌ وهى الريح التى تأتى من بين ريحين فتكون بين الشَّمالِ والصَّبَا ، أو الشَّمالِ والدَّبُورِ، أو الجنوب والدَّبور، أو الجَنُوبِ والصَّبَا ، فإذا كانت النَّكْبَاءُ تُنَاوِحُ الشمال ، فهى آية الشتاء ، ومعنى تُنَاوِحُ: تُقابِلُ ، يقال تَنَاوَحَ الشَّجَرُ إذا قابل بعضُهُ بَعْضاً ، وزعم الأصمعى أن النائحة بهذا سُمِّيَتْ ؛ لأنها تقابل صاحبتها .

وقال يحيَى بن نَوْفَلٍ الحِمْيَرِيُّ ، ويقال إنه لم يَمْدَحْ أحداً قط :

فَلَوْ كُنْتَ مُمْتَدِحاً لِلنَّوَالِ   فَتًى لَامْتَدَحْتُ عَلَيْهِ بِلاَلاَ

وَلٰكِنَّنِي لَسْتُ مِمَّنْ يُرِيدُ ... بِمَدْحِ الرِّجَالِ الْكِرَامِ السُّؤَالَا
سَيَكْفِي الْكَرِيمَ إِنَاءُ الْكَرِيمِ ... وَيَقْنَعُ بِالْوُدِّ مِنْهُ نَوَالَا

ومن أحسن ما امْتدحَ به ذو الرُّمَّة بِلالاً قوله :

تَقُولُ عَجُوزٌ مَدْرَجِي مُتَرَوِّحًا ... عَلَى بَيْتِهَا مِنْ عِنْدِ أَهْلِي وَغَادِيَا
أَذُو زَوْجَةٍ بِالْمِصْرِ أَمْ ذُو خُصُومَةٍ ... أَرَاكَ لَهَا بِالْبَصْرَةِ الْعَامَ ثَاوِيَا
فَقُلْتُ لَهَا لَا ! إِنَّ أَهْلِي لَجِيرَةٌ ... لِأَكْثِبَةِ الدَّهْنَا جَمِيعًا وَمَالِيَا

(قوله : لا، لحنٌ وهذا اللحن راجع على المرأة لأن لا لا تقع إلا فى جواب «أو» وإنما سألته «بأم» وهى لم يستقر عندها علم)

وَمَا كُنْتُ مُذْ أَبْصَرْتِنِي فِي خُصُومَةٍ ... أُرَاجِعُ فِيهَا يَا ابْنَةَ الْخَيْرِ قَاضِيَا
وَلٰكِنَّنِي أَقْبَلْتُ مِنْ جَانِبَيْ قَسًا ... أَزُورُ فَتًى نَجْدًا كَرِيمًا يَمَانِيَا
مِنَ آلِ أَبِي مُوسَى تَرَى الْقَوْمَ حَوْلَهُ ... كَأَنَّهُمُ الْكِرْوَانُ أَبْصَرْنَ بَازِيَا
مُرِمِّينَ مِنْ لَيْثٍ عَلَيْهِ مَهَابَةٌ ... تَفَادَى أُسُودُ الْغَابِ مِنْهُ تَفَادِيَا
وَمَا الْخُرْقُ مِنْهُ يَرْهَبُونَ وَلَا الْخَنَى ... عَلَيْهِمْ وَلٰكِنْ هَيْبَةٌ هِيَ مَا هِيَا

قوله «مَدرجى» يقول مُرورى ، فأما قولهم فى المَثَلِ: خَيْرٌ مَنْ دَبَّ ومن دَرَج، فمعناه مَنْ حَيِ ومَنْ ماتَ ، يريدون مَنْ دَبَّ على وجه الأرض ومَنْ دَرَج منها فذهب .

وقوله « أراكَ لهـا بالبصرة العامَ ثاويا » فإنه يقال فى هذا المعنى ثَوَى الرجلُ فهو ثاوٍ يا فتى إذا أقام ، وهى أكثر ، ويقال أَثْوَى فهو مُثْوٍ يا فتى ، وهى أقلُّ من تلك ، قال الأعشى :

أَثْوَى وَقَصَّرَ لَيْلَةً لِيُزَوَّدَا ... فَمَضَى وَأَخْلَفَ مِنْ قُتَيْلَةَ مَوْعِدَا

وقوله «قسًّا» فهو موضع من بلاد بنى تميم، وقوله «لأ كثبة الدهنا» فأ كْثِبَةٌ جمع كَثِيب وهو أقلُّ العدد ، والكثير كُثُبٌ وكُثْبانٌ ، والدَّهْنا من بلاد بنى تميم، ولم أسْمَعْ إلا القصر من أهل العلم والعرب ، وسمعت بَعْدُ من يَرْوى مَدَّها ولا أعرفه ، قال ذو الرمة :

حَنَّتْ إلَى نَعَمِ الدَّهْنَا فَقُلْتُ لَهَا أُمّى هِلاَلاً عَلَى التَّوْفِيقِ وَالرَّشَدِ

يعنى هِلالَ بن أحْوَزَ المازنى وقال جرير: * بَازٍ يُصَعْصِعُ بِالدَّهْنا قَطاً جُونا *
وقوله « كأنهم الكروان أبصرن بازيا » فالكِرْوانُ جماعة كَرَوانٍ ، وهو طائر معروف ، وليس هذا الجمعُ لهذا الاسم بكماله ولكنه على حذف الزيادة ، فالتقدير كرًا وكِرْوانٌ، كما تقول أخٌ وإخْوانٌ، ووَرَلٌ ووِرْلانٌ، وبَرَقٌ وبِرْقانٌ، والبَرَقُ أعجميٌّ ولكنه قد أعْرِبَ وجُمِعَ كما تُجْمَعُ العربية، واستعمل الكَرَوانُ جمعاً على حذف الزيادة واسْتُعْمِلَ فى الواحد كذلك تقول العرب فى مَثَلٍ من أمثالها :

أَطْرِقْ كَرَا أَطْرِقْ كَرَا إنَّ النَّعامَ فى القُرَى

يريدون الكَرَوانَ ، وقوله « من آل أبى موسى ترى القوم حوله » فقال ترَى ولم يقل تَرَيْنَ ، وكانت المخاطَبَةُ أوَّلاً لأمرأة ألا تراه يقول:

وَمَا كُنْتُ مُذْ أبْصَرْتِنى فى خُصُومَةٍ أُرَاجِعُ فِيهَا يَا ابْنَةَ الْخَيْرِ قَاضِيَا

ثم حوَّلَ المخاطَبَةَ إلى رجل ، والعرب تفعل ذلك ، قال الله عزَّ وجل « حَتَّى إذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ » فكأنَّ التقدير - والله أعلم - كان للناس، ثم حُوِّلَتِ المخاطبةُ إلى النبى صلى الله عليه وسلم[1] . قال عَنْتَرَةُ بن شَدَّادَ :

---

(١) هذا خطأ من المبرد ، وإنما الخطاب للناس لا إلى النبى .

شَطَّتْ مَزَارَ الْعَاشِقِينَ فَأَصْبَحَتْ　　عَسِرًا عَلَيَّ طِلَابُكِ ابْنَةَ مَخْرَمِ

وقال جرير :

مَا لِلْمَنَازِلِ لَا تُجِيبُ حَزِينَا　　أَصَمِمْنَ أَمْ قَدُمَ الْمَدَى فَبَلِينَا

وَتَرَى الْعَوَاذِلَ يَبْتَدِرْنَ مَلَامَتِي　　وَإِذَا أَرَدْنَ سِوَى هَوَاكِ عُصِينَا

قال أولاً لرجل ، ثم قال سوى هواكِ ، وقال آخر :

فِدًى لَكَ وَالِدِي وَسَرَاةُ قَوْمِي　　وَمَالِي إِنَّهُ مِنْـــهُ أَتَانِي

على تحويل المخاطبة ، وقوله « مُرِمِّينَ » يريد سُكوتاً مُطرِقين ، يقال أَرَمَّ إذا أطْرَقَ ساكتاً .

وقوله « تَفَادَى أُسودُ الغاب » معناه تفتدى منه بعضها ببعض ، وفى الخبر أن سليمان بن عبد المَلِكِ أمر بدفع عيال الحَجَّاجِ ولُحْمتِهِ إلى يَزِيدَ بن المُهَلَّبِ فتفادَى منهم ، تأويله فَدَى نفسَهُ من ذلك المقام بغيره ، وقوله :

وَمَا الْخُرْقُ مِنْهُ يَرْهَبُونَ وَلَا الْخَنَى　　عَلَيْهِمْ وَلٰكِنْ هَيْبَةٌ هِيَ مَاهِيَا

إذا رفعت هيبة فالمعنى ولكن أمره هيبة ، كما قال الله عز وجل « لَمْ يَلْبَثُوا إلا ساعةً من نهار بَلاغٌ » أى ذلك بلاغ ومثله قوله عز وجل « طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ » يكون رفعُهُ على ضربين أحدهما أمْرُنا طاعةٌ وقولٌ معروف ، والوجه الآخر طاعةٌ وقولٌ معروف أمْثَلُ ، ومن نصب هيبة أراد المصدر أى ولكن يُهابُ هَيبةً وأحسن ما قيل فى هذا المعنى :

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ　　فَمَا يُكَلَّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ

وقال الفَرَزْدَقُ يعنى يَزِيدَ بن المهلب :

فَإِذَا الرِّجَالُ رَأَوْا يَزِيدَ رَأَيْتَهُمْ　　خُضُعَ الرِّقَابِ نَوَاكِسَ الْأَبْصَارِ

وفى هذا البيت شىء يستطرفه النحويون ، وهو أنهم لايجمعون ما كان من فاعل نعتاً على فَوَاعِلَ ، لئلا يلتبس بالمؤنث لايقولون ضارِب وضَوَارب وقاتِلٌ وقواتِلُ ، لأنهم يقولون فى جمع ضاربةٍ ضوارب وقاتِلةٍ قواتل ، لم يأت ذلك إلا فى حرفين أحدهما فى جمع فارسٍ فَوَارِسُ ، لأن هذا مما لا يستعملُ فى النساء فَأَمِنُوا الالتباسَ ، ويقولون فى المثل : هو هالِكٌ فى الهوالِكِ ، فَأَجْرَوْهُ على أصله لكثرة الاستعمال لأنه مَثَلٌ فلما احتاج الفرزدق لضرورة الشعر أجراه على أصله فقال نواكس الأبصار ولا يكون مثل هذا أبداً إلا فى ضرورة .

انتهى الجزء الأول

ويليـــه

الجزء الثانى

[الفهرس الكامل لجميع أجزاء الكتاب فى آخر الجزء الثالث]